كشف اللثام عن تصوف المظلل بالغمام

صلى الله عليه وآله وسلم

تأليف

الدكتور / محمد سيد سلطان

من علماء الأزهر الشريف





كشف اللثام عن تصوف المظلل بالغمام

صلى الله عليه وآله وسلم

بحوث في تأصيل التصوف من الكتاب والسنة

إعـــداد

العبد الفقير

الدكتور محمد سيد سلطان عبد الرحيم

المدرس بجامعة الأزهر والجامع الأزهر الشريف

الناشر

دار جوامع الكلم

١٧ شارع الشيخ صالح الجعفرى ـ الدراسة ـ القاهرة

تليفون ، ٢٥٨٩٨٠٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشـر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد
خير خلق الله أجمعين وعلى آله وصحبه الطيبين

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

« ١٢٥ : النحل »

اختلف الناس في التصوف والمتصوفين لفظا ومعنى ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ووفقه إلى طريق الحق والقول بالصدق .

وهكذا اختلط الأمر على نقاد التصوف وتدخل فى الأمر كل من لا يفهم وليس له مكان لا فى العير ولا فى النفير وكل جاهل أو حقود أو موتور أو صاحب مصلحة واللعنة على حب المال الذى يغير الذمم والأخلاق ويؤدى إلى الكذب والنفاق .

وهكذا كل ما هو حق وكل ما هو صدق وكل ما هو نور وهدى يختلف الناس حوله بين مصدق ومتبع ومكذب ومبتعد وبين حاقد يعرف الحق ولكن لأسباب الطمع يهاجم ولكن بأسلحة فاسدة سوف يظهر على مدى الأيام عوارها وزيفها أو عدم نفعها .

وحسبك ماجاء به رسول الحق وعلم الهدى بالضياء والنور المبين والقرآن الشافى لما فى الصدور ، وقد أنزل عليه القرآن المجيد واضح

البينات ظاهر الآيات المنزل على العرب العرباء ولكن عيون الخفافيش التى لا ترى إلا فى الظلام أنكرت ثم أشركت .

أقول اختلف الناس فى التصوف وفى المتصوفين هناك من جهل اللفظ .. لفظ التصوف الحقيقى وعلى ما يدل وهناك من جهل المعنى المدلول عليه جهلوا لغتهم ولم يعرفوا أسرارها - انظر مثلا لفظ (عين) إلى ما تدل .. قد تكون هى العين الباصرة وقد تكون عين الماء وقد يكون الذهب وحتى الجاسوس يدعى عينا ، وهذا ما يسميه البلاغيون الاشتراك اللفظى .فاللفظ المنطوق واحد والمعانى مختلفة .

انظر معى أيضا إلى لفظ السيف والحسام والمهند إلى آخره تجد الألفاظ مختلفة أما المعنى فواحد - وهذا ما يسميه أهل البلاغة بالترادف.

ما لم تكن تعلم أسرار اللغة فلا تحكم على شىء .. ومن هنا طلب من مفسر القرآن الكريم أن يكون ملما بأكثر من عشرات العلوم المتصلة بالشريعة والحقيقة وغيرهما .

أقول كل هذا لأن بعض الناس اهتموا باللفظ ولم يعلموا ما يدل عليه اللفظ بالضبط ..

إذا كان اسم التصوف من معانيه صفاء النفس التى هى ما يهم الإنسان الحقيقى والارتقاء بالروح التى هى الجزء الأسمى فى الإنسان فهل يكون هناك أصفى ولا أنقى من قلب رسول الإنسانية وهادى البشرية وهل يكون هناك أيضا أرقى من روحه ..

وهيا بنا لنثبت فى هذا الكتاب أن كل الأقوال بل والمقصود الأسمى

هو الأفعال . أقوال وأفعال الصوفية ظاهرها وباطنها مستوحاة من مشكاة أنوار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تلك التى أشرقت عليه من نور ربه فكان ما أنزل عليه من كتاب رب العالمين القرآن المجيد .

فقد كان خلقه صلى الله عليه وآله وسلم هو القرآن الكريم ..

يقول سيدى صاحب الإحياء (الإمام أبو حامد الغزالى) فى كتابه المنقذ من الضلال طبعة مكتبة الجندى ص ٤٩ ما نصه :

(لقد علمت يقيناً أن الصوفية هم السابقون لطريق الله تعالى وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

لقد جاء الدين الإسلامى هاديا للناس فى دنياهم وما ينفعهم فيها وما يجب عليهم حتى تمضى حياتهم فى سلام وأمان ويكون الجزاء الأوفى فى أخراهم .

جاء بالتوحيد الذى أهم أركانه لا إله إلا الله محمد رسول الله ..

وهذا هو علم التوحيد أو ما يسمونه بعلم الكلام ..

وقد قام به الأشعرى والماتريدى وزملاؤهما رحمهم الله تعالى ..

ثم كان لابد من علم الفقه عبادات ومعاملات وتبحر فيه الأئمة الأربعة رضى الله تعالى عنهم أبو حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل رضى الله عنهم .

ولما كان الدين الإسلامى قائما على الإيمان ثم الأركان كان من أركانه أيضا والتى لا يقوم إلا عليها هو الإحسان إحسان الإيمان فالإيمان كما قال من يعتمد على كلامه يزيد وينقص ومن هنا كان الإحسان وكان التصوف الذروة فى الإخلاص واتصال القلب بالخالق : التربية الظاهرة والباطنة - المراقبة - المحاسبة - التوبة - الإنابة - الذكر - الفكر - المحبة - التوكل - الرضا - التسليم - الزهد - الصبر - الإيثار - الصدق - المجاهدة - مخالفة الهوى والنفس - النفس اللوامة - النفس المطمئنة ..

هذه هى الأخلاق التى دعا إليها الله تعالى والتى التزمها رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فلم يتأخر عنها قيد شعرة هى نفس الأخلاق التى دعا إليها التصوف والتزمها الصوفيون الحقيقيون لا الأدعياء الذين أساءوا إلى التصوف ما لم يسئ له أعداؤه الظاهرون .

هذا ما قام عليه بنيان التصوف وأركانه فما قام إلا على أساس من كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فما السادة الصوفيون إلا قوم جاهدوا أنفسهم فهداهم الله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾

ومن ذاق عرف ، ومن حُرم انحرف ..

لقد وُجد التصوف من أول يوم وجد الإسلام بل كان من فعل الرسول قبل نزول الوحى بتحنثه الأيام ذوات العـــدد فى خلوة من الناس .

والتصوف إن لم يكن موجودا بالاسم - وقد ذكرنا أن الألفاظ لا يعتمد عليها من غير معانيها - إلا أن التصوف كان موجودا بحكم الحال والواقع

المُعاش والتطبيق العملى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته الأطهار .

ولا أكون على خطأ إذا ذكرت أن التصوف كان هو الطابع الواضح والمميز لرسل الله كلهم وأنبيائه قبل الإسلام ونبى الإسلام ..

وهيا معى أيها القارئ المسلم لنضىء هذه المقدمة بأقوال بعض العلماء المشهورين والذين اتفق على صدق قولهم مؤيدو الصوفية والمنكرون للتصوف .

الإمام مالك رضى الله تعالى عنه عالم المدينة يقول قولته الشهيرة الصادقة :

(من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق) وهذا ما اتصف به أهل التصوف الحقيقيون.

وقد زعم المنكرون أن التصوف لم يُعرف بين المسلمين إلا بعد انقراض أهل القرون المفضّلة .

وقد رد أهل العلم المحققون على هذه الدعوى الكاذبة بالتحقيق العلمى فقالوا إن عبارة الإمام مالك رواها كبار علماء المذهب المالكى عن الإمام مالك رضى الله تعالى عنه سلفا عن خلف وهى موجودة فى :

١) حاشية العلامة العدوى على شرح الزرقانى على متن العزية فى الفقه المالكى جـ٣/١٩٥.

٢) موجودة فى كتاب : شرح عين العلم للإمام ملا على القارى جـ ٣٣/١ .

٣) وعلى مستوى كبار المؤرخين ذكرها ابن خلدون فى كتاب : شفاء السائل لتهذيب المسائل.

٤) ذكرها الشيخ أحمد زروق فى كتابه قواعد التصوف ص ١٣ قاعدة ٤ .

٥) وذكرها التتائى فى شرحه على ابن رشد ص ٥ ..

أيضا ذكرها الشيخ ميارة فى شرحه على ابن عاشر

وكل هؤلاء لا يطلقون عليهم اسم المتصوفين سوى الشيخ أحمد زروق

وإن كنا قد ذكرنا بعضهم إلا أن من ذكر قول الإمام مالك العدد العديد الذى يخرج عن الحصر .

وهذا رجل ممن يرجع إليه أعداء التصوف رجل عرف الحقيقة فأذاعها .. رجل نظر بعين الإنصاف دار مع الحق حيث دار إنه شيخ الإسلام ابن تيمية يقول فيما يقوله المتصوفون عن الشريعة والطريقة والحقيقة ..

يقول : ... والحقيقة حقيقة الدين ، دين رب العالمين .. هى ما اتفق عليها الأنبياء والمرسلون وإن كان لكل منهم شرعة ومنهاج ، فالشرعة هى الشريعة قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ « المائدة : ٤٨ » .

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۞ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ « الجاثية : ١٨ ، ١٩ » .

والمنهاج هو الطريق ، قال تعالى : ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ۞ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ « الجن : ١٦ ، ١٧ » .

فالشرعة بمنزلة الشريعة للنهر ، والمنهاج هو الطريق الذى سلك فيه ، والغاية المقصودة هى حقيقة الدين ، وهى عبادة الله وحده لا شريك له ، وهى حقيقة دين الإسلام .

وهاهو الشيخ ابن تيمية - رحمه الله تعالى - قد قسم الدين إلى شريعة وطريقة وحقيقة ..

فهل هذا يَعدُّ إحداثا فى الدين بما ليس منه أم هو الفهم الصحيح لدين الإسلام كما فهمه الأئمة الأعلام من قبل الشيخ ابن تيمية ومن بعده .

وعودا على بدء نذكر ما قاله المؤرخ المجمع على صدقه (ابن خلدون) المؤسس الحقيقى لعلم الاجتماع - عند كلامه عن التصوف :

(وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية ، وأصلها العاكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة والعبادة ، وكان ذلك عاما فى الصحابة والسلف ، فلما فشا الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية) « مقدمة ابن خلدون ص ٣٢٨ » .

وإذا تركنا بعض ما قاله أيضا بعض المتقدمين فلنذكر قول علم دينى من أعلام المحدثين العلامة الإمام (محمد أبو زهرة) .

لا أود أن أتعرض لنشأة التصوف فى الإسلام وقبل الإسلام ، ولكنى لا أستطيع أن أقول إن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لم يكن متصوفا ، وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (إن من أمتى محدَّثين ومكلَّمين وإن عمر منهم) رواه البخارى فى صحيحه ..

وفى صحيح مسلم : (لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدَّثون فإن يك فى أمتى أحد فإنه عمر) .

والذى كان يعتقد فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان من أقرب أصحابه إلى الله ، حتى إنه عندما كان ذاهبا إلى العمرة وجَّه إليه القول : (لا تنسنا من دعائك يا أخى) .. « رواه أبو داود والترمذى ولفظه : (أى أخى أشركنا فى دعائك ولا تنسنا) » .

ويقول تعالى وليس بعد قول الله تعالى قول :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

« العنكبوت : ٦٩ »

وما كان أغنانا عن كل ما ذكرناه فقد أوضح سيادة الأستاذ المؤلف وقد زاد وأفاد ولكن أردنا أن يكون لنا ولو نصيب صغير من الثواب فأثبتنا ما أثبتناه كى نضىء ولو شمعة فى هذا الطريق نرجو ثوابها من الهادى إلى طريق الحق وسبيل النور ..

اللهـم يا سامـع النـداء يا مستجيب الدعـاء انفع بهـذا الكتاب كل من قرأه فاستفاد ، وهو - إن شاء الله مستفيد - واجعـل ثوابه لصاحب فكرته وللأستاذ الفاضل مؤلفه ولقرائـه ولكل من بذل فيه جهدا ونحن معهم يا كريم ..

اللهم واجعلنا من الذين يقولون فيفعلون ويفعلون فيخلصون ويخلصون فيُقْبلون .

﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ ..

وسـلام على المرسلين والحمـد لله رب العالمين .

النـاشـر

دار جـوامـع الكلـم

جعلها الله جامعة لخدمة العلم والدين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين حمداً يوافى نعمه ويكافئ مزيده ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس ، وطهرهم تطهيرا، وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلا ، وعلى أصحابه الغر الميامين الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أُنزل معه أولئك هم المفلحون .. وارض اللهمَّ عن التابعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .. وعنا معهم وفيهم بكرمك يا أكرم الأكرمين ..

ثم أما بعد

فهذا كتاب عن التصوف السنى الصحيح الذى يشرف بنسبته إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى كل موضوع تناوله ، وضعت له هذا العنوان الدقيق :

[كشف اللثام عن تصوف المظلل بالغمام صلى الله عليه وآله وسلم]

والفضل فى فكرة هذا الكتاب المبارك ترجع إلى مكتبة ـ دار جوامع الكلم ـ فقد كان لى عظيم الشرف أن وقع اختيارها علىّ فى أن أضع كتاباً أوضح فيه للناس أن أصول علم السلوك (التصوف) مستمدة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه الكريم صل الله عليه وآله وسلم .

والذى دعانى لتلبية طلب هذه الدار الرائدة أمور منها :

١) حاجة الحركة الإسلامية إلى نظرية واضحة عن التصوف الإسلامى تعصم سالكه من الانحراف فى تياره المغالى ، أو فى تياره المعادى على غير بصيرة ، ومن ثم كان الفقه فيه كالفقه فى أمور الشريعة الإسلامية من عبادات ومعاملات وأحوال شخصية .

٢) ندرة الكتاب الصوفى المحرر على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة والمذاهب الفقهية المعروفة ، وذلك لأن كثيرا من كتب التصوف داخلها شىء من الدس والتحريف ، فتوقع القارئ فى حيرة من أمره ، فكان لابد من كتب تضع الأمور فى مواضعها ..

ولعل هذا الكتاب يكون منها بحول الله تعالى وقوته ومشيئته ..

٣) إن كثيرا ممن كتبوا فى علم التصوف جعلوه علما خاصا ، مع أنه العلم الذى يطالب به كل إنسان مسلم ، كصحة القلب ، وتزكية النفس، وتطهيرها من كل مرض باطنى يصيبها ، وغير ذلك من أمور كلها تكليفية فى حق عامة الناس .

٤) ثم إن هذا العلم قد بلى بأناس عادوه، وأخرجوا أتباعه والمشتغلين به من زمرة المسلمين، فحكموا عليهم بالكفر تارة، والزندقة تارة أخرى ، كما ينسبونه إلى البوذية أو المجوسية أو الرهبانية أو الشيعة المغالين ... إلى آخر ما يتقولون ويهرفون بما لا يعرفون ..

فكان لابد من بيان كافٍ شافٍ حول هذا العلم وقضاياه، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيَّ عن بينـة ..

ولقد حاولت فى هذا الكتاب أن أقدم علم السلوك (التصوف) محررًا على ضوء الكتـاب والسنة ، ومـذاهب أهل الحق الذين ساروا على منـهاج رسول الله صلى الله عليـه وآله وسلم فى سلوكـه الذى يتـمثل فى القرآن الكريم ، وذلك لإيمانى أن هذا وحده هو الذى يجب أن يكون ، وأن يصير إليه أمر الناس جميعاً .

فالسير إلى الله تعالى لا يمكن أن يُلْغَى ، بل يجب أن يكون حثيثا، ولكن ينبغى أن يحرر ويدقق ، وتحرر مسائله وقضاياه تحريراً دقيقاً ، فليس الصوفية ولا غيرهم معصومين ، والمعصوم هو الكتاب والسنة ، وقديما قال أكبر أعلام الصوفية فى زمانه أبو سليمان الدارانى ـ رحمه الله تعالى ـ :

« ربما وقعت النكتة من كلام القوم فى قلبى فلا أقبلها إلا بشاهدي عدل من الكتاب والسنة ، لأن الله عز وجل ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة ، ولم يضمنها لى فيما سوى ذلك » ..

ومن هنا ندرك خطأ الصوفى الذى يريد أن يجعل كل حرف قاله صوفى معصوماً ، والذى يريد أن يجعل لكتب الصوفية من العصمة ما للكتاب والسنة .

إن أمثال هؤلاء لا فارق بينهم وبين غلاة اليهود والنصارى الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ﴾ « التوبة : ٣١ » فإذا كان هذا الحكم فى أمثال هؤلاء فكذلك

الحكم فى الذين يرفضون أصل علم التصوف، وما فيه ؛ لمجرد أن وجد خطأ فيه هو أن هؤلاء يجانبون الرأى الصحيح فى هذا الموضوع ؛ فيقابلون خطأ بخطإ ويتصرفون برد فعل انفعالى غير عقلى ولا متزن .

إن علم السلوك (التصوف)علَّم على صدق التوجه إلى الله تعالى بالعبادة والزهد، على مذاهب أهل السنة والجماعة .

قال أبو القاسم القشيرى فى رسالته بعد أن ترجم لبعض أعلام التصوف :

« هذا هو ذكر جماعة من شيوخ هذه الطائفة كان الغرض من ذكرهم فى هذا الموضوع التنبيه على أنهم مجمعون على تعظيم الشريعة ، متصفون بسلوك طرق الرياضة ، مقيمون على متابعة السنة ، غير مخلّين بشيء من آداب الديانة ، متفقون على أن من خلا من المعاملات والمجاهدات ، ولم يبن أمره على أساس الورع والتقوى كان مفتريا على الله تعالى فيما يدعيه مفتونا هلك فى نفسه ، وأهلك من اغتر به ممن ركن إلى أباطيله » .

وقال الشيخ زروق فى قواعده « فغلاة المتصوفة كأهل الأهواء من الأصوليين ، وكالمطعون عليهم من المتفيهقين، يرد قولهم، ويجتنب فعلهم، ولا يترك المذهب الحق الثابت بنسبتهم له،وظهورهم فيه والله تعالى أعلم ».

وقال أيضا : قال ابن فورك رحمه الله تعالى: الغلط فى إدخال ألف كافر بشبهة إسلامه ، ولا الغلط فى إخراج مؤمن واحد بشبهة ظهرت منه.

هذا فى العقائد ، وأما فى الفقه فقال الشيخ زروق فى قواعده :

« ولا تجعلوا لأحد من أهل الظاهر حجة على أهل الباطن ، قلت بل يحثون على أن يجعلوا أهل الظاهر حجة لهم لا عليهم ، إذ كل باطن مجرد عن الظاهر باطل ، والحقيقة ما عقد بالشريعة .. فافهم » .

وقال أيضا : فمن ثَم صح إنكار الفقيه على الصوفى ، ولا يصح إنكار الصوفي على الفقيه ، ولزم الرجوع من التصوف إلى الفقه، والاكتفاء به دونه ، ولم يكف التصوف عن الفقه ، بل لايصح دونه ، ولا يجوز الرجوع منه إليه إلا به ، وإن كان أعلى منه مرتبة ، فهو أسلم وأعم منه مصلحة.

ولذلك قيل : كن فقيها صوفيا ، ولا تكن صوفيا فقيها ..

وصوفى الفقهاء أكمل من فقيه الصوفية وأسلم ، لأن صوفى الفقهاء قد تحقق بالتصوف ، حالا ، وعملا ، وذوقا .

بخلاف فقيه الصوفية فإنه المتمكن من علمه وحاله ، ولا يتم له ذلك إلا بفقه صحيح ، وذوق صريح .

وأما التزامهم بالكتاب والسنة ، وحرصهم على المتابعة فقد قال الشيخ زروق : ففروعهم راجعة لاتباع السنة ، والتسليم للحكم بملاحظة الحكمة .

« قوم أثبتوا المعانى ، وحققوا المبانى ، وأخذوا الإشارة من ظاهر اللفظ وباطن المعنى ، وهم الصوفية المحققون ، والأئمة المدققون ، لا الباطنية ، الذين حملوا الكل على الإشارة، فهم لم يثبتوا المعنى فخرجوا عن الملة ، ورفضوا الدين كله.. نسأل الله تعالى العافية بمنه » ..

هذا ونسأل الله تعالى أن يجعل النفع بهذا الكتاب عاماً ، وأن يجعله حيثما حل رحمة لعباده، وبركة فى بلاده ، وأن يحميه من كل جاهل

يتحامل ، أو حاسد يعرف الحق ويتجاهل .. كما نسأله أن يطهر أعمالنا من الرياء ، ويطهر قلوبنا من النفاق ، ويطهر ألسنتنا من الكذب إنه ولى ذلك والقادر عليه .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم فى كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله ..

العبد الفقير

محمد سيد سلطان عبد الرحيم

خادم العلم الشريف والتصوف الصحيح

بنى عدى فى ١٧من جمادى الأولى ١٤٣١هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـد

في بيان نشأة التصوف الإسلامي وتدرجه

الدين والتصوف :

لعله من نافلة القول أن نشير إلى الصلة الوثيقة بين الدين وبين التصوف ؛ إذ كان المصدر الذى ينبعان منه مصدراً واحداً ، هو التعرف على الله والإيمان به ، والتقرب إليه بالعبادات والطاعات، ومجاهدة النفس ومغالبة الهوى؛ فالدين عقيدة وعمل ، والتصوف عقيدة وعمل ، ولا خلاف بينهما فى مناط العقيدة ، وإن اختلفا فى بعض جوانب العمل، ومع هذا فإن الغاية والمتجه واحد .. كلاهما يتجه إلى الله تعالى ، ويسعى إلى مرضاته جل جلاله وتعالت عظمته ..

وغاية ما بين الدين والتصوف من فرق هو الاختلاف فى الوسيلة ؛ إذ الدين يغلب عمل الجوارح فى حين لا يغفل مراقبة القلب.. بينما يغلب المتصوف مراقبة القلب على حين لا يغفل عمل الجوارح فرق فى الشكل لاغير ..

إذن فالتصوف هو الدين، أو صورة مشرقة من صور الدين تغلب فيه عناصر الروح على كثافة المادة ، ويتولى فيه القلب مكان القيادة ، بل مكان العقل فى أغلب الأوقات ..

الدين فطرة :

يقع الإيمان فى قلب المؤمنين عن فطرة سليمة ، تلك التى أشار إليها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾[١] .

والتى قررها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه البخارى وغيره عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء[٢] هل تحسون فيها من جدعاء[٣] ،؟ ثم يقول أبو هريرة : واقرأوا إن شئتم ﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** ﴾..

وفى الحديث القدسى الذى يرويه النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن ربه عز وجل أنه قال : « إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم »[٤].

وهذه الفطرة عند كثير من المفسرين هى الميثاق الذى أخذه الله بربوبيته على بنى آدم قبل أن يوجدوا ، وهم فى عالم الذر .. قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا**

---

(١) الروم : ٣٠ . (٢) أى كاملة الخلقة .

(٣) أى ناقصة الأنف أو الأذن أو هل ترون فى ولد البهيمة حينما تلده نقصا ؟ كذلك يولد الإنسان على الفطرة .

(٤) رواه الإمام مسلم فى صحيحه .

غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (١).

ثم جاء رسل الله - عليهم السلام - فأكدوا هذا الإيمان ، ووثقوه؛ فاستقام المؤمنون على إيمانهم ، ورضوا بالله رباً ، وبالتوحيد ديناً ذلك هو الدين الخالص والإيمان الحق ..

ومع هذا فإن هذا الدين يقع فى نفوس المؤمنين على درجات متفاوتة أشد التفاوت ، منه القوى الراسخ ، ومنه الهزيل الضعيف، وبين هذا وذاك درجات ودرجات ..

والمؤمن فى أقوى درجات الإيمان ، وإن استسلم عقله يظل قلبه دائماً متشوقاً إلى مواطن الاطمئنان الذى يجد معه برد السكينة واليقين.. إنه مع إيمانه القوى الراسخ فى حاجة إلى نفحة من نفحات السماء تقطع الطريق على نزعات النفس ، ووساوس الشيطان .

وقد أرانا الله تعالى المثل فى خليله سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وهو من هو فى إيمانه ويقينه الكامل ؛ إذ قال إبراهيم مخاطباً ربه ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾(٢) .. فاطمئنان القلب شيء أقوى من الإيمان ، وأبلغ منه وسيدنا موسى - عليه السلام - يقف هذا الموقف إذ يقول: ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾(٣) وما ذاك إلا ليملأ قلبه طمأنينة لا يطوف بعدها طائف من شك!

---

(١) الأعراف ١٧٢ ، ١٧٣.   (٢) البقرة: ٢٦٠ .

(٣) الأعراف ١٤٣.

التصوف فطرة أيضـا :

وإذا كـان أنبيـاء الله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ قد وجدوا الطريق مفتوحاً إلى رضوان الله تعالى فسألوا وأُعطوا سؤلهم بما اطمأنت به قلوبهم ورضيت عنه نفوسهم .. فإن غير الأنبياء ـ وهم أشد حاجة إلى اليقين وطمأنينة القلب ـ ليس بين أيديهم سبيل إلى هذا الطريق المباشر ؛ فكان لابد أن يلتمسوا لهم طريقا آخر يبلغ بهم بعض هذه الغاية ، أو يدنيهم منها والعبادة الخالصة ، والتخفف من أثقال الحيـاة والانصراف عن زخارف الدنيـا هو الذى يخلى القلب من كل ما يعوق سيره فى الاتجاه إلى الله تعالى، والاتصال برضاه ورحمته ، وهذه تجربة ناجحة تحققت نتائجها الباهرة فى قلب كل من سلك هذا الطريق القويم فى إخلاص وجدٍّ وعزم وصبر ، اهتدى الناس بفطرتهم، واستدلوا عليها بمنزع أشواقهم ..

فكان ذلك طريقا سلكه المريدون ، وأخذوا أنفسهم بما ينبغى لسالكيه أن يأخذوا أنفسهم به من عبادة وزهد وإخلاص وصبر ورضا ومحبة .. إلى آخر ما هو معلوم فى طريق أهـل الله تعالى ، فذلك هو الزاد لكل مرتـاد.. ﴿ وتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾(١).

سمِّ حصيلة هذا الزاد ما شئت من تسمية .. سمه تصوفاً ، أو زهداً ، أو مجاهدة ، أو إحسانا ، أو غير ذلك مما لا يخرج من هذا المعنى الذى تجتمع إليه حصيلة هذا الزاد الروحى ، فإنه لا مشاحة فى الاصطلاح ، ولا عبرة باختلاف الأسماء للمسمّى الواحد إذا التقت عند مضمونه .

فالتصوف الذى عرف بهذا الاسم فى القرن الثانى للإسلام ليس شيئا

---

(١) البقرة : ١٩٧ .

حادثا فى هذه الملة ، وإنما كان الخلفاء الراشدون ، وصحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ ورضى الله تعالى عنهم أجمعين ـ هم الذين حققوا معنى التصوف فى أنبل صورة وأكرمها.

يقول ابن خلدون فى مقدمته : « وهذا العلم ـ يعنى التصوف ـ من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة ، وأصلُه أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ـ ومن بعدهم ـ طريقَة الحق والهداية ، وأصلها العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله تعالىٰ ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق والخلوة للعبادة ، وكان ذلك عامًا فى الصحابة والسلف ، فلما فشا الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية »[1] .

يفهم من هذا النص ـ عند أهل العلم المنصفين ـ أن التصوف كان موجوداً عند كبار الصحابة والتابعين برسمه ، وإن غاب اسمه ، وبحقيقته وفعله ، وإن غاب لفظه .

ويقول العلامة أحمد علوش : « قد يتساءل الكثيرون عن السبب فى عدم انتشار الدعوة إلى التصوف فى صدر الإسلام ، وعدم ظهور هذه الدعوة إلا بعد عهد الصحابة والتابعين .

والجواب عن هذا : أنه لم تكن من حاجة إليها فى العصر الأول ، لأن أهل هذا العصر كانوا أهل تقوى وورع وأرباب مجاهدة ، وإقبال على

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٢٩ .

العبادة لطبيعتهم ، وبحكم اتصالهم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكانوا يتسابقون ويتبارون فى الاقتداء به فى ذلك كله ، فلم يكن ثمت ما يدعو إلى تلقينهم علما يرشدهم إلى أمر هم به قائمون فعلا.. إلى أن يقول : فالصحابة والتابعون ــ وإن لم يتسموا باسم المتصوفين ـ كانوا صوفية فعلاً [١].

وأكثر من هذا فإن التصوف بهذا المعنى قد صحب الإنسانية منذ كان لها دين .. بل إن التصوف هو الذى مهد لها السبيل إلى الإيمان ، وزينه فى قلبها ، ومكن له فى ضميرها ..

يقول الفيلسوف « إقبال » فى كتابه « تجديد الفكر الدينى فى الإسلام » « وفى الكتب المنزلة ، والمؤلفات الصوفية للجنس البشرى دلالة كافية على أن الرياضة الدينية صاحبت الإنسانية ؛ منذ أقدم العصور ، وتغلغل سلطانها فى تاريخ البشريـة .. » .

هذه نظرة مجملة إلى التصوف كظاهرة من ظواهر النشاط الإنسانى وكثمرة من ثمرات الفطرة الإنسانية فليس غريبا بعد هذا أن يظهر التصوف فى المجتمع الإسلامى ، وأن يأخذ جانبـا من تفكير الجماعة الإسلامية، ويضم تحت جناحه أعداداً كثيرة من أبنائها [٢] .

أصل التصوف في الإسلام :

عرفنـا أن التصوف فطرة قائمة فى النفس الإنسانية شأنه فى هذا شأن التدين ، إذ كانت نشأتهما واحدة ، وغايتهما واحدة ، وكان كل منهما مكملا

---

(١) ينظر حقائق عن التصوف ـ الشيخ عبد القادر عيسى ص ١٩ .

(٢) نشأة التصوف للأستاذ / عبد الكريم الخطيب ص ١٣، ١٤ .

للآخر ، ومدعمًا له ، فالدين إن خلا من التصوف جفت أصوله وذوت أغصانه ، وعطبت ثمراته ، والتصوف بغير دين سحاب جهام لا مطر معه ، وسراب خادع يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا .

وقد عُرف فى الجاهلية جماعات فكروا فى الحياة الآخرة، ودانوا بها ثم كانت لهم مناهج أشبه بالرياضة الصوفية ، فعاف بعضهم الخمر وسفّه بعضهم الأصنام والأنداد ، ولزم كثير منهم العبادة والتبتل وأغلق بابه واعتزل الحياة الدنيا ، ويذكر التاريخ من هؤلاء : زيد بن عمرو بن نُفَيْل ، وورقة بن نَوْفَل ، وقُسّ بن ساعدة الأيادى وكثيراً غيرهـم ..

وطبعى أن يجد المسلمون فى ظل الإسلام طريقا واضحا إلى التصوف الذى تتقدح به شرارة الإيمان فى القلوب ، فيملأ جوانب النفس نوراً ، به تستقيم الطريق ، ويعتدل به السلوك .

فقد دعا الإسلام دعوة صريحة إلى السمو بالجانب الروحى من الإنسان ، وتغليبه على مطالب الجسد وشهواته.. يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[1].

فمن شغل نفسه عن ذكر الله ، وصرف قلبه وعقله إلى المال والولد فقد باء بالخسران والخزى فى الدنيا والآخرة ، ومن نظر إلى نفسه فاختار ما عند الله ، ووجه قلبه وعقله إليه ، وشغل جوارحه بمرضاته فقد اتجه الوجهة السليمة ، وسلك الطريق القويم إلى النجاة والسلامة .. يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ

---

(١) المنافقون : ٩ .

هِيَ الْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾[١].

ويرسم الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الصورة الكاملة للإنسان الذى ينشد الكمال الرفيع ، ويطلب الحياة الطيبة .. فيقول : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب »[٢].

فصلاح القلب هو صلاح الكيان الإنسانى كله ، وفساده فساد لهذا الكيان وضياع له ، ولا يصلح القلب إلا إذا خلا من هموم الدنيا ، وتخفف من أثقالها . وهذان الأمران عليهما يقوم التصوف الإسلامى الصحيح : الزهد فى الدنيا ، وصلاح القلب .

فبالزهد فى الدنيا يتفرغ القلب لحب الله تعالى ، وحب نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ والاشتغال بطاعتهما ،وبذلك ينصلح القلب ، ثم تنصلح الجوارح تبعا له بمقتضى تقريره صلى الله عليه وآله وسلم ..

هذه التوجيهات التى لفت الإسلام أتباعه إليها هى التى كانت المطلب الأول، بل والأخير لجماعة المسلمين الأولى ..

فكان أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ورضى الله تعالى عنهم أزهد الناس فى الدنيا ، وأكثر الناس إقبالا على الله عز وجل، ومراقبة له ، واشتغالاً بطاعته . ومع هذا فقد اشتغلوا بسياسة الدنيا ، وقاموا على توجيه الحياة ، وقيادة الأمم ، وتدبير مصالح الشعوب التى

---

(١) النازعات : ٣٧ ـ ٤١ .

(٢) رواه الإمام مسلم فى صحيحه من حديث طويل عن أبى سعيد الخدرى

دخلت فى الإسلام ، وإقامة ميزان الحق والعدل فيها .

فالتصوف أو الزهد جانب من الحياة الروحية لكل مسلم وبه يستعين على حفظ توازنه فى هذه الحياة ، فيظل على الطريق المستقيم الذى هو طريق هذه الشريعة .. طريق ينتظم الدين والدنيا جميعًا .

وبهذا المعنى للتصوف نستطيع أن نبدأ تاريخ التصوف فى الإسلام من اليوم الأول لظهور هذا الدين ، وإيمان من آمن به .

فالمسلمون جميعا مطالبون بحكم دينهم أن يكونوا على هذا السَّمْت الذى رأوه فى سيرة الخلفاء الراشدين ،والصحابة والتابعين ممن وسعت نفوسهم تعاليم هذا الدين ، فاستقامت عليه مصالح الدنيا ؛ فقامت عليها وأخذت كلا من الدنيا والدين من غير إفراط ولا تفريط[١] .

تاريخ التصوف :

أراد الصوفية أن يكونوا على جادة الحق ، وعلو الهمة فى عبادتهم متشبهين فى ذلك بأصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الذين كانوا يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، فطلبوا مولاهم لذاته ومن عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل .. كما قالوا ، ونظروا إلى الجنة على أنها هدية ، وإن عظمت فمُهديها أعظم منها ؛ وقد قال الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه : « لو لم يخلق الله جنة ولا ناراً أما كان يستحق العبادة » .. وهو القائل سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[٢] .

---

(١) نشأة التصوف ١٥ ، ١٦ .

(٢) الذاريات : ٥٦ .

سيدنا حذيفة بن اليمان وخاصيته :

قد كان لبعض أصحاب النبي صلى الله عليه وآله ، وسلم فلسفة خاصة في العبادة ،ومن أبرزهم في هذا المجال الصحابي الجليل سيدنا حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما الذى قيل له : « نراك تتكلم كلاما لم نسمعه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .. فمن أين أخذته؟ فقال: خصني به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان الناس يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافلة أن يدركني ، وعلمت أن الخير لا يسبقني، وقال في حديث آخ ، فعلمت أنه من لا يعرف الشر لايعرف الخير » وفي لفظ « كان الناس يقولون : يا رسول الله : ما لمن عمل كذا وكذا؟ يسألونه عن فضائل الأعمال ، وكنت أقول : يا رسول اللهما يفسد كذا وكذا فلما رآني أسأل عن آفات الأعمال خصني بهذا العلم »(١) .

وقال أبو طالب المكي : « كان حذيفة قد خُص بعلم المنافقين ، وأُفرد بمعرفة علم النفاق ، وبسرائر العلم ، ودقائق الفهم ، وخفايا اليقين بين الصحابة ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لا يصلى على أحد مات إلا إذا رأى حذيفة يصلى عليه ، لأنه اختص بهذا العلم » .

وقد روى الترمذي بإسناد حسن أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ما حدثكم حذيفة فصدقوه وما أقرأكم عبد الله فاقرأوه » أي خذوا الحديث عن حذيفة والقرآن عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنهما وحشرنا في زمرتهما .. آمين ..

وقد شهد القرآن الكريم بعلم الباطن الذى يعلمه بعض الناس من دون بعض، وذلك عند حديثه عن سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ وفتاه؛ حيث

---

(١) روى هذه الأحاديث البخاري وغيره من المحدثين .

قال حاكيا عنهما عند لقائهما بالخضر عليه السلام : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾[١].

وقد تكونت حول حذيفة بن اليمان مجموعة من الصحابة ، منهم وابصة ابن معبد رضى الله تعالى عنه الذى قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : جئت تسأل عن البر - أى والإثم - ؟ ففى الكلام اكتفاء.

وهذا استفهام تقريرى حذفت همزته أى « أجئت » قلت : نعم وفى بعض الروايات : أنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا أريد ألا أدع شيئا من البر والإثم إلا سألته عنه ، وإذا عنده جمع فذهبت أتخطى الناس ، فقالوا : إليك يا وابصة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - أى تنح عنه - فقلت: دعونى أدْنو منه فقال لى : « ادن يا وابصة » فدنوت حتى مست ركبتاى ركبتيه فقال يا وابصة أخبرك بما جئت تسأل عنه - أو تسألنى ؟ » قلت: بل أنت تحدثنى يارسول الله فهو أحب إلى ، قال: جئت تسأل عن البر والإثم ؟ قلت نعم .. قال : استفت قلبك وفى رواية « نفسك » البر ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك »[٢].

ومن ثَمَّ ، قيل : إن على قلب المؤمن نوراً يتقد ، فإذا ورد عليه الحق الْتقَى هو ونور القلب فامتزجا فاطمأن القلب ، وإذا ورد عليه الباطل نفَرَ نور القلب ولم يمازجه فاضطرب القلب .

وقد قال الإمام أبو حامد الغزالى - رحمه الله تعالى - لم يرد عن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أن كل أحد يستفتى نفسه ، وإنما ذلك لوابصة فى واقعة تخصه ، لأن الله تعالى وهب له نوراً يفرق به بين الحق

---

(١) الكهف : ٦٥ .

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده والدارمى فى مسنده وهو حديث حسن .

والباطل ، فوثق صلى الله عليه وآله وسلم بذلك النور وخاطبه بذلك ، وهذا من جميل عوائده صلى الله عليه وآله وسلم مع صحبه ، فإنه كان يخاطب كلا منهم على حسب حاله ويلحق به كل من شرح الله صدره بنور اليقين ، بحيث يجعل له ملكة الإدراك القلبى ، وقوى على التفرقة بين الوارد الرحماني والوسواس الشيطاني ا. هـ ..

تلميذ سيدنا حذيفة بن اليمان من التابعين :

وعلى يد سيدنا حذيفة بن اليمان رضى الله تعالى عنه تخرج إمام الصوفية الأول سيدنا الحسن البصرى رضى الله تعالى عنه (ت ١١٠هـ) الذى تخرج على يديه أئمة الصوفية الأولين ، مالك بن دينار (ت١٢٧) وثابت البنانى ، وأيوب السختيانى ومحمد ابن واسع ، وهم أعلام التصوف فى القرن الأول، ومطلع القرن الثانى الهجرى .

ترجمة الحسن البصري وصوفيتـه :

الإمام أبو سعيد الحسن بن الحسن بن يسار البصرى رضى الله تعالى عنه وسوف نثبت بالأدلة اعتبار سيدنا الحسن البصرى من الصوفية الأول .

* **فأول هذه الاعتبارات** أن الإمام الحسن البصرى يعد رأس التابعين الذين هم أفضل الأمة بعدالصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، ومن ثم فإن إبراز صوفيـة هذا الإمام هو تأصيل للتصوف الإسلامى فى وجه من يزعمون خروجه عن دائرة الإسلام جهلا به أو تجاهلا لحقيقته. والحق أحق أن يتبـع.

* **وثانى هذه الاعتبارات** أن الإمام الحسن رضى الله تعالى عنه قد استمد مشربه الصوفى من رابع الخلفاء الراشدين سيدنا على رضى الله

تعالى عنه وسنده الصوفى متصل به اتصالا مباشراً ـ كما سيأتى توثيقه بعـد ـ وكذلك أخذه عن سيدنا حذيفة بن اليمان رضى الله تعالى عنهما كما سترى ذلك فى حينه .

ومن ثم يثبت رفع الإسناد الصوفى متصلا إلى سيد الوجود صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبذلك تندحر دعوى خصوم التصوف القائلين بأنه بدعة لم تكن على عهد السلف الصالـح .

* **وثالث هذه الاعتبارات :** أن الإمام الحسن كان أول من تكلم فى علم التصوف ، واستعمل هذا المصطلح العلمى الذى يزعم خصوم التصوف أنه مبتدع ولم يكن مستعملَا على عهد السلف الصالح .

ومن ثم يتحقق توثيق تسمية الصوفية أيضا كما تحقق توثيق معناها وانبثاقه من حقيقة الإسلام ذاته (١) .

ولنبدأ بالتعرف على جوانب من الترجمة الشخصية للإمام الحسن البصرى رضوان الله تعالى عليه .. من حيث اسمه ، ونسبه ، وكنيته ، ولقبه ، ومولده ونشأته ، وصلته بالبيت النبوى .

فأما عن اسمه ونسبه وأسرته : فقد دلت المصادر التاريخية بأنه الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى ، نسبة إلى البصرة بالعراق ، لأن أسرته ـ أصلا ـ كانت تسكن بليدة تدعى (ميسان) بأسفل البصرة بينها وبين واسـط.

وكان والده (يسار) يسمى ـ قبل الإسلام ـ بـ (فيروز) ثم صار

---

(١) أعلام الصوفية للأستاذ الدكتور / جودة المهدى ص ٢٧ وما بعدها .

من سبى (ميسان) هو وزوجه (خيرة) - أم الحسن - لرجل من بنى النجار من الأنصار ثم أُعتق أبوه ، وصارت أمه مولاة للسيدة أم سلمة المخزومية رضى الله تعالى عنها زوج النبى صلى الله عليه واله وسلم وصار هو مولى لسيدنا زيد بن ثابت الأنصارى رضى الله تعالى عنه [١] .

ويذكر الذهبى - من جملة الروايات فى هذا الصدد - أن والد الإمام الحسن قد تزوج بأم الحسن بعد أن سكن المدينة المنورة وأُعتق ، وذلك فى خلافة سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه [٢]

وأما كنية الحسن ولقبه ، فإنه كان يكنى بأبى سعيد ، حيث ولد له سعيد وعبد الله ، كما رزق بنتا ، وكان يلقب بشيخ الإسلام ، كما كان يلقب بإمام أهل البصرة[٣] ، وهو جدير بهذه الألقاب حقيق بها مشهود له بذلك من أهل زمانه.

مولده :

وأما عن مولده : فقد وُلد الإمام الحسن - رضى الله تعالى عنه - فى بيت السيدة أم سلمة رضى الله تعالى عنها زوج النبى صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة المنورة سنة إحدى وعشرين للهجرة النبوية لسنتين بقيتا من خلافة أمير المؤمنين سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه - ويوافق ذلك سنة ٦٤١م -.

---

(١) ينظر سير أعلام النبلاء للذهبى /٤/ ٥٦٤ - ٥٦٥ وكتاب الحسن البصرى للدكتور مصلح بيومى ص ١٤٠

(٢) سير أعلام النبلاء ٥٦٤ - ٥٦٥ .

(٣) تذكرة الحفاظ للذهبى ١١/١ ، شذرات الذهب لابن العماد ١٣٦/١

وهنا تظهر أول معالم العظمة من خلال معرفة موطن ولادة الإمام الحسن وبيئته الخاصة ، حيث ولد فى هذا البيت النبوى الكريم فى أعطاف العناية الإلهية تظلله رعاية أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها ، بل وينال الشرف الأعظم برضاعه منها كما نطقت الروايات الموثّقة[١] . فقد روى الحافظ الذهبىُ عن محمد بن سلام عن أبى عمرو الشعاب بسنده أنه قال : « كانت أم سلمة تبعث أم الحسن فى الحاجة فيبكى وهو طفل فتسكته أم سلمة بثديها ، وتخرجه إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو صغير ، وكانت أمه منقطعة إليها فكانوا يدعون له ، فأخرجته إلى عمر فدعا له وقال : « اللهم فقهه فى الدين وحببه إلى الناس »[٢] .

وقد ذكر هذه الرواية الحافظ أبو نُعَيْم فى حلية الأولياء وعلق عليها قائلا « فكان يقال : إن المبلغ الذى بلغه الحسن من الحكمة من ذلك اللبن الذى شربه من أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وآله وسلم »[٣] .

نشأته المباركة :

أما عن نشأته المباركة وتدرجه فى مراقى الفلاح وتلقيه عن أئمة أجلاء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيقول صاحب تذكرة الحفاظ :

« نشأ بالمدينة ، وحفظ كتاب الله فى خلافة عثمان رضى الله تعالى عنه، وسمعه يخطب مراتٍ ، وكان يوم الدار ابن أربع عشرة سنة ، ثم كبر

---

(١) ينظر أعلام الصوفية ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى ٤/٥٦٤ ، ٥٦٥ .

(٣) حلية الأولياء ٢/١٤٧ .

ولازم الجهاد ، ولازم العلم والعمل ، وكان أحد الشجعان الموصوفين ، يذكر مع قطرىٍّ بين الفجاءة ، وصار كاتبا فى دولة معاوية لوالى خراسان (الربيع بن زياد) ، حدّث عن عثمان وعمر بن حُصيْن ، والمغيرة بن شعبة، وعبد الرحمن بن سمرة ، وسمرة بن جندب ، وجندب البجلى ، وابن عباس وابن عمر ، وأبى بكرة ، وعمرو بن تغلب ، وجابر بن عبد الله وطائفة كثيرة (١) .

لقد نهل الإمام الحسن رضى الله تعالى عنه من ينابيع علوم الصحابة الذين كانوا أوعية العلم والمعرفة ، وحملة الإرث المحمدى .

يروى عنه الحافظ أبو نعيم فى الحلية أنه كان يقول : « والله لقد أدركت سبعين بدريا ، أكثر لباسهم الصوف » (٢) .

وكان الإمام الحسن ممن جمع القرآن الكريم على عهد سيدنا عثمان رضى الله تعالى عنه .. فقد روى الحافظ الذهبى أنه كان يقول : « أنا يوم الدار ابن أربع عشرة سنة جمعت القرآن أنظر إلى طلحة بن عبيد الله »(٣) .

وكان بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم يؤثر الإمام الحسن بالفتيا ويشيد بحفظه للعلم ، فقد روى الحافظ الذهبى عن سيدنا أنس ابن مالك رضى الله تعالى عنه قال : سلوا الحسن ، فإنه حفظ ونسينا(٤) .

كما روى عن سيدنا قتادة التابعى رضى الله تعالى عنه أنه قال :

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبى ٤/٥٦٤ ، ٥٦٥ .
(٢) حلية الأولياء ٢/١٣٤ .
(٣) سير أعلام النبلاء ٤/٥٧٧ .
(٤) المصدر السابق ٤/٥٧٣

« ما جمعت علم الحسن إلى أحد من العلماء إلا وجدت له فضلا عليه »[١].

ولله در محمد بن سعد إذ قال فى طبقاته : كان الحسن رحمه الله تعالى جامعا ، عالما ، رفيعا ، فقيها ، ثقة ، حجة ، مأمونا ، وعابداً ، ناسكا كثير العلم ، فصيحا ، جميلا ، وسيما [٢].

ونجد من معالم عظمة هذا الإمام مزاوجته بين العلم والعمل ، حتى لقد كان على رأس التابعين ، وانعقدت له سيادة أهل زمانه ، فقد سجل الإمام الذهبى هذه السيادة قائلا فى ترجمته « وكان سيد أهل زمانه علما وعملا »[٣].

بل إن جانب العمل كان أرجح عند الإمام الحسن من جانب العلم الذى كان يطاول عنان السماء ، يخبرنا عن ذلك قول ابن العماد: « وقيل ليونس بن عُبَيْد : أتعرف أحدا يعمل بعمل الحسن ؟ قال : والله ما أعرف أحدا يقول بقوله فكيف يعمل بعمله ؟ » ثم وصفه فقال : « كان إذا أقبل فكأنه أقبل من دفن حميمه ، وإذا جلس فكأنه أسير أُمر بضرب عنقه ، وإذا ذكرت النار فكأنها لم تخلق إلا له »[٤].. إنه تجسيد حى لشدة خوفه من ربه وخشيته من عذابه ، مع أنه كان شديد الاجتهاد فى طاعة الله تعالى وعبادته ، إذ يقول الإمام المناوى فى ترجمته « ثم صار من رؤوس العباد الأخيار ، صلى الغداة يعنى الصبح بوضوء العشاء أربعين سنة »[٥].

---

(١) المصدر السابق ٤/٥٧٣ .

(٢) المصدر السابق ٤/٥٧٢ .

(٣) المصدر السابق ٤/٥٦٥ .

(٤) شذرات الذهب لابن العماد : ١/١٣٨ .

(٥) الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية ١/١٨١ .

لقد كان كبار التابعين يشبهونه بالصحابة ، إذ يروى الذهبى عن على ابن زيد أنه قال : سمعت من ابن المسيب وعروة والقاسم وغيرهم : « ما رأيت مثل الحسن ، ولو أدرك الصحابة وله مثل أسنانهم ما تقدموه »[١].

وعن أبى بردة رضى الله عنه أنه قال : « ما رأيت أحداً أشبه بأصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم منه »[٢].

ومع ذلك كان الإمام الحسن قمة فى التواضع واستقلال قدره بالنسبة للصحابة رضى الله تعالى عنهم ، حتى إنه كان يقول : لقد أدركت أقواما ما أنا عندهم إلا لص »[٣].

لقد كان يرقب الصفوة الذين رباهم النبى صلى الله عليه وآله وسلم على عينه فكانوا مثلا عليا فى العبادة وطرح الدنيا وراء ظهورهم ، فكان يقول ، أدركت أقواما : ما طوى لأحدهم فى بيته ثوب قط ، ولا أمر فى بيته بصنعة طعام قط ، وما جعل بينه وبين الأرض شيئا قط »[٤].

إثبات صوفية الإمام الحسن البصري :

وهنا لابد من وقفة لإثبات صوفية الإمام الحسن البصرى رضى الله تعالى عنه وتأصيلها علميا ، لأنه يعد حلقة الاتصال بين الصحابة وبين التابعين لهم بإحسان ، بالنسبة للصوفية جمعاء وذلك فى مواجهة الذى يطرحون هذا التساؤل ـ متشككين ..

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥٧٤/٤ .

(٢) المصدر السابق ٥٧٢/٤ .

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزى ٢٣٤/٣ .

(٤) الكواكب الدرية للمناوى ١٨٣/١ ، ١٨٤ .

● **هل كان الإمام الحسن البصري صوفيا ؟**

وللإجابة على هذا التساؤل نقول ـ بكل التحقيق اليقيني ـ نعم لقد كان الإمام الحسن إماما من كبار أئمة الصوفية على عهد التابعين رضى الله تعالى عنهم ، ولتوثيق ذلك نسوق هذه الأدلة والحجج والشواهد[(١)] .

● **أما أولا :** فقد صرح جمع كبير من أكابر العارفين بالله تعالى بأن الإمام الحسن البصرى معدود من أئمة الصوفية ، أهل الطريق إلى الله تعالى ، ومن ذلك ما ذكره الإمام المناوى فى ترجمة الإمام الحسن ضمن تراجم السادة الصوفية إذ قال : وقال ابن عربى رضى الله تعالى عنه : « الحسن عندنا من أئمة أهل طريق الله جل جلاله ومن أهل الأسرار والإشارات »[(٢)]. كما عرض تاج الدين الكلاباذى اسم الحسن تحت عنوان (فى رجال الصوفية)[(٣)] .

● **وثانيا :** أن مؤرخى التصوف الإسلامى ، ومصنفى طبقات الأولياء قد أفردوه بالترجمة وتناولوا مناقبه فى مصنفاتهم ومناقبهم على أنه أحد أعلام الأئمة الصوفيين ، نجد ذلك فى (حلية الأوليـاء) لأبى نعيم و(صفة الصفوة) لابن الجوزى و (الطبقات الكبرى) للشعرانى و (الكواكب الدرية) للإمام المناوى وغير ذلك .

● **وثالثـا :** تقرير الحفاظ الأثبات من رءوس السلفية ـ كالإمام ابن الجوزى والحافظ الذهبى لصوفية الإمام الحسن ، وتناقل الروايات الدالة على ذلك فى مصنفاتهم فها هو ذا الحافظ الذهبى يقول فى ترجمة الحسن

---

(١) ينظر أعلام الصوفية للدكتور جودة المهدى ص ٣٢ وما بعدها .

(٢) الكواكب الدرية للمناوى د. عبد الحميد صالح حمدان ١/ ١٨١

(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف (الباب الثانى) .

البصرى من كتابه القيم [سير أعلام النبلاء] (وقال أبو سعيد بن الأعرابى فى ، طبقات النساك ، : كان عامة من ذكرنا من النساك يأتون الحسن ، ويسمعون كلامه ، ويذعنون له بالفقه فى هذه المعانى خاصة ، وكان عمرو بن عبيد ، وعبد الواحد بن زيد من الملازمين له ، وكان له مجلس خاص فى منزله لا يكاد يتكلم فيه إلا فى معانى الزهد والنسك وعلوم الباطن ، فإن سأله إنسان غيرها تبرم به ، وقال إنما خلونا مع إخواننا نتذاكر .

فأما حلقته فى المسجد فكان يمر فيها الحديث والفقه ، وعلم القرآن واللغة وسائر العلوم . وكان ربما يُسأل عن التصوف فيجيب وكان منهم من يصحبه للحديث ومنهم من يصحبه للقرآن والبيان ، ومنهم من يصحبه للبلاغة ، ومنهم من يصحبه للإخلاص وعلم الخصوص كعمرو بن عبيد ، وأبى جُهير ، وعبد الواحد بن زيد، وصالح المرى ، وشميط، وأبى عبيدة الناجى ، وكل واحد من هؤلاء اشتهر بحال ـ يعنى فى العبادة) [1] .

فهل ترى ـ أيها المنصف ـ بعد ذلك التجسيد الحى لجانب التصوف عند الإمام الحسن ـ ولا سيما من تقرير الحافظ الذهبى ـ مجالا للشك فى اعتداد سيد التابعين من أعلام الصوفية الواصلين ؟؟

● **ثم رابعًا :** روى الحافظان الذهبى والمناوى عن سيدنا قتادة (التابعى) رضى الله تعالى عنه أن الإمام الحسن كان فى عصره من السبعة الذين هم على قدم خليل الرحمن ـ عليه السلام ـ بهم يغاث الناس، وبهم يُسقَوْن وينصرون ، وهؤلاء هم المعروفون عند الصوفية بالأبدال.. قال

---

(١) ينظر للاستزادة سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٧٩ .

قتادة (يقال : ما خلت الأرض قط من سبعة رهط بهم يسقون وبهم يدفع عنهم ، وإنى لأرجو أن يكون الحسن أحد السبعة) [١].

وروى الطبرانى فى الأوسط عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لن تخلو الأرض من أربعين رجلا مثل خليل الرحمن فبهم تسقون وبهم تنتصرون ، ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر).

قال قتادة : لسنا نشك أن الحسن منهم ، قال الحافظ أبو الحسن الهيثمى فى (مجمع الزوائد) إسناده حسن[٢].

وللتوفيق بين الحديث والأثر يقول أحد العلماء المعاصرين : إن الأبدال أربعون رجلا ورؤساؤهم سبعة ، ويستمدون من المشرب الذى ينهل منه خليل الرحمن من حضرة النبى صلى الله عليه وآله وسلم [٣].

● **وخامسا :** أن الإمام الحسن يُعَدُّ عند الأئمة من علماء الصوفية ـ أول من تكلم فى علم التصوف ومهد سبيله وفتق الألسنة به ، ونطق بما فيه ، وأظهر أنواره وكشف قناعه ، وكان يتكلم بكلام لم يسمعوه من أحدٍ من إخوانه ، فقيل له : يا أبا سعيد : إنك تتكلم فى هذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد من غيرك ، فممنْ أخذت هذا العلم ؟ فقال : من حذيفة ابن اليمان رضى الله تعالى عنهما ـ هكذا صرح الإمام أبو طالب المكى

---

(١) المصدر السابق ٥٧٤/٤ وهذا الحديث أخرجه الإمام أحمد فى (الزهد) والخلال فى (كرامات الأولياء) عن ابن عباس ، قال الحافظ السيوطى : سنده صحيح على شرط الشيخين ، وهذا له أيضا حكم الرفع ا. هـ

(٢) الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال للحافظ السيوطى ص ١١، ١٢ ت الحافظ عبد الله الغمارى ، وينظر فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوى ٣٠٠/٥ .

(٣) أعلام الصوفية للدكتور جودة المهدى ، ٣٤ .

رضى الله تعالى عنه ت ٣٨٦ هـ ، وقال فى كتابه (قوت القلوب) الذى هو من أعظم مصادر التصوف : « .. والحسن البصرى هو إمامنا فى هذا العلم الذى نتكلم به ، أثره نقفوا ، وسبيله نتبع ، ومن مشكاته نستضىء وأخذنا ذلك بإذن الله تعالى من إمام عن إمام إلى أن ينتهى ذلك إليه ، وكان من خيار التابعين بإحسان »[1].

أول من أثر عنه استعمال لفظ (صوفى):

ثم إن الإمام الحسن قد أثر عنه استعمال لفظ (صوفى) كمصطلح علمى وكتسمية تنازع الناس فى تأصيلها ، وتنطع المتنطعون بزعم أنها لم تعرف على عهد السلف الصالح ، واتخذوا من ذلك ذريعة لإنكار التصوف والصوفية ، وهذه مجازفة لا تمت إلى العلم والإنصاف بصلة مع أن الإمام الحسن البصرى ، الذى عاش جُلَّ عمره فى القرن الأول ، وعاصر وشافه كبار الصحابة العظام رضى الله تعالى عنهم أجمعين .. روى عنه صاحب (عوارف المعارف) أنه قال : (رأيت صوفيا فى الطواف ، فأعطيته شيئا فلم يأخذه ، وقال : معى أربعة دوانيق فيكفينى ما معى)[2].

ومن ثَمَّ يتأصل استعمال لفظ الصوفى على عهد السلف الصالح رضى الله تعالى عنهم. ولقد ربط الإمام الحسن بين مظهر الصوفى - المتمثل فى لبس الصوف - وبين حقيقته الباطنة حيث قال : (ما كل الناس يصلح للبس الصوف ؛ لأنه يطلب صفاء ومراقبة)[3].

---

(١) قوت القلوب ١/ ٣٠٤ ، ٣٠٥ .

(٢) عوارف المعارف للسهروردى ص ٤٨ .

(٣) الكواكب الدرية ١/ ١٨٥ .

وقيل له ذات يوم : ما سبب لبسك الصوف ؟ فسكت ، فقيل له : ألا تجيب؟ قال : (إن قلت : زهدًا ، زكيت نفسي أو فقرًا أو ضيقًا شكوت ربى)(١) . أجل إنه مشرب الصوفية الأطهار . إنكار للذات، وهضم للنفس وأدب مع الله تعالى .

وهكذا يمكن من تتبع منهج الإمام الحسن أن نجد عنده أصدق تطبيق عملى لما فى الإسلام من تصوف خلال هذا العصر ، ولهذا يعده كثير من الباحثين واضع أصول التصوف الإسلامى(٢) .

ومن ثم كان إذا ذكر الإمام الحسن عند الإمام محمد الباقر رضى الله تعالى عنه قال : (ذاك الذى يشبه كلامه كلام الأنبياء)(٣) .

الأسس التى أسس عليها الحسن مدرسته في التصوف:

ارتكز منهج الإمام الحسن فى مدرسته الصوفية فى البصرة على أربعة أسس رئيسة هى : المعرفة ، والزهد فى الدنيا ، الخوف من الله تعالى ، العمل للمشاهدة على أساس من تزكية النفس ، وصلاح القلب.

وبذلك انتشر نوره، وقاوم علماء الألسن والجاه الذين اندسوا بين المسلمين ، ودعوا إلى شتيت من النحل والمذاهب ، وقد أهم هذا الأمر مولانا الإمام علياً رضى الله تعالى عنه ، فطاف المساجد ، وفض حلقاتهم ، وكان يقول هذا بدعة ، وهذا منكر . ولما انتهى إلى حلقة الحسن البصرى قال له: « يا فتى أسألك عن شيئين فإن خرجت منهما تركتك تكلم الناس

---

(١) الكواكب الدرية ١/١٨٥ .

(٢) نشأة التصوف الإسلامى ، د/ إبراهيم بسيونى ص: ١٠٧ .

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى ٤/٥٧٠

وإلا أخرجتك كما أخرجت الذين يبدلون ويحرّفون ، فقال : سل يا أمير المؤمنين ، فقال : « أخبرنى ما صلاح هذا الدين وما فساده؟ فقال : صلاحه الورع ، وفساده الطمع .. قال : « صدقت تكلم ؛ فمثلك يصلح أن يتكلم مع الناس » ..

وكان يقول لتلاميذه : « حادثوا هذه القلوب ، فإنها سريعة الدثور ، واقرعوا النفوس فإنها خليعة ، وإنكم إن أطعتموها تنزل بكم إلى شر غاية » .

وبفضل الإمام الحسن البصرى استقرت زعامة التصوف فى البصرة وقامت فى بغداد مدرسة أخرى بقيادة العالم العابد التابعى المجاهد سيدنا سعيد بن المسيب ، ومن تلاميذه أبو حمزة الصوفى ، ثم نشأت مدرسة ثالثة فى خراسان بزعامة العارف بالله تعالى سيدنا إبراهيم بن أدهم الزاهد فى الدنيا الرّاغب فى الآخرة.

ثم انتشر التصوف الإسلامى فى القرن الثالث الهجرى فى عصر مزدهر بالعلم والمعرفة ، فاتسعت دائرة الصوفية ، ونظموا أنفسهم طرقا وطوائف يدعون إلى الله على بصيرة وهدى .

بذلك ظهرت مكانة التصوف ، واتجه الناس إليه بقلوبهم وأرواحهم، وعندئذ لقى الصوفية عداوة شديدة من رجال الفقه ، وعلماء الكلام ومن أهل العلوم والمذاهب والملل الأخرى التى عمت العراق ، والعالم الإسلامى .

ولكن الصوفية لم يعبأوا بتلك المعارضات فى أنفسهم ، وإنما داوموا

على مشاربهم وإيمانهم بتهذيب النفس بالطريق التى شرعها الله تعالى فى كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ونشَّطوا أنفسهم فى عبادة الله تعالى ، وإيثاره على ما سواه ؛ فكتب الله لهم الخلود والبقاء[١] .

---

(١) ينظر: التصوف من وحى القرآن والسنة للشيخ حسن كامل الملطاوى ص ٧١ ، ٧٢ .

الفصــل الأول

تعريف التصوف لفظا وطريقا وحالاً

أصل كلمة التصوف :

قال الإمام العلامة الكبير أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى عـن « التصـوف » هـذه التسمية غلبت على هذه الطائفـة ، فيقال رجل « صوفـى » وللجماعـة « صوفيـة » ، ومن يتوصـل إلى ذلك يقـال لـه « متصوف » والجماعة « متصوّفة » وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق ، والأظهر فيه أنه كاللقب ، فأما قول من قال : إنه من الصوف وتصوف إذا لبس الصوف كما يقال تقمص إذا لبس القميص فذلك وجه ، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف . ومن قال إنهم منسوبون إلى صُفّةِ مسجد النبى صلى الله عليه وآله وسلم فالنسبة إلى الصُفّة لا تجىء على نحو صوفى ، ومن قال إنه من الصفاء فاشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة ، وقول من قال : إنه مشتق من الصف فكأنهم فى الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى فالمعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة إلى الصف[١] .

فالإمام القشيرى يستعرض الآراء ، ولكنه ينقضها رأيا رأيا ، ويرجح أنه كاللقب .

ويرى الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى أنه مشتق من الصوف ؛

---

(١) الرسالة (لفظ التصوف) ص ١٣٨ .

حيث قال فى كتابه « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » واسم الصوفية هو نسبة إلى لباس الصوف .. هذا هو الصحيح » ..

ثم يقول الشيخ ابن تيمية ، وليس لأولياء الله تعالى ما يتميزون به عن الناس فى الظاهر من الأمور المباحات ، فلا يتميزون بلباس دون لباس ، إذا كان كلاهما مباحا ، ولا بحلق شعر أو تقصيره .. بل يوجدون فى جميع أصناف الأمة المحمدية إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور .. فيوجدون فى أهل القرآن وأهل العلم ، ويوجدون فى أهل الجهاد والسيف ، ويوجدون فى التجار والصناع والزراع .

وقد ذكر الله أصناف أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[1] ..

ثم يقول : وكان السلف يسمون أهل العلم « القراء » فيدخل فيهم العلماء والنساك ، ثم حدث بعد ذلك اسم الصوفية والفقراء »[2] .

رأي معاصـــر:

يقول الإمام الأكبر فضيلة الشيخ العارف بالله تعالى / عبد الحليم محمود: إن لفظة التصوف تنتسب إلى الصوف ، وكما أنه يقال : تقمص إذا

---

(١) سورة المزمل آية رقم ٢٠ .

(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية / ط العشيرة المحمدية مع كتاب / معالم التصوف الإسلامي للإمام محمد زكى إبراهيم رائد العشيرة .

لبس القميص .. كذلك يقال : تصوف إذا لبس الصوف ، ومن أبرز القائلين بهذا الرأى المرحوم الإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الأزهر. والمرحوم / الدكتور زكى مبارك ، والمستشرق « مرجليوث » .

وإذا كانت الكلمة تنتسب إلى الملبس ـ وهو مظهر وشكل ورسم ـ فليس معنى ذلك أن التصوف مظاهر وأشكال .

وليس من المحتم ـ دائما ـ أن يكون المعنى الأصلى للاسم هو المراد مما وضع الاسم له ، إذ المعنى الأصلى : قد يتطور ويتغير ويختلف وقد يقصد عكسه ، ومن أجل ذلك فإنه لا مجال لتخوف هؤلاء الذين لا يريدون أن ينسبوا التصوف إلى الصوف بحجة أن انتسابه إلى المظاهر يحط من شأنه .

حقيقة : إن الباحثين كثيرا ما يجدون صلة وثيقة بين المعنى الأصلى للاسم ، وما وضع الاسم له ، أو بين الاسم والمسمى ، ولكن ذلك ليس مطردا .

والواقع أن التصوف معنى معروف ، لا شأن له بالمظاهر والأشكال. وإذا كان بعض الأشخاص لا يزالون يمارون فى قيمته أو فائدته ، فإنهم لا يتخذون التسمية تكأة لهذه المماراة ، ولو فرضنا أنهم اتخذوها تكأة لخرجوا عن سمت الباحثين ، ولأصبحوا سخرية للساخرين على أننى أرى ـ كما يرى كثير غيرى وكما يثبت التاريخ ـ أن هذه الكلمة (تصوف) لم توضع فى الأصل بمعناه العادى الذى نفهمه الآن ، وإنما وضعت فى المبدأ لتدل على نمط من العزوف عن الدنيا .. إنها كانت علامة الزاهدين والمتنسكين فسموا بها هؤلاء الذين انصرفوا عن الدنيا [١] .

---

(١) قضية التصوف شرح المنقذ من الضلال للإمام الدكتورعبد الحليم محمود ٣٤، ٣٥

ولقد رأى هؤلاء الزهاد ـ من ناحية الملبس ـ فى الصوف ما يحقق أهدافهم التى تتصل بالتقشف ، والشظف والخشونة ، فهو متين رخيص خشن لا يحتاج الإنسان معه فى الشتاء إلى غيره ، ولا يحتاج إلى تغيره كثيرا ، ذلك بأنه لا يبلى بسرعة ، فتصوفوا ، أى لبسوا الصوف .

وكان لابد من اسم يطلق على هؤلاء ، وكان من السهولة بمكان أن يطلق عليهم : صوفية ، وأطلق الاسم مصادفة أو تعمدا ؛ فذاع وضاع ، وأصبح الزهاد يعرفون ـ فى البيئات العربية ـ باسم « الصوفية » .

هؤلاء الزهاد كانوا موجودين فى العصر الجاهلى تدينا أو منطقيًا وكانوا موجودين فى صدر الإسلام تدينا أو منطقيًا ! حتى إذا كانت « رابعة العدوية » ، وكان « الجنيد » ، وكان « ذو النون المصرى » ، حتى إذا ذاع التصوف وانتشر ممثلوه عازفين عن الدنيا ، لابسين الصوف أطلقت الكلمة عليهم .

ولم يميز الناس بين حالتين مختلفتين كل الاختلاف هما : حالة الزهد البحت ، وحالة التصوف ، ولم يثر الصوفية على التسمية فى حد ذاتها ، ومن لم يرض منهم نسبتها إلى الصُوف ، ذهب فى نسبتها مذاهب أخرى[١] .

صلة هذه الكلمة بالمعاني الأخرى :

وإذا كانت الكلمة تنتسب إلى الصوف فهى كلمة موفقة كل التوفيق ولعل عناية المقادير.. هى التى هيأت لها الجو للظهور والشيوع ، إذ أنها

---

(١) المرجع السابق ص ٣٥ ، ٣٦ .

تمت بصلة حرفية ، ونغمة جرسية ، إلى كثير من الكلمات التى تدل على معانٍ وثيقة الصلة بالتصوف ، كالصفاء وصلته بالتصوف ظاهرة ، والصف « الصف الأول فى الجهاد » : جهاد العدو وجهاد النفس والصُفَّة « صُفَّة مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التى كان يعيش فيها قوم وهبوا أنفسهم للجهاد » ، والصَفَة « الصِفَة الجميلة » .

وكان من التوفيق أيضا : هذا الغموض نفسه فى أصل الكلمة ، فما من شك فى أن اختلاف المذاهب والآراء فى أصلها يبين الكثير من معانى التصوف ومن مظاهره[١] .

وما أحسن ما أنشده العلامة ابن الحاج المالكى فى كتابه « المدخل » حيث يقول رحمه الله تعالى :

ليس التصوف لبس الصوف ترقعـه

ولا بكاؤك إن غنى المغنونـــــا

ولا صياح ولا رقص ولا طـــرب

ولا اختباط كأن قد صرت مجنونا

بل التصوف أن تصفو بلا كـــدر

وتتبع الحق والقرآن والدنيــــا

وأن تُرى خاشعا لله مكتئبــــا

على ذنوبك طول الدهر محزونــا

---

(١) قضية التصوف : ٣٦، ٣٧ .

نقل هذه الأبيات العلامة : محمد الأمير رحمه الله تعالى فى حاشيته على جوهرة التوحيد[١] .

تعريف التصوف :

التصوف كبير قدره ، جليل خطره ، عظيم وقعه ، عميق نفعه ، أنواره لامعه ، وأثماره يانعه ، يزكى النفس من الدنس ، ويطهر النفس من الرجس ، ويرقي الأرواح إلى مراقى الفلاح ، ويوصل الإنسان إلى مرضاة الرحمن ، وهو ـ إلى جانب هذا ـ ركن من أركان الدين ، وجزء متمم لمقامات اليقين .

خلاصته : تسليم الأمور كلها لله ، والالتجاء فى كل الشؤون إليه مع الرضا بالمقدور ، من غير إهمال فى واجب ولا مقاربة المحظور .

وقد كثرت أقوال العلماء فى تعريفه واختلفت أنظارهم فى تحديده وتوصيفه ، وذلك دليل على شرف اسمه ومسماه ، ينبئ عن سمو غايته ومرماه[٢] .

يتجه الكثير من العلماء فى تعريف التصوف إلى الجانب الأخلاقى، وهذا الاتجاه ليس مستغربا ، فإن التصوف نفسه علم يبحث فى الأخلاق.

وقد بلغت تعريفاته نحو « ألف تعريف » حكاها الحافظ أبو نعيم الأصفهانى ـ وهو رجل صوفى من أهل الحديث ـ فى كتابه « حلية الأولياء » وحكى بعضها الإمام القشيرى ..

---

(١) حاشية الأمير على جوهرة التوحيد ص ١٦٣ وينظر المدخل ٤/ ٣٣ .

(٢) ينظر الأعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام للحافظ عبد الله الغمارى ص ٧ ، ٨

ومن هذه التعريفات قول أبى بكر الكتانى ــ ت ٢٣٣ هـ ــ «التصوف خُلق .. فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى الصفاء» .

وسئل أبو محمد الجريرى ــ ت ٣١١ هـ ــ عن التصوف فقال : «الدخول فى كل خلق سنىّ ، والخروج من كل خلق دنى» ..

ويقول أبو الحسين النورى «التصوف : الحرية والكرم وترك التكلف والسخاء» ..

وقال محمد بن على القصاب : «التصوف أخلاق كريمة ، ظهرت فى زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام» ..

وقال الإمام معروف الكرخى رضى الله تعالى عنه : التصوف الأخذ بالحقائق ، واليأس مما فى أيدى الخلائق» ..

والإمام الشريف الجرجانى يقول فى كتابه «التعريفات» : التصوف الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً فيُرى حكمها من الظاهر فى الباطن ، وباطنا فيرى حكمها من الباطن فى الظاهر ، فيحصل للمتأدّب بالحكمين كمال .

وقيل : مذهب كله جد فلا يخلطونه بشيء من الهزل ..

وقيل : ترك الاختيار ، وقيل : بذل المجهود ، والأنس بالمعبود .

وقيل : حفظ حواسك من مراعاة أنفاسك ..

وقيل : الإعراض عن الاعتراض ..

وقيل : هو صفاء المعاملة مع الله تعالى ، وأصله التفرغ عن الدنيا .

وقيل : الصبر تحت الأمر والنهى [١] .

وسئل الإمام أبو القاسم الجنيد رضى الله تعالى عنه عن التصوف .. فقال : « تصفية القلب عن موافقة البرية ، ومفارقة الأخلاق الطبيعية ، وإخماد صفات البشرية ، ومجانبة الدواعى النفسية ومنازلة الصفات الروحانية ، والتعلق بالعلوم الحقيقية ، واستعمال ما هو أولى على الأبدية ، والنصح لجميع الأمة ، والوفاء لله تعالى على الحقيقة ، واتباع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى الشريعة » ا.هـ ..

ولعل هذا أبلغ ما قيل فى التصوف وكشف عن حقيقته ..

ويعرّف سيدى أحمد الدردير رضى الله تعالى عنه التصوف علماً وعملا مع بيان غايته وموضوعه فيقول :« وحد التصوف علما : هو علم يعرف به صلاح القلب وسائر الحواس .. وعملا : هو الأخذ بالأحوط من المأمورات واجتناب المنهيات ، والاقتصار على الضروريات من المباحات وغايته : صلاح القلب ، وسائر الحواس فى الدنيا ، والفوز بأعلى المراتب فى الآخرة .

وموضوعه : الأخلاق المحمدية من حيث التخلق بها .. وهى أوامر القرآن ونواهيه؛ لما ورد فى البخاري وغيره عن السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها أنها حين سئلت عن خلقه صلى الله عليه وآله وسلم قالت : كان خلقه القرآن يرضى برضاه ، ويسخط بسخطه »[٢] .

ومن أراد الاستزادة من التعريفات فعليه بالاطلاع على

---

(١) التعريفات للجرجانى ص ٨٣ ، ٨٤ .

(٢) الخريده البهية لسيدى أحمد الدردير وحاشيتها للشيخ الصاوى ص ٧٦ .

« الرسالة القشيرية » وكتاب « حلية الأولياء » لأبى نعيم ؛ ففيهما ما يكفى، ويشفى لمن كان ينشد الحق والصواب فى معرفة التصوف وحقيقته الصافية من كل شائبة ، فهى أقوال متعددة مختلفة فى اللفظ والمبنى لكنها متفقة فى الغاية والمعنى ، وإنما عبر كل قائل بحسب مدركه ومشربه .

تعريف الصوفى وعلاماته :

وعلى نحو اختلافهم فى معنى التصوف اختلفوا فى معنى الصوفى واشتقاقه: فقال الإمام أبو على الروذبارى ، وقد سئل عن الصوفى : « من لبس الصوف على الصفاء ، وأطعم الهوى ذوق الجفاء ، وكانت الدنيا منه على القفاء ، وسلك منهاج المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم » وقال الإمام سهل بن عبد الله التسْتَرى رضى الله تعالى عنه : الصوفى من صفا عن الكدر ، وامتلأ من الفكر ، وانقطع إلى الله من البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر »..

وقال الإمام الجنيد رضى الله تعالى عنه : الصوفى كالأرض يطرح عليها كل قبيح ، ولا يخرج منها إلا كل مليح ، وقال أيضا : إنه كالأرض يطؤها البر والفاجر ، وكالسحاب يظل كل شىء ، وكالقطْر يسقى كل شىء، وقال : إذا رأيت الصوفى يعنى بظاهره فاعلم أن باطنه خراب .

وقال النورى : نعت الصوفى : السكون عند العدم ، والإيثار عند الوجود ..

وقيل : أقبح من كل قبيح صوفى شحيح ، وقال أبو تراب النخشبى رضى الله تعالى عنه : الصوفى لا يكدره شىء ، ويصفو به كل شىء .

وقيل : الصوفى من إذا استقبله حالان، أو خُلقان كلاهما حسن كان مع الأحسن ..

وقال الحصرى : الصوفى لا يوجد بعد عدمه ، ولا يعدم بعد وجوده ، قال الإمام أبوالقاسم القشيرى رضى الله تعالى عنه : وهذا فيه إشكال ومعنى قوله ، لا يوجد بعد عدمه ، أى إذا فنيت آفاته لا تعود تلك الآفات.. وقوله: ، ولا يعدم بعد وجوده ، يعنى إذا اشتغل بالحق لم يسقط بسقوط الخلق ، فالحادثات لا تؤثر فيه ..[1].

وأنشد الإمام تقى الدين السبكى رحمه الله تعالى :

تنازع الناس فى الصوفى واختلفوا

قدْمًا وظنوه مشتقا من الصـوف

ولست أنحل هذا الاسم غير فـتى

صَافَى فصُوفى حتى لقب الصُّوفِى

وهذان البيتان لأبى الفتح البستى رحمه الله تعالى ..

وقال المحقق أبو حفص الفاسى المالكى رحمه الله تعالى إن لفظ «صوفى » مشتمل على ثلاثة أحرف منقطعة من ثلاث كلمات دالة على ثلاثة معانٍ هى أوصافه المختصة به ، فالصاد من الصفاء ، والواو من الوفاء والفاء من الفناء ..

قال ابن الحاج : وقد أشرت إلى ذلك فى ثلاثة أبيات فقلت :

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

صفا منهل الصوفى عن علل الهوى

فما شاب ذاك الوِردَ من نفسه حظ

ووفى بعهد الحب إذا لم يكن لـــه

إلى غير من يهوى التفات ولا لحـظ

محت آيةَ الإظلام شمسُ نهـــاره

وقد ذهبت منه الإشـارة واللفــظ[١]

وقال الإمام العارف بالله سيدى الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله تعالى عنه : الصوفى مكوّن من أربعة أحرف .. كل حرف يشير إلى معنى فالصاد ، صدقه وصبره وصفاؤه .. والواو : وجده ووده ووفاؤه .. والفاء: فقده وفقره وفناؤه، والياء للنسبة فإنه إذا تكمل نُسب إلى حضرة مولاه[٢].

والحاصل : أن الصوفية هم أهل الله وخاصته من خلقه الذين ترتجى الرحمة بذكرهم ، ويستنزل الغيث بدعائهم ، فرضى الله تعالى عنهم وعنا بهم ، وللقوم أوصاف وأخبار اشتملت عليها كتبهم ، ومن ترجم لهم من أهل السير والتأريخ ..

قال الإمام أبوالقاسم القشيرى رحمه الله تعالى : « جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه ، وفضّلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله تعالى وسلامه عليهم جعل الله قلوبهم معادن أسراره ، واختصهم بين الأمة بطوالع أنواره ، فهم الغياث للخلق ، والدائرون فى

---

(١) حاشية ابن الحاج على شرح ميارة لمنظومة ابن عاشر ص ١١٦.

(٢) الشرح الصغير ٤ / ٢٧٣ .

عموم أحوالهم مع الحق بالحق [١] . ومن أوصاف هذه الطائفة الرأفة والرحمة ، والعفو والصفح ، وعدم المؤاخذة .

شبهة وجوابها :

هناك شبهة يهوش بها المهوشون على التصوف الإسلامى نود أن نوردها ههنا ـ وإن كانت أوهى من بيت العنكبوت ـ للرد عليها وتفنيدها وهى كما قال الشيخ أبو بكر الجزائرى فى كتابه « إلى التصوف يا عباد الله » يقول « إن التصوف لم يعرف قبل نزول الوحى ولا بعده ، وإلى أن انقرض من شاهد نزول الوحى المحمدى ، وعاصر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، فلم يرد لفظ التصوف على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قط ، ولم يحدث عنه ولم يخبر به » ا. هـ كلامه .

وقد تولى الرد عليه العلامة المغربى الشيخ أحمد القطعانى فى كتابه « الحجة المؤتاه فى الرد على صاحب كتاب « إلى التصوف يا عباد الله » فقال: إن المصنف ـ يعنى الجزائرى ـ فى سبيل تأكيد رأيه قال ما لا يصح ، ولا سبيل إلى صحته البتة ، ونحن نسأله : هل كل ما نستعمله من ألفاظ الآن وردت على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ وهل هذا دليل على بطلانها؟ بل ونقلب عليه السؤال فنقول : هل ورد لفظ « السلفية » التى يدعو لها ـ على لسانه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم ، أو على لسان أحد من صحابته الكرام ؟ أو حتى من التابعين ؟ وهل هناك حديث يتلفظ فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهذه السلفية المزعومة ؟ أو بمدحها أو ذمها ؟

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٢٠ .

وكيف تُرجَى لفصل القضـــا ولم تصب الحكم من نفسكا

فإن كان المصنف يرى أن أى لفظ لم يرد على لسانه صلى الله عليه وآله وسلم دليل على عدم شرعيته فليبادر إلى حذف كلمة « السلفية » التى حدثنا ، وسيحدثنا عنها فى كتابه الذى بين أيدينا « إلى التصوف يا عباد الله » .

بل نرجو منه أن يحذف لفظ « المذهب المالكى ، والمذهب الشافعى ، والمذهب الحنفى والمذهب الحنبلى » من كتب الإسلام والمسلمين ؛ إذ لم يرد عنه صلى الله عليه وآله وسلم أو عن أحد من صحابته أنه قال : إن مذهبه مالكى أو شافعى أو حنفى أو حنبلى . ونرجو منه أيضا أن لا ينسى حذف كل الاصطلاحات التى استحدثت بعده صلى الله عليه وآله وسلم كالنحو والفقه والمنطق وعلم الحديث دراية ورواية ، وعلم الجرح والتعديل ، بل وحتى مصطلحات العلوم الطبيعية ، كالجغرافيا والفلك والكيماء وعلم الطبيعة ، ففى الحقيقة أن كل الاصطلاحات التى نستعملها الآن فى مجال العلوم الإسلامية وغيرها ما عرفها الصحابة ولا نطقوا بها .. ولو سألنا كل صحابته صلى الله عليه وآله وسلم عن الفرق بين الفعل المعتل والفعل الصحيح في اللغة أو بين المهمل والمبهم فى الحديث ، أو عن الجناس والطباق فى البيان أو التورية لظنوا أننا نتحدث معهم بلغة أهل الصين ، وعدم معرفتهم بما قلنا لا يعنى جهلهم ، فاللغة ينطقونها صحيحة بالسليقة ويعرفون أن الكلام إن لم يعين اسم قائله بالتحديد لا يؤخذ به ، وإن لم يسموه المهمل ، ويعرفون أن ما لم يسم قائله البتة متروك لا يقام له وزن وإن لم يسموه مبهما ، ويستعملون البديع فى حديثهم وأشعارهم وإن لم

يقرأوا حاشية السجاعى ، أو يحفظوا متن السُلَّم ، أو يستوعبوا حاشية المناوى ، ويعملون بالتصوف وإن لم يسموه باسمه فمثل هذه الحقائق مركوزة فى أذهانهم رضوان الله عليهم بل وفى أذهان أهل كل لغة .

ولكن ـ سامح الله المصنف ـ يحاول أن يجعل من الباطل حقا ، ومن الوهم دليلا ، بل ومن السراب ما يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا .. فما سمعنا أن أحداً من كل فرق المسلمين سنة كانوا أم شيعة ، خوارج كانوا أم معتزلة جعل من عدم تلفظ النبى صلى الله عليه وآله وسلم دليلا على المشروعية من عدمها .

ونحن على كل حال إذ نتكلم عن التصوف فإنما نقصد به تزكية النفوس، وصفاء القلوب ، وإصلاح الأخلاق ، والوصول إلى مرتبة الإحسان، ولك أن تطلق أى لفظ مما يتفق مع حقيقته ومعناه ، فسمه بمقام الرضا ، أو الإحسان أو علم القلوب ومعالجتها إلا أن الأمة توارثت تسميته بالتصوف ، فنحن نسميه بما سمته به الأمة[1] .

إرجاع معنى الصوفي إلى الصديق :

يقول الشيخ أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية ـ حجة السلفية وإمامهم وفقيههم فى رسالته ، الصوفية والفقراء ، التى ألفها من أجل سؤال سئله عن الصوفية ، وأنهم أقسام والفقراء أقسام .. فما صفة كل قسم وما يجب عليه ويستحب أن يسلكه ؟

فقال.. بعد كلام جيد ، وتحقيق فى شأن الصوفية ، وإنصاف فى

---

(١) الحجة المؤتاة فى الرد على صاحب كتاب « إلى التصوف يا عباد الله » للشيخ أحمد القطعانى ص ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ .

الحكم عليهم :، وإذا عرف أن منشأ التصوف كان من البصرة وأنه كان فيها من يسلك من طريق العبادة والزهد ما له فيه اجتهاد ، وهؤلاء نسبوا إلى اللبسة الظاهرة ، وهي لباس الصوف ، فقيل في أحدهم : صوفي ، وليس طريقهم مقيدا بلباس الصوف ، ولا هم أوجبوا ذلك ، ولا علقوا الأمر به ، لكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال .

ثم التصوف عندهم له حقائق وأحوال معروفة ، قد تكلموا في حدوده وسيرته وأخلاقه ، كقول بعضهم : الصوفي من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر ، واستوى عنده الذهب والحجر .

التصوف : كتمان المعاني ، وترك الدعاوى ، وأشباه ذلك ..

وهم يسيرون بالصوفي إلى معنى الصديق ..

وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾[1] .

ولهذا ليس عندهم ـ بعد الأنبياء ـ أفضل من الصوفي ، لكن هو في الحقيقة نوع من الصديقين ، فهو الصديق الذي اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه ، فكان الصدّيق من أهل هذه الطريق ، كما يقال صدّيقو العلماء ، وصدّيقو الأمراء ، فهو أخص من الصدّيق المطلق ، ودون الصدّيق الكامل الصدّيقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، فإذا قيل عن أولئك الزهاد والعباد من البصريين : إنهم صديقون فهو كما يقال عن

---

(١) النساء : ٦٩ .

أئمة الفقهاء من أهل الكوفة : إنهم صديقون أيضا كل بحسب الطريق الذى سلكه من طاعة الله ورسوله ، بحسب اجتهاده، وقد يكونون من أجلّ الصديقين بحسب زمانهم ، فهم من أكمل صدّيقى زمانهم ، وإن الصدّيق فى العصر الأول أكمل منهم .

درجات الصديقين وأنواعهم :

والصديقون درجات وأنواع ، ولهذا يوجد لكل منهم صنف من الأحوال والعبادات حققه وأحكمه وغلب عليه ، وإن كان غيره فى غير ذلك الصنف أكمل منه وأفضل منه.

ولأجل ما وقع فى كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه ، تنازع الناس فى طريقهم : فطائفة ذمت الصوفية والتصوف ، وقالوا : إنهم مبتدعون خارجون عن السنة .

ونقل عن طائفة في ذلك من الكلام ما هو معروف ، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام .

وطائفة غلت فيهم ، وادعوا أنهم أفضل الخلق ، وأكملهم بعد النبيين، وكلا طرفى قصد الأمور ذميم .

والصواب أنهم مجتهدون فى طاعة الله ، وكما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ، ففيهم السابق المقرّب بحسب اجتهاده ، وفيهم المقتصد الذى هو من أهل اليمين ، وفى كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب ، ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه .

أصناف الصوفية الثلاثة :

فهذا أصل التصوف .. ثم إنه بعد ذلك تشعب ،وتنوع ، وصارت الصوفية ثلاثة أصناف :

صوفية الحقائق ، وصوفية الأرزاق ، وصوفية الرسم ..

فأما صوفية الحقائق فهم الذين وصفناهم ..

وأما صوفية الأرزاق فهم الذين وقفت عليهم الوقوف كالخوانك ، فلا يشترط فى هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق ، فإن هذا عزيز ، وأكبر أهل الحقائق لا يتصفون بلزوم الخوانك ، ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط :

أحدها: العدالة الشرعية، بحيث يؤدون الفرائض ، ويجتنبون المحارم.

والثانى : التأدب بآداب أهل الطريق ، وهى الآداب الشرعية ـ فى غالب الأوقات ـ وأما الآداب البدعية الوضعية فلا يلتفت إليها .

والثالث : أن لا يكون أحدهم متمسكا بفضول الدنيا ، فأما من كان جماعا للمال ، أو كان غير متخلق بالأخلاق المحمودة ، ولا يتأدب بالآداب الشرعية ، أو كان فاسقا فإنه لا يستحق ذلك .

وأما صوفية الرسم: فهم المقتصرون على النسبة ، فهَمُّهُمْ فى اللباس، والآداب الوَضعية ونحو ذلك ، فهؤلاء فى الصوفية بمنزلة الذى اقتصر على زى أهل العلم ، وأهل الجهاد ، ونوع ما من أقوالهم وأعمالهم ، بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره أنه منهم ، وليس منهم .

معني الفقير في الكتاب والسنة :

وأما اسم الفقير فإنه موجود فى كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لكن المراد به من الكتاب والسنة الفقير المضاد للغنى كما قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم .

والفقراء والفقر أنــواع : فمنه المسوّغ لأخذ الزكاة ، وضده الغنى المانع المحرم لأخذ الزكاة كما قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم « لا تحل الصدقة لغنى ولا لقوى مكتسب »(١) .

والغنى الموجب للزكاة غير هذا عند جمهور العلماء كمالك والشافعى وأحمد ، وهو ملك النصاب ، وعندهم قد يجب على الرجل الزكاة ، ويباح له أخذ الزكاة خلافا لأبى حنيفة .

والله سبحانه وتعالى قد ذكر الفقر فى مواضع ، لكن ذكر الله تعالى الفقراء المستحقين للزكاة فى آية ، والفقراء المستحقين للفيء فى آية أخرى فقال فى **الآية الأولى** : ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾(٢) .

وقال فى الثانية : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائى .

(٢) البقرة ٢٧١ ـ ٢٧٣ .

يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾[1].

الفقير الصابر والغنى الشاكر :

وهؤلاء الفقراء قد يكون فيهم من هو أفضل من كثير من الأغنياء ، وقد يكون من الأغنياء من هو أفضل من كثير منهم ، وقد تنازع الناس أيهما أفضل ؟ الفقير الصابر أم الغنى الشاكر ؟

والصحيح أن أفضلهما أتقاهما ، فإن استويا فى التقوى استويا فى الدرجة كما قد بيناه فى غير هذا الموضع ، فإن الفقراء يسبقون الأغنياء إلى الجنة إذ لا حساب عليهم ، ثم الأغنياء يحاسبون ، فمن كانت حسناته أرجح من حسنات الفقير كانت درجته فى الجنة أعلى وإن تأخر عنه فى الدخول.. ومن كانت حسناته دون حسناته كانت درجته دونه .

الزهد والفقر :

لكن لما كان جنس الزهد فى الفقر أغلب ، صار الفقر ـ فى اصطلاح كثير من الناس ـ عبارة عن طريق الزهد ، وهو من جنس التصوف فإذا قيل : هذا فقير ، أو ما فيه فقر ، لم يرد به عدم المال ، ولكن يراد ما يراد باسم الصوفى ، من المعارف والأحوال والأخلاق والآداب ونحو ذلك .

الفقير أفضل أم الصوفي ؟:

وعلى هذا الاصطلاح قد تنازعوا : أيهما أفضل.. الفقير أم الصوفى ؟

---

(١) الحشر : ٧ ، ٨ .

فذهبت طائفة إلى ترجيح الصوفى: كأبى حفص السّهروردى ونحوه ، وذهبت طائفة إلى ترجيح الفقير كطوائف كثيرين ، وربما يختص هؤلاء بالزوايا وهؤلاء بالخوانق ونحو ذلك ، وأكثر الناس رجحوا الفقير. والتحقيق أن أفضلهما أتقاهما ، فإن كان الصوفى أتقى لله كان أفضل منه ، وهو أن يكون أعمل بما يحبه الله تعالى وأترك لما لا يحبه كان أفضل منه .

فإن استويا فى فعل المحبوب وترك غير المحبوب استويا فى الدرجة.

وأولياء الله تعالى هم المتقون سواء سُمّى أحدهم صوفيا أو فقيراً ، أو فقيها أو عالما أو تاجرا أو جنديا أو صانعا أو أميرا أو حاكما أو غير ذلك.

قال الله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾(١) .

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن الله تعالى قال : **[من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إليّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت ، وأنا أكره مساءته]**

وهذا الحديث قد بين فيه أولياء الله تعالى المقتصدين ، فأصحاب

---

(١) يونس :٦٢ ، ٦٣ .

اليمين والمقربين والسابقين .

فالصنف الأول : الذين تقربوا إلى الله بالفرائض ، **والصنف الثانى** : الذين تقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض ، وهم الذين لم يزالوا يتقربون إليه بالنوافل حتى أحبهم كما قال تعالى وهذان الصنفان قد ذكر الله فى غير موضع من كتابه كما قال :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾..

وكما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ إلى قوله ﴿ الْمُقَرَّبُونَ ﴾..

قال ابن عباس : يشرب بها المقربون صرفا وتمزج لأصحاب اليمين مزجًـا .

وقال تعالى : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ إلى قوله : ﴿ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾..

وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ إلخ السورة ..

وهذا الجواب فيه جمل تحتاج إلى تفصيل طويل لا يتسع له هذا

الموضع[1] . والله تعالى أعلم ا. هـ

معنى الفقر عند الصوفية :

قال الإمام أبو القاسم القشيري رضى الله تعالى عنه : الفقر شعار الأولياء وحلية الأصفياء ، واختيار الحق سبحانه لخواصه من الأتقياء والأنبياء.

والفقراء صفوة الله عز وجل من عباده ومواضع أسراره بين خلقه بهم يصون الخلق ، وببركاتهم يبسط عليهم الرزق ، والفقراء الصُبر جلساء الله تعالى يوم القيامة ، بذلك ورد الخبر عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لكل شيء مفتاح ومفتاح الجنة حب المساكين ، والفقراء الصُبر هم جلساء الله تعالى يوم القيامة) [2] .

وقيل : إن رجلا أتى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فأبى أن يقبلها وقال : تريد أن تمحو اسمى من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم لا أفعل ..

وقال معاذ النسفى : ما أهلك الله تعالى قوما وإن عملوا ما عملوا حتى أهانوا الفقراء وأذلوهم ، وقيل : لو لم يكن للفقير فضيلة غير إرادته سعة المسلمين ورخص أسعارها لكفاه ذلك لأنه يحتاج إلى شرائها ، والغنى يحتاج إلى بيعها ، هذا لعوام الفقراء فكيف حال خواصهم ..

---

(١) رسالة الصوفية والفقراء للشيخ ابن تيمية من ص ٣٨٨ ـ ٣٩٣ مطبوعه بذيل كتاب أصول الأصول للشيخ محمد زكى إبراهيم مطبوعات العشيرة المحمدية سنة ١٤١٦ هـ .

(٢) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير وأخرجه المتقى الهندى فى كنز العمال ج٦ ص ٤٦٩ برقم ١٦٥٨٧ والسيوطى فى الجامع الصغير ج٢ ص ١٣١ وعزاه لابن لال وأشار له بالضعف.

وسئل يحيى بن معاذ عن الفقر فقال : حقيقته أن لا يستغنى إلا بالله ورسمه عدم الأسباب كلها .

وقال إبراهيم القصار : الفقر لباس يورث الرضا إذا تحقق العبد فيه ..

وقال الأستاذ أبو على الدقاق : قام فقير فى مجلس يطلب شيئا وقال إنى جائع منذ ثلاث ، وكان هناك بعض المشايخ فصاح عليه وقال : كذبت ، إن الفقر سر الله ، وهو لا يضع سره عند من يحمله إلى من يريد[١] .

قال السادة الأئمة : الفقر هو نفض اليد من الدنيا ضبطا أوطلبا ، فلا يمسكها إن كانت عنده ، ولا يطلبها إن لم تكن عنده ، وإسكان اللسان عنده ذما أو مدحًا ، فإن المدح والذم فيهما رائحة التشوق إلى الممدوح والمذموم ، وفى الأمثال (إذا سمعته يسبه فاعلم أنه يحبه)

والأنبياء عليهم السلام إنما ذموها ، لأنه وجب عليهم تحذير الخلق منها ، ولأنه مقطوع لهم بعدم الميل والتشوف إلى الدنيا .

وينبغى للفقير أن يكون غنيا بالله فى معاقل الفقر ، فقيرا إلى الله تعالى فى معاقل الغنى .

قال إبراهيم بن أدهم لشقيق البلخى حين قدم عليه من خراسان : كيف تركت أصحابك من الفقراء ؟ فقال : إن أُعطوا شكروا وإن مُنعوا صبروا ، فظن أنه وصفهم بترك السؤال أثنى عليهم .

فقال إبراهيم : هكذا تركت كلاب بلخ ، الفقراء عندنا إن منعوا شكروا

(١) الرسالة القشيرية (باب الفقر ص ٣٧٦ ، ٣٧٧)

وإن أعطوا آثروا ، فقبل رأسه ، وقال : صدقت يا أستاذ[١] ..

ونعت الفقير الصوفى: السكون عند العدم والبذل عند الإيثار .

طبقـات الفقـراء :

والفقراء على ثلاث طبقات : فمنهم من لا يملك شيئا ، ولا يطلب بظاهره ولا بباطنه من أحد شيئا ، ولا ينتظر من أحد شيئا ، وإن أُعطى شيئا لم يأخذه ، فهذا مقامه المقربون ، ومنهم من لا يملك شيئا ولا يسأل أحدا ولا يطلب ولا يعرّض ، وإن أعطى شيئا من غير مسألة أخذ ، ومنهم من لا يملك شيئا وإذا احتاج انبسط إلى بعض إخوانه ممن يعلم أنه يفرح بانبساطه إليه فكفارة مسألته صدقه .

وإنما سمى الصوفية لتخليهم عن الأملاك ، وحقيقة الفقر الصوفى أن لا يستغنى العبد إلا بالله تعالى ، وهو مقام شريف يقتضى الصبر والقناعة بما قسم الله عز وجل[٢] .

التحذير من خوف الفقـر :

قد حذر الصوفية أتباعهم من خوف الفقر والمسكنة ..

قال حمدون القصار : إذا اجتمع إبليس وجنوده لم يفرحوا بشيء كفرحهم بثلاثة أشياء : رجل مؤمن قتل مؤمنا ، ورجل يموت على الكفر ، وقلب فيه خوف الفقر .

---

(١) حياة القلوب فى كيفية الوصول إلى المحبوب ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ للشيخ عماد الدين الأموى ، ت / محمد سيد سلطان .

(٢) ينظر المعجم الصوفى د/ عبد المنعم حفنى ص ١٩٤ .

وقيل ليحيى بن معاذ : ما الفقر؟ قال : خوف الفقر ، قيل : فما الغنى ؟ قال : الأمن بالله تعالى .

وقال أبو بكر الرازى: سمعت الجريرى يقول سمعت ابن الكرينى يقول: إن الفقير الصادق ليحترز من الغنى حذرا أن يدخله الغنى فيفسد عليه فقره كما أن الغنى يحترز من الفقر ؛ حذرا أن يدخل عليه فيفسد عليه غناه .

وقال ذو النون : علامة سخط الله على العبد خوفه من الفقر ..

وقال الشبلى : أدنى علامات الفقر أن لو كانت الدنيا بأسرها لأحد فأنفقها فى يوم ثم خطر بباله أن لو أمسك منها قوت يوم ما صدق فى فقره[1] .

عـزة الفقراء في فقرهـم :

وقد كان الفقراء يعتزون بفقرهم أكثر من عزة الأغنياء بالغنى .

يقول محمد بن على الكتانى : كان عندنا بمكة ـ حرسها الله تعالى ـ فتى عليه أطمار رثة ، وكان لا يداخلنا ولا يجالسنا ، فوقعت محبته فى قلبى ففتح لى بمائتى درهم من وجه حلال فحملتها إليه ، ووضعتها على طرف سجادته ، وقلت له: إنه قد فتح لى ذلك من وجه حلال تصرفه فى بعض أمورك ، فنظر إلى شذرا ثم كشف عما هو مستور عنى وقال : اشتريت هذه الجلسة مع الله تعالى على الفراغ بسبعين ألف دينار غير الضيعات والمستغلات.. تريد أن تخدعنى عنها بهذه ، وقام وبددها ،

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٣٧٩ ، ٣٨٣ .

وقعدت ألتقط.. فما رأيت كعـزه حين مر ولا كذلى حين كنت ألتقطها .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : ما وجبت على زكاة الفطر أربعين سنة ولى قبول عظيم بين الخاص والعام[(١)] .

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٣٧٩ ، ٣٨٣ .

الفصـل الثانـى

علم الظاهـــر وعلم الباطـــن

مما يقوله أهل الاعتراض على الصوفية : إنهم يقسمون العلم إلى ظاهر وباطن وهذا محدث وبدعة لم يكن فى الإسلام .

وللرد على هذه الشبهة نورد هذا الحديث الصريح الذى يبين هذين العلمين على لسان صاحب الوحى صلى الله عليه وآله وسلم ..

عن الحسن عن جابر رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : **(العلم علمـان فعلم ثابت فى القلب ، فذلك العلم النافع ، وعلم فى اللسان فذلك حجة الله على عباده)** .

رواه الخطيب فى التاريخ بإسناد حسن ، ورواه ابن عبد البر فى العلم مرسلا بإسناد صحيح ، وحسنه الحافظان : زكى الدين المنذرى وزين الدين العراقى ، وأعله ابن الجوزى فلم يُصبْ ، ورواه أبو نعيم والديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس بإسناد ضعيف ، ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول .

وهذا الحديث أورده قطب الدين القسطلانى ــ وهو قبل القُسطلانى صاحب المواهب اللدنية ــ فى كتابه فى التصوف ، يشير بذلك إلى أن العلم الثابت فى القلب هو علم الباطن ، بدليل الحديث الذى رواه الحسين المروزى فى زوائـــد الزهـــد لشيخه عبـــد الله بن المبارك فقال : حدثنـــا أبو معاوية أنبأنا حجاج عن مكحول عـــن النبى صلى الله عليه وآلـــه وسلم

قال : (من أخلص لله أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه) .. إسناده صحيح ، ورواه ابن عدى فى الكامل بإسناد ضعيف ، ورواه أبو نعيم فى الحلية من حديث أبى أيوب بإسناد ضعيف أيضا .

وأما علم اللسان هو العلم الظاهر ، وهو حجة الله على عبده إذا لم يعمل به، وإنما كان علم الباطن الذى هو علم القلب نافعا لأنه لا يحصل للشخص إلا بعد المجاهدة والعمل بالعلم الظاهر إذا هو نتيجته وثمرته ، بخلاف علم الظاهر فلا ينتفع به إلا من يعمل به وليس كل عالم عاملا .

وقد روى ابن أبى حاتم فى تفسيره من طريق سفيان الثورى عن أبى حيان التيمى عن رجل قال : كان يقال : العلماء ثلاثة : عالم بالله يخشى الله ليس بعالم بأمر الله .. وعالم بالله عالم بأمر الله يخشى الله فذلك العالم الكامل ـ لجمعه بين علمى الظاهر والباطن ـ وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله لا يخشى الله فذلك العالم الفاجر ، وإنما كان هذا فاجرا لأنه لم يعمل بعلم الظاهر ، والأول من علماء الباطن ، وهو من الأبرار لأنه خشى الله واتقاه ﴿ واتَّقُوا اللَّهَ ويُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(١) .

علوم الحقائق لا ينكرها إلا المغرورون :

أورد الحافظ عبد العظيم المنذرى فى كتابه ، الترغيب والترهيب ، هذا الحديث الذى يؤيد ما ذكرناه .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (إن من العلم كهيئة المكنون ، لا يعلمه إلا العلماء بالله تعالى ، فإذا نطقوا به

---

(١) ينظر الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام للحافظ عبد الله الغمارى ص ٢٢ .

لا ينكروه إلا أهل الغِرّة بالله تعالى) .. رواه أبو منصور الديلمي فى المسند وأبو عبد الرحمن السلمي فى الأربعين التى له فى التصوف ، ورواه الطبسى فى الترغيب ، وهو حديث ضعيف ، كما قال الحافظ عبد الله الغمارى ولكنه يتأيد بشيئين :

أحدهما : ما ثبت فى صحيح البخارى عن أبى هريرة أيضا قال : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعاءين ، فأما أحدهما فبثثته .. وأما الآخر فلو بثثته لقُطع هذا البلعوم ، قال البخارى : البلعوم مجرى الطعام ، وهو بضم الباء ، وفى رواية لقطع هذا يعنى رأسه. فذلك الوعاء الذى لم يبثه محمول على الأحاديث التى فيها بيان أمراء السوء من بنى أمية ، وعلى الأحاديث التى تتعلق بأشراط الساعة والملاحم فى آخر الزمان ، فينكر ذلك من لم يألفه طبعه ، كما حصل من مبتدعة العصر إنكار ظهور المهدى ونزول عيسى عليه السلام وخروج الدجال ، والميزان وغير ذلك ، وعلى ما تلقاه من الأسرار والحقائق التى يضيق نطاق كثير من الناس عن فهمها فيبادرون إلى إنكارها .

ثانيهما : ما هو واقع مشاهد ، فلا ينكر علوم الصوفية وما وهبهم الله من الحقائق إلا الأغرار المفتونون أصحاب مطامع وأغراض ، ومما يصحح به الحديث الضعيف عند أهل الحديث أن يكون الواقع على وفقه ، لأنه ليس بعد الواقع المشاهد دليل [١] .

---

(١) المرجع السابق ص ٢١ .

للقرآن ظاهر وباطن :

عن الحسن البصرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (لكل آية ظهر وبطن ولكل حرف حد ولكل حد مطلع) رواه الفريابى فى تفسيره بإسناد صحيح ، ورواه أبو عبيد فى فضائل القرآن عن الحسن أيضا بإسناد حسن .

وروى أبو يعلى والبزار والطبرانى فى الأوسط عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (أُنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن) رجال الحديث ثقاة كما قال الحافظ الهيثمى .

قال ابن النقيب فى تفسيره : ظهر الآية ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر وبطنها ما تضمنته من الأسرار التى أطلع الله عليها أرباب الحقائق . ا. هـ

والحد هو الغامض من المعانى ، والمَطْلَع ما يتوصل به إلى معرفته ، ولا يتوصل إلى غامض المعانى إلا أرباب الحقائق بما أفاض الله عليهم من الأسرار والمعارف(١) .

وقد أخرج ابن المنذر وغيره عن الشعبى أنه سئل عن معنى فواتح السور؟ فقال : إن لكل كتاب سرا ، وإن سر هذا القرآن فواتح السور .

والسر فى ذلك أن الحكيم إذا صنف كتابا أجمل فيه أحيانا ؛ ليكون محل الإجمال موضع خضوع المتعلم لأستاذه، وأن الملك يتخذ علامة يمتاز

---

(١) المرجع السابق ص ١٩ .

بها من يطلعه على سره ـ ولئلا يستمر العالم فى أبهة العلم على التمرد ، فبذلك ينساق إلى التذلل والعبودية ، والمتشابه فى القرآن هو موضع خضوع العقول لبارئها استسلاماً واعترافا بقصورها

(فإن قلت) عرف المتشابه فى جمع الجوامع بأنه ما استأثر الله بعلمه وقد يطلع عليه بعض أصفيائه ، وكيف الاستئثار مع إطلاع بعض الأصفياء؟

(قلت) : قد ذكر هذا الإشكال الكمال بن أبى شريف حيث قال : اطلاع البعض ينافى الاستئثار ، أى الاختصاص بعلمه ، فآخر الكلام يدفع أولـه .

وأجاب الشهاب بن قاسم بأنه يمكن أن يقال : المراد بالاستئثار أنه لا طريق للعباد إلى كسبه من الطرق المعهودة للكسب . ا. هـ

أى فلا يصلون إليه بالاكتساب وإنما يصلون إليه بالإلهام(١) .

الإمام علي رضى الله تعالى عنه عنده علم الظاهـر والباطـن :

روى الإمام أبو نعيم فى الحلية عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال: « إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلا له ظهر وبطن ، وإن علىّ بن أبى طالب عنده منه علم الظاهر والباطن »... وروى أيضا عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : كنا نتحدث أن النبى صلى الله

---

(١) الكلمات الحسان فى فضائل ليلة نصف شعبان وتفسير أول سورة الدخان للشيخ حسنين محمد على مخلوف المالكى ص ٢٥ ، ٢٦ .

عليه وآله وسلم عهد إلى على سبعين عهدا لم يعهده إلى غيره .. فهذا تصريح بأن الصحابة رضى الله تعالى عنهم كانوا يعترفون للإمام على بتفوقه فى علوم الحقائق والأسرار ، وهذا مما لا نزاع فيه ، وقد قال فيه النبى صلى الله عليه وآله وسلم : (أنا مدينة العلم وعلىٌ بابها) .. وهو حديث صحيح كما بينه الحافظ أبوالفيض أحمد الغمارى فى كتاب « فتح الملك العلى بصحة حديث باب مدينة العلم علىّ ».. وقال ابن عباس: « سلم الصحابة لعلى تسعة أعشار العلم وشاركهم فى العشر العاشر » وكان عمر رضى الله تعالى عنه يقول : « أعوذ بالله من قضية ليس لها أبو الحسن » يعنى عليا رضى الله تعالى عنه وقال أيضا « لولا علىّ لهلك عمر » ونص المناوى على أن عمر لم يكن يبعث عليا فى الفتوحات مع شجاعته الفائقة لاحتياجه إلى علمه . وقد حصلت حادثة فى عهد أبى بكر رضى الله تعالى عنه أشكلت عليه وعلى الصحابة ، فأرشدهم ابن عباس إلى إحالتها على الإمام علىّ كرم الله وجهه .. فلما أجاب عنها وحل مغلقها قال له أبو بكر والصحابة : يا مفرج الكروب ، وهذه الحادثة مروية فى كتاب « المجتبى » لابن دريد ولهذا كان الإمام علىّ رضى الله تعالى عنه أستاذ الصوفية ورئيسهم فى هذا الشأن كما قال الإمام الجنيد وابن العربى الحاتمى وغيرهما ، وسلسلة الطريق لا تتصل إلا به ولا تنتهى إلا إليه بالتلقين والاقتداء والصحبة كما فصله الحافظ أحمد الغمارى فى « البرهان الجلى فى انتساب الصوفية إلى علىّ »[1] .

---

(١) إعلام أهل الإسلام ص ١٩ ، ٢٠ .

قصة الخضر عليه السلام

دليل قاطع بعلم الظاهر والباطن :

وقد وجد أهل العلم في قصة سيدنا موسى عليه السلام مع سيدنا الخضر عليه السلام مصدرا جزيلا ثريا بالعطاء فى قضية الظاهر والباطن وهى مذكورة فى كتاب الله تعالى فى سورة الكهف[١] . ومروية كذلك فى الصحيحين وغيرهما من كتب السنة الصحيحة . وهذا هو نص الحديث والقصة ..

روى الشيخان بسنديهما عن سعيد بن جبير أنه قال : قلت لابن عباس إن نوفا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل .. فقال ابن عباس : كذب عدو الله ، حدثنى أُبى بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل ، فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال: أنا ، فعتب الله عليه ، إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه، إن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى : يا رب فكيف لى به ؟ قال : تأخذ معك حوتا فتجعله فى مِكْتَل ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ!! فأخذ حوتا فجعله فى مكتل ..

ثم انطلق ، وانطلق معه بفتاه يوشع بن نون ، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما ، واضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه فسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سربا ، وأمسك الله عن الحوت جِرْيَة الماء فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : آتنـا

---

(١) الآيات من رقم ٦٠ ـ ٨٢ .

غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . قال : ولم يجد موسى النصب حتى جاوزا المكان الذى أمر الله به ، فقال له فتاه : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله في البحر عجبا .. قال : فكان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا ، فقال موسى : ذلك ما كنا نبغى فارتدا على آثارهما قصصا .. قال : رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى ثوبا ، فسلم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنّى بأرضك السلام ؟

قال : أنا موسى ، قال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدا . قال : إنك لن تستطيع معى صبرا ، ياموسى إنى على علم من الله علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من الله علمك الله لا أعلمه ..

فقال موسى : ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا، فقال له الخضر: فإن اتبعتنى فلا تسألن عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا .

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نَوْل ـ أى أُجْرة ـ فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم فقال له موسى : قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئا إمرًا !! ..

قال ألم أقل إنك لن تستطيع مع صبرا ؟ قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا . قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكانت الأولى من موسى نسيانا ، قال : وجاء عصفور فوقع على

حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة ، فقال له الخضر : ما علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصور من البحر !!..

ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذا أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله . فقال له موسى : أقتلت نفسا زكية بغير نفس ؟؟ لقد جئت شيئا نكرا !! قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا !! .. قال : وهذا أشد من الأولى .. قال : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا ..

فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض ـ قال مائل ـ فقام الخضر فأقامه بيده ، فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ، لو شئت لاتخذت عليه أجرا . قال : هذا فراق بينى وبينك .. إلى قوله : ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ ..

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (وددنا أن موسى كان صبر حتى يقصَّ الله علينا من خبرهما)[1].

وفى القصة مرويات أخرى من عدة طرق أوردتها مصادر السنة

(١) ينظر صحيح الإمام البخارى : كتاب العلم ١/ ١٧ : ٢٤ وكتاب تفسير القرآن ١٠٣/٣، ٤٠٥ ط حجازى واللفظ منه ـ وينظر صحيح مسلم بشرح النووى : كتاب الفضائل ٥/ ٢٣٠ إلى ٢٤١ ط الشعب وانظر تخريج الحافظ السيوطى لروايات هذه القصة عن الشيخين والترمذى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى وغيرهم فى الدر المنثور ٤/ ٢٢٩ : ٢٤٠ نشر دار المعارف بيروت .

الشريفة ، لا نطيل عنان الكلام بذكرها ـ مراعاة للمقام ـ ونكتفى بهذه الرواية من صحيح الإمام البخارى حيث إنها بمثابة متن القصة ، وبقية الروايات تعطى إضافات بمثابة الشروح أو الحواشى ، توضح بعض الجوانب .

ففى هذا الحديث إثبات لعلم الباطن الذى يقول به الصوفية ، ولهذا قال الجمهور : إن الخضر نبى وكان علمه معرفة بواطن أوحيت إليه ، وعلم موسى الحكم بالظاهر ، نقله أبو حيان فى تفسيره (البحر المحيط) .. فالجمهور ـ كما ترى ـ موافقون للصوفية على إثبات الباطن والظاهر وأن لكل منهم أهلا يختصون به ، فماذا يقول المعترضون؟

وهذا العلم عند الصوفية له أسماء عديده ، فيطلق عليه ، العلم اللدنى وعلم الأسرار ، وعلم المكاشفات ، وعلم الغيوب ، وعلم الموهبة ، وعلم الحقيقة ، والعلم المكنون ، وعلم الباطن ، وليس هو مدعى مذهب الباطنية المارق الذى لا يمت إلى التصوف بصلة .

وهذا العلم الشريف له دليله وسنده من الوحيين النيرين الكتاب والسنة . وقد مضى ذكر الأحاديث التى تدل على ذلك قريبًا فراجعه ودليله من القرآن الكريم قوله تعالى ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ قال العلامة الزمخشرى فى تفسيره ﴿ مِن لَّدُنَّا ﴾ أى مما يختص بنا من العلم، وهو الإخبار بالغيوب [1] .

وقال الإمام فخر الدين الرازى : قوله تعالى ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ يفيد أن تلك العلوم حصلت له من عند الله من غير واسطة ،

---

(١) الكشاف ٤٩٢/٢ ط الحلبى.

والصوفية سموا العلوم الحاصلة بطريق المكاشفة : العلوم اللدنية[١] . وللشيخ أبى حامد رسالة فى « إثبات العلوم اللدنية » .

وقال الإمام أبو القاسم القشيرى فى تفسير هذه الآية السالفة : « قيل العلم من لدن الله : ما يتحصل بطريق الإلهام دون التكلف بالتطلب ويقال : ما يُعرَفُ به الحق سبحانه الخواص من صلاح عباده .

ويقال : ما يُعرِّفُ به الحق سبحانه أولياءه فيما فيه صلاح عباده وقيل : هو ما لا يعود منه نفع إلى صاحبه ، بل يكون نفعه لعباده مما فيه حق الله سبحانه[٢] .

وقد نقل الإمام الألوسى طرفا من أقوال أئمة التصوف فى ماهية العلم اللدنى لدى تفسيره الإشارى لقوله تعالى ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ فقال فى تفسيره : « وقال ذو النون : العلم اللدنى هو الذى يحكم على الخلق بمواقع التوفيق والخذلان » وقال الجنيد - قدس الله سره - : هو الاطلاع على الأسرار من غير ظن فيه ولا خلاف واقع ، لكنه مكاشفات الأنوار عن مكنون المغيبات ، ويحصل للعبد إذا حفظ جوارحه عن جميع المخالفات وأفنى حركاته عن كل الإرادات ، وكان شبحا بين يد الحق بلا تمن ولا مراد ، وقيل : هو علم يُعرِّف به الحق سبحانه - أولياءه ما فيه صلاح عباده ، وقال بعضهم : هو علم غيبى يتعلق بعالم الأفعال وأخص منه الوقوف على بعض سر القدر قبل وقوع واقعته ، وأخص من ذلك علم الأسماء والنعوت الخاصة ، وأخص منه علم الذات[٣] .

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازى ١٥٠/٢١ ط دار الفكر - بيروت .

(٢) لطائف الإشارات للإمام القشيرى ٨٠/٤ نشر دار الكتاب العربى .

(٣) روح المعانى للألوسى : ٢٢/١٦ .

ثم لقد أضاف الشيخ العلامة إسماعيل حقى مفردات رائعة فى تفسيره الفريد إذ قال : « وعلمناه من لدنا علما خاصا ، وهو علم الغيوب والإخبار عنها بإذنه تعالى ، على ما ذهب إليه ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أو علم الباطن[1].

قال فى بحر العلوم[2]: إنما قال ﴿ مِن لَّدُنَّا ﴾ مع أن العلوم كلها من لدنه سبحانه ؛ لأن بعضها بواسطة تعليم الخلق ، فلا يسمى ذلك علما لدنيا ، بل العلم اللدنى هو الذى ينزله فى القلب من غير واسطة أحد ، ولا سبب مألوف من خارج كما كان لعمر وعلى ولكثير من أولياء الله تعالى المرتاضين الذين فاقوا بالشوق والزهد على كل من سواهم[3].

ثم يفيض الشيخ إسماعيل فى بيان نوعية ذلك العلم الذى ذهب الكليم عليه السلام لتلقيه من الخضر عليه السلام ومن أى أنواع العلم الباطن هو فيقول : « واعلم أن التحقيق الحقيق فى هذا المقام : أن العلم المأمور موسى عليه السلام بتعلمه من الخضر هو العلم الباطنى المتعلم بطريق الإشارة ،لا العلم الباطنى المتعلم بطريق المكاشفة ، ولا العلم الظاهرى المتعلم بطريق العبارة.

والدليل عليه : إرسال الحق سبحانه موسى إلى عبده الخضر وعدم تعليمه

---

(١) جاء فى رواية الطبرى عن ابن عباس أنه قال فى شأن الخضر عليه السلام ، وكان رجلا يعلم علم الغيب ، كما أورد تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ بقوله أى إنما تعرف ظاهر ما ترى من العدل ، ولم تحط من علم الغيب بما أعلم .. ينظر تفسير الطبرى ١٥/ ٢٨٠ ط الحلبى .

(٢) هو كتاب بحر العلوم فى التفسير للشيخ علاء الدين على السمرقندى ثم القرمانى تلميذ علاء الدين البخارى المتوفى سنة ٨٦٠ كما فى كشف الظنون لحاجى خليفة ٢٢٥/١ .

(٣) روح البيان ٥/ ٢٧٠ . نشر دار إحياء التراث العربى – بيروت .

بواسطة أمين الوحى جبرائيل ، وتعليم الخضر بطريق الإشارة بالأمور الثلاثة ، لكن لما كان الظاهر بالنظر إلى غلبة جانب علم الظاهر في وجود موسى أن يطلب تعلمه بطريق العبارة لا بطريق الإشارة **وطريقه:** طريق الإشارة لا طريق العبارة قال : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ من طريق التعلم بالإشارة لا بالعبارة ، والغالب عليك هو طريق العبارة لا طريق الإشارة كما أن الغالب على طريق الإشارة لا طريق العبارة ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾[1] . ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴾[2] .

ولابد من التأكيد ههنا على حرص أئمة الصوفية على ضرورة التمسك بظواهر النصوص الشرعية ، وعدم الالتفات إلى ما يناقضها مطلقا مما نص عليه حجة الإسلام الإمام الغزالى ـ قدس الله سره ـ إذ يقول فى الإحياء : « لا يجوز التهاون بحفظ التفسير الظاهر أولا ، ولا مطمع فى الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر » ثم يقول إثر بيانه فهم أرباب القلوب لمعانى الأحاديث النبوية : «وأسرار ذلك كثيرة ولا يدل تفسير ظاهر اللفظ عليه ، وليس هو مناقضا لظاهر التفسير بل هو استكمال له ووصول إلى لبابه عن ظاهره ، فهذا ما نورده لفهم المعانى الباطنة لا ما يناقض الظاهر » والله أعلم[3] .

وهذه صورة أوضح جاءت على لسان إمام من أئمة التصوف وقطب من أقطابه وهو السيد أحمد الرفاعى رضى الله تعالى عنه إذ يقول : « هذا العلم الذى سماه بعضهم علم الباطن هو إصلاح القلب ، فالأول عمل

---

(١) البقرة : ١٤٨ .

(٢) الإسراء : ٨٤ .

(٣) ينظر الإحياء ١/٤٦٢ ، ٤٦٤ ط العثمانية .

بالأركان وتصديق بالجنان ، إذا انفرد قلبك بحسن نيته وطهارة طويته ، وقتلت وسرقت وزنيت وأكلت الربا وشربت الخمر وكذبت وتكبرت وأغلظت القول فما الفائدة من نيتك وطهارة قلبك ؟

وإذا عبدت الله وتعففت وصمت وتصدقت وتواضعت وأبطن قلبك الرياء والفساد فما الفائدة فى عملك [١] .

ومن ثم فلا يلتفت مطلقا إلى إنكار المحجوبين المتعصبين على أولياء الله تعالى المقربين ، إثباتهم العلم اللدنى ولعلوم المكاشفات والمشاهدات ، ما دام الجمع بينها وبين ظواهر النصوص الشرعية ممكنا ، والعجب كل العجب من حدة التعصب فى رفض التسليم بشرعية هذا العلم من قوم يدعون الانتماء إلى السلف الصالح ..

ويزعمون أن ابن تيمية هو إمامهم وقدوتهم فى رفض العلم الباطن وفى تزييف علوم المكاشفة ، وما دروا موقف إمامهم من ذلك على الحقيقة[٢] .

تحرير موقف الشيخ ابن تيمية من علم الباطن :

إن ابن تيمية كان منصفا للصوفية فى إثبات هذا العلم وعدّه من خوارق العادات التى يكرم الله بها أولياءه فقال فى رسالة عقدها لهذا المبحث بعنوان : (**قاعدة شريفة فى المعجزات والكرامات**) وهى ضمن مجموع الفتاوى له : « فما كان للخوارق من باب العلم .. فتارة بأن يسمع

---

(١) البرهان المؤيد ـ للشيخ أحمد الرفاعى ص ٦٨ .

(٢) المعالم الصوفية فى قصة سيدنا موسى والخضر عليهما السلام للدكتور/ جودة المهدى ص ٢٣ ، ٢٤ .

العبد ما لا يسمعه غيره ، وتارة بأن يرى ما لا يراه غيره يقظة أو مناما ، وتارة بأن يعلم ما لا يعلمه غيره ، وحيا أو إلهامًا أو إنزال علم ضروري أو فراسة صادقة ، ويسمى كشفا ومشاهدات ومكاشفات ومخاطبات ، فالسماع مخاطبات والرؤية مشاهدات والعلم مكاشفة ، ويسمى ذلك كله كشفا ومكاشفة ، أى كشف له عنه » [١] .

ثم نجد الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى ـ يطلق على هذه الخوارق العلمية الواقعة للأولياء اسم المعجزات ـ متأسيا في ذلك بالإمام أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه ويعتد منها ما وقع فى قصة سيدنا موسى والخضر عليهما السلام ..

فيقول : «وأما المعجزات التى لغير الأنبياء » من باب الكشف والعلم » .. فمثل قول عمر فى قصة سارية ، وإخبار أبى بكر بأن ببطن زوجته أنثى وإخبار عمر بمن يخرج من ولده فيكون عادلا ـ وهو عمر بن العزيز ـ وقصة صاحب موسى فى علمه بحال الغلام »[٢] .

بل يذهب الشيخ ابن تيمية إلى أن علم الباطن من العلم الذى بُعث به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو قسيم علم الظاهر ، ولا يقل شأنا عنه فيقول فى فتاواه ما نصه بالحرف الواحد : « وكذلك هذا الذى يقول إن محمدا بعث بعلم الظاهر دون علم الباطن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض فهو كافر ، وهو أكفر من أولئك ، لأن علم الباطن الذى هو علم إيمان القلوب ومعارفها وأحوالها هو علم بحقائق الإيمان الباطنة ، وهذا

---

(١) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ج ١١ ص ٣١٣ .
(٢) انظر : المصدر نفسه ج ١١ ص ٣١٨ .

أشرف من العلم بمجرد أعمال الإسلام الظاهرة »[١]. ا. هـ

فمن الغريب أن يسمى بعد ذلك تقسيم العلم إلى ظاهر وباطن ابتداعًا إنها الحقيقة عند جل أهل العلم ومنهم الشيخ ابن تيمية ، ولنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية .

إشكال في الحديث وجوابه :

فى قول سيدنا الخضر عليه السلام لسيدنا موسى عليه السلام « إنى على علم من علم الله علمنيه لا ينبغى لك أن تعلمه ، وأنت على علم من علم الله علمك الله لا ينبغى لى أن أعلمه » إشكال ، وجوابه كما قال الحافظ ابن حجر قوله : « لا ينبغى لك أن تعلمه » أى جميعه فى الجانبين ، وتقدير ذلك معتبر ، لأن الخضر كان يعرف من الحكم الظاهر ما لا غنى للمكلف عنه ، وموسى عليه السلام كان يعرف من الحكم الباطن ما يأتيه بطريق الوحى . ا. هـ.

وقد سلك فى الجواب عنه الشيخ سراج الدين البلقينى فى شرح البخارى مسلكا آخر حيث قال : هذا الحديث قد يشكل ، فإن العلم المذكور فى الجهتين كيف لا ينبغى علمه ؟ وجواب هذا الإشكال أن علم الحقائق والكشوف ينافى علم الظاهر ، فلا ينبغى للعالم الحاكم بالظاهر الذى هو مكلف به ، أن يعلم الحقائق للتنافى ، ولا ينبغى للعالم بالحقيقة أن يعلم العلم الظاهر الذى ليس مكلفا به الذى ينافى ما عنده من الحقيقة.

والمعنى: لا ينبغى لك أن تعلمه لتعمل به ، لأن العمل به مناف لمقتضى الشرع ، ولا ينبغى لى أن أعلمه فأعمل بمقتضاه لأنه مناف لمقتضى الحقيقة.

---

(١) فتاوى الشيخ ابن تيمية جـ ٢٢٥/١١ ، وينظر الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان للشيخ ابن تيمية ص ٨٢ .

فعلى هذا لا يجوز للولى التابع للنبى صلى الله عليه وآله وسلم إذا اطلع على حقيقة أن ينفذ ذلك بمقتضى الحقيقة ، وإنما عليه أن ينفذ الحكم الظاهر. ا.هـ.

ويؤيد حمل العلم على التنفيذ ما جاء فى رواية لمسلم : أن الخضر قال لموسى عليه السلام : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ شيء أمرت به أن أفعله إذا رأيته لم تصبر ..

فهذا صريح فى حمل العلم على تنفيذه ..

ومن التساؤلات الملحة التى تفرض نفسها على بساط البحث فى هذه القصة : كيف كان سيدنا الخضر وهو المفضول عن الكليم ـ أعلم منه ؟ وكيف يتبع الأفضل مفضوله وينال منه تربيته وتعليمه ؟ وهل العلم الذى أبداه له فى القصة مما يمكن تعلمه ؟

وجوابا عن التساؤلين الأولين معا يقول الشيخ إسماعيل حقى رحمه الله تعالى (قال شيخى وسندى روّح الله روحه ـ تعليم موسى وتربيته بالخضر إنما هو من قبيل تعليم الأكمل وتربيته بالكامل ، لأنه تعالى قد يطلع الكامل على أسرار يخفيها عن الأكمل ، وإذا أراد أن يطلع الأكمل عليها أيضا فقد يطلعه بالذات ، وقد يطلعه بواسطة الكامل ، ولا يلزم من توسط الكامل أن يكون أكمل من الأكمل أو مثله ، والكامل كامل مطلقا ، والأكمل أكمل مطلقا ، والرجحان للأكمل جدا ، ولا تسمع إلى غير ذلك مما يقول الضالون .. وقول الخضر لموسى عليه السلام ، يا موسى أنت على علم علمك الله ... وأنا على علم علمنى الله .. ، إنما هو بناء على الامتياز المعتبر بينهما بحسب الغالب فى نشأة كل منهما ، وإلا فالعلم للظاهر والباطن حاصلان فى نشأة كل منهما . ا. هـ .

وفهم منه جواب ما سبق من قوله ، إن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك ، فإن المراد إثبات أعلميته فى علم من العلوم الخاصة دون سائرها .. وقد انعقد الإجماع على أن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم أعلم الخلق ، وأفضلهم على الإطلاق وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم [أنتم أعلم بأمور دنياكم](١) .(٢)

وأما عن جواب التساؤل الثالث : فيقول الإمام الفخر الرازى رحمه الله تعالى وهذا النوع من العلم لا يمكن تعلمه(٣) ، وموسى عليه السلام إنما ذهب إليه ليتعلم منه العلم ، فكان من الواجب على ذلك العالم أن يظهر له علما يمكن له تعلمه ، وهذه المسائل الثلاث ــ يعنى خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار ــ لا يمكن تعلمها ، فما الفائدة فى ذكرها وإظهارها ؟؟

والجواب أن العلم بظواهر الأشياء يمكن تحصيله بناء على معرفة الشرائع الظاهرة .

وأما العلم ببواطن الأشياء : فإنما يمكن تحصيله بناء على تصفية الباطن وتجريد النفس وتطهير القلب عن العلائق الجسدانية ، ولهذا قال تعالى فى صفة ذلك العالم : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾.

---

(١) رواه مسلم عن السيدة عائشة وأنس رضى الله تعالى عنهما وأخرجه السيوطى فى الجامع الصغير بلفظ ، أنتم أعلم بأمر دنياكم جـ ١٠٨/١ ط الحلبى.

(٢) تفسير روح البيان للشيخ إسماعيل حقى ٢٧٤/٥ .

(٣) أى بدليل قوله تعالى حكاية عن سيدنا الخضر قوله لسيدنا موسى عليهما السلام ، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ، حيث نفى استطاعته الصبر معه فى تبعيته واستبعد حصوله على ما لم يقف الإنسان على حقيقته ، ومناط الاستبعاد : غلبة جانب العلم الظاهر وعلم الرسالة لدى الكليم عليه السلام على جانب علم الباطن وعلم الولاية إذ الحكم للأغلب القاهر . ذكره صاحب روح البيان .

ثم إن موسى عليه السلام لما كملت مرتبته فى علم الشريعة بعثه الله إلى هذا العالم ليعْلم موسى عليه السلام أن كمال الدرجة فى أن ينتقل الإنسان من علوم الشريعة المبنية على الظواهر إلى علوم الباطن المبنية على الإشراف على البواطن والتطلع إلى حقائق الأمور[١].

العلم بالمغيبات الموهوبة :

وفى الحديث مسألة أخرى أشار إليها العلامة الأبى فى شرح مسلم حيث قال – فى شرح قول موسى عليه السلام – « هل أتبعك » إلخ .. :

علم الخضر هو العلم بالمغيبات الموهوبة اللدنية غير المكتسبة ، فكيف يسأل تعليم ما لا يُكتسب؟ وكان الشيخ – يعنى شيخه – ابن عرفة الذى قيل فيه : إنه المجدد على رأس المائة الثامنة – يجيب بأن ذلك قد يكون باعتبار تعلم أسبابه ، فيمكن اكتسابها بالتزام نوع من طاعة الله تعالى ا. هـ

وهو يشير إلى ما اتفق عليه الصوفية أن المجاهدة والتزام الذكر مع حضور القلب يورث علوما وهبية ، ويؤيده ما رواه الحسين المروزى فى زوائد الزهد لشيخه عبد الله بن المبارك فقال: حدثنا أبو معاوية أنبأنا حجاج عن مكحول عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: « من أخلص لله أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » إسناده صحيح ، ورواه ابن عدى فى الكامل من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف ، ورواه أبو نعيم فى الحلية من حديث أبى أيوب بإسناد ضعيف أيضا[٢].

---

(١) ينظر التفسير الكبير للرازى ٢١/ ١٦٠ ، ١٦١ ط دار الفكر بلبنان.

(٢) الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام ص ١٨ .

النبى صلى الله عليه وآله وسلم يحكم بالظاهر والباطن ولم يكن ذلك لأحد سواه:

هذا وقد ألف السيوطى رسالة جيدة فى هذا الموضوع (الحكم بالظاهر والباطن) بالنسبة للنبى صلى الله عليه وآله وسلم أسماها « الباهر فى حكم النبى صلى الله عليه وآله وسلم بالباطن والظاهر » وهى جديرة بالاطلاع ففيها بيان شاف كاف فى إثبات خصوصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى حكمه بالباطن والحقيقة وأن الله قد جمع له بين الحكم بالظاهر والباطن مستندا فى ذلك إلى أدلة ظاهرة جلية .. فيقول :

الموجب لكتابة هذه الأوراق أننى قررت أن من خصائص النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه جمع له بين الحكم بالظاهر والشريعة كما هو للأنبياء وبين الحكم بالباطن والحقيقة كما هو للخضر عليه السلام، خصوصية خصه الله بها[1] ، والمستند فى ذلك نقول العلماء وأحاديث .

أما النقول ، فقسمان : تفصيلية وإجمالية ..

فالتفصيلية :

قال القرطبى فى « تفسيره » أجمع العلماء عن بكرة أبيهم على أنه ليس لأحد أن يقتل بعلمه إلا النبى صلى الله عليه وآله وسلم خاصة انتهى.

وناهيك بنقل الإجماع عن هذا الإمام الجليل .

وقال ابن دحية : « اختص النبى صلى الله عليه وآله وسلم بأنه كان

---

(١) ذكر ذلك المصنف رحمه الله تعالى فى « أنموذج اللبيب فى خصائص الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم » ص ٢٢ .

له قتل من اتهمه بالزنا من غير إقامة بينة ، ولا يجوز ذلك لغيره » ..

ونقل ذلك الزركشي فى « الخادم » ..

وقال الرافعي فى « الشرح » والنووى فى « الروضة » : « ومن خصائصه صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان له أن يقضى بعلمه فى الحدود وفى غيره خلاف » قال القاضي جلال الدين البلقيني فى حواشي « الروضة » ظاهر كلام الشيخين – يعنى الرافعي والنووى – أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم يقضى بعلمه مطلقا ، سواء كان فى الحدود وغيرها ، وأنه لا خلاف فى ذلك » .. انتهى.

وهذا موافق لنقل القرطبي الإجماع ، لأن المذاهب متفقة على أن غيره لا يقضى بعلمه فى حدود الله سبحانه وتعالى ، وإنما جرى الخلاف فى غيرها فجوزناه نحن ومنعه بقية المذاهب ، ولم يجْرِ فى النبى صلى الله عليه وآله وسلم خلاف لا فى الحدود ولا فى غيرها ..

وأما النقل الإجمالى :

فقد قال العلماء : ما أوتى نبى معجزة ولا فضيلة إلا ولنبينا صلى الله عليه وآله وسلم نظيرها أو أعظم منها .

وقد حكوا عن الإمام الشافعي رضى الله تعالى عنه ، وأنه قيل له لما قال ذلك : قد أوتى عيسى عليه السلام إحياء الموتى .. قال : فقد أوتى صلى الله عليه وآله وسلم حنين الجذع وهو أعظم[1] .

وقد شاعت هذه المقالة ، حتى إن كل من صنف فى الفضائل النبوية

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقى ١/٤٢٦ .

ذكرها .. قال بدر الدين بن حبيب فى كتاب « النجم الثاقب فى أشرف المناقب »[١].

« ولم يعط أحد من الأنبياء عليهم السلام فضيلة مستفادة إلا وقد أعطاه الله مثلها وزيادة ».

وإذا ثبت ذلك ، فلابد أن يكون له نظير ما كان للخضر عليه السلام من تنفيذ الحكم بالباطن والحقيقة ، مضافًا إلى الحكم بالظاهر والشريعة الذى هو لغالب الأنبياء عليهم السلام ، فأعطى نظير ما أعطيه غالب الأنبياء ، ونظير ما أعطيه الخضر ، وخص بالجمع بين الأمرين من حيث أبيح له الحكم بهذا ، والحكم بهذا ، ولم يحظر عليه شيء[٢] ..

وأما الأحاديث فعدة :

الحديث الأول :

أخرج البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت : اختصم سعد بن أبى وقاص وعبد بن زمعة رضى الله تعالى عنهما فى غلام ، فقال سعد : يا رسول الله ، هذا ابن أخى عتبة بن أبى وقاص عهد إلىَّ أنه ابنه ، انظر إلى شبهه .

وقال عبد بن زمعة : هذا أخى يا رسول الله ، ولد على فراش أبى ، ولده من وليدته ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى شبهه ، فرأى شبها بيِّنا بعتبة ، فقال : « هو لك يا عبد بن زمعة ، الولد للفراش

---

(١) ص ٢٤ منه .
(٢) الباهر فى حكمه صلى الله عليه وآله وسلم بالباطن والظاهر ص ٢٦ : ٢٨

وللعاهر الحجر ، واحتجبى منه يا سودة بنت زمعة » قالت : فلم تره سودة رضى الله تعالى عنها قط .

وفى لفظ عند البخارى وأبى داود : « هو أخوك يا عبدُ »

وفى لفظ : فما رآها حتى لقى الله ..

وفى لفظ مسلم : قالت عائشة رضى الله تعالى عنها فوالله ما رآها حتى ماتت ..

قال الشيخ سراج الدين بن الملقن والحافظ ابن حجر : استدلَّ بهذا الحديث على أن حكم الحاكم بالظاهر لا يحل الأمر فى الباطن ، فإنه حكم بأنه أخو عبد بن زمعة لقوله فى الطرق الصحيحة : « هو أخوك يا عبد » وإذا ثبت أنه أخو عبدٍ لأبيه ، فهو أخو سودة لأبيها ، ثم أمرها بالاحتجاب منه ، فلو كان الحكم يُحل الأمر بالباطن لما أمرها بالاحتجاب منه .

قال ابن الملقن : وقد قال بعض الحنفية : لا يجوز أن يجعله صلى الله عليه وآله وسلم ابنا لزمعة ، ثم يأمر أخته أن تحتجب منه ، فهذا محال.

قال ابن الملقن : ليس بمحال ، بل له وجه ..

قال : وقد وقع فى رواية البخارى فى « المغازى » ، « هو أخوك يا عبد ابن زمعة » .. ووقع فى « مسند أحمد » و « سنن النسائى » :« واحتجبى منه يا سودة فليس لك بأخ » ..

واختلف فى تصحيحها فأعلها البيهقى ، وقال المنذرى : إنها زيادة غير ثابتة ، ورواها الحاكم فى « مستدركه » ، وصحح إسنادها .. انتهى

وقال الحافظ ابن حجر : « رجال إسناد هذه الرواية رجال الصحيح إلا شيخ مجاهد ، وهو يوسف مولي آل الزبير ، قال : وقد طعن البيهقى فى سنده ، فقال : فيه جرير . وقد نسب فى آخر عمره إلى سوء الحفظ ، وفيه يوسف ، وهو غير معروف .

قال : وتعقب بأن جريرا هذا لم ينسب إلى سوء الحفظ ، وكأنه اشتبه عليه بجرير بن حازم ، وبأن يوسف معروف من موالى آل الزبير قال : فإذا ثبتت هذه الزيادة ، تعين تأويل نفى الأخوة عن سودة رضى الله تعالى عنها .:

قال : وقد نقل ابن العربى عن الشافعى أنه أوله ، وقال : « ولو كان أخاها بنسب محقق لما منعها ، كما أمر عائشة رضى الله تعالى عنها أن لا تحتجب من عمها من الرضاعة » انتهى ..

فحاصله أنه جعله أخا لعبد بظاهر الشرع ، لأن الولد للفراش ، ونفى أخوته عن سودة عملا بمقتضى الباطن ، وما اطلع عليه ، والحقيقة فهذا حكم فى هذه القضية الواحدة بالظاهر والباطن معا »[١] .

الحديث الثانى :

قال النسائى:[٢] . أنبأنا سليمان بن سلم المصاحفى البلخى قال : حدثنا النضر بن شُمَيْل قال : حدثنا حماد قال : أنبأنا يوسف بن سعد عن الحارث ابن حاطب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أُتى بلصٍّ فقال : اقتلوه فقالوا يارسول الله : إنما سرق فقال : اقتلوه ، قالوا : يارسول الله : إنما سرق،

---

(١) الباهر ص ٣٢ : ٣٤ .

(٢) السنن الكبرى ٣٤٨/٤ (باب قطع الرِّجْل من السارق بعد اليد) .

قال : اقطعوا يده ، فقال : ثم سرق فقطعت رجله ثم سرق على عهد أبى بكر حتى قطعت قوائمه كلها ثم سرق أيضا الخامسة فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعلم بهذا حين قال : اقتلوه ، ثم دفعه إلى فتية من قريش ليقتلوه ، منهم عبد الله بن الزبير ، وكان يحب الإمارة فقال : أمّروني عليكم فأمروه ، فكان إذا ضربه ضربوه حتى قتلوه .

أخرجه الحاكم فى المستدرك[١] .. قال : حدثنى أبو بكر محمد بن أحمد بن بالويه حدثنا إسحاق بن الحسن بن الحربى ، حدثنا عفّان بن مسلم حدثنا حماد بن سلمة عن يوسف بن سعد ، وقال : صحيح ا. هـ

ورجاله رجال الصحيح سوى يوسف بن سعد الجمحى وهو ثقة كما قال الذهبى فى الكاشف[٢].

وقد أخرجه الطبرانى[٣] من طريق حماد بن سلمة به .

وأخرجه من طريق آخر عن خالد الحذاء عن يوسف[٤].

وأخرجه أبو يعلى ، والهيثم بن كليب الشاشى فى مسنديهما[٥]، وصححه أيضا المقدسى فأخرجه فى « المختارة » وهذا من الحكم بالحقيقة.

فقد نقل الخطابى اتفاقا على أن السارق لا يقتل بحال ، وهو يدل على

---

(١) جـ٤/٤٢٣ .

(٢) جـ٢/٣٩٩ (٦٤٣٤) .

(٣) المعجم الكبير ٣/٢٧٦ (٣٤٠٨) .

(٤) المصدر السابق ٣/٢٧٩ (٣٤٠٩)

(٥) مسند أبى يعلى ١/٤٧ (٢٨) ورواية الهيثم بن كليب الشاشى رواها المقدسى فى المختارة بسنده إليه ١/١٢٨ (٤١) .

أنه كان مخيرا بين الحكم بظاهر الشريعة وبباطن الحقيقة ، فأمر أولا بقتله على مقتضى الحقيقة ، فراجعوه ، وأمر ثانيا بقتله أيضا فراجعوه فأمر بقطعه على مقتضى الشريعة .

فلما سرق الخامسة نفذ أبو بكر حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقتله كما صرح بإسناده إليه .

فإن توهم جاهل أنه إنما قتله باجتهاده فهذا من أعظم الجهل ..

ويـرده أمـران :

الأول : تصريح أبى بكر باستناده إلى أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقتله ولا يكون الاجتهاد مع وجود النص ..

والثانى : أن الخطابى قال : إنه لم يذهب أحد من الفقهاء إلى أن السارق يقتل[١] .

فدل على أن أبا بكر لم يفعل ذلك باجتهاد ، بل بنص فى هذا الرجل بخصوصه .

ثم قال الخطابى : فيحتمل أن يكون هذا معلوما من أمره أنه سيعود إلى سوء فعله ، ولا ينتهى عنه حتى تنتهى حياته ، ويحتمل أن يكون إنما ذلك بوحى من الله ، أو اطلاع منه على ما سيكون ، فيكون معنى الحديث خاصة فيه . ا.هـ

وهذا الذى قاله الخطابى هو عين ما نحن فيه[٢] .

---

(١) معالم السنن للخطابى ٣/٣١٤ .
(٢) الباهر ص ٣٩ .

الحديث الثالث :

قال أبو بكر بن أبى شيبة فى « مسنده »[(١)]. حدثنا زيد بن الحُباب ، حدثنا موسى بن عبيدة ، حدثنا هود بن عطاء اليمانى ، عن أنس قال : كان فيناً شاب ذو عبادة وزهد واجتهاد فسميناه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلم يعرفه ، ووصفناه بصفته فلم يعرفه ، فبينا نحن كذلك إذ أقبل الرجل فقلنا يارسول الله : هو هذا فقال صلى الله عليه وآله وسلم :(إنى لأرى فى وجهه سفعة من الشيطان) فجاء فسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (أجعلت فى نفسك أن ليس فى القوم خير منك ؟) فقال : اللهم نعم ، ثم ذهب فدخل المسجد فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (من يقتل الرجل ؟) فقال أبو بكر : أنا ، فدخل فإذا هو قائم يصلى .. فقال : أقتل رجلا يصلى ؟ وقد نهانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قتل المصلين ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من يقتل الرجل ؟ فقال عمر : أنا يا رسول الله .. فدخل المسجد فإذا هو ساجد ..فقال : مثل أبى بكر ، وزاد : لأرجعن ، فقد رجع من هو خير منى فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .. مه يا عمر ، فذكر له ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من يقتل الرجل ؟ فقال على : أنا يا رسول الله .. فقال : أنت تقتله إن وجدته ، فدخل المسجد فوجده قد خرج، فقال عليه الصلاة والسلام : أما والله لو قتلته ، لكان أولهم وآخرهم ، وما اختلف فى أمتى اثنان ، .. أخرجه ابن المدينى فى (مسند الصديق) عن زيد بن الحباب، به ، وقال هود بن عطاء لا يحفظ عنه غير هذا الحديث.

---

(١) المطالب العالية : للعسقلانى ٥/٥٤ (٤٤٤٢/١)

وأخرجه أبو يعلى فى مسنده من طريق موسى به، وموسى وشيخه فيهما لين ، ولكن للحديث طرق متعددة تقتضي ثبوته(١) .

ثم ساق السيوطى الحديث من طرق أخرى عن أنس عند أبى يعلى فى مسنده وعند البيهقى فى « دلائل النبوة »(٢) . وعن يزيد الرقاش مرسلا عند عبد الرزاق فى « المصنف »(٣) . وعن أنس أيضا عند البزار فى « مسنده »(٤) . وعن جابر عند ابن أبى شيبة وأحمد بن منيع فى « مسنديهما »(٥) . وعن أبى بكرة عند الإمام أحمد فى مسنده(٦) .

الحديث الرابع :

قال ابن سعد فى « الطبقات » : أنبأنا محمد بن عمر الواقدى عن شيوخه فقالوا : كان سويد بن الصامت قد قتل أبا مجذَّر بن زياد فى وقعة التقيا فيها فى الجاهلية ، فظفر المجذَّر بسويد فقتله ، وذلك قبل الإسلام ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة ، أسلم الحارث بن سويد ، ومجذر بن زياد وشهدا بدرا . فجعل الحارث يطلب مجذرا ليقتله بأبيه ، فلا يقدر عليه .

فلما كان يوم أحد وجال المسلمون تلك الجولة ، أتاه الحارث من خلفه فضرب عنقه ، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حمراء الأسد أتاه جبريل عليه السلام فأخبره أن الحارث بن سويد قتل مجذَّر

---

(١) الباهر ص ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ . (٢) ٢٨٧/٦ .

(٣) ١٥٥/١٠ (١٩٦٧٤) ببعض اختلاف فى ألفاظه وزيادة فى متنه

(٤) مختصر زوائد البزار للعسقلانى ٥٣/٢ (١٤٠٧) .

(٥) المطالب العالية للعسقلانى ٢٩٢/٣ (٣٠٠٩/١) .

(٦) ٢٣/٦ (١٩٩١٨) .

ابن زياد غيلةً ، وأمره أن يقتله .

فركب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى قباء فى ذلك اليوم ، فى يوم حار ، فدخل مسجد قباء فصلى فيه ، وسمعت به الأنصار ، فجاءت تسلم عليه وأنكروا إتيانه في تلك الساعة وفى ذلك اليوم ، حتى طلب الحارث بن سويد فى مِلحْفةٍ مُوَرسَةَ .

فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا عُوَيْم بن ساعدة ، فقال : « قَدِّم الحارث بن سويد إلى باب المسجد ، فاضرب عنقه بمجذَّر بن زياد فإنه قتله غيلَةً » .

فقال الحارث : قد والله قتلته ، وما كان قتلى إياه رجوعا عن الإسلام ولا ارتيابا فيه ، ولكن حمية من الشيطان ، وأمر وكلت فيه إلى نفسى ، وإنى أتوب فيه إلى الله ورسوله ، وأستغفره مما عملت ، وأخرج ديته وأصوم شهرين متتابعين ، وأعتق رقبة ، حتى إذا استوعب كلامه قال: « قدمه يا عويم فاضرب عنقه بمجذّر بن زياد » فقدمه فضرب عنقه.

فقال حسان بن ثابت فيه شعراً :

يا حارِ فى سِنَةٍ من نوم أو لكم

أم كنت ويحك مغتراً بجبريـــل

أم كنت يا ابن زياد حين تقتلـه

بغِرَّةٍ فى فضاء الأرض مجهول[1]

---

(١) ذكره الواقدى مطولا فى « المغازى » ١/٣٠٣/٣٠٥ .

قال ابن الأثير : اتفق أهل النقل على أن الحارث بن سويد هو الذى قتل المجذَّر بن زياد فقتله النبى صلى الله عليه وآله وسلم[١] .

وهذا الاتفاق الذى نقله ابن الأثير ، يقتضى الحكم بصحة الحديث ، وإن لم يكن إسناده على شرط الصحة ، كما تقرر فى علم الحديث ، وذكره ابن عبد البر فى التمهيد وغيره .

وهذا الحكم المذكور فيه من الحكم بمقتضى الحقيقة والاطلاع على الباطن ؛ لأنه لم يقع فيه دعوى من الوارث ، ولا طُلب منه القصاص ، ولا قبول الدية ، ولا تأخير لبلوغ من كان من الورثة صغيراً .

وكل هذه الأمور من مقتضيات الشريعة ، وركب النبى صلى الله عليه وآله وسلم وجاء بنفسه لتنفيذ الحكم ، وما فعل ذلك فى سائر الوقائع التى حكم فيها بالقصاص ، بل كان يجلس فى بيته ، أو فى مسجده حتى يأتيه الوارث ويدعى ويُثبت القتل ، ويطلب القصاص ، ويرغبه النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى العفو ، كما ورد فى الحديث ، ما رُفع إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم قصاص إلا أمر فيه بالعفو » .

وقد نقل البلقينى فى حواشى الروضة عن ابن المنذر والطبرى أنهما استدلا على أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يقضى بالعلم بحديث « خذى من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفى بنيك » .. ووجه ذلك : أنه صلى الله عليه وآله وسلم حكم لها من غير أن يطالبها بالبينة على الزوجية[٢] .

---

(١) نقله الحافظ ابن حجر فى الإصابة ١٠/ ٢٨٠ .

(٢) المرأة المشار إليها فى هذا الحديث هى هند امرأة أبى سفيان بن حرب حين شكت إليه صلى الله عليه وآله وسلم شح زوجها ، والحديث رواه مسلم فى صحيحه ٣/ ٣٣٨

فإن قيل : إنما قتله من غير دعوى الوارث ولا طلبه ، ولا مما ذكرت لأنه جاء الوحى بذلك .

قلت : نعم ، وهو نفس المدعى ، فإن معنى الحكم بالحقيقة أن يوحى إليه بحقيقة الحال وباطن الأمر ، ويؤمر بتنفيذ ذلك من غير توقف على وجود الشرائط التى تعتبر فى الشريعة .

هذا معنى الحكم بالحقيقة ، لا معنى له غيره ، وما قتل الخضر الغلام إلا بوحى أوحاه الله إليه ، وأطلعه على أنه طبع كافرا ، وأمره أن يقتله فى الحال من قبل أن يوجد الشرطان المعتبران فى الشريعة ، وهما : البلوغ ومباشرة الكفر ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾[1] . أى : مافعلته إلا بوحى من الله ، وأمره لى بذلك .

قال أبو حيان فى تفسيره : « الجمهور على أن الخضر نبى ، وكان علمه معرفة بواطن أوحيت إليه ، وعلم موسى الحكم بالظاهر »[2] .

الحديث الخامس :

قال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا عبد الملك أبو جعفر ، عن أبى نَضْـرة ، عن سعد بن الأطول : أن أخاه مات وترك ثلاثمائة درهم وترك عيالا فأردت أن أنفقها على عياله،

---

(١) الكهف آية ٨٢ .

(٢) وكذا قال القرطبى فى تفسيره ٥/٣٩١ وقال : « والخضر نبى عند الجمهور » وقال الحافظ بن حجر فى الفتح ١/٢٦٥ : « عند قوله « هو أعلم منك » ظاهر فى أن الخضر نبى بل نبى مرسل ، وتوسع الحافظ فى الإصابة ١/٤٢٩ فى ترجمة الخضر وذكر الأقوال فيه ، كما له رسالة فى ذلك سماها : « الزهر النضر فى نبأ الخضر » ، وللسيوطى رسالة بعنوان « الوجه النضر فى ترجيح نبوة الخضر » مخطوط ببرلين.

فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : (إن أخاك محبوس بدينه فاقضِ عنه) .. فقال يارسول الله: قد أديت عنه إلا دينارين ادعتهما امرأة وليس لها بينة فقال : (أعطها فإنها محقة) أخرجه ابن ماجه[١] .

قال الحافظ زين الدين العراقى فى كتاب « قرة العين بالمسرة بوفاء الدين » .. هذا حديث حسن .. انتهى

وهذا من الحكم بالباطن ، فإن ظاهر الشريعة فى مثل هذا أنه لا بد من البينة ، ومن اليمين أيضا وجوبا ، لأنها دعوى على ميت ، خصوصا والورثة صغار ، ومع ذلك حكم بالأداء بدونهما لاطلاعه على الباطن[٢] .

الحديث السادس :

قال عبد الرزاق فى المصنّف[٣] .عن ابن جريج قال : أخبرنى عكرمة ابن خالد أن أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث أخبره : أن امرأة جاءت امرأة فقالت : إن فلانة تستعيرك حليا ، وهى كاذبة.. فأعارتها إياه ، فمكثت أياما لا ترى حليها فجاءت التى كذبت على فيها فسألتها حليها فقالت : ما استعرت منك حليا ، فرجعت إلى الأخرى فسألتها حليها فأنكرت أن تكون استعارت منها شيئا ، فجاءت النبى صلى الله عليه وآله وسلم فدعاها فقالت : والذى بعثك بالحق نبيا ، ما استعرت منها شيئا فقال صلى الله عليه وآله وسلم : (اذهبوا فخذوه من تحت فراشها) .. فأخذوه وأُمر بها فقطعت.

هذا مرسل صحيح الإسناد ، وورد أيضا من مرسل سعيد بن المسيب

---

(١) السنن ٢/٨١٣ (٢٤٣٣) .
(٢) الباهر ص ٥٠ وما بعدها ٥٤ .
(٣) ١٠/٢٠٣/١٨٨٣٣ .

فصار صحيحا على مذهب الشافعي وغيره[١] .

الحديث السابع :

قال الطبراني في الكبير :[٢] حدثنا الحسين بن إسحاق ، حدثنا فروة ابن عبد الله بن سلمة الأنصارى ، حدثنى هارون بن يحيى الحاطبى ، حدثنا زكريا بن إسماعيل بن يعقوب بن إسماعيل بن زيد بن ثابت عن أبيه إسماعيل عن عمه سليمان بن زيد بن ثابت قال : قال زيد بن ثابت : غدونا يوما غدوة من الغدوات مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى كنا فى مجمع طرق المدينة ، فبصرنا بأعرابى أخذ بخطام بعيره حتى وقف على النبى صلى الله عليه وآله وسلم ونحن حوله ، فقال : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، فرد عليه النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال : فكيف أصبحت ؟ قال : ورغا البعير وجاء رجل كأنه حرسىٌ ، فقال الحرسىّ : يارسول الله : هذا الأعرابى سرق البعير ، فرغا البعير ساعة وحن ، فأنصت له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسمع رغاءه وحنينه . فلما هدأ البعير ، أقبل النبى صلى الله عليه وآله وسلم على الحرسىّ فقال : انصرف عنه ، فإن البعير شهد عليك أنك كاذب. فانصرف الحرسىّ ، وأقبل النبى صلى الله عليه وآله وسلم على الأعرابى فقال : أى شىء قلت حين جئتنى ؟ قال : قلت بأبى أنت وأمى ، اللهم صلِّ على محمد حتى لا تبقى صلاة ، اللهم وبارك على محمد حتى لا تبقى بركة ، اللهم وسلم على محمد حتى لا يبقى سلام . اللهم وارحم

---

(١) الباهر : ٥٤ ، ٥٥ .

(٢) جـ ١٤١/٥ (٤٨٨٧)

محمدا حتى لا تبقى رحمـة .. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (إن الله عز وجل أبداها لى ، والبعير ينطق بعذره ، وإن الملائكة قد سدوا الأفق) ..

وقال الحاكم فى المستدرك[(١)] : حدثنى أبو محمد الحسن بن إبراهيم الأسلمى الفاسى من أصل كتابه حدثنا جعفر بن درستويه ، حدثنا اليمان بن سعيد المصيصى ، حدثنا يحيى بن عبد الله المصرى ، حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن سالم عن عبد الله بن عمر قال :

كنا جلوسا حول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ دخل أعرابى جهورى بدوى يمانى على ناقة حمراء ، فأناخ بباب المسجد ، فدخل فسلم على النبى صلى الله عليه وآله وسلم ثم قعد..

فلما قضى نحبه قالوا : يارسول الله .. إن الناقة التى تحت الأعرابى سرقة ، ثم قال : أثم بينة ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : يا على خذ حق الله من الأعرابى إن قامت عليه البينة ، وإن لم تقم فرده إلى .. فأطرق الأعرابى ساعة ، فقال له النبى صلى الله عليه وآله وسلم قم يا أعرابى لأمر الله ، وإلا فأدل بحجتك فقالت الناقة من خلف الباب : والذى بعثك بالكرامة يا رسول الله ، إن هذا ما سرقنى ولا ملكنى أحد سواه .. فقال له النبى صلى الله عليه وآله وسلم: يا أعرابى : بالذى أنطقها بعذرك، ما الذى قلت ؟ قال : قلت : اللهم إنك لست برب استحدثناك ولا معك إله أعانك على خلقنا ، ولا معك ربٌ فنشك فى ربوبيتك أنت ربنا كما تقول ، وفوق ما يقول القائلون، أسألك أن تصلى على محمد وأن تبرأنى ببراءتى.

---

(١) جـ ٢/٦٧٦ (٤٢٣٦)

فقال له النبى صلى الله عليه وآله وسلم (والذى بعثنى بالكرامة يا أعرابى : لقد رأيت الملائكة يبتدرون أفواه الأزقة يكتبون مقالتك ، فأكثر الصلاة عليَّ..)

قال الحاكم : رواة هذا الحديث عن آخرهم ثقات ، ويحيى بن عبد الله المصرى هذا ، لست أعرفه بعدالة ولا بجرح[١].

---

(١) الباهر : ٥٨ ، ٥٩ .

الفصـل الثالـث

قضية الإلهـام أو التحديث

من القضايا التى يثيرها المنكرون على التصوف الإسلامى وأتباعه قضية الإلهام أو التحديث ، حيث يرمونهم بأنهم يدعون علم الغيب ويدخلونهم فى جماعة الدجالين والمشعوذين ، وهم من هؤلاء براء كل البراءة ؛ ذلك بأن الإلهام له أصل فى السنة ، فقد ورد فى البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (لقد كان فيمن قبلكم من الأمم محدَّثون ، فإن يكن فى أمتى أحد فإنه عمر) .. وفى رواية (قد كان فيمن قبلكم من بنى إسرائيل يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء ، فإن يكن فى أمتى أحد فعمر) ..

ورواه مسلم من حديث عائشة رضى الله تعالى عنها ولفظه (قد كان يكون فى الأمم قبلكم محدَّثون ، فإن يكن فى أمتى منهم أحد فعمر منهم) قال ابن وهب : تفسير محدَّثون ـ بفتح الدال المشدده ـ ملهمون .

قال أكثر العلماء : الملهَم هو الرجل الصادق الظن ، يلْقَى فى روعه شىء من قبل الملأ الأعلى فيكون كالذى حدثه غيره به ، وقيل : مكلَّم تكلمه الملائكة من غير نبوة ، كما تقدم فى إحدى روايتى أبى هريرة .

وجاء فى حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قيل : يارسول الله : وكيف يحدَّث ؟ قال : (تتكلم الملائكة على لسانه) رواه

الجوهري في فوائده . قال الحافظ ابن حجر : ويحتمل رده إلى المعنى الأول : أي تكلمه في نفسه ، وإن لم ير مكلماً في الحقيقه فيرجع إلى الإلهام ..

وقوله (فإن يكن في أمتي أحد) إلخ .. قال الحافظ ابن حجر : قيل لم يورد هذا القول مورد الترديد ، فإن أمته أفضل الأمم ، وإذا ثبت أن ذلك وجد في غيرهم فإمكان وجوده فيهم أولى ، وإنما أورده مورد التأكيد كما يقول الرجل : إن يكن لي صديق فإنه فلان ، يريد اختصاصه بكمال الصداقة ، لا نفي الأصدقاء ..

وقيل : الحكمة فيه أن وجودهم في بني إسرائيل كان قد تحقق وقوعه وسبب ذلك احتياجهم؛ حيث لا يكون حينئذ فيهم نبي ، واحتمل عنده صلى الله عليه وآله وسلم ألا تحتاج هذه الأمة إلى ذلك لاستغنائها بالقرآن ـ حتى إن المحدَّث منهم إذا تحقق وجوده لا يحكم بما وقع له، بل لابد من عرضه على القرآن ، فإن وافقه أو وافق السنة عمل به ، وإلا تركه وهذا ـ وإن جاز أن يقع ـ لكنه نادر ممن يكون أمره منهم مبنيا على اتباع الكتاب والسنة ، وتمحضت الحكمة في وجودهم وكثرتهم بعد العصر الأول ، في زيادة شرف هذه الأمة بوجود أمثالهم فيها ، وقد تكون الحكمة في تكثيرهم مضاهاة بني إسرائيل في كثرة الأنبياء فيهم، فلما فات هذه الأمة كثرة الأنبياء فيها ـ لكون نبيها خاتم الأنبياء ـ عوضوا بكثرة الملهمين ا.هـ . كلام الحافظ..

هذا ، وقد اهتم علماء الأصول بالإلهام ، وعقدوا له بحثا خاصا تكلموا فيه على معناه والاحتجاج به .

قال التاج السبكى فى جمع الجوامع : (الإلهام إيقاع شىء فى القلب يثلج له الصدر) أى ينشرح له .

وقال الشوكانى فى إرشاد الفحول : دلالة الإلهام ذكرها بعض الصوفية وحكى الماوردى والرويانى فى كتاب القضاء فى حجية الإلهام خلافا قال الزركشى فى البحر المحيط : واختار جماعة من المتأخرين اعتماد الإلهام منهم الإمام الرازى فى تفسيره فى أولية القبلة ، وابن الصلاح فى فتاواه فقال : إلهام خاطر الحق من الحق . قال : ومن علامته أن ينشرح له الصدر ، ولا يعارضه معارض آخر ، وقال أبو على التميمى فى كتاب « التذكرة فى أصول الدين » : ذهب بعض الصوفية إلى أن المعارف تقع اضطراراً للعباد على سبيل الإلهام بحكم وعد الله تعالى بشرط التقوى ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ أى ما تفرقون به بين الحق والباطل .

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾ أى من كل ما يلتبس على غيره وجه الحكم فيه ، وقوله تعالى ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ فهذه العلوم اللدنية تحصل للعباد إذا زكت أنفسهم ، وسلمت قلوبهم لله تعالى بترك المنهيات ، وامتثال المأمورات ، وخبره صدق ، ووعدة حق ..

واحتج شهاب الدين السهروردى على الإلهام بقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ .. وبقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ فهذا الوحى هو مجرد الإلهام ، ثم إن من الوحى علوما تحدث فى النفوس الزكية المطمئنة .. قال صلى الله عليه وآله وسلم : (إن من أمتي المحدَّثين المكلَّمين وإن عمر لمنهم) .. وقال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾

فألهمها فجورها وتقواها ﴾ فأخبر أن النفوس ملهمة .. واختار السهروردى أن الإلهام حجة لمن وقع له دون غيره ، ومال إليه سعد الدين فى بعض مصنفاته ..

والراجح عند الجمهور أنه ليس بحجة لانتفاء العصمة ، وهو قول جمهور الصوفية أيضا[١] .

المكاشفة أو الفراسة :

ومما يتصل بمسألة الإلهام المكاشفة أو الفراسة، والأصل فيها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [٢] .. قيل للمتفرسين[٣] .

قال الإمام القشيرى: الفراسة: خاطر يهجم على القلب فينفى ما يضاده وله على القلب حكم . اشتقاقا من فريسة السبع ، وليس فى مقابلة الفراسة مجوزات للنفس ، وهى على حسب قوة الإيمان ، فكل من كان أقوى إيمانا كان أحدّ فراسة .

وقال أبو سعيد الخراز : من نظر بنور الفراسة نظر بنور الحق ، وتكون مواد علمه من الحق بلا سهو ولا غفلة ، بل حكم حق جرى على لسان عبد .. وقوله (نظر بنور الحق) يعنى بنور خصه به الحق سبحانه[٤] .

والمعنى أن هذه الفراسة نشأت له من قربه من الله ؛ فإن القلب إذا قرب من الله تعالى انقطعت عند معارضات السوء المانعة من معرفة الحق

---

(١) الإعلام ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) الحجر : ٧٥ .

(٣) هذا قول ابن عباس وغيره

(٤) الرسالة القشيرية / ٣٢٢ .

وإدراكه ، وكان تلقيه من مشكاة قريبة من الله بحسب قربه منه ، وأضاء له النور بقدر قربه فرأى فى ذلك النور ما لم يره البعيد والمحجوب ، كما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال (ما تقرب إلىّ عبدى بمثل ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى)..

فأخبر سبحانه أنه تقرب عبده منه يفيده محبته له ، فإذا أحبه قرب من سمعه وبصره ويده ورجله ، فسمع به ، وأبصر به، وبطش به ، ومشى به، فصار قلبه كالمرآة الصافية تبدو فيها صور الحقائق على ما هى عليه ، فلا تكاد تخطئ له فراسة ، فإن العبد إذا أبصر بالله أبصر الأمر على ما هو عليه ، فإذا سمع بالله سمعه على ما هو عليه ، وليس هذا من علم الغيب ، بل إن علام الغيوب هو الذى قذف الحق فى قلب قريب مستبشر بنوره ، غير مشغول بنقوش الأباطيل والخيالات والوساوس التى تمنعه من حصول صور الحقائق فيه ، وإذا غلب على القلب النور فاض على الأركان ، وبادر من القلب إلى العين؛ فكشف بعين بصره بحسب ذلك النور[1] .. فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) رواه الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم ، ورواه الطبرانى فى الكبير وأبو نعيم فى الطب النبوى ،

---

(١) الشريعة والطريقة للشيخ العلامة محمد بن زكريا الكاندهلوى ص١٧٦ ، ١٧٧ .

والترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من حديث أبى أمامة رضى الله تعالى عنه ورواه ابن جرير وأبو نعيم من حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما ورواه ابن جرير من حديث ثوبان رضى الله تعالى عنه، ولفظه: (احذروا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله وينطق بتوفيق الله) وهو حديث حسن كما قال الحافظان نور الدين الهيثمى ، وجلال الدين السيوطى ، وأورده ابن الجوزى فى الموضوعات فلم يُصِبْ .

وروى ابن جرير والبزار عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (إن لله عبادا يعرفون الناس بالتوسم) إسناده على شرط الحُسْن وهذا الحديث أصل فى الكشف الذى يقع لكثير من الأولياء تجد الواحد منهم يكاشف الشخص بما حصل منه فى غيبته ، كأنه كان حاضرا معه ،وقد نص الحافظ ابن حجر فى - فتح البارى - فى شرح حديث قتل خُبَيْب رضى الله تعالى عنه على أن إجابة الدعوة فى الحال، وتكثير الطعام والماء والمكاشفة بما يغيب عن العين، والإخبار بما سيأتى ونحو ذلك قد كثر جدا ، حتى صار وقوع ذلك ممن ينسب إلى الصلاح كالعادة. ا. هـ

وقال أيضا فى شرح حديث (فى خمس لا يعلمهن إلا الله) : وأما ما يثبت بنص القرآن أن عيسى عليه السلام قال : إنه يخبرهم بما يأكلون وما يدخرون ، وأن يوسف عليه السلام قال : إنه ينبئهم بتأويل الطعام قبل أن يأتى إلى غير ذلك مما ظهر من المعجزات والكرامات فكل ذلك يمكن أن يستفاد من الاستثناء فى قوله تعالى ﴿ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ فإنه يقتضى اطلاع الرسول على بعض الغيب ، والولى التابع للرسول عن الرسول يأخذ ، وبه يكرم ، والفرق بينهما أن الرسول يطلع على ذلك بأنواع الوحى

كلها ، والولى لا يطلع على ذلك إلا بمنام أو إلهام.. والله أعلم [١] ا. هـ

وقائع من الفراسة الصادقة :

روى مالك فى الموطأ بإسناد على شرط الشيخين أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه استرجع عند وفاته أرضا كان وهبها لعائشة رضى الله تعالى عنها وقال : يُطَيِّب خاطرها إنما هما أخواك وأختاك ، أى لم أسترجع الأرض الموهوبة إلا لمصلحة الورثة الذين هم إخوتك ، قالت لأبيها رضى الله تعالى عنهما إنما هى أسماء فمن الأخرى ؟ فأجابها الصديق رضى الله تعالى عنه ذو بطن بنت خارجة ـ هى امرأته وكانت حاملاً ـ أراها جارية فولدت بعد وفاته بنتا . وصدقت فراسته؛ لأنه ينظر بنور الله عز وجل.

وها هو ذا سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه دخل عليه نفر من مذحج فيهم الأشتر النخعى فصعد فيه البصر وصوبه وقال : أيهم هذا ؟ قالوا : مالك بن الحارث ، فقال ما له قاتله الله ، إنى لأرى للمسلمين منه يوما عصيبا .

وقيل إن الإمام الشافعى ومحمد بن الحسن الشيبانى جلسا فى المسجد الحرام ، فدخل رجل فقال محمد بن الحسن : أتفرس أنه نجار ، فقال الإمام الشافعى : أتفرس أنه حداد ، فسألاه فقال : كنت حدادا وأنا اليوم أنجر .

وكان شاه الكرمانى جيد الفراسة ، لا تخطئ فراسته ، وكان يقول : (من عف بصره عن المحارم ، وأمسك نفسه عن الشهوات ، وعَمَّر باطنه بدوام المراقبة ، وظاهره باتباع السنة ، وتعود أكل الحلال لم تخطئ فراسته) [٢] .

---

(١) الإعلام ص ٢٨ .

(٢) الشريعة والطريقة ص ١٧٨ .

ويقول الإمام أبو القاسم القشيرى : ويروى عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : دخلت على عثمان رضى الله تعالى عنه ، وكنت رأيت امرأة فى الطريق تأملت محاسنها فقال : عثمان : يدخل عليَّ أحدكم، وآثار الزنا ظاهرة على عينه .. فقلت : أوحى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ .. فقال : لا ، ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة .

وقال أبو سعيد الخراز : دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيرا عليه خرقتان يسأل شيئا ، فقلت فى نفسى : مثل هذا كَلٌّ على الناس ، فنظر إليّ وقال: ﴿ واعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾ [1]. قال: فاستغفرت فى سرى ، فنادانى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ [2].

ومن ثم يروى العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى هذا القول عن سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه أنه قال : « اقتربوا من أفواه المطيعين ، واسمعوا منهم ، ما يقولون ، فإنهم تجلى لهم أمور صادقة ، وذلك لقرب قلوبهم من الله تعالى ، وكلما قرب القلب من الله تعالى زالت عنه معارضات السوء ، وكان نور كشفه للحق أتم وأقوى ، وكلما بَعد عن الله كثرت عليه المعارضات ، وضعف نور كشفه للصواب ، فإن العلم نور يقذفه الله فى القلب ، يفرق به العبد بين الخطأ والصواب »[3] .

فتأمل أخى القارئ ما قاله العلامة ابن القيم وهو من شيوخ السلف الذين يعتد بكلامهم عند العلماء والمنصفين .

---

(١) البقرة : ٢٣٥ .

(٢) الشورى : ٢٥ .

(٣) أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم ٣٢٦/٤ ، وقد ذكر ذلك أيضا الشيخ ابن تيمية فى فتاواه جـ ٢٠٤/١١ .

وهذه واقعة حال عن الفاروق سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه تدل على صدق مقولته : عن نافع عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : قال عمر بن الخطاب لرجل : ما اسمك ؟ قال : جمرة ، قال : ابن من ؟ قال : ابن شهاب ، قال : ممن ؟ قال : من الحُرَقة (والحرقات فرع من جهينة)[١] . قال : أين مسكنك ؟ قال : الحرّة[٢] . قال بأيها ؟ قال: بذات لظى[٣] ؛ فقال له عمر : أدرك أهلك فقد احترقوا .. فرجع الرجل فوجد أهله قد احترقوا[٤] .

وفى رواية لمالك فى الموطأ قال : أين مسكنك ؟ قال : بحرة النار ، قال بأيها ؟ قال : بذات لظى .

كما روى الإمام مالك فى الموطأ فى كتاب الأقضية (باب ما لا يجوز من النَحل) بإسناد صحيح ، عن السيدة عائشة زوج النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنها قالت : إن أبا بكر الصديق كان نحلها (أى أهداها) جادّ عشرين، وسقا من ماله بالغابة ، أى أعطاها من النخيل ما يعطى عشرين ، وسقا من التمر . والغابة موضع على بريد من المدينة فى طريق الشام ، فلما حضرته الوفاة قال : والله يا بنية ما من الناس أحد أحب إلى غنى منك ، ولا أعز علىّ فقراً بعدى منك ، وإنى كنت نحلتك جادّ عشرين وسقا ، فلو كنت جددتيه واحتزتيه كان لك ، وإنما هو اليوم مال وارث ، وإنما هو أخواك وأختاك ، فاقتسموه على كتاب الله . قالت عائشة :

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤٤٦ .

(٢) هى الأرض التى تكسوها حجارة سوداء منخورة كأنما أحرقت بالنار .. القاموس الإسلامى .

(٣) ذات لظى : حرة لبنى عبس ، وقيل لبنى سليم / معجم ما استعجم للبكرى ٤٣٦/٢

(٤) الإصابة ٥٣٩/١

فقلت يا أبت ، والله لو كان كذا وكذا لتركته ، إنما هى أسماء فمن الأخرى؟ فقال أبو بكر : ذو بطن بنت خارجة ، أراها جارية .

ويموت سيدنا أبو بكر رضى الله تعالى عنه ،ثم تلد زوجه حبيبة بنت خارجة أخت زيد بن خارجة الذى تكلم بعد الموت ، تلد بنتا لأبى بكر كما قال وسموها أم كلثوم [١] .

وهذا من باب الفراسة الصادقة ، والإلهام والتحديث بالحق ..

وهو نور يقذفه الله فى القلب ، فيخطر له الشىء ؛ فيكون كما خطر له فينفذ إلى العين فيرى ما لا يراه غيره .

وقد بسط الشيخ ابن القيم فى كتابه « الروح » هذا الموضوع ، وعرضه عرضا كاشفا أكثر من هذا .

ومعلوم أن الإمام أبا حنيفه رضى الله عنه له قولان فى الماء المستعمل فى الوضوء ، فكان أولا يقول بنجاسته عندما كان يرى سواد الماء لغسله الذنوب ، فدعا الله تعالى أن يزيل عنه هذه الحالة ، وأنه لا يرغب فى الاطلاع على عيوب الناس ، فتقبل الله دعاءه ورفع عنه ذاك الحال وزال عنه الكشف ، فرجع من القول بنجاسته إلى القول بطهارته[٢] .

وحكى الإمام القشيرى عن الإمام الجنيد رضى الله تعالى عنه أنه كان يقول له السرى السقطى : تكلم على الناس فقال الجنيد وكان فى قلبى حشمة من الكلام على الناس فإنى كنت أتهم نفسى فى استحقاق ذلك

---

(١) كرامات الصحابة للأستاذ / سعيد هارون عاشور ١١١ .

(٢) الشريعة والطريقة ١٧٩ .

فرأيت النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى المنام ، وكانت ليلة جمعة ، فقال لى: تكلم على الناس فانتبهت ، وأتيت باب السرى قبل أن أصبح ، فدققت عليه الباب فقال: لم تصدقنا حتى قيل لك .. فقعد الناس فى الجامع بالغد ، فانتشر فى الناس أن الجنيد قعد يتكلم على الناس ، فوقف عليه غلام نصرانى متنكراً ، وقال له : أيها الشيخ .. ما معنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله عز وجل) فأطرق الجنيد ثم رفع رأسه وقال : أسلم فقد حان وقت إسلامك ، فأسلم الغلام[١] .

(١) الرسالة القشيرية ٣٣٠ .

الفصل الرابع

الشريعة والطريقة والحقيقة

من الدعاوى الباطلة التي يدعيها المنكرون على التصوف الإسلامي قولهم : إن الصوفية يقسمون الدين إلى شريعة ، وطريقة ، وحقيقة، وهذا إحداث في دين الله تعالى بما لم يأذن به الله سبحانه : مع أن هذا الأمر قد وضحه السادة الصوفية غاية الوضوح،وتكلموا بما لا مزيد عليه ، واستدلوا عليه بالكتاب والسنة ..

ألم يقل المولى تبارك وتعالى في كتابه العزيز : ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾[١] .. كما قال سبحانه ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٢] .. وقال سبحانه ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[٣] ؟

والحقيقة مأخوذة من هذا الحديث المروى عن سيدنا أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لقي رجلا يقال له : حارثة في بعض سكك المدينة فقال : كيف أصبحت ياحارثة ؟ قال : أصبحت مؤمنا حقا ، فقال : إن لكل قول حقيقةً فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش

---

(١) الجن : ١٦ .

(٢) الجاثية : ١٨ .

(٣) المائدة : ٤٨ .

ربى ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أسمع عواء أهل النار .. فقال : (مؤمن نور الله قلبه) وفى رواية (عرفت فالزم ، مؤمن نور الله قلبه)(١) ..

ففى هذا الحديث إثبات المجاهدة والزهد، وجولان الروح فى العرش والجنة والنار بطريق التفكير والمشاهدة القلبية .. وفيه أيضا إثبات الحقيقة، وهو المقصود هنا .

قال العلامة الحافظ السيوطى : قال شارح منازل السائرين : حقيقة الشىء عند أهل هذا الشأن علامته الدالة عليه ، واستدل بهذا الحديث المذكور آنفا . ثم يقول السيوطى : ويظهر لى أن أهل هذا الشأن إنما سموا علمهم علم الحقيقة أخذا من لفظ الحقيقة فى هذا الحديث.

وقد ظهر أن نسبة علم الحقيقة إلى علم الشريعة كنسبة علم المعانى والبيان إلى علم النحو ، فهو سره، ومبنى عليه ، فمن أراد الخوض فى علم الحقيقة من غير أن يعلم الشريعة فهو من الجاهلين، ولا يحصل على شىء، كما أن من أراد الخوض فى أسرار علم المعانى والبيان من غير أن يحكم النحو فهو يخبط خبط عشواء ، وكيف يدرك أحوال الإسناد والمسند إليه والمسند ومتعلقات الفعل من لم يعرف المبتدأ من الخبر، والفاعل من المفعول. هذا بيِّن لكل أحد ، والحقيقة سر الشريعة ولبها الخالص. كما أن المعانى والبيان سر النحو ولطائفه، والتصوف فقه بلا شك ، فإن أكثره تكاليف واجبة ومندوبة ، ومنها محرمة ومكروهة ..

---

(١) رواه البزار فى مسنده والبيهقى فى الشعب ، وله طرق عند ابن المبارك فى الزهد وعبد الرزاق فى التفسير والطبرانى فى المعجم وابن منده .

وقد نص على أن أبواب التصوف من الفقه جماعة من أهل الأصول حيث ذكروا حدّ الفقه ، ووافقهم ابن السبكى فى جمع الجوامع ، وضم إليه مسائل أصول الدين التى يجب اعتقادها ، فقال : إنها عندى فقه .

واعلم أن دقائق علم التصوف لو عرضت معانيها على الفقهاء بالعبارة التى ألفوها فى علومهم لاستحسنوها كل الاستحسان ، وكانوا أول قائل بها ، وإنما ينفرهم منها إيرادها بعبارة مستغربة لم يألفوها .

ولهذا قال بعضهم : الحقيقة أحسن ما يعلم ، وأقبح ما يقال ..

وأنا أورد لك مثالا تعرف به صحة ذلك .. قال فى منازل السائرين: حقيقة التوبة ثلاثة أشياء : تميز الثقة من الغرّة ، ونسيان الجناية ، والتوبة من التوبة أبدا ، فإذا سمع الفقيه هذا اللفظ ، وهو التوبة من التوبة ، استغربه جدا ، وقال : كيف يتاب من التوبة وهى عمل صالح ، وإنما يتاب من المعاصى ، وتقرير معناه : أن العبد إذا كمل فى رجوعه إلى الله لم يلتفت إلى أعماله ، ولم يسكن إليها بقلبه توبة كانت أو غيرها ، فيتوب من سكونه إلى توبته . ويزاد إيضاحاً أن التوبة وإن كانت من كسب العبد فهى من خلق الله وتوفيقه فهو التائب عليه ولو لم يتب عليه لما تاب ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾[1] .. فأى صنع للعبد فى التوبة أو غيرها ، وهو الذى وفقه الله لفعلها ، فرؤية العبد التوبة من نفسه ذنب يستغفر منه ، بل عليه أن يشهد محض منة الله عليه بها، وتوفيقه لها ، ويلغى نفسه أصلا عن درجة الاعتبار، وهذا مقام الفناء فى التوبة ، وهو

---

(١) المائدة : ١١٨

أول منازل السائرين ، ويقاس به مقام الفناء في التوحيد فلا يشهد في توحيده صنعا ، بل محض منة الله عليه به وتوفيقه .

وهذا المعنى إذا عرض على الفقيه بهذه العبارة المألوفة كان أول قائل به وناصر له ، لأن الفقيه السني يقاتل على إثبات الأفعال لله تعالى ونفيها عن العبد مخالفة للمعتزلة والقدرية ونحوهم ممن زعم أن العبد يخلق أفعاله ، وأن الانتقال مخالفة [١] .

وقال سلطان العلماء: الإمام عز الدين بن عبد السلام ، في قواعد الأحكام : الطريق في إصلاح القلوب التي تصلح الأجساد بصلاحها ، وتفسد بفسادها: تطهيرها من كل ما يباعد عن الله، وتزيينها بكل ما يقرب إليه ، ويزلف لديه ، من الأحوال والأقوال والأعمال وحسن المآل ، ولزوم الإقبال عليه والإصغاء إليه ، والمثول بين يديه في كل وقت من الأوقات وحال من الأحوال على حسب الإمكان، من غير أداء إلى السآمة والملل ، ومعرفة ذلك هي الملقّبة بعلم الحقيقة ، وليست الحقيقة خارجة عن الشريعة بل الشريعة طافحة بإصلاح القلوب بالمعارف والأحوال والعزوم والنيات ، وغير ذلك مما ذكرناه من أعمال القلوب ، فمعرفة أحكام الظواهر معرفة لجلّ الشرع ، ومعرفة أحكام البواطن معرفة لدِقّ الشريعة ، ولا ينكر شيئا منهما إلا كافر أو فاجر. وقد يتشبه بالقوم من ليس منهم ، ولا يقاربهم في شيء من الصفات ، وهم شر من قطاع الطريق ، لأنهم يقطعون طريق الذاهبين إلى الله تعالى .ا. هـ

---

(١) تأييد الحقيقة العلية للعلامة السيوطي ص ٢٥ ، ٢٦ .

فتلخص من جميع ما تقدم : أن الحقيقة صنو الشريعة ، بل هى لبها وسرها الخالص وأن ما يثار حولها من اعتراضات قد تصل إلى الكفر أحيانا مرجعه إلى أمرين :

أحدهما : صوغ معانيها فى عبارات غامضة غير مألوفة كما أشار إليها الحافظ السيوطى .

ثانيها : تشبه الدخلاء بأهل الحقائق كما أشار إليه سلطان العلماء العز بن عبد السلام . وجعل هؤلاء شرا من قطاع الطريق(١) .

توضيح لابد منه :

زيادة على ما تقدم يقول الشيخ عبد القادر عيسى رحمه الله تعالى : لقد ورد فى حديث جبريل المشهور الذى يرويه سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كما فى البخارى ومسلم ـ تقسيم الدين إلى ثلاثة أركان بدليل قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لسيدنا عمر رضى الله تعالى عنه فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم :

١) **فركن الإسلام :** وهو الجانب العملى من عبادات ومعاملات وأمور تعبدية ، ومحله الأعضاء الظاهرة الجسمانية ، وقد اصطلح العلماء على تسميته بالشريعة ، واختص بدراسته السادة الفقهاء .

٢) **وركن الإيمان** وهو الجانب الاعتقادي القلبى من إيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر ، وقد اختص بدراسته السادة علماء التوحيد .

---

(١) الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام ص ٢٦ ، ٢٧ .

٢) **وركن الإحسان :** وهو الجانب الروحى القلبى .. وهو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وما ينتج عن ذلك من أحوال وأذواق وجدانية ومقامات عرفانية ، وعلوم وهبية ، وقد اصطلح العلماء على تسميته بالحقيقة ، واختص ببحثه السادة الصوفية .

ولتوضيح الصلة بين الشريعة والحقيقة نضرب لك مثلا : « الصلاة » فالإتيان بحركاتها وأعمالها الظاهرة، والتزام أركانها وشروطها وغير ذلك مما ذكره علماء الفقه يمثل جانب الشريعة ، وهو جسد الصلاة .

وحضور القلب مع الله تعالى فى الصلاة يمثل جانب الحقيقة ، وهو روح الصلاة .. فأعمال الصلاة البدنية هى جسدها ، والخشوع فيها هو روحها ..

وما فائدة الجسد بلا روح ؟ وكما أن الروح يحتاج إلى جسد يقوم فيه فكذلك الجسد يحتاج إلى روح يقوم به .

ولهذا قال الله تعالى ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾(١) ولا تكون الإقامة إلا بجسد وروح ، ولذا لم يقل : أوجدوا الصلاة.

ومن هنا ندرك التلازم الوثيق بين الشريعة والحقيقة ، كتلازم الروح والجسد ، والمؤمن الكامل هو الذى يجمع بين الشريعة والحقيقة، وهذا هو توجيه الصوفية للناس مقتفين بذلك أثر الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام ، وللوصول إلى هذا المقام الرفيع والإيمان الكامل لابد من سلوك الطريقة، وهى مجاهدة النفس، وتصعيد صفاتها الناقصة إلى كاملة ،

---

(١) النور : ٦٥ .

والترقى فى مقامات الكمال بصحبة المرشدين ، فهى الجسر الموصل من الشريعة إلى الحقيقة[١] ..

ولا أظن أن الشيخ عبد القادر عيسى ترك مجالا للزيادة أو التوضيح فالشريعة هى الأساس ، والطريقة هى الوسيلة ، والحقيقة هى الثمرة، وهى أشياء متكاملة منسجمة ، فالتمسك بالشريعة يؤدى إلى السلوك على الثانية ويصل به إلى الثالثة ، وأما الاصطلاحات فبالإمكان حذفها ووضع غيرها فالأمر لا يقدم ولا يؤخر شيئا ، فلا مشاحة فى الاصطلاح ..

موقف الشيخ ابن تيمية من هذا التقسيم :

ولنثبت ما لا يحتاج إلى إثبات من أن المعترض على هذا التقسيم لا يعنى اتباعهم للشيخ ابن تيمية إلا التظاهر ، وترديد اسمه كعنوان يكتبون تحته ما يشاءون باسم سلفية ابن تيمية، ومدرسته لخداع السذج الذين ينطلى عليهم زخرف القول غرورا ، لتحقيق مآربهم وأغراضهم ..

ولنقرأ رأى ابن تيمية فى هذا الموضوع بعين الإنصاف ، والرجل يدور مع الحق حيث دار ، فإنه يقول : « والحقيقة : حقيقة الدين دين رب العالمين هى ما اتفق عليها الأنبياء والمرسلون ، وإن كان لكل منهم شرعة ومنهاج ، فالشرعة هى الشريعة .. قال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[٢]؟ وقال تعالى ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ

---

(١) حقائق عن التصوف للشيخ عبد القادر عيسى ص ٤٧٣ ، ٤٧٤ .

(٢) المائدة ٤٨ .

بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين ﴾[١] .

والمنهاج هو الطريق ، قال تعالى : ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا * لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا ﴾[٢] .

فالشرعة بمنزلة الشريعة للنهر ، والمنهاج هو الطريق الذى سلك فيه ، والغاية المقصودة هى حقيقة الدين ، وهى عبادة الله وحده لا شريك له وهى حقيقة دين الإسلام [٣] .

فهذا هو الشيخ ابن تيمية - رحمه الله تعالى - قد قسم الدين إلى شريعة وطريقة وحقيقة ، فهل هذا يعد إحداثا فى دين بما ليس منه أم هو الفهم الصحيح لدين الإسلام كما فهمه الأئمة الأعلام من قبل الشيخ ابن تيمية ومن بعده .

موقف الأئمة الأعلام من الشريعة والحقيقة :

هذا ، وقد جاء عن أئمة الصوفية كلام كثير يفيد أنه لابد من التلازم بين الحقيقة والشريعة والطريقة .

قال الشيخ محمود خطاب السبكى فى كتابه المختصر (من أعذب المسالك المحمودية إلى منهج السادة الصوفية) : أضعف المريدين التابعين لشريعة سيد المرسلين يعرف أن الحقيقة لا وجود لها بدون الشريعة ، وأن

---

(١) الجاثية : ١٨ ، ١٩ .
(٢) الجن : ١٦ ، ١٧ .
(٣) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان للشيخ ابن تيمية ص ٧٤ ، ٧٥ .

الحقيقة هى لب الشريعة ، وهذا أمر يقرب أن الجمادات به ناطقون ، وكل كتاب من كتب الأفاضل به مشحون . ثم ينقل ما يؤيد كلامه من تقرير الأئمة فيقول : قال الشعرانى نقلا عن أفضل الدين : ومعلوم أن الشريعة لا تخالف الحقيقة أبداً .

وقال فى موضع آخر : فيجب على صاحب الحقيقة مراعاة الشريعة وعكسه ، ومن لم يكن كذلك فهو أعور لا يصح الاقتداء به فى طريق أهل الله تعالى.

وقال أيضا : سألت شيخنا ، عليا الخواص ، عن قول سيدى ، أبى الحسن الشاذلى ، رضى الله عنه من لم يتغلغل فى علوم القوم مات مصرا على الكبائر ، وهو لا يشعر؛ لم خص علم القوم دون علم الأحكام الشرعية؟

فقال رضى الله تعالى عنه الأحكام الشرعية نفسها من علوم القوم ، إذ هى مبنى طريقهم ، ولكن لما كان من شأن القوم أن لا يعبأوا بعمل إلا بآدابه الباطنة ، خصص الشيخ الحكم بعلومهم لدقة صافى الأعمال من الدسائس والعلل ، وأما غيرهم فليس من شأنهم الاعتناء بهذه الأمور ، كما هو مشاهد مع كونهم فى علمهم على ظن لا على يقين ، فلا يخلو أكثر علمهم من دخول الإشكال فيه .

وقال سيدى محيى الدين بن العربى رضى الله تعالى عنه : فعين الشريعة عين الحقيقة والشريعة حق ، ولكل حق حقيقة ، فحق الشريعة وجود عينها وحقيقتها ما ينزل منزلة الشهود البصرى والوجود الحسى النافى للشك جملة إذ الحقيقة تطلب الحق لا تخالفه ، وما ثم حقيقة تخالف شريعة أبدا ، فإن الشريعة من جملة الحقائق ، ولكن لما كان الاطلاع على الحقائق

عزيز المنال لا يعرفه كل أحد فرّق الناس بينهما .

وقال أبو سعيد الخراز : كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل .

وقال سيدى محمد المنير : مثّل بعضهم الشريعة بالسفينة ، والطريقة بالبحر والحقيقة بالمعادن ، فمن ركب فى السفينة عام فى البحر ، ومن عام فى البحر لا يخلو من اطلاعه على تلك المعادن ، فإذا ركب المريد سفينة شريعته واستعمل أنواع مجاهدته ، وصار يهوى عشقه ورغبته فى بحر فيض طريقته اغتنم جواهر حقيقته .

سئل بعضهم عن حكم الشريعة والطريقة والحقيقة فقال : إذا أكل الصائم بطل صومه فى الشريعة ، وإذا اغتاب بطل صومه فى الطريقة ، وإذا خطر بباله سوى الله تعالى بطل صومه فى الحقيقة ..

ولا يمكن الوقوف على أسرار الحقيقة إلا بإثبات الأعمال المبينة ببيان صاحب الشرع ، فإن كل طريقة تخالف الشريعة باطلة ، وكل حقيقة لا يشهد عليها الكتاب والسنة فهى إلحاد وزندقة .

ومن زعم أن الصوفى : من حجب عن الشريعة بالوقوف على أسرار الطريقة بما يخالف الشريعة فقد غلبت عليه الضلالة والنسيان ، واستهواه الشيطان .

وقال سيدى إبراهيم المتبولى : الشريعة هى الشجرة ، والحقيقة هى الثمرة وقال أيضا : إياكم والدعاوى التى لا يشهد لها كتاب ولا سنة فإنها سبب طردكم عن حضرة ربكم .

وقال سليمان الدارانى : ما حرموا الوصول إلا بتضييعهم الأصول

فشريعة بلا حقيقة عاطلة ، وحقيقة بلا شريعة باطلة[١] .

قال الشيخ الإمام سيدى أحمد الدردير المالكى الخلوتى رضى الله تعالى عنه مبينا الفرق الدقيق بين الشريعة والحقيقة والطريقة ، اعلم أن التصوف بمعنى العمل هو الطريقة . وأما الشريعة فهى الأحكام التى وردت عن الشارع المعبر عنها بالدين ، وأما الحقيقة فهى أسرار الشريعة ، ونتيجة الطريقة ، فهى علوم ومعارف تحصل لقلوب السالكين بعد صفائها من كدورات الطباع البشرية[٢] .

الإمام مالك رضى الله تعالى عنه والتصوف :

يزعم المنكرون على التصوف الإسلامى أن الإمام مالكا لم يقل : « من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ومن جمع بينهما فقد تحقق » .

• ويقولون إن التصوف لم يظهر، ولم يعرف بين المسلمين إلا بعد انقراض أهل القرون المفضلة .

وقد رد أهل العلم المحققين على هذه الدعوى الكاذبة بالتحقيق العلمى فقالوا : إن هذه العبارة رواها كبار علماء المذهب المالكى عن الإمام مالك رضى الله تعالى عنه خلفا عن سلف وهى موجودة فى :

١) حاشية العلامة العدوى على شرح الزرقانى على متن العزّية فى الفقه المالكى جـ ٣/١٩٥ .

---

(١) مختصر أعذب المسالك المحمودية ص ١٥٦: ١٥٩ .

(٢) الخريدة البهية وشرحها للشيخ أحمد الدردير المالكى ص ٧٦ .

٢) موجودة أيضا فى كتاب شرح عين العلم وزين الحلم للإمام ملا على القارى جـ ٣٣/١ .

٣) وعلى مستوى كبار المؤرخين وثقاتهم ذكرها ابن خلدون عن الإمام مالك فى كتاب شفاء السائل لتهذيب المسائل.

٤) وذكرها الشيخ أحمد زروق فى قواعد التصوف ص ١٣ قاعدة رقم ٤ .

والتتائى فى شرحه على ابن رشد ص ٥ والشيخ مياره فى شرحه على ابن عاشر ..

وكل هؤلاء ليسوا من أهل التصوف باستثناء الشيخ أحمد زروق الذى هو من كبار علماء المذهب المالكى أيضا .. وهذا على مستوى أمهات المراجع فقط .. أما غيرهم فالعدد يخرج عن الحصر ..

وعلى ذلك فمن أراد أن يثبت خطأ أو صواب نسبة هذه العبارة إلى الإمام مالك فليتتبعها فى مظانها ومصادرها بالدراسة والتحقيق دراية ورواية ..

فهل ترى كل هؤلاء ،وعلى رأسهم أكبر مؤرخى العرب والإسلام بلا منازع على خطأ وأنت أيها المنكر على صواب .

أما تفسير هذه الكلمة فهو كما يلي :

تزندق الأول : لأنه نظر إلى الحقيقة مجردة عن الشريعة ، فقال إن الإنسان لا خيار له ، وهذا قول بالجبر الموجب لنفى الحكمة والأحكام.

وتفسق الثانى : لأنه لم يدخل قلبه نور التقوى ، وسر الإخلاص وواعظ المراقبة ، وطريقة المحاسبة ، فكان عمله جسدا بلا روح .

وتحقق الثالث : لأنه جمع أركان الدين ، وهى الإسلام والإيمان والإحسان .. كما هى فى حديث جبريل عليه السلام[(١)] .

ثم إن الإمام مالكا رحمة الله تعالى توفى سنة ١٧٩ هـ فى المدينة المنورة وقد ذكرنا سابقا فى أول الكتاب أن لفظ ومعنى التصوف كانا معروفين قبل ذلك التاريخ بكثير فليراجع[(٢)] .

---

(١) ينظر قواعد التصوف للشيخ أحمد زروق ص ٤ ط المكتبة الأزهرية

(٢) يراجع الحجة للقطعانى ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

موقف أئمة التفسير

من التلازم بين الشريعة والطريقة والحقيقة

إن الذين لا يؤمنون بالتصوف الإسلامى ومفاهيمه وينكرون على الأولياء سلوكياتهم ومعارفهم، ويزعمون أنها بدع مخالفة للكتاب والسنة ، كما صنع ملفق ، مصرع التصوف ، ونظراؤه لا يعترفون بالطريقة ولا بالحقيقة ، ويسخرون من العلم اللدنى !! فماذا يفعلون إذ نباغتهم بتأصيل هذه الحقائق والمفاهيم من كتاب الله تعالى الذى هو خُلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما صح فى وصف السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها بذلك .

وها نحن ننقل عن أئمة التفسير أقوالهم التى استنبطوها من الآيات القرآنية، مما يفيد اشتمال القرآن الكريم على هذه المفاهيم الصوفية ، وقد كتب مشكورا الأستاذ الدكتور / جودة المهدى جزاه الله تعالى خيراً فى هذا الموضوع كتابا جيداً بيَن فيه الاتجاه الصوفى عند أئمة تفسير القرآن الكريم كالإمام النسفى والفخر الرازى والإمام القرطبى والإمام البيضاوى والشهاب الخفاجى والعلامة البقاعى .. وسوف نتناول موقف هؤلاء الأئمة من التلازم بين الحقيقة والشريعة من خلال ما كتبه ..

أولاً : موقف الإمام النسفي :

لقد أجلــى أبو حفص النسفى ذاتيتهُ الصوفية بإبراز مشارب وأذواق

أهل الحقيقة إلى جانب تجسيد سلوكيات الواقفين عند ظواهر الشريعة لتعرف المراتب وتجتلى أسرار المعرفة وحقائق علم الباطن ، نتعرف ذلك فى جملة من الشواهد فى تفسيريه ، التيسير ، و ، الأكمل الأطول ،[(١)].

الشاهد الأول : عند تفسير قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ ، البقرة: ٣ ،.

يجسد العارف النسفى - فى تفسير إقامة الصلاة ـ عطاء الصوفية فى إبراز فكرة الظاهر والباطن فى أعمال الصلاة ، إذ يورد عدة أقوال فى المراد بإقامتها نذكر منها الوجهين الأخيرين حيث يقول :

، والخامس : قول بعضهم : إقامتها : مراعاة حدودها وشرائطها ـ أى شروط الجواز والقبول ـ وشرائط الجواز : ستة قبل الشروع ، وستة بعده ، وهى معروفة . وشرائط القبول : ستة بالظاهر وستة بالباطن .

فالظاهر الخشوع ، لقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ المؤمنون: ٢ ،.. والتقوى ، لقوله تعالـى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ ، المائدة: ٢٧ ،.

وترك أكل الحرام ، وقول اللغو ، والكسل ، والإبطاء. وأما الباطن ، فالإخلاص والتفكر ، والخوف ، والرجاء ، ورؤية التقصير ، والمشاهدة.

والسادس : قول القشيرى : إقامتها : القيام بأركانها وسننها ، ثم الغيبة عن شهودها برؤية من يصلّى له !! يقول الله تعالى :

[أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل لى عملا وأشرك فيه

(١) الاتجاه الصوفى عند أئمة تفسير القرآن العظيم أ. د/ جودة المهدى ص ٣٦ .

غيرى فهو له وأنا منه برىء] [١].

وعن أبى بكر الشبلى أنه قال : لو نظر قلبى فى الصلاة إلى العقبى توضأت ، ولو نظر إلى الدنيا لاغتسلت .

وقال الله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ « المؤمنون : ١ ، ٢ » .

والخشوع سكون الظاهر والباطن ، فلا يصرف شيئا من أعضائه إلى غير السنة ، ولا شيئا من باطن إلى غير القربة ، ولقد رأى الحسن البصرى رجلا يعبث بلحيته وهو فى الصلاة فقال : لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه[٢].

الشاهد الثانى : يقول الإمام النسفى عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ « البقرة : ٣ » ..

مبرزا أقوال العارفين فى تبيان مشربْ أهل الشريعة وأرباب الحقيقة .

والسادس : أى : لايدخروا عن الله شيئا مما هو لهم ، فينفقون نفوسهم فى آداب العبودية ، وينفقون قلوبهم على دوام مشاهدة الربوبية .

فإنفاق أصحاب الشريعة : من حيث الأموال ، وإنفاق أرباب الحقيقة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ٢/٤٣٥ ، ٣٠١ وابن ماجه فى سننه : كتاب الزهد : باب الرياء والسمعة رقم ٤٢٠٣ ـ ١٤٠٥ .

(٢) روى مرفوعاً إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم عند الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ولكن بسند ضعيف والأصح أنه مرسل ، وذكر ابن حجر فى الكافى الشافى أن فيه سليمان بن عمرو النخعى ، متهم بالوضع ووافقه الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء ١/١٥٠ .

من حيث الأحوال .

والأجمع أن يقال : إن إنفاق الأغنياء من أموالهم ، لا يدخرونها عن أهل الحاجة ، وإنفاق العابدين من نفوسهم ، لا يدخرونها عن وظائف الخدمة، وإنفاق العارفين من قلوبهم لا يدخرونها عن حقائق المراقبة وإنفاق المحبين من أرواحهم لا يدخرونها عن مجارى الأقضية.

والأقصر أن يقال : إن إنفاق الأغنياء من النعم ، وإنفاق الفقراء - يعنى الصوفية - من الهمم .

فإنفاق الأغنياء من الجيب ، وإنفاق الفقراء إخراج الغير من القلب(١).

الشاهد الثالث : يوضح لنا العارف النسفى فكرة الشريعة والحقيقة عند تفسير قوله تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ « الأحزاب: ٦ ».

فيقول : رضى الله تعالى عنه : « فلو قال قائل : كيف قال : ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ وقال من قبل : « وما جعل أزواجكم أدعياءكم .. » إشارة إلى أن غير من ولدت لا تصير أماً بوجه ، وكذلك قال فى موضع ﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ ، المجادلة : ٢ ؟ فنقول : قوله تعالى فى الآية المتقدمة : ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ « الأحزاب : ٤ ».

جواب عن هذا ، معناه : أن الشرع مثل الحقيقة ، ولهذا يرجع العاقل عند تعذر الحقيقة إلى الشريعة ، كما أن امرأتين إذا ادعت كل واحدة

---

(١) التيسير لأبى حفص النسفى ت د/جمال مصطفى ١٧٣/١

ولداً بعينه ولم يكن لها بينة ، وحلفت إحداهما دون الأخرى ، حُكم لها بالولد، وإن تبين أن التى حلفت دون البلوغ أو بكْر،لم يُحكم لها بالولد!!.

فعلم أن عند عدم الوصول إلى الحقيقة يرجع إلى الشرع ، لا بل فى بعض المواضع ـ على الندرة ـ تغلب الشريعة الحقيقة ، فإن الزانى لا يجعل أبًا لولد الزنا ، إذ اثبت هذا فالشارع له الحكم ، فقول القائل : هذا أبى ، قول يفهم لا عن حقيقة ، ولا يترتب عليه حقيقة ، وأما قول الشارع فحق(١) .

لقد تجلى لنا فى هذا الشاهد ـ من منظور فقهى تفسيرى ـ معالجة أبى حفص النسفى الرائعة لمفهوم « الشريعة » و « الحقيقة »بما لا يدع مجالا لمنكرى علم الحقيقة عند الصوفية .

كما يؤكد لنا إيمان أبى حفص النسفى بحقيقة الظاهر والباطن فى القرآن العزيز شاهد آخر عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ « البقرة : ١٢٩».

قال فى وجوه تفسير الكتاب والحكمة : « وقيل الكتاب : ظاهر القرآن والحكمة باطنه »(١).

---

(١) انظر الأكمل الأطول للنسفى ، دراسة وتحقيق من سورة القصص إلى الزخرف للباحثة سمية ثابت ـ رسالة ماجستير خطية بكلية الدراسات للبنات بالقاهرة ٤٥٦/١ .

(٢) التيسير ت د/جمال مصطفى ٤٦٥/٢ بالرسالة الخطية .

ثانيا : موقف الإمام فخر الدين الرازى :

لقد تناول الفخر رحمه الله تعالى مقامات الشريعة والطريقة والحقيقة بالبيان والتوضيح ، واستقاها من ينبوع الحكمة القرآنية الوضاءة، فأوضح بها معالم الطريق إلى الله تعالى ، وكشف لطلاب الحقيقة معارج الوصول إلى غاية المأمول .. وذلك فى الشواهد الآتية :

١) قال الإمام فى تبيانه للأسرار المستنبطة من سورة « الفاتحة » ما نصه : « ... ثم إنه لما قرر أمر الربوبية بهذا الطريق أمره بثلاثة أشياء:

أولها : مقام الشريعة : وهو أن يواظب على الأعمال الظاهرة وهو قوله ﴿ إياك نعبد ﴾ .

وثانيها : مقام الطريقة : وهو أن يحاول السفر من عالم الشهادة إلى عالم الغيب ، فيرى عالم الشهادة كالمسخر لعالم الغيب ، فيعلم أنه لا يتيسر له شىء من الأعمال الظاهرة إلا بمدد يصل إليه من عالم الغيب ، وهو قوله : ﴿ وإياك نستعين ﴾.

وثالثها : أنه يشاهد عالم الشهادة معزولاً بالكلية ، ويكون الأمر كله لله ، وحينئذ يقول : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾... ثم قال : ولما تمت هذه الدرجات الثلاث ، وكملت هذه المقامات الثلاثة ــ أعنى الشريعة المدلول عليها بقوله : ﴿ إياك نعبد ﴾ والطريقة المدلول عليها بقوله ﴿ وإياك نستعين ﴾ والحقيقة المدلول عليها بقوله ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ ثم لما حصل الاستعداد بالاتصال بأرباب الصفاء والاستكمال بسبب المباعدة عن أرباب الجفاء والشقاء ..

فعنـد هـذا : كملت المعارف البشرية والكمالات الإنسانية [١].

٢) كما نجد الإمام - أيضا - يستوفى من معانى الحروف المقطعة فى أول سورة البقرة - بطريق التفسير الإشارى - الدلالة على الشريعة والطريقة والحقيقة مستدلا لكل منها بالنص القرآني فيقول :

« الألف : إشارة إلى ما لابد منه من الاستقامة فى أول الأمر وهو رعايـة الشريعة ، قـال تعالـى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ « فصلت : ٣٠ ».

والـلام : إشارة إلى الانحناء الحاصل عند المجاهدات ، وهو رعاية الطريقة ، قـال الله تعالـى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ « العنكبوت : ٦٩ » ..

والمـيـم : إشارة إلى أن يصير العبد فى مقام المحبة كالدائرة التى يكون نهايتها عين بدايتها ، وبدايتها عين نهايتها ، وذلك إنما يكون بالفناء فى الله تعالى بالكلية ، وهو مقام الحقيقة ، قال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ « الأنعام : ٩١ »..

٣) ويضيف الإمام الرازى إجلاءً للفرق بين الشريعة والطريقة فى جملة الوجوه التى ذكرها فى تفسير قوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ « المائدة : ٤٨ » ..

فيقول : « قال بعضهم : الشرعة والمنهاج عبارتان عن معنى واحد، والتكرير للتأكيد ، والمراد بهما الدين ..

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازى ١/١٩١ - ١٩٢ .

والطريقة : عبارة عن مكارم الشريعة ـ وهى المراد بالمنهاج ، فالشريعة أول ، والطريقة آخر ، وقال المبرد : الشريعة ابتداء الطريقة ..

والطريقة : المنهاج المستمر ، وهذا تقرير ما قلناه ، والله أعلم بأسرار كلامه [١] .

٤) بل إننا نجد الفخر يتجه الاتجاه الصوفى فى مصنفاته الأخرى ليمتد شعاع المعرفة الصوفية عبر أفانين بحثه العلمى فى سائر مؤلفاته ، فنلقاه فى ، شرح أسماء الله الحسنى ، وهو من أحسن ما صنف فى بابه يعقب شرحه لكل اسم منها ببيان حظ العبد من ذلك الاسم ، وإذا به لدى شرحه لاسمه تعالى (الجامع) يتعرض لذكر الشريعة والطريقة والحقيقة ، فيعقب على بيانه مدلول هذا الاسم الأقدس بقوله : ، أما حظ العبد منه : فهو أن يجمع بين الشريعة والطريقة والحقيقة ، [٢] .

ثالثا : موقف القاضى البيضاوى والعلامة الشهاب الخفاجى :

إننا نجد القاضى البيضاوى يصرح فى تفسيره بالمقامات الثلاثة التى يجحد خصوم التصوف كينونتها فى جوهر الإسلام مجتمعة لاستكمال بنائه الروحى ، وهى : الشريعة والطريقة والحقيقة فيرى أن تحقق هذه المقامات الثلاثة لا يتأتى إلا بعد الجهاد الأكبر لأعدى الأعداء ، والتحقق بتقوى السوى ـ وهو المتمثل فى السير والسلوك ـ للوصول إلى الفلاح ، والفلاح بأقصى غاياته ـ كما يراه العلامة البيضاوى ـ هو نيل

---

(١) مفاتيح الغيب ١٢/ ١٤ .

(٢) لوامع البينات فى شرح أسماء الله تعالى والصفات ص ٢٤٣ / نشر مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة .

مقامات الشريعة والطريقة والحقيقة ، وهى جماع التصوف عند العارفين بالله تعالى(١) .

فيقول رحمه الله تعالى عند تفسير قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، آل عمران : ٢٠٠ ،

فاتقوه بالتبرى عما سواه لكى تفلحوا غاية الفلاح . أو اتقوا القبائح لعلكم تفلحون بنيل المقامات الثلاثة المترتبة التى هى : الصبر على مضض الطاعات ، ومصابرة النفس فى رفض العادات ، ومرابطة السر على جناب الحق لترصد الواردات ، المعبر عنها بالشريعة والطريقة والحقيقة(٢) .

وفى تعليق الشهاب الخفاجى على هذا النص التفسيرى يقول موضحا لمراتب المقامات الثلاثة :

قوله ، والمعبر عنها ، : صفة المقامات، فالصبر على الطاعات : المرتبة الأولى التى هى الشريعة ، ورفض العادات ـ التى هى الطريقة ـ وهى المرتبة الثانية ، والمرابطة على جناب الحق ـ التى هى الحقيقة وهى المرتبة الثالثة(٣) .

إن كلا من القاضى البيضاوى والشهاب الخفاجى يرى كما يرى جمهور الصوفية أن الوصول إلى الله تعالى هو تحصيل مقامات الشريعة والطريقة والحقيقة على هذا الترتيب .

فإن أول ما يجب على المريد للوصول من المطالب هو الشريعة ،

---

(١) الاتجاه الصوفى عند أئمة تفسيرالقرآن العظيم ص ١٨٩ .
(٢) تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ٣/٩٥ .
(٣) عناية القاضى ٣/٩٥ .

والمراد منها أوامر الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم من الطهارة والصلاة بالصبر على الطاعات وفعل القربات .

ثم سلوك الطريقة بالأخذ بالتقوى وما يقربه إلى الله زلفى من قطع المنازل والمقامات ، وهو المعبر عنه بمصابرة النفس فى رفض العادات ، لأن من حكّم العادات حُرم من البركات ..

ثم الوصول إلى الحقيقة والمقصد ومشاهدة نور التجلى المعبر عنه بمرابطة السر على جناب الحق لترصد الواردات [١] .

رابعًا : موقف الإمام البقاعى :

لقد صرح الإمام برهان الدين البقاعى باشتمال الدين على مراتب الشريعة والطريقة والحقيقة ، وأبان حقائق هذه المراتب بأروع ما نطق به لسان الصوفية فى صياغة نورانية .. وذلك عند تفسيره لقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، يونس : ٥٧ ، .

قال تعالى ﴿ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ ﴾ أى زاجر عظيم من التخلى عن كل ما يشغل القلب عن الله من المحظورات وغيرها ، من كل مالا ينبغى وذلك هو الشريعة ..

ولما كان تناول المؤذى شديد الخطر ، وهو لذيذ إلى النفس لما بينهما من ملائمة النقص ، وكان الانكفاف عنه أشق شىء عليها رغبها فى القبول بقوله (من ربكم) أى المحسن إليكم ، المدبر لمصالحكم بهذا القرآن.

ولما كان أليق ما يعمل بعد الحمية تعاطى الدواء المزيل للأخلاط

---

(١) الاتجاه الصوفى عند أئمة التفسير ١٩٠ .

الفاسدة من الباطن قال « وشفاءٌ » أى عظيم جداً ، لما فى الصدور ، من أدواء الجهل، وذلك الشفاء يحصل بتطهير الباطن سالما عن العقائد الفاسدة ، والأخلاق الناقصة كما سلم البدن من الأفعال الدنية ، وهذا هو الطريق .

[وفى أصل المخطوطة : وهذا هو الطريقة]

ولما كانت الروح إذا انصقلت مرآتها فصارت قابلة لتجلى الأنوار عليها بفيض البروق الإلهية والنفحات القدسية ، والمواهب الملكوتية ، لأنها دائمة اللمعان كما قال صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه الطبرانى عن محمد بن مسلمة رضى الله تعالى عنه (إن لربكم فى أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها لعله أن يصيبكم نفحة منها فلا تشقون بعدها أبداً)(١) .. وليس المانع من نزولها فى كل قلب إلا عدم القابلية من بعضها ، لتراكم الظلمات فيها من صدأ المخالفة ورين الإعراض والغفلة فيكون بذلك كالمرايا الصدئية ، لا تقبل انطباع الصور بها .. قال تعالى : (وهدى) إلى الحق ، لأنه نور عظيم يقود صاحبه ـ ولابد ـ إلى الطريق الأقوم ، وهذا للصديقين وهو الحقيقة(٢) .

---

(٢) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير ج ١٩ ص٢٣٤ برقم ٥١٩ والهيثمى فى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٣١ وقال فيه من لم أعرفهم ومن عرفتهم وثقوا والسيوطى فى الجامع الصغير ج١ ص٩٧ وأشار له بالضعف .
وهناك حديث فى هذا المعنى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم افعلوا الخير دهركم وتعرضوا لنفحات رحمة الله فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده وسلوا الله أن يستر عوراتكم وأن يؤمن روعاتكم .. رواه الطبرانى فى المعجم الكبير ج١ص٢٥٠ رقم ٧٢٠ وقال الهيثمى فى المجمع ج ١٠ص ٢٣١ وإسناد رجاله رجال الصحيح غير عيسى بن موسى بن إياس بن البكير وهو ثقة .

(٢) نظم الدرر للبقاعى ١٤٥/٩ .

الفصـل الخامـس

الصحابــة والتصـوف

من الدعاوى الباطلة التى يزعمها أعداء التصوف والمنكرون له جملة وتفصيلا، أن التصوف لم يكن فى العهد الأول عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإنما هو من جملة البدع التى ابتدعها الناس ..

وللرد على هذه الفرية يقول أهل العلم الراسخون فيه :

منذ أول يوم للدعوة الإسلامية وُجد التصوف ، وإن لم يكن مذكوراً بالاسم ، فإنه كان موجوداً بحكم الحال والواقع المعاش والتطبيق اليومى للإسـلام ..

فقد دأب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على تربية أصحابه رضى الله تعالى عنهم ظاهراً وباطنا ، وليس ذلك إلا التصوف ، لا أكثر ولا أقل .

قال الشيخ أحمد بن زرّوق ، التصوف : علم قصد به إصلاح القلوب وإفرادها لله تعالى ، وقد قضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طوال سنى ما قبل الهجرة فى إصلاح قلوب أصحابه وإفرادها لله تعالى فلا نافع ولا ضار ، ولا معطى ولا مانع، إلا الله وحده ، ولا يسوق الخير ويدفع البلاء إلا رب السماء ، ولم ينتقل إلى تنظيم حياة المسلمين فيها بينهم وطرق معاملاتهم ومعاشهم إلا بعد أن أخرج من قلوبهم كل وصف دنى

وحلاها بكل وصف سنى[١] .

وإلى هذا أشار المؤرخ ابن خلدون فى مقدمته عند كلامه عن التصوف فقال : « وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية ، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عاما فى الصحابة والسلف .. فلما فشا الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية »[٢] .

وإلى هذه الحقيقة نفسها يشير العلامة الإمام محمد أبو زهرة إذ يقول : « لا أودّ أن أتعرض لنشأة التصوف فى الإسلام وقبل الإسلام ، ولكنى لا أستطيع أن أقول : إن عمر بن الخطاب لم يكن متصوفا ، وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن من أمتى محدَّثين ومكلَّمين وإن عمر منهم » رواه البخارى فى صحيحه وفى صحيح مسلم : « لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدَّثون، فإن يك فى أمتى أحد فإنه عمر» .

والذى كان يعتقد فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان من أقرب أصحابه إلى الله حتى إنه عندما كان ذهب إلى العمرة وجّه إليه القول : وقال له : « لا تنسانا من دعائك يا أخى » رواه أبو داود والترمذى ولفظه « أى أُخَىَّ أشركنا فى دعائك ولا تنسنا » .

---

(١) الحجة للقطعانى ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٢) المقدمة لابن خلدون ص ٣٢٨ .

ولا أستطيع أن أقول : إن أبا بكر الصديق الذى كان يركب الصعب من الأمور ضابطا لنفسه لم يكن صوفيا، والذى أثر عنه أنه قال كلاما نسب إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم واختلفت الرواية فى قائله : « رجعنا من الجهاد الأصغر » وهو القتال » إلى الجهاد الأكبر » وهو جهاد النفس »[١]. وهو الذى يقول : فرّ من الشرف يتبعك الشرف [٢].

وإذا فهمنا ، والأمر هكذا أن التصوف قدوته المثلى وأسوته الحسنة هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنه قد سار عليه كبار الصحابة والتابعين ، ومن جاء بعدهم من المؤمنين الصادقين المخلصين إلى يومنا هذا ، فهمنا أن التصوف الذى عرف فى الإسلام بهذا الاسم منذ القرن الثانى للهجرة تصوف إسلامى صرف ، وأنه لم يكن من النِّحَل والمذاهب التى دخلت على المسلمين نتيجة لاتصالهم بالأمم التى دانت بالإسلام ، وحملت معها محصولا كبيراً من عاداتها وتقاليدها ومعتقداتها ومذاهب تفكيرها.

وقد عرفنا أن المسلمين منذ اليوم الأول للإسلام قد انخلعوا انخلاعًا تامًا عن الحياة الدنيا ، وأعطوا دينهم كل ما عندهم من قوى مادية وروحية ، يبغون بذلك إعلاء هذا الدين ، وإرساء قواعده ، وأنهم من أجل

---

(١) بل هو حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورواه الديلمى والبيهقى عن جابر رضى الله تعالى عنه ولفظه عنه أنه قال : لما رجعنا من غزوة تبوك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قدمتم خير مقدم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، قالوا : وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟ قال : جهاد العبد هواه .. وإن كان سنده ضعيفا لكنه موافق لمعانى القرآن والسنة الصحيحه كما قال الحافظ عبد الله الغمارى فى خواطر دينية ج ١ .

(٢) مجلة لواء الإسلام عدد ١٢ شعبان سنة ١٣٧٩ هـ سنة ١٩٦٠ م ندوة لواء الإسلام .

ذلك قد خرجوا من ديارهم وأموالهم مهاجرين فى سبيل الله عز وجل، لا يلتفتون إلى ما خلفوا وراءهم من مال أو ولد ، ولا يبالون بما تستقبلهم به الحياة من جهد السفر ، ووحشة الغربة ، وانقطاع العون ، ونفاد الزاد ، فقد أعدوا أنفسهم للاستشهاد فى سبيل الله عن رضا واطمئنان .

فالمهاجرون هم طليعة المسلمين فى التضحية والفداء ، وهم النبأ العظيم للإسلام عن السمو بالروح والاستعلاء على ماديات الحياة، والغلبة على شهوات النفس ومطالب الجسد .. رضوان الله عليهم أجمعين ، ثم كانت الأنصار ، وكانت بيعتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واستعدادهم للوقوف فى وجه العرب جميعا فداءً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتضحية بكل غال ونفيس فى سبيل رضوان الله تبارك وتعالى..

وكان إيواؤهم للمهاجرين إليهم ومشاركتهم إياهم ديارهم وأموالهم وإيثارهم بالنصيب الأوفى مما فى أيديهم ، لقد كان الرجل منهم إذا كانت له امرأتان نزل عن إحداهما لصاحبه المهاجر ليتزوجها بعد انقضاء عدتها.

يقول الله تعالى مسجلا هذا الفضل للأنصار فى سورة الحشر : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾(١).

ثم كانت التجربة القاسية فى تلك الحروب التى خاضها المسلمون ، وهم فئة قليلة فى وجه الدنيا كلها ، لقد خاضوا هذه المعارك وأقدموا على لقاء العدو ، وهم يعلمون أنهم فى معرض الموت المحقق حتى قال قائلهم :

---

(١) الحشر : ٩ ، وينظر نشأة التصوف للأستاذ / عبد الكريم الخطيب ٣٠ ، ٣١ .

ولستُ أبالى حين أُقتــل مسلما على أى جنب كان لله مصرعى

وذلك فى ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزّع

فأقدموا على لقاء العدو بأقدام ثابتة وقلوب مطمئنة ، ونفوس راضية لا تتحول عن ميدان المعركة إلا منتصرة أو مستشهدة ، بل إن الرجل منهم كان يحزن أشد الحزن إذا آب من المعركة معافًى لم يصب بجراح إنه ليطمع فى الاستشهاد ويحرص عليه بما يبدى من ضروب الإقدام والشجاعة ، فإذا لم يقدر له أن يموت فى هذا الموطن ظن أنه ليس بأهل لهذه الكرامة .

أيكون التصوف والزهد إلا إيثاراً وتضحية ؟ وهل هناك من تضحية أو إيثار أبلغ من هذا وآكد وأروع ؟

نعم إن التصوف فى حقيقته تضحية وإيثار ، تضحية باللذائذ والشهوات ، وإيثار ما يبقى على ما يفنى ، تضحية بالعاجل وإيثار للآجل ، مجاهدة للنفس ومغالبة لأهوائها ، يبذل المرء لها من جهد وصبر، كما يبذل المجاهد فى سبيل الله سواء بسواء .

وفى سيرة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم صور رائعة من هذه المجاهدة التى يدور مجالها بين المرء ونفسه ،إلى جانب الجهاد الذى مجاله ميدان الحرب بين أولياء الإسلام وأعدائه(١) .

وحسبنا فى ذلك هذه الصورة التى يرويها لنا التاريخ فى سيرة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، حيث روى أنه أتى إليه بشربة ماء

---

(١) نشأة التصوف ٣١ ، ٣٢ .

بارد وعسل فى يوم صائف فقال : « اعزلوا عنى حسابها » ..

إنه رضى الله تعالى عنه يخاف أن يحاسب على هذه النعمة إذا لم يستطع أن يؤدى شكرها ، إنه يضحى بها فى الدنيا لينال خيراً منها فى الدار الآخرة وحتى لا يحاسب حساب من يقال لهم ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ « الأحقاف: ٢٠ » .

فمن سلك هذه السبيل فهو زاهد حقا ، متصوف حقا ، ولن يكون تصوف ولا زهد إلا عن تضحية ، يجاهد المرء فيها نفسه جهاداً صادقا يعينه عليه صبره وأمله فى رضا الله ورضوانه .

فى ظل هذه المشاعر الإسلامية نشأ التصوف الذى كان عند سلف الأمة زهداً ، ثم صار فى القرن الثانى تصوفاً له أصول وآداب مستمدة من تعاليم الإسلام متخذة لها مشْرَعا خاص من موارد الشريعة[١] .

وكان يمكن أن تمضى الأيام بالإسلام والمسلمين من دون أن تظهر فى لسان اللغة كلمة « التصوف » ولا أن يعرف من المسلمين جماعة « المتصوفة » وحسب المعرضين عن الدنيا ، المتطلعين إلى الحياة الآخرة ، الراغبين فيما عند الله ، والزاهدين فى متاع الحياة ، حسب هؤلاء أن يترسموا سيرة السلف الصالح ، وأن يتتبعوا آثار الصحابة والتابعين فى التضحية والإيثار ومجاهدة النفس ومغالبة الهوى ، إذ ليس وراء هؤلاء الصفوة الكرام فى السمو الإنسانى ، والصفاء الروحى غاية لمبتغ ولا مطمع لمطمع فى رضا الله تعالى ورضوانه[٢] .

---

(١) نشأة التصوف ٣٣ .

(٢) المرجع نفسه ٣٣ .

يقول الإمام القشيرى : « اعلموا أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يتسم أفاضلهم فى عصرهم بتسمية علم سوى صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام ، إذ لا أفضلية فوقها ، فقيل : الصحابة ، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب ، فقيل لخواص الناس ـ ممن لهم شدة عناية بأمر الدين ـ الزهاد والعُبَّاد .. ثم ظهرت البدعة ، وحصل التداعى بين الفرق ، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهاداً ، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله سبحانه وتعالى ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم الصوفية [1] .

---

(١) كشف الظنون لحاجى خليفة ١/٤١٤ .

الفصل السادس

التصوف هو التطبيق العملى للكتاب والسنة

من الدعاوى الباطلة التى يقوم بها خصوم التصوف أنهم يقولون إنه لا صلة له بالكتاب والسنة ، ولا دليل عليه منهما ، مع أن الحق غير ذلك وذلك لما يلى :

أننا قد تأملنا سيرة الصوفية فى القرون الأولى من الإسلام فوجدناها سيرة حسنة جميلة مبنية على مكارم الأخلاق والزهد والورع والعبادة منطبقة على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم كما صرح بذلك سيد هذه الطائفة الإمام أبو القاسم الجنيد كما فى ترجمته فى تاريخ ابن خلكان حيث قال : « مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة » وفى شرح الإحياء للعلامة (الزبيدى) وقال الجنيد : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقال سرىّ السقطى : « التصوف اسم لثلاثة معان : وهو الذى لا يطفئ نور معرفته نور ورعه ، ولا يتكلم بباطن علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب ، ولا تحمله الكرامات على هتك محارم الله تعالى » وفى شذرات الذهب فى ترجمة « أبى الحسن الشاذلى » ومن كلامه : « كل علم تسبق إليك فيه الخواطر وتميل النفس وتلتذ به فارم به وخذ بالكتاب والسنة » .

ويقول رضى الله تعالى عنه « إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف ، وقل لنفسك إن الله تعالى ضمن لى

العصمة فى الكتاب والسنة ، ولم يضمنها لى فى جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة إلا بعد عرضها على الكتاب والسنة ..

ويقول الإمام القشيرى فى كتابه « الرسالة » وهى من أعمدة كتب التصوف الصحيح : « وبناء هذا الأمر وملاكه على حفظ آداب الشريعة ، وصون اليد عن المدّ إلى الحرام والشبهة وحفظ الحواس عن المحظورات ، وعدَ الأنفاس مع الله تعالى عن الغفلات وأن لا يستحل مثلا سمسمة فيها شبهة في أوان الضرورات فكيف عند الاختيار ووقت الراحات »(١) .

وهذا هو الإمام الشعرانى رحمه الله تعالى ورضى عنه .. يتحدث عن إكرام الله تعالى للصوفية الذين ساروا على الكتاب والسنة وسيرة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم فيقول : « اعلم يا أخى أنّ علم التصوف عبارة عن علم انقدح فى قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة ، فكل من عمل بهما انقدح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسنة عنها ، نظير ما انقدح لعلماء الشريعة من أحكام ، حين عملوا بما علموه من أحكامها »(٢) .

قال الإمام أبو يزيد البسطامى رحمه الله تعالى لأحد جلسائه :

قم بنا ننظر إلى هذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالولاية ـ وكان رجلا مشهورا بالزهد ـ فمضينا إليه ، فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقه تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه وقال : « هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكيف يكون

---

(١) الرسالة القشيرية : ٥٨٠ ت / هانى الحاج ط المكتبة التوفيقية .

(٢) التصوف الإسلامى للشيخ / طه عبد الباقى سرور ص ٧٠ .

مأمونا على ما يدعيه ؟!

ومن ثم كان يقول : « لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرقى فى الهواء ،فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة » .

ويقول سيدنا سهل بن عبد الله التسترى معبرا عن أصول التصوف الصحيح : « أصول طريقنا سبعة : التمسك بالكتاب والاقتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، وتجنب المعاصى ، ولزوم التوبة ، وأداء الحقوق »[1] .

فإذا ما وصلنا إلى الإمام أبى حامد الغزالى رحمه الله تعالى ورضى عنه فإننا نجده يقول فى شىء من التفصيل فيه دقة وفيه استدلال فى غاية القوة : « واعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل ،والمدعى فيه كثير ، ونحن نعرفك علامة له : وذلك أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع ، موقوفة على توقيفاته إيراداً وإصدارا ، وإقداما وإحجاما ، إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها ، ولا يصل فيه إلا من واظب على جملة من النوافل، فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض؟ فإن قلت : فهل تنتهى رتبة السالك إلى الحد الذى ينحط عنه فيه بعض وظائف العبادات ، ولا يضره بعض المحظورات ، كما نقل عن بعض المشايخ من التساهل فى هذه الأمور؟

وأقول لك : اعلم أن هذا عين الغرور وأن المحققين قالوا : « ولو رأيت

(١) المنقذ من الضلال شرح الإمام الأكبر شيخ الأزهر الأسبق الدكتور عبد الحليم محمود ص ١٣٠ .

إنسانا يطير فى الهواء ويمشى على الماء وهو يتعاطى أمرا يخالف الشرع فاعلم أنه شيطان.. »[١].

وهذا هو الحق الذى لا مرية فيها .. والحق أحق أن يُتبع ..

وقد كان علماء السلف الصالح من الصوفية رضى الله تعالى عنهم يعملون بكل ما يعلمون من الكتاب والسنة ، على وجه الإخلاص لله تعالى فاستنارت قلوبهم وخلصت من العلل القادحة أعمالهم ، فلما ذهبوا وخلف من بعدهم أقوام لا يعتنون بالإخلاص فى علمهم ولا فى عملهم ، أظلمت قلوبهم وحجبت عن أحوال القوم فأنكروها .

وهناك مغرضون يتحاملون على الصوفية مستشهدين بكلام الشيخ ابن تيمية وغيره ، ويتهمونهم زوراً وبهتانا بأنهم يهتمون بالحقيقة فقط ويهملون جانب الشريعة ، وأنهم يعتمدون على كشفهم وإلهامهم ولو خالفت الشريعة ، فهذا كله افتراء باطل يشهد على بطلانه كلام الشيخ ابن تيمية نفسه[٢].

فقد تحدث رحمه الله تعالى عن تمسك السادة الصوفية بالكتاب والسنة فى قسم علم السلوك من فتاويه فقال : « والشيخ عبد القادر الجيلانى رحمه الله تعالى ونحوه من أعظم مشائخ زمانهم أمراً بالتزام الشرع والأمر والنهى وتقديمه على الذوق والقدر ، ومن أعظم المشائخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية ، فإن الخطأ فى الإرادة من حيث هى إرادة إنما تقع من هذه الجهة ، فهو يأمر السالك أن لا تكون له إرادة من جهته هو أصلا ، بل يريد ما يريد الرب عز وجل إما إرادة شرعية إن تبين له ذلك ، وإلا جرى

---

(١) المرجع نفسه ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٢) حقائق عن التصوف : ص ٣٠٨ .

مع الإرادة القدرية ، فهو إما مع أمر الرب وإما مع خلقه . وهو سبحانه له الخلق والأمر . وهذه طريقة شرعية صحيحة »[١].

وقال فى موضع آخر : « فأما المستقيمون من السالكين كجمهور مشائخ السلف مثل الفضيل بن عياض ، وإبراهيم بن أدهم ، وأبى سليمان الدارانى ، ومعروف الكرخى ، والسرى السقطى ، والجنيد بن محمد ، وغيرهم من المتقدمين ومثل الشيخ عبد القادر الجيلانى ، والشيخ حماد ، والشيخ أبى البيان ، وغيرهم من المتأخرين ، فهم لا يسوغون للسالك ولو طار فى الهواء أو مشى على الماء أن يخرج عن الأمر والنهى الشرعيين ، بل عليه أن يفعل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت ، وهذا هو الحق الذى دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف ، وهذا كثير فى كلامهم »[٢].

ومع كل هذا نجد الحاقدين على التصوف إذا سمعوا شيئا عن أخلاق القوم قالوا : هذا منزع صوفى لا شرعى ، فيتوهم السامع أن التصوف أمر خارج عن أصل الشريعة ، والحال أنه لب الشريعة كما رأيت بشهادة من يزعمون أنه خصم الصوفية الأول وهو الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى..

وإن من يطالـع كتب القوم السليمة من الدس ، مثل كتاب الحلية لأبى نعيم ، والرسالة القشيرية بتعليق وشرح الشيخ ابن تيمية نفسه واللمع للطوسى ، وعوارف المعارف للسهروردى وقوت القوت لأبى طالب المكى ، وعلم القلوب له أيضا والإحياء للإمام الغزالى وطبقات الصوفية للسلمى والرعاية لحقوق الله للحارث المحاسبى ورسالة المسترشدين له كذلك ،

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٤٨٨/١٠ ، ٤٨٩ .

(٢) المرجع نفسه جـ ٥١٦/١٠ ، ٥١٧ .

والوصايا للشيخ محيى الدين بن عربى الحاتمى الطائى ، وغير ذلك من كتب الصوفية ، لا يكاد يجد خلقا مما فيها يخالف الشريعة أبداً ، لكثرة محاسبة الصوفية لأنفسهم وأخذهم بالعزائم لا بالرخص ، فإن حقيقة طريق القوم علم وعمل ، وجهاد ومجاهدة ، والتزام ومراقبة سداها ولحمتها الآداب المستمدة من الشريعة والحقيقة (١).

وأختم هذا المبحث بهذه الكلمة الجامعة لما عليه الصوفية من حال شريفة ومقام سام للشيخ إبراهيم بن محمد ـ النصراباذى ـ رحمه الله تعالى إذ يقول : « أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة ، وترك الأهواء والبدع ، وتعظيم حرمات المشايخ ، ورؤية أعذار الخلق ، وحسن صحبة الرفقاء ، والقيام بخدمتهم ، واستعمال الأخلاق الجميلة ، والمداومة على الأوراد ، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات ، وما ضل أحد فى هذا الطريق إلا بفساد الابتداء ، فإن فساد الابتداء يؤثر فى الانتهاء » (٢).

---

(١) يراجع : حقائق عن التصوف ص ٣١١ .

(٢) طبقات الصوفية للسلمى ص ٤٨٨ .

الفصل السابع

موقف الأئمة الأربعة من الصوفية

لقد كان علماء الشريعة الإسلامية من الفقهاء والمحدثين يسيرون على أثر الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم فيجمعون بين الشريعة والطريقة والحقيقة ، ويؤدون العبادات العملية متحققين بسر الإخلاص فيها متذوقين حلاوتها ، مدركين أسرارها ، وقد كانت لهم مجاهدات لتهذيب نفوسهم، وإصلاح قلوبهم ، ولما تحلوا به من صلاح وتقوى ومعرفة نالوا هذه المراتب العلمية ، ومنحهم الله تعالى هذا الفهم لكتابه ، والتعمق فى شرعه ، ونفع الله الأمة بعلومهم على مر السنين والأيام ، فكأنهم أحياء بآثارهم الخالدة ، وجهودهم العلمية المباركة(١) .

(أ) نقل الفقيه الحصكفى صاحب الدر أن أبا على الدقاق رحمه الله تعالى قال : « أنا أخذت هذه الطريقة من أبى القاسم النصراباذى وقال أبوالقاسم : أنا أخذتها من الشبلى ، وهو من السرى السقطى ، وهو من معروف الكرخى ، وهو من داود الطائى ، وهو أخذ العلم والطريقة من أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه، وكل منهم أثنى عليه ، وأقر بفضله » .

ثم قال صاحب الدر معلقا : « فيا عجبا لك يا أخى ! ألم يكن لك أسوة حسنة فى هؤلاء السادة الكبار ؟ أكانوا متهمين فى هذا الإقرار

---

(١) حقائق عن التصوف ص ٣١٣ .

والافتخار ، وهم أئمة هذه الطريقة وأرباب الشريعة والحقيقة ؟! ومَن بعدهم في هذا الأمر فلهم تبع ، وكل ما خالف ما اعتمدوه مردود مبتدع[١] .

ولعلك تستغرب عندما تسمع أن الإمام الأعظم أبا حنيفة النعمان رضى الله تعالى عنه - ت ١٥٠ هـ - يعطى الطريقة لأمثال هؤلاء الأكابر من الأولياء والعلماء الصالحين من الصوفية !

فهلا تأسى الفقهاء بهذا الإمام ، فساروا على نهجه ، وجمعوا بين الشريعة والحقيقة ؛ لينفعهم الله بعلمهم كما نفع بإمامهم الأعظم الإمام الكبير معدن التقوى والورع أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه .. يقول العلامة ابن عابدين الحنفى رحمه الله تعالى فى حاشيته متحدثا عن الإمام أبى حنيفة رحمه الله تعالى تعليقا على كلام صاحب الدر الآنف الذكر : ، هو فارس هذا الميدان ، فإن مبنى علم الحقيقة على العلم والعمل وتصفية النفس ، وقد وصفه بذلك عامة السلف فقال الإمام أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه فى حقه : إنه كان من العلم والورع والزهد وإيثار الآخرة بمحل لا يدركه أحد ، ولقد ضُرب بالسياط لِيلِيَ القضاء فلم يفعل .

وقال عبد الله بن المبارك رضى الله تعالى عنه : ليس أحد أحق من أن يقتدى به من أبى حنيفة ، لأنه كان إماما تقيا نقيا ورعا عالما فقيها ، كشف العلم كشفا لم يكشفه أحد ببصر وفهم وفطنة وتقى .

وقال الثورى رضى الله تعالى عنه لمن قال له : جئت من عند أبى حنيفة : لقد جئت من عند أعبد أهل الأرض[٢] .

---

(١) الدر المختار وعليه حاشية ابن عابدين جـ ٤٣/١ .
(٢) حاشية ابن عابدين ٤٣/١ .

(ب) وإذا انتقلنا إلى الإمام مالك بن أنس رضى الله تعالى عنه - ت : ١٧٩ هـ - إمام دار الهجرة لرأيناه يتحدث عن التصوف حديث من عرف التصوف حق المعرفة ؛ حيث يقول حاثاً المسلم على الابتداء بعلم الجوارح ، ثم الانتقال إلى علم معالجة القلوب ، ومحذرا من الاتجاه إلى التصوف من غير ذخيرة من الفقه، وحاضا على الجمع بينهما قائلاً : « من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن جمع بينهما فقد تحقق » وقد مر تحقيق هذا القول وشرحه من هذا الكتاب فليراجع .

(ج) ثم إذا انتقلنا إلى تلميذ الإمام مالك الذى أخذ عنه العلم ، وروى عنه الموطأ ، وهو الإمام الشافعى - ت : ٢٠٤ هـ - رضى الله تعالى عنه نجد الحافظ السيوطى رضى الله تعالى عنه يحدثنا فى كتابه « تأييد الحقيقة العالية » أن الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه قال : « صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين ، وفى رواية ثلاث كلمات - وهن فواتح كل خير - قولهم : الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك ، وقولهم نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل ، وقولهم : العدم عصمة »[١].

فانظر رحمك الله تعالى إلى عظمة هذا الإمام المقتدى به ، وإلى جميل اعترافه ، وبالغ إنصافه، وشديد إخلاصه ، فهو يصحب الصوفية ، ويعرف فضلهم وقدرهم ، ويتعلم منهم ، بل ويقتدى بطريقهم ، فها هو ذا يقول كما ينقل عنه الإمام العجلونى رحمه الله تعالى حجة علم الحديث فى

---

(١) تأييد الحقيقة العلية للعلامة السيوطى ص ١٥، ١٦، ت الشيخ الحافظ عبد الله الغمارى

كتابه (كشف الخفا ومزيل الإلباس) : « حُبِّب إلى من دنياكم ثلاث : ترك التكلف ، وعشرة الناس بالتلطف ، والاقتداء بطريق أهل التصوف »(١) .

(د) فإذا ما وصلنا إلى تلميذ الإمام الشافعى، وهو الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى رضى الله تعالى عنه ـ ت ٢٤١ هـ ـ وجدنا أنه كان مصاحبا لأبى حمزة الصوفى ، ومقرا لأحوال القوم ، بل يوصى ولده عبد الله قائلا : « يا ولدى عليك بمجالسة هؤلاء القوم من الصوفية ، فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة »(٢) ..

وهذا على سبيل التواضع منه رضى الله تعالى عنه ، ويقول متحدثا عن الصوفية مبينا رفعة منزلتهم : « لا أعلم أقواما أفضل منهم ، قيل : إنهم يستمعون ويتواجدون ، قال : دعوهم يفرحوا مع الله ساعة »(٣) .

وقد نقلتُ فى آخر الجزء الثانى ـ وهو الأخير ـ من طبقات الحنابلة للقاضى أبى الحسين محمد بن أبى يعلى قطعة من مقدمة الشيخ الإمام أبى محمد بن تميم الحنبلى ، وهى فى عقيدة الإمام المبجل أحمد بن حنبل وفى أصول مذهبه ومشربه رضى الله تعالى عنه .

يقول فيها ما نصه : « وقد سئل مرة ـ أى الإمام أحمد ـ عن المريد؟ فقال : أن يكون مع الله كما يريد ، وأن يترك كل ما يريد لما يريد .

وكان يعظم الصوفية ويكرمهم ، وقد سئل عنهم وقيل له : يجلسون فى المساجد؟ فقال : العلم أجلسهم ، وكان يحرم الغناء والألحان فى القرآن

(١) كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس جـ ٣٤١/١

(٢) تنوير القلوب للشيخ محمد أمين الكردى : ص ٢٤١ .

(٣) غذاء الألباب للسفارينى الحنبلى جـ ١٢٠/١ .

والشعر ، ويكره غناء النصب ، فأما حدو الأعراب فقال : حدا عبد الله بن رواحة وغيره فلا بأس به . وقال رحمه الله تعالى : طوبى لمن أخمل الله ذكره ، وأرسل إلى عبد الوهاب ـ يعنى الوراق ـ عليك بالخمول ، فإنى قد بليت بالشهرة .

وكان يقول : طوبى لمن أخمل الله ذكره ، ، يعنى بذلك الخفاء وعدم الشهرة، وكان يمنع الدخول على الأمراء ويقول : الخلوة أنفع .. ا. هـ

ثم يقول الإمام ابن تميم بعد ما ذكر مفصلا شيئا من عقائد الإمام أحمد ما نصه : « فهذا بعض ما نعلمه من اعتقاده ونعرفه من مذهبه ، سلك الله بنا طريقه ، وجعل رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فى الجنة رفيقه ، وعصمنا من الخوض فى الباطل والقدح فى الأئمة ، والنسبة إليهم ما قد نزههم الله عنه إن شاء الله تعالى »[١].

وما أظن أن إنسانا مسلما صادقا يمارى فى صلاح هؤلاء الأئمة ، فهم أهل الصلاح، ودعاة الإصلاح على الحقيقة والتحقيق ، وليس أدعياء الإصلاح الذين هم أنفسهم بحاجة إلى الاصلاح ، فهم الأئمة المصلحون الصالحون الذين يقتدى بهم .

فما من مسلم فى طول العالم وعرضه إلا ويعرف قدرهم وفضلهم ، فالغالبية العظمى من المسلمين تقتدى بمذاهب أولئك الأئمة فى دينها وعباداتها وصنوف معاملتها ، فإذا ما علمنا أن هؤلاء الأئمة كانوا من كبار الصوفية وعظمائها ، صح قولنا بأن التصوف منهج لازم صحيح فى

---

(١) موقف أئمة الحركة السلفية من التصوف والصوفية ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ط دار السلام .

السلوك والأخلاق ومعرفة الحقيقة، كصحة المذاهب الفقهية فى علوم الشريعة .

وقد ذكرت كتب الصوفية هؤلاء الأئمة الأعلام ، وسواهم من أئمة المذاهب الفقهية على أنهم من مشاهير الصوفية فعددت مناقبهم وذكرت فى هذا الميدان أحوالهم، فقد ذكر الحافظ أبو نعيم - ت ٤٣٠ هـ - على سبيل المثال .. الكثير عنهم فى كتابه (حلية الأولياء) وقدم لكل منهم بما هو أهله [١] .

ومن هذا نعلم أن الأئمة المجتهدين والعلماء العاملين هم الصوفية حقيقة .

فإن قال قائل : لو أن طريق التصوف أمر مشروع لوضع فيه الأئمة المجتهدون كتبا ، ولا نرى لهم قط كتابا فى ذلك ؟

يجيب الشيخ الشعرانى رحمه الله تعالى على هذا فيقول : « إنما لم يضع المجتهدون فى ذلك كتاباً لقلة الأمراض فى أهل عصرهم وكثرة سلامتهم من الرياء والنفاق ، ثم بتقدير عدم سلامة أهل عصرهم من ذلك ، فكان ذلك فى بعض أناس قليلين ، لا يكاد يظهر لهم عيب ، وكان معظم همة المجتهدين إذ ذاك إنما هو فى جمع الأدلة المنتشرة فى المدائن والثغور مع أئمة التابعين وتابعيهم ، التى هى مادة كل علم ، وبها يعرف موازين جميع الأحكام ، فكان ذلك أهم من الاشتغال بمناقشة بعض أناس فى أعمالهم القلبية التى لا يظهر بها شعار الدين ، وقد لا يقعون بها فى حكم الأصل .

---

(١) البيان الجازم ص ٧١ .

ولا يقول عاقل قط : إن الإمام أبا حنيفة أو مالكا أو الشافعى أو أحمد رضى الله تعالى عنهم يعلم أحدهم من نفسه رياءً أو عُجْبا أو كبراً أو حسداً أو نفاقا ثم لا يجاهد نفسه ، ولا يناقشها أبداً ، ولولا أنهم يعلمون سلامتهم من تلك الآفات والأمراض لقدموا الاشتغال بعلاجها على كل علم[١] .

(١) لطائف المنن والأخلاق للشعرانى ١/٢٥ ، ٢٦

الفصل الثامن

الدس على علوم الإسلام

خصوصا التصوف لأنه جوهر الإسلام

ونعنى بالدس : إضافة ألفاظ أو جمل إلى أصول النص ، أو تغيير الكتاب جملة عدا اسمه واسم مؤلفه ، أو اختلاق كتاب باسم ما ، أو نسبته لمؤلف آخر ، وما إلى ذلك من كل ما من شأنه أن يزيف حقيقة فى عالم الكتب والرسائل والمؤلفات ..

وبالطبع لم تكن الأمور فى السابق مثل ما هى عليه الآن إذ لم تكن هناك مطابع أو رقابة على المطبوعات ، أو توثيق لها بل كان الكاتب يؤلف الكتاب ، ثم يقوم بأحد أمور ثلاثة :

١) إما أن يحتفظ به لمطالعته الخاصة .

٢) وإما أن ينسخ عن النسخة الأصلية صديق أو قريب للكاتب لنفسه ، أو يعطيها لغيره فينسخ منها ثم تنشر .

٣) وإما أن يحمل الكاتب كتابه إلى المطبعة فى ذلك الوقت ، وهى آنذاك عبارة عن مكان معروف فى الأسواق ، يجتمع فيه الورّاقون والنسّاخون فينسخون من الكتاب عدة نسخ لتباع ، وهذا ، مع العلم بأن أكثر النساخ والورّاقين كانوا من اليهود ، ومن ثم كثر الدسّ والوضع فى الكتب لغرض التشويه لعلوم الإسلام والتشكيك فيه ..

ونلحظ أنه فى كل هذه المراحل يجرى نسخ الكتاب باليد ..

ولو أخذنا على سبيل المثال كتابا كبيراً كالفتوحات المكية ، مؤلفا من آلاف الصفحات ، ثم جعلنا نسبة التصحيف والقلب والتحريف فيه واحداً فى المائة على أقل تقدير . لأمكننا أن نتصور كيف يكون حال الكتاب بعد خمسمائة عام مثلا ، ونحن هنا نتحدث عن الأخطاء غير المقصودة ، وإلا فلا رقيب على الناس إلا الله تعالى.. خاصة إذا علمنا أن من المألوف فى تلك الأزمنة أن يؤلف الكتاب فى الأندلس مثلا ، وينسخ بعد ثلاثمائة سنة فى مصر.. ناهيك عما كان يفعله بعض الحذاق من غير المخلصين ، كأن يكتب أحدهم كتابا ويريد أن يضمن رواجه ، فتراه بدلاً من أن ينسبه لنفسه، يضع عليه اسم مؤلف معروف مشهور ليكثر عليه الطلب .

ولا يخفى فى هذا المقام ما كان يدسّه بعض جهال الخصوم والحاسدين فى كتب خصومهم ، لتشويه صورتهم والنيل منهم ، وهذه أخبث صور الدسّ ؛ لأنها نوع من الكذب والافتراء .. ومما يؤسف له أن بعض مظاهر الدس تلك ما زالت باقية فى عصرنا الحاضر ..

خذ على ذلك مثالاً من الواقع : فهناك كتاب يسمى ، الرحمة فى الطب والحكمة ، يتحدث عن كيفية استخراج الكنوز، وتسخير الجن بمواثيق سليمان وعهوده ، وفيه حديث عن الأوفاق والسحر وغير ذلك من الضلال المبين ، نسبه بعضهم إلى العلامة الحافظ السيوطى [1] ـ وهو منه براء ـ

---

(١) قال الشيخ الحافظ أبو الفضل عبد الله الصديق العمارى فى كتاب أولياء وكرامات عند كلامه عن المؤلفات التى نسبت إلى غير مؤلفيها ومنها : كتاب الرحمة فى الطب والحكمة طبع عدة مرات منسوبا للسيوطى أيضا . وهو تأليف الحكيم المقرى مهدى الصبرى . وهذا الكتاب تتبعه بالتجربة صاحبنا المرحوم الشيخ محمد بن الأزرق العمارى الصديقى، فجرب ما ذكر فيه من الأدوية والوصفات من أوله إلى آخره فلم يصح منه إلا وصف شربة واحدة . ا.هـ

كتاب أولياء وكرامات ص٢٢ طبعة أولى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م طبع مكتبة القاهرة .

ولا يليق بعالم كالإمام السيوطى أن يكتب مثل هذه الأشياء ، وكذلك كتاب « مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب » الذى نسبه بعضهم إلى الإمام الغزالى ، وهو منه براء . ولكنه الدس والتزوير بحسن نية أحيانا وبسوء نية غالبا (١) .

وها نحن نسوق أمثلة لتلك الدسائس التى ابتليت بها كتب العلم على اختلاف مجالاته :

أ) الدس في كتب التفسير :

كثيرا ما نقرأ في كتبه بعض الإسرائيليات التى ليست إلا أساطير كاذبة وعقائد غير إسلامية ، نقلها إلى الدين الإسلامى اليهود الذين اعتنقوا الإسلام غير مخلصين له ، أو مخلصين ، ولكن علقت بأذهانهم هذه الأساطير حين كانوا على دين اليهودية ، فنقلوها عن كتب أنبيائهم التى دخلها التحريف والتغيير ، وتقبلها بعض المسلمين على أنها صحيحة .

وقد وفق الله تعالى علماء المسلمين إلى تمحيص هذه الإسرائيليّات وتنبيه المسلمين إلى ضررها ، وخصوصا منها ما يضر بالعقيدة ، لأنها تقدح فى عصمة الأنبياء والمرسلين كالإخبار بأن سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام قد كذب، وأمر زوجه سارة بالكذب ، وحاشاهما من ذلك .

وكذلك حفيده سيدنا يعقوب عليه السلام يذبح شاة ويمر به فقير صائم فيستطعمه، فيأبى، فيبتليه الله تعالى بأمر يوسف عليه السلام ، وكذلك سيدنا يوسف عليه السلام لم ينج من هذه الأباطيل ، إذ نُسب إليه أنه هم بامرأة العزيز هم فُحْش وسوء ، وحاشاه من ذلك حاشاه ، وكذلك سيدنا أيوب عليه السلام نسب إليه أنه مرض حتى ظهر الدود من جسده ،وألقى على كناسة

---

(١) يراجع البيان الجازم ص ١١٧ ، ١١٨ .

بنى إسرائيل ، وكان يلقى إليه الطعام من فوق السور ، وكنسبة المعصية إلى سيدنا داود عليه السلام الذى جعله الله خليفة مؤتمنا فى الأرض حيث زعموا أنه عشق امرأة بعض جنوده فيرسله إلى جبهة القتال ويكيد له بالقتل ليتزوج امرأته التى سبق أن رآها تغتسل على سطح !

وهذا كله لا يليق بمقام الفضلاء من عامة المسلمين فما بالك بالأنبياء والمرسلين الأطهار الأخيار من ذوى الأخلاق الكريمة ، والشمائل الحميدة الذين عصمهم الله تعالى من كل سوء وفاحشة(١) .

فالواجب على كل مسلم غيور أن ينبذ هذه الإسرائيليات ، وأن يعتمد على المصادر الإسلامية الصحيحة الشهيرة عند أهل العلم .

ب) الدس في كتب الحديث :

وأما الحديث فلقد حاول الدسّاسون المغرضون تشويه معالم الإسلام عن طريق وضع الأحاديث المكذوبة المفتراة على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقصدون بذلك تحطيم العقيدة، ودس الأفكار الهدامة ، كالتجسيم والتشبيه والفوقية والجهة وغير ذلك من العقائد الفاسدة والمآرب الشيطانية والرغبة فى الدنيا والجاه والتزلف للحكام ، وما إلى ذلك من أغراض مشبوهة .

كما وضعوا أحاديث فى الترغيب والترهيب ما أنزل الله بها من سلطان . فإذا قيل لهم : لم تكذبون على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو القائل : (من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار)(٢) .

---

(١) يراجع حقائق عن التصوف ص ٣١٦ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه فى كتاب العلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ومسلم فى كتاب الإيمان والترمذى فى كتاب العلم وابن ماجه فى أبواب السنة .

قالوا : نحن نكذب له لا عليه !! كما كان بعضهم يضع الحديث تقربا إلى الحكام ، وتزلفا إلى الملوك ، ورغبة في مطمع دنيوي ومكسب مادي.

وقد تفطن العلماء الأبرار الغيورون المخلصون عند صدر الإسلام الأول إلى تلك الأكاذيب ، فصنفوا كتب الصحاح ، وكتب الجرح والتعديل فما غادروا صغيرة ولا كبيرة إلا تناولوها وتكلموا عنها ، فظهر بذلك الصحيح من الموضوع والحسن من المقطوع ، بل ظهر علم مصطلح الحديث ، رواية فغدا ميزانا للفصل بين الثابت والمفترى وكل ذلك بفضل الله وببركة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأبرار الوارثين لعلمه من علماء أمته صلى الله عليه وآله وسلم .. حتى جمع بعضهم كتبا بيّن فيها الأحاديث الموضوعة ، منها اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للحافظ السيوطي ، والموضوعات لابن الجوزي ، وكشف الخفا للعجلوني ، وأسنى المطالب للحوت البيروتي ، والأسرار المرفوعة في الأحاديث الموضوعة (١).

ج) الدس في كتب التاريخ :

وأما علم التاريخ فقد كان ميدانا خصبا للدس والافتراء والكذب حيث ألصق المضللون إلى تاريخ الإسلام قصصا وحوادث من نسيج خيالهم ، حاولوا بذلك تشويه سيرة الخلفاء وملوك الإسلام ، فقد نسبوا إلى هارون الرشيد أمورا غريبة منكرة نجدها في أكاذيب ألف ليلة وليلة .

ولا يخفى ما أحدثه المضللون الصليبيون والمستشرقون ومن لف لفهم في تاريخ الإسلام من افتراءات وترّهات وأضاليل واضحة البطلان ، لم يقصدوا بها إلا التهديم والتشكيك..ولكن علماء التأريخ الإسلامي المحققين

---

(١) ينظر : حقائق عن التصوف ص ٣١٧ والبيان الجازم ص ١١٩ .

كالإمام الذهبى والطبرى وابن كثير وابن الأثير وابن هشام وغيرهم قد دونوا التاريخ الإسلامى والسيرة النبوية، وهذبوهما ، ونفوا عنهما الدخائل والدسائس وأخرجوهما سليمين نقيين من كل ما يشين .

فعلى طالب الحقيقة أن يعود إلى هذه المراجع الصحيحة ،كى يميز الخبيث من الطيب، والغث من السمين ، والحق من الباطل[١] .

د) الدس في كتب التصوف :

أما كتب التصوف فكان لها النصيب الأوفر من الدس والتزوير والتشويه من هؤلاء الدخلاء والمفترين ، فمنهم من أدخل فى كتب التصوف أفكاراً منحرفة ،وعبارات سيئة ما أنزل الله بها من سلطان وهم منها براء.

كقولهم وما الكلب والخنزير إلا إلهنا * وما الرب إلا راهب فى كنيسة

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً ﴾ ..

ومنهم من أراد أن يفسد دين المسلمين بأشياء أخر تمس عقائدهم ، فنسب إلى بعض رجال التصوف أقوالا تخالف عقيدة أهل السنة ، كالقول بالحلول والاتحاد ، وبأن الخالق عين المخلوق والكون عين المكون . تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيراً ..

ومنهم من حاول تشويه تاريخ رجال الصوفية ، ونزع ثقة الناس بهم ، فدس فى كتبهم حوادث وقصصا من نسج خياله فيها ارتكاب للمنكرات، واقتراف للآثام والكبائر، كما نجد ذلك كثيرا فى الطبقات الكبرى للشيخ الشعرانى رحمه الله تعالى ، وهو منها برىء كما سيأتى .

---

(١) براجع حقائق عن التصوف ص ٣١٨ .

ومنهم المبشرون والمستشرقون ، وأبواق الاستعمار الذين درسوا كتب السادة الصوفية ، وكتبوا عنهم المؤلفات لأجل التحريف والتزوير والدس ، ويقصدون بذلك أن يطعنوا الإسلام فى صميمه ، وأن يسلخوا روح الدين عن جسده .. ولقد خدع بهم أقوام أرادوا أن يفهموا التصوف من كتب هؤلاء المستشرقين كأمثال : ، نيكلسون الإنجليزى وجولدزيهر اليهودى الألمانى وفلهوزن الألمانى وماسينيون الفرنسى وآسين بلاثيوس وغيرهم ، (١) .

فوقعوا فى أحابيلهم ، وتسمموا من أفكارهم ، وانجرفوا فى تيار محاربة التصوف والصوفية على الإجمال ، ولا أدرى كيف يثق المسلم الصادق بأقوال عدوه الماكر المخادع ؟ ومنهم السذج الذين يصدقون هؤلاء وهؤلاء، فيعتقدون بهذه الأمور المدسوسة ، ويبثونها فى كتبهم ، وكل هذا بعيد عن الصوفية والتصوف .

فإن قال قائل : إن ما نسب إلى الصوفية من أقوال مخالفة هى حقا من كلامهم بدليل وجودها فى كتبهم المطبوعة والمنشورة .

نقول : ليس كل ما فى كتب الصوفية لهم ، لأنها لم تسلم من حملات الدس والتحريف كغيرها من كتب العلم، كما أشرنا من قبل .

وما أحوجنا إلى تضافر جهود المؤمنين المخلصين من العلماء العاملين فى حقل تحقيق التراث ، وتنقيته لتصفية هذا التراث الإسلامى الثمين مما لحق به من دس وتحريف ، ولو ثبت بطريق صحيح عن بعض الصوفية كلام مخالف لحدود الشريعة فنقول : ليست كلمة فرد واحد حجة على

(١) حقائق عن التصوف ص ٣١٨

جماعة ، شعارها ومذهبها التمسك بالكتاب والسنة ، حتى إنهم ليقولون : إن أول شرط الصوفى أن يكون واقفا عند حدود الشريعة ، وألا ينحرف عنها قيد شعرة ، فإذا هو تخطى هذا الشرط ، ووصف نفسه بأنه صوفى ، فقد اختلق لنفسه صفة ليست فيه ، وزعم ما ليس له .

وإن من إضاعة الوقت الثمين الانشغال بمثل هذه الترهات والأباطيل المفتراة على هؤلاء القوم فى هذه الأوقات التى يوجد ما هو أهم من المجادلة بها ، فهى معروفة لدى الصوفية المحققين (١) .

وعلينا أن نعرف أن التصوف ليس علما نتلقاه بقراءة الكتب، ومطالعة الكراريس والصحف ، ولكنه أخلاق وإيمان وأذواق ومعارف ، لا ينال إلا بصحبة الرجال الذين اهتدوا بهدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وورثوا عنه العلم والعمل والأخلاق والمعارف ، وهو علم لدنى ينتقل من الصدر إلى الصدر ، ويفرغه القلب فى القلب، ومن ثم تراهم يقولون دائما ، حال رجل فى ألف رجل خير من وعظ ألف رجل فى رجل ، فالدعوة إليه بالحال أقوى من المقال .

وهناك أقوام مغرضون ، درسوا كتب الصوفية ، وتتبعوا ما فيها من الدس والتحريف والتشويه ، واعتبروها حقائق ثابته ، وارتكزوا عليها فى حملاتهم العنيفة ، وتهجماتهم الشديدة على السادة الأبرار من أهل التصوف الأخيار.. ولو أنهم قرأوا ما يعلنه رجال التصوف فى جميع كتبهم من استمساكهم بالشريعة ، واعتصامهم بكتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وتقيدهم بالمذاهب الإسلامية المعتبرة ، وتبنيهم عقيدة أهل

---

(١) حقائق عن التصوف ص ٣١٨ . ٣١٩ .

السنة والجماعة لأدركوا تماما أن ما ورد فى كتبهم مما يناقض هذا المبدأ الواضح والمنهج السوى إنما هو مؤول أو مدسوس عليهم ، وهم منه براء[١] .

نماذج من الدس والافتراء على العلماء والصوفية :

هذه أمثلة من الدس والكذب المفترى على الصوفية ، والعلماء فى كتبهم نسوقها للقارئ ؛ حتى يكون على بينة من أمره لما مضى ..

يقول ابن الفراء فى طبقاته نقلا عن أبى بكر المروزى ومسدّد وحرب: إنهم قد رووا الكثير من المسائل، ونسبوها للإمام أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه. وبعد أن يفيض فى ذكر هذه المسائل يقول :: رجلان صالحان بُليا بأصحاب سوء : جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه ،وأحمد ابن حنبل رضى الله تعالى عنه ، أما جعفر الصادق فقد نسبت إليه أقوال كثيرة ، دونت فى فقه الشيعة الإمامية على أنها له ، وهو منها برىء وأما الإمام أحمد فقد نسب إليه بعض الحنابلة آراء فى العقائد لم يقل بها[٢] .

وقد سئل الإمام الفقيه ابن حجر الهيثمى رحمه الله تعالى فى عقائد الحنابلة ما لا يخفى على شريف علمكم ، فهل عقيدة الإمام أحمد بن حنبل كعقائدهم ؟ فأجاب بقوله : ، عقيدة إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه وأرضاه، وجعل جنان المعارف متقلبه ومثواه ، وأفاض علينا وعليه من سوابغ امتنانه وبوأه الفردوس الأعلى من جنانه - موافقة لعقيدة أهل السنة والجماعة ، من المبالغة التامة فى تنزيه الله تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيراً ، من الجهة والجسمية وغيرها من سمات

---

(١) ينظر حقائق عن التصوف ص ٣١٩

(٢) التصوف الإسلامى والإمام الشعرانى للأستاذ/ طه عبد الباقى سرور ص ٨٢ .

النقص ، بل وعن كل وصف ليس فيه كمال مطلق ، وما اشتهر بين جهلة المنسوبين إلى هذا الإمام الأعظم المجتهد من أنه قائل بشيء من الجهة أو نحوها فكذب وبهتان وافتراء عليه فلعن الله من نسب إليه، أو رماه بشيء من هذه المثالب التى برأه الله منها ،وقد بين الحافظ الحجة القدوة الإمام أبو الفرج بن الجوزى رحمه الله تعالى من أئمة مذهبه المبرئين من هذه الوصمة القبيحة الشنيعة أن كل ما نسب إليه من ذلك كذب عليه وافتراء وبهتان ، وأن نصوصه صريحة فى بطلان ذلك ، وتنزيه الله تعالى عنه ، فاعلم ذلك ، فإنه مهم[١] .

وأما الإمام على كرم الله وجهه ورضى الله تعالى عنه فقد دُس عليه كتاب نهج البلاغة أو أكثره ، فقد ذكر الذهبى رحمه الله تعالى فى ترجمة على بن الحسين الشريف المرتضى أنه : « هو المتهم بوضع كتاب نهج البلاغة ، ومن طالعه جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين على رضى الله تعالى عنه ففيه السب الصراح والحط على السيدين أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما وفيه من التناقض والأشياء الركيكة والعبارات التى من له معرفة بنفس القرشيين الصحابة وبنفس غيرهم ممن بعدهم من المتأخرين جزم بأن الكتاب أكثره باطل »[٢] .

وممن ابتلى بهذا الدس من كبار الصوفية الشيخ الإمام عبد الوهاب الشعرانى العالم الأزهرى رحمه الله تعالى وأثابه .. فقد دس عليه فى كتبه حيا وميتا ، وأكثر ما دس عليه فى كتابه « لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار» المشهور بالطبقات الكبرى .. ولقد أوضح ذلك فى كتابه « لطائف

---

(١) الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمى المكي ص ٢٤٨ .

(٢) ميزان الاعتدال للذهبى ٣/١٢٤ .

المنن والأخلاق ، فقال : « ومما من الله به عليّ صبرى على الحسدة والأعداء لما دسوا على فى كتبى كلاما يخالف ظاهر الشريعة ، وصاروا يستفتون على زوراً وبهتانا ، ومكاتبتهم فى لباب السلطان ونحو ذلك .

اعلم يا أخى أن أول ابتلاء وقع لى فى مصر من نحو هذا النوع أننى لما حججت سنة سبع وأربعين وتسعمائة ، زوّر علىّ جماعة مسألة فيها خرقٌ لإجماع الأئمة الأربعة ، وهو أننى أفتيت بعض الناس بتقديم الصلاة عن وقتها إذا كان وراء العبد حاجة ، قالوا : وشاع ذلك فى الحج ، وأرسل بعض الأعداء مكاتبات بذلك إلى مصر من الجبل ، فلما وصلت إلى مصر ، حصل فى مصر رجّ عظيم ، حتى وصل ذلك إلى إقليم الغربية والشرقية والصعيد ، وأكابر الدولة بمصر ، فحصل لأصحابى غاية الضرر فما رجعت إلى مصر إلا وأجد غالب الناس ينظر إلى شذراً فقلت : ما بال الناس ؟ فأخبرونى بالمكاتبات التى جاءتهم من مكة ، فلا يعلم عدد من اغتابنى ، ولاث بعرضى إلا الله عز وجل .. ثم إنى لما صنفت كتاب ، البحر المورود فى المواثيق والعهود ، وكتب عليه علماء المذاهب الأربعة بمصر ، وتسارع الناس لكتابته ، فكتبوا منه نحو أربعين نسخة ، غار من ذلك الحسدة ، فاحتالوا على بعض المغفلين من أصحابى ، واستعاروا منه نسخته ، وكتبوا لهم منها بعض كراريس ، ودسوا فيها عقائد زائفة ومسائل خارقة لإجماع المسلمين ، وحكايات وسخريات عن جحا ، وابن الراوندى وسبكوا ذلك فى غضون الكتاب فى مواضع كثيرة ، حتى كأنهم المؤلف ، ثم أخذوا تلك الكراريس ، وأرسلوها إلى سوق الكتبيين فى يوم السوق ، وهو مجمعَ طلبة العلم ، فنظروا فى تلك الكراريس ، ورأوا اسمى عليها ، فاشتراها من لا يخشى الله تعالى ، ثم دار بها على علماء الجامع الأزهر ،

ممن كان كتب على الكتاب ،ومن لم يكتب ، فأوقع ذلك فتنة كبيرة ، ومكث الناس يلوثون بى فى المساجد والأسواق وبيوت الأمراء نحو سنة ، وأنا لا أشعر. وانتصر لى الشيخ ناصر الدين اللقانى، وشيخ الإسلام الحنبلى، والشيخ شهاب الدين بن الجبلى ، كل ذلك وأنا لا أشعر ، فأرسل لى شخص من المحبين بالجامع الأزهر ، وأخبرنى الخبر ، فأرسلت نسختى التى عليها خطوط العلماء ،فنظروا فيها ، فلم يجدوا فيها شيئاً مما دسه هؤلاء الحسدة ، فسبوا من فعل ذلك ، وهو معروف، وأعرف بعض جماعة من المتهورين ، يعتقدون فىّ السوء إلى وقتى هذا ، وهذا بناء على ما سمعوه أولاً من أولئك الحسدة ، ثم إن بعض الحسدة جمع تلك المسائل التى دُسّت فى تلك الكراريس ، وجعلها عنده ، وصار كلما سمع أحداً يكرهنى يقول له : إن عندى بعض مسائل تتعلق بفلان ، فإن احتجت إلى شىء منها أطلعتك عليه ، ثم صار يعطى بعض المسائل لحاسد بعد حاسد إلى وقتى هذا ، ويستفتون علىّ وأنا لا أشعر ، فلما شعرت أرسلت لجميع علماء الأزهر أننى أنا المقصود بهذه الأسئلة ، وهى مفتراة علىّ ، فامتنع العلماء من الكتابة عليها(١) .

وقد ذكر المؤرخ الكبير عبد الحى بن العماد الحنبلى رحمه الله تعالى فى كتابه ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ترجمة الشيخ عبد الوهاب الشعرانى رحمه الله تعالى وبعد أن أثنى عليه ، وذكر مؤلفاته الكثيرة وأثنى عليه أيضا قال فيه : « وحسده طوائف فدسوا عليه كلمات يخالف ظاهرها الشرع ، وعقائد زائغة ، ومسائل تخالف الإجماع ، وأقاموا عليه القيامة ، وشنّعوا وسبّوا ، ورموه بكل عظيمة ، فخذلهم الله ، وأظهره الله عليهم ،

---

(١) لطائف المنن والأخلاق للشعرانى جـ ٢/ ١٩٠ ، ١٩١ .

وكان مواظبا على السنة ، ومبالغا فى الورع مؤثرا ذوى الفاقة على نفسه حتى بملبوسه ، متحملا للأذى موزعا أوقاته على العبادة ، ما بين تصنيف وتسليك وإفادة .. وكان يسمع لزاويته دوى كدوى النحل ليلا ونهاراً ، وكان يحيي ليلة الجمعة بالصلاة على المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، ولم يزل مقيما على ذلك ، معظما فى صدور الصدور إلى أن نقله الله تعالى إلى دار كرامته ,[١].

كتاب « الطبقات الكبرى » والكذب على الشيخ الشعرانى رحمه الله تعالى ورضى عنه :

لقد قام بتحقيق هذا الكتاب رجل من أهل العلم والتحقيق والتدقيق ، وهو الشيخ عبد الرحمن حسن محمود رحمه الله تعالى .. يقول فى مقدمته للتحقيق : وأما ما كذب على الشيخ الشعرانى فى هذا الكتاب ، لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار ، فكثير ، وقد أمكننا الله تعالى من الاطلاع على تراجم نظيفة أثبتناها فى نسختنا هذه ، وأشرنا إلى كل فى موضعه .

إن النسخة التى كتبها الشيخ بيده رحمه الله تعالى وأثابه .. قد فقدت أو هى فى سرداب من سراديب المكتبات ، أو أضاعوها ، ليتمكنوا من دس ما يمكن دسّه فيما تنسخه أيديهم ، والنسخ الموجودة فى بعض تراجمها زيادة عن المطبوع أو نقص ، فما رأيت فيها مخالفة تستحق أن تظهر نقلته برمته ، بدلاً عن ما فى النسخ المطبوعة ، وما لا : تركته كما هو .

واليك بعضاً من المخالفات الواضحة :

- فى ترجمة الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله تعالى عنه

---

(١) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب جـ ٨/٣٧٤

ص٦ جـ ٢ من المطبوعة ما نصه : « والمشى مع زوجتك إلى السوق فى حاجة من حوائجها، وركوبك خلفها على الحمار وغيره » ا. هـ وهى عبارة تمجها العقول السليمة ،وصحتها من النسخة التى تحت يدى ما نصه :

« والمشى مع زوجتك إلى السوق فى حاجة من حوائجها ، وركوبها خلفك على الحمار وغيره » ا. هـ .

● فى المطبوعة ص ٩٥جـ ٢ فى ترجمة الشيخ « محمد الشويمى » ما نصه : « وخرج له بالعصا وقال : إن لم ترجع يا محمد وإلا استلفتك من ربك » ا. هـ .. وهذه الجملة فيها جرأة ، ووقاحة ، وفحش لا يصدر عن عارف بالله تعالى .

والواقع أنها كذب محض ، إذ نصها من النسخة التى راجعت عليها: « وإن لم ترجع يا محمد أسقطتك وآذيتك » ا. هـ .

● فى المطبوعة ص ١٠٦ جـ ٢ فى ترجمة الشيخ « محمد المغربى » ما نصه : « وهذا هو التوحيد الحالى العام المشار إليه فى الآية بقوله ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ أى هذا التوحيد الباطن فتفطنوا له إن كنتم فقهاء فإنه محتاج إلى الفهم ، وهو موضع العلم الباطن » ا. هـ .

أما فى المخطوطة التى قابلت عليها فنصه هكذا :

« فهذا هو التوحيد الباطنى للعالم المشار إليه فى الآية بقوله : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ أى هذا التسبيح الربانى .

● فى ص ١١٦ جـ ٢ من المطبوعة ، فى ترجمة الشيخ نور المرصفى ما نصه : « وقع له أنه قرأ فى يوم وليلة ثلاثمائة ألف ختمة ..

كل درجة ألف ختمة » وفى المخطوطة التى استعنت بها :

« الفقير وقع له أنه قرأ فى اليوم والليلة ثلاثمائة ختمة ، فى كل درجة ختمة » ا. هـ وكلا الروايتين كذب موضوع على الشيخ رحمه الله تعالى .

● فى ص ١٢٣ جـ ٢ من المطبوعة ، ترجمة الشيخ محمد الشربينى ص ١٢٣ جـ٢ ثلاثة عشر سطرا ونصفا ، وفى المخطوطة التى استعنت بها ما يقارب الثلاث صحائف ..

● ترجمة الشيخ على البجائى المغربى ص ١٢٩ جـ ٢ ستة أسطر وفى النسخة التى قابلت عليها ما يقارب الصفحتين .

● ترجمة الشيخ « على الشرنوبى » ص ١٣١ جـ ٢ فى المطبوعة خطأ فى الاسم والترجمة (٨) ثمانية أسطر ، وفى النسخة التى قابلت عليها ما يقارب الصفحتين .

● ترجمة الشيخ « أحمد البهلول » فى المطبوعة ص ١٣١ جـ ٢ (٩) تسعة أسطر وفى المخطوطة التى راجعت عليها ما يقارب الثلاث صحائف.

● فى ترجمة الشيخ « على أبو خوذة » ص ١٢٢جـ ٢ ما نصه:

« وقال مرة احذر أن [......][١] أمك ، فقلت لعبد من عبيده : ما معنى كلام الشيخ ؟ قال : يحذرك أن يدخل حب الدنيا فى قلبك ، لأن الدنيا هى أمك » ا. هـ .

وفى المخطوطة التى راجعت عليها ما نصه :

---

(١) فى الأصل هنا كلمة صريحة فى الجماع ، وقد تركناها مراعاة للذوق العام.

« اجتمعت به كثيرا ،فقلت له مرة : أوصنى ، فقال : احترس أن تلعب بك أمك ، فقلت لعبيده : ما معنى هذا ؟

فقالوا : احذر أن تميل إلى الدنيا بقلبك » ا. هـ

● ترجمة الشيخ « على وحيشى » جـ ٢ ص ١٣٥ من المطبوعة :

« وكان إذا رأى شيخ بلد وغيره ينزل من على الحمارة ، ويقول له : امسك رأسها لى حتى أفعل فيها ، فإن أبى شيخ البلد تسمّر فى الأرض حتى لا يستطيع أن يمشى خطوة ، وإن سمح حصل له خجل عظيم » ا . هـ

والترجمة التى أثبتها بالكامل فى هذا الكتاب ـ يعنى المحقق ـ من المخطوطة التى استعنت بها ليس فيها هذا الكلام إطلاقا .

● ترجمة كل من ناصر الدين أبى العمائم الزفتاوى ، والشيخ شرف الدين الصعيدى ، والشيخ أبى القاسم المغربى ، والشيخ إبراهيم أبى لحاف مقتضبة ، أثبتنا فى نسختنا من المخطوطة ما هو أوسع ، وأكمل ، وأنظف . وهى من الأدلة الواضحة على أن هذا الكتاب لعبت فيه أيد غير أمينة على دين ، ولا خلق .

● فى ترجمة الشيخ على الخواص ص ١٣٦ جـ٢ : فى المطبوعة « وكان يعظم أرباب الحرف النافعة فى الدنيا » إلى آخره .

فى النسخة التى راجعنا عليها : « .. وكان رضى الله تعالى عنه يكره أصحاب الحرف النافعة » إلخ .. فأى العبارتين هى الصحيحة ؟ !!

● ترجمة الشيخ على البحيرى ص ١٥٣ جـ٢ فى المطبوعة سبعة عشر سطرا ، وفى المخطوطة التى عندى صورتها ما هو أوسع من هذا

بكثير ، ولذلك أثبتها بنصها فى هذه الطبعة ..

● ترجمة الشيخ « أبو على » ص ٨٠ جـ٢ ما نصه :

« وأخبرنى بعض الثقاة أنه كان مع الشيخ عبيد فى مركب فوحلت لم يستطع أحد أن يزحزحها ، فقال الشيخ عبيد : اربطوها فى بيضى.. » إلخ هذه كلمة لا أصل لها فى النسخة التى راجعنا عليها ، ولذلك صورناها لك كاملة لترى بنفسك .

● ترجمة الشيخ أحمد الرومى تختلف فى النسخة المخطوطة عن المطبوعة اختلافا كبيراً لفظا وموضوعا ، وكذلك الشيخ شاهين المحمدى ، والشيخ عبد القادر السبكى ، والشيخ إبراهيم المقيم بجامع « آل ملك » والشيخ على الهندى ، والشيخ شعبان ، كل هؤلاء وغيرهم .. وغيرهم ستعرف ما جرى فى تراجمهم إذا قرأت ما نقلناه لك بأمانة .

وأما ترجمة شقيق المؤلف : الشيخ عبد القادر الشعرانى رحمه الله تعالى فقد أسقطوها فلا وجود لها ، والحمد لله نقلناها من نسختنا ، وهى ترجمة طيبة مباركة.. والله الموفق والهادى إلى سواء الصراط[١] ا. هـ

مزيـد من الإيضـاح :

وقال الشيخ أحمد القطعانى ، العالم المغربى المحقق المدقق رداً على الشيخ أبى بكر الجزائرى الذى نقل كلاما مدسوساً على الشيخ الشعرانى فى تراجم بعض الصالحين :

---

(١) مقدمة كتاب « الطبقات الكبرى » للشيخ الشعرانى من ص ٢٥ : ٢٩ تحقيق الشيخ عبد الرحمن حسن محمود .

ونحن لا نلوم المصنف على عدم معرفته للغث من السمين ، والصحيح من السقيم ، فمثل هذه الأمور لا يلام عليها إلا المحققون الذين يشبعون المادة بحثا وتمحيصا قبل النطق بحرف واحد عنها ذما أو قدحا ، وإن كنا لا نزال نلومه على التحدث فيما لا يعلم .

ولكننا نجد أنفسنا مضطرين لإظهار بعض المدسوسات فى كتاب « الطبقات » حتى لا يتسرع القارئ غير المختص بتصديق كل ما به ، خصوصا فى الجزء الثانى منه .

فأقول – على سبيل المثال – إن الإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه فرغ من كتاب الطبقات حسب ما ذكر بخط يده فى آخر الكتاب فى ١٥ رجب ٩٥٢ هـ بينما نجد أنه فى صفحة ١٦٧ من الجزء الثانى ذكرت ترجمة « أحمد الكعكى » ، وذكر فى نفس الترجمة أنه توفى فى ١٥ رجب سنة ٩٥٢ ، فلزم أن يكون قد كتبت ترجمته فى يوم الانتهاء من كتابة الطبقات ، وإذا علمت أنه ذكرت بعده إحدى عشرة ترجمة لأحد عشر مترجماً له كلهم بدون استثناء ماتوا قبله حسب ما هو مذكور فى تراجمهم تيقنت أن هذه الترجمة قد دست بين التراجم كذبا وتلفيقا .

وفى صفحة ١٥٣ من الجزء الثانى جاءت ترجمة على البحيرى الذى ذكر فى ترجمته أنه توفى فى شوال ٩٥٣ هـ أى بعد الانتهاء من الكتاب بسنة وثلاثة أشهر .

أما فى صفحة ١٦٣ من الجزء الثانى فإنك ستجد ترجمة « على الكازرونى » الذى ذكر فى ترجمته أنه توفى فى ٩٦٠ هـ أى بعد الانتهاء من الكتاب وانتشاره بين الناس وتناولهم له بالنسخ والنشر بثمانى سنين .

ويلاحظ أن مسئولية الدس لا تقع على هؤلاء المذكورين ، بل على من حشر أسماءهم ، وأسماء غيرهم بين السطور . وعلى كل حال فإن هذه المدسوسات لا تخفى على أهل الشأن إذ لديهم ميزان دقيق يزن الشعرة وأقل ، وهو الاستقامة على الكتاب والسنة وما خالفها لا يصح نسبة شيء منه للسادة الصوفية(١) .

وقد قال الشيخ الشعرانى نفسه رحمه الله تعالى فى كتابه « اليواقيت والجواهر » : « وقد دس الزنادقة تحت وسادة الإمام أحمد بن حنبل فى مرض موته عقائد زائغة ، ولولا أن أصحابه يعلمون منه صحة الاعتقاد لافتتنوا بما وجدوه تحت وسادته »(٢) .

وكذلك ذكر الشيخ مجد الدين الفيروز آبادى صاحب القاموس فى اللغة أن بعض الملاحدة صنف كتاباً فى تنقيص الإمام الأعظم أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه ، وأضافه إليه ، ثم أوصله إلى الشيخ جمال الدين بن الخياط اليمنى ، فشنع على الشيخ أشد التشنيع ، فأرسل إليه الشيخ مجد الدين يقول له : « إنى معتقد فى الإمام أبى حنيفة غاية الاعتقاد ، فأحرِقْ هذا الكتاب الذى عندك ، أو اغسله ، فإنه كذب وافتراء علىّ »(٣) .

وقال الفقيه الكبير الحافظ العلامة أحمد بن حجر الهيتمى المكى رحمه الله تعالى : « وإياك أن تغتر بما وقع فى كتاب « الغُنيـة » لإمام العارفين وقطب الإسلام والمسلمين ، الشيخ عبد القادر الجيلانى ، فإنه دسه عليه

---

(١) الحجة للشيخ أحمد القطعانى ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

(٢) اليواقيت والجواهر فى عقائد الأكابر جـ١ / ٨ .

(٣) لطائف المدن والأخلاق للشعرانى جـ١ / ١٢٧ .

فيها منَ سينتقم الله منه ، وإلا فهو بريء من ذلك ..

وكيف تروج عليه هذه المسألة الواهية مع تضلعه من الكتاب والسنة وفقه الشافعية والحنابلة ، حتى كان يفتى على المذهبين ، هذا مع ما انضم لذلك من أن الله منَّ عليه من المعارف والخوارق الظاهرة والباطنة ، وما أنبأ عنه وما أظهر عليه وتواتر من أحواله . إلى أن قال : فكيف يتصور أو يتوهم أنه قائل بتلك القبائح التى لا يصدر مثلها إلا عن اليهود وأمثالهم ممن استحكم فيهم الجهل بالله وصفاته وما يجب له وما يجوز وما يستحيل.. سبحانك هذا بهتان عظيم [١].

وكذلك دسوا على الإمام أبى حامد الغزالى عدة مسائل فى كتاب الإحياء ، وظفر القاضى عياض بنسخة من تلك النسخ ؛ فأمر بإحراقها[٢].

قال الشيخ الشعرانى رحمه الله تعالى : « ومما دسوا على الغزالى وأشاعه بعضهم عنه ، قولهم عنه إنه قال : « إن لله عبادا لو سألوه أن لا يقيم الساعة لم يقمها ، وإن لله عبادا لو سألوه أن يقيم الساعة الآن لأقامها » .

فإن مثل ذلك كذب ، وزور على الإمام حجة الإسلام رضى الله تعالى عنه وأرضاه يجب على كل عاقل تنزيه الإمام عنه ، لأنه يرد النصوص القاطعة الواردة فى مقدمات الساعة فيؤدى ذلك إلى تكذيب الشارع صلى الله عليه وآله وسلم فيما أخبر ، وإن وجد ذلك فى بعض مؤلفات الإمام فذلك مدسوس عليه من بعض الملاحدة ، وقد رأيت كتابا

---

(١) الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمى ص ١٤٩ .

(٢) اليواقيت والجواهر جـ١ / ٨ .

كاملا مشحونا بالعقائد المخالفة لأهل السنة والجماعة ، صنفه بعض الملحدين ونسبه إلى الإمام الغزالى ، فاطلع عليه الشيخ بدر الدين بن جماعة فكتب عليه : كذب والله وافترى من أضاف هذا الكتاب إلى حجة الإسلام(١) .

● **الدس على الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي :**

وكذلك ممن ابتلى بالدس عليه فى كتبه ورسائله الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين بن عربى رحمه الله تعالى ورضى عنه .

قال الشيخ الشعرانى رحمه الله تعالى فى شأنه : « كان رضى الله تعالى عنه متقيدا بالكتاب والسنة ، ويقول : كل من رمى ميزان الشريعة من يده لحظة هلك .. إلى أن قال : وهذا اعتقاد الجماعة إلى قيام الساعة ، وجميع ما لم يفهمه الناس من كلامه إنما هو لعلو مراقيه ، وجميع ما عارض من كلامه ظاهر الشريعة وما عليه الجمهور فهو مدسوس عليه ، كما أخبرنى بذلك سيدى أبو طاهر المغربى نزيل مكة المشرفة ، ثم أخرج لى نسخة الفتوحات التى قابلها على نسخة الشيخ التى بخطه فى مدينة « قونيه » فلم أر فيها شيئا مما كنت توقفت فيه وحذفته حين اختصرت الفتوحات .

ثم قال الشيخ الشعرانى : « إذا علمت ذلك ، فيحتمل أن الحسدة دسوا على الشيخ فى كتبه كما دسوا فى كتبى أنا ، فإنه أمر قد شاهدته عن أهل عصرى فى حقى ، فالله يغفر لنا ولهم آمين »(٢) .

---

(١) لطائف المنن والأخلاق جـ١ / ١٢٧ .

(٢) اليواقيت والجواهر جـ١ / ٩ .

وقد ذكر الفقيه الحنفى صاحب الدر المختار أن : « من قال عن فصوص الحكم للشيخ محيى الدين بن عربى إنه خارج عن الشريعة ، وقد صنفه للإضلال ، ومن طالعه ملحد ، ماذا يلزمه ؟ أجاب : نعم ، فيه كلمات تباين الشريعة ، وتكلف بعض المتصلفين لإرجاعه إلى الشرع ، لكن الذى تيقنته أنّ بعض اليهود افتراها على الشيخ - قدس الله سره - فيجب الاحتياط بترك مطالعة تلك الكلمات .

قال العلامة ابن عابدين فى حاشيته على الدر المختار عند قول الشيخ الحصكفى ، لكن الذى تيقنته ، : وذلك بدليل ثبت عنده ، أو لسبب عدم اطلاعه على مراد الشيخ فيها ، وأنه لا يمكن تأويلها ، فتعين عنده أنها مفتراة عليه ، كما وقع للشيخ الشعرانى أنه افترى عليه بعض الحساد فى بعض كتبه أشياء مكفرة ، وأشاعها عنه ، حتى اجتمع بعلماء عصره فأخرج لهم مسودة كتابه التى عليها خطوط العلماء ، فإذا هى خالية عما افترى عليه .

وقال العلامة ابن عابدين أيضا عند قوله ، فيجب الاحتياط ، لأنه إن ثبت افتراؤها فالأمر ظاهر ، وإلا فلا يفهم كل أحد مراده فيها ، فيخشى على الناظر فيها من الإنكار عليه أو فهم خلاف المراد[١] .

ومن المدسوس على الشيخ محيى الدين رحمه الله تعالى أيضا : القول بأن أهل النار يتلذذون بدخولهم النار ، وأنهم لو أخرجوا منها تعذبوا بذلك الخروج .

قال الشيخ الشعرانى رحمه الله تعالى ، وإن وجد نحو ذلك فى شىء

---

(١) حاشية ابن عابدين حـ٣ / ٣٠٣ وصاحب الدر المختار هو الشيخ محمد علاء الدين الحصكفى المتوفى سنة ١٠٨٨ هـ .

من كتبه فهو مدسوس عليه ، فإنى مررت على كتاب الفتوحات المكية جميعه فرأيته مشحونا بالكلام على عذاب أهل النار »[١].

وقال أيضا : « كذب من دس فى كتاب الفصوص والفتوحات أن الشيخ محيى الدين بن عربى قال بأن أهل النار يتلذذون بالنار ، وأنهم لو أخرجوا منها لاستغاثوا ، وطلبوا الرجوع إليها ، كما رأيت ذلك فى هذين الكتابين ، وقد حذفت ذلك من الفتوحات حال اختصارى لها . حتى ورد عن الشيخ شمس الدين الشريف بأنهم دسوا على الشيخ فى كتبه كثيراً من العقائد الزائغة التى نقلت عن غير الشيخ ، فإن الشيخ من كُمل العارفين بإجماع أهل الطريق، وكان جليس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الدوام ، فكيف يتكلم بما يهدم شيئا من أركان شريعته ، ويساوى بين دينه وبين جميع الأديان الباطلة ، ويجعل أهل الدارين سواء؟! هذا لا يعتقده فى الشيخ إلا من عُزل عنه عقله ، فإياك يا أخى أن تصدق من يضيف شيئا من العقائد الزائغة إلى الشيخ ، واحم سمعك وبصرك وقلبك وقد نصحتك والسلام ..

وقد رأيت فى عقائد الشيخ محيى الدين الواسطى ما نصه : « ونعتقد أن أهل الجنة والنار مخلدون فى داريهما ، لا يخرج أحد منهم من داره أبد الآبدين ودهر الداهرين .. قال : ومرادنا بأهل النار الذين هم أهلها من الكفار والمشركين والمنافقين والمعطلين ، لا عصاة الموحدين فإنهم يخرجون من النار بالنصوص »[٢].

---

(١) الكبريت الأحمر ص ٢٧٦ ط ١٢٧٧ .
(٢) اليواقيت والجواهر للشيخ الشعرانى جـ٢ / ٢٠٥ .

ويؤيد ما ذكرنا بأن هذا القول مدسوس على الشيخ محيى الدين ماذكره الشيخ نفسه فى الباب الحادى والسبعين وثلاثمائة من الفتوحات عندما تغلق أبواب النار ، كيف يصير أهلها كقطع اللحم حينما تغلى بهم النار ، ويصير أعلاها أسفلها .

وكذلك ما ذكره الشيخ الباجورى الشافعى فى شرحه على جوهرة التوحيد للإمام اللقانى : « وما يقال بتمرن أهل النار بالعذاب ، حتى لو ألقوا فى الجنة لتألموا ، مدسوس على القوم ـ يعنى الصوفية ـ كيف وقد قال الله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ ، النبأ : ٣٠ ».

فكيف يعتقد مسلم هذه العقيدة الفاسدة التى تخالف عقيدة أهل السنة والجماعة ؟

وقد نص على ذلك الشيخ محمد بن يوسف الكافى ، بعد أن ذكر فريق الجنة ، وأنهم مخلدون فيها ومنعمون ، ذكر فريق أهل النار فقال : « وفريق السعير خالدون فيها أبداً ، لا ينقطع عنهم ألم العذاب ، وقال بعضهم : ينقطع وينقلب فى حقهم استلذاذا ، بحيث لو عرضت عليهم الجنة لأبوها ، لما هم فيه من الاستلذاذ ».. ومعتقد هذا كافر بلا شك ولا ريب ، لتكذيبه الله تعالى فى خبره: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ البقرة:١٦١، ١٦٢» ، وفى خبره أيضا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ النساء : ٥٦ ،

وغير ذلك من الآيات الدالة على استمرار عذابهم[١] ..

ومما نُسب إلى الشيخ محيى الدين رحمه الله تعالى أيضا كذبا ، وافتراء عليه القول بسقوط التكليف .

يقول الشيخ الشعرانى رحمه الله تعالى : « وقد ذكر الشيخ محيى الدين أنه لا يجوز لولى قط المبادرة إلى فعل معصية اطلع من طريق كشفه على تقديرها عليه ، كما لا يجوز لمن كُشف له أن يمرض فى اليوم الفلانى من رمضان أن يبادر للفطر فى ذلك اليوم ، بل يجب عليه الصبر حتى يتلبس بالمرض ، لأن الله تعالى ما شرع الفطر إلا مع التلبّس بالمرض أو غيره من الأعذار ، قال : وهذا مذهبنا ومذهب المحققين من أهل الله عز وجل »[٢] .

مدسوسات أخرى على أهل الله عزوجل :

ومما دُس على العارف الكبير شيخ الإسلام فى عصره سيدى الشيخ إبراهيم الدسوقى قوله : أذن لى ربى أن أتكلم وأقول : أنا الله ، فقال لى : قل : أنا الله ولا تبالِ ، وفى هذا من الشناعة والاجتراء ما يغنى عن الإطالة[٣] .

ومما دس على السيدة العابدة رابعة العدوية رحمها الله تعالى قولها عن الكعبة : « هذا الصنم المعبود فى الأرض » ..

وهذا ابن تيمية نفسه يكذب نسبة هذا القول إليها، ويبين أنه مدسوس

(١) المسائل الكافية للشيخ محمد بن يوسف الكافى التونسى ص ١٩ .
(٢) مجلة العشيرة المحمدية ـ المسلم عدد المحرم سنة ١٣٨١ هـ ص ٢١ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٣ .

ومكذوب عليها ، فقد قال حين سئل عن ذلك : « وأما ما ذكر عن رابعة من قولها عن البيت : إنه الصنم المعبود فى الأرض ، فهو كذب على رابعة المؤمنة التقية ، ولو قال هذا من قال لكان كافرا يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل ، وهو كذب ، فإن البيت لا يعبده المسلمون ، ولكنهم يعبدون رب البيت بالطواف به والصلاة إليه »(١).

هذا ، وقد عمد بعض المغرضين الدساسين إلى تقصى جميع النصوص المدسوسة والمكذوبة على السادة الصوفية ، ليتخذها ذريعة فى حملته المغرضة ، وتهجمه الشنيع على الصوفية بأسلوب مقذع ، وعبارات منحطة بعيدة عن أخلاق الإسلام ، وصفات المؤمنين لا يدفعه إلى ذلك إلا حقد دفين وهوى نفسى ، ومآرب شخصية ..

ولم يدر هذا المسكين أنه يساعد المتقولين والدساسين فى إشاعة ما أرادوا إشاعته، وتشويه ما أرادوا تشويهه من سيرة الأولياء الصالحين المصلحين . فوقع من حيث لا يشعر فى معاداة الأولياء والصالحين وبارز الله تعالى بالمحاربة شاء أم أبى ونسى ما قاله الله تعالى فى الحديث القدسى الذى رواه الشيخان عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : قال الله عز وجل : « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ... » الحديث ، ونسى قول الإمام على كرم الله تعالى وجهه ورضى عنه.. إذا غضب الله على عبد من عباد الله صحبته الوقيعة فى أولياء الله . حمانا الله تعالى من ذلك نحن وإخواننا وأهلينا وأولادنا إنه ولى ذلك والقادر عليه ..

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية حـ١ / ٨٠ ، ٨١ .

ولو ذهبنا نستقصى ألوان التزييف فى كتب أهل العلم على وجه العموم والتصوف على وجه الخصوص لما وسعنا هذا الكتاب ، إذ التصوف كان نصيبه من الدس والافتراء أعظم من غيره ، لأن المزيفين أدركوا أن التصوف هو روح الإسلام ، وأن الصوفية هم قوته النافذة الضخمة وشعلاته الوضاءة المشرقة ، فأرادوا أن يطفئوا هذا النور ، ولكن الله تعالى يدافع عن الذين آمنوا ، وهو يتولى الصالحين ..

وإننا لا ننسى أن الذى ساعد على الدس والتضليل والإفتراء عدم الطباعة الفنية ، والمراقبة الشديدة فى الماضى ، كما هى عليه اليوم فى عصرنا الحاضر من الطبع المنظم ، ومن العقوبات القانونية لمن يتجرأ على طبع شىء من الكتب بغير إذن مؤلفها ، بخلاف عصر النسْخ للكتب الخطية ، فقد كان الدساسون والكذابون يروجون كتبا فيها ما فيها من الدجل والكذب ما الله به عليم ، ويدخلون على كتب العلماء وخاصة الصوفية الدسائس والأباطيل .

ولكن الله تعالى ـ وله الحمد والمنة ـ قيض لهذا الدين رجالا سهروا على تنقية الكتب الإسلامية ، وبينوا المدسوس فيها من غيره ، فجزاهم الله تعالى خيراً [١] .

وهذه الدراسة المتواضعة تسهم فى تنقية التصوف الإسلامى مما علق به من دسائس ، وأمور دخيلة ، وتعمل على تأصيل كل قول أو فعل من كتاب الله تعالى ومن سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن أحوال سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان ، حتى نعيد

---

(١) يراجع حقائق عن التصوف ص ٣٢٨ .

لهـذا الطريق الصــوفى صفاءه وبريقه ؛ ولينتفــع النــاس من طاقاتــه الروحيـة ، ونفحتـه الإيمانيـة فـى هذا العـصر الذى خيـمت عليـه الظلمات الماديـة وآثام الإباحيـة وتيارات الإلحــاد والوجـودية ، والله من وراء القصـد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الفصل التاسع

هل سلوك التصوف أمر واجب ؟

أجاب عن هذا السؤال العلامة الحافظ الحجة الشيخ عبد الله بن الإمام محمد الصديق الغمارى الحسنى رحمهما الله تعالى فقال : وسلوك طريق التصوف واجب محتم لا يكمل دين المرء إلا به ، وبيان ذلك من وجوه :

الأول: أنه مقام الإحسان الذى هو أحد أركان الدين الثلاثة المبينة فى حديث جبريل الطويل ، ولا شك أن الدين يجب اتباعه بجميع أركانه : الإيمان ، والإسلام ، والإحسان ..

وجاء فى إحدى فتاوى والدى رضى الله تعالى عنه فى هذا الموضوع ما نصه : وأما أول من أسس الطريقة ، وهل تأسيسها بوحى؟ فلتعلم أن الطريقة أسسها الوحى السماوى فى جملة ما أسس من الدين المحمدى ، إذ هى بلا شك مقام الإحسان الذى هو أحد أركان الدين الثلاثة التى جعلها النبى صلى الله عليه وآله وسلم بعد ما بينها واحداً واحداً دينا فقال : هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم ، فغاية ما تدعو إليه الطريقة وتشير إليه هو مقام الإحسان بعد تصحيح الإسلام والإيمان؛ ليحرز الداخل فيها والمدعو إليها مقامات الدين الثلاثة الضامنة لمحرزها والقائم بها السعادة الأبدية فى الدنيا والآخرة ، والضامنة أيضا لمحرزها كمال الدين ، فإنه كما فى الحديث عبارة عن الأركان الثلاثة ، فمن أخل بمقام الإحسان الذى هو

الطريقة فدينه ناقص بلا شك ، لتركه ركنا من أركانه ، ولهذا نص المحققون على وجوب الدخول فى الطريقة وسلوك طريق التصوف وجوبا عينيا ، واستدلوا على الوجوب بما هو ظاهر عقلا ونقلا ، ولسنا الآن بصدد بيان ذلك .

وقد بين القرآن العظيم من أحوال التصوف والطريقة ما فيه الكفاية ، فتكلم على المراقبة والمحاسبة والتوبة والإنابة ، والذكر والفكر والمحبة، والتوكل والرضا والتسليم، والزهد والصبر والإيثار والصدق والمجاهدة، ومخالفة الهوى والنفس ، وتكلم عن النفس اللوامة والأمارة والمطمئنة ، وعلى الأولياء والصالحين والصديقين والمؤيدين ،وغير هذا مما يتكلم فيه أهل التصوف والطريقة رضى الله تعالى عنهم فاعرف وتأمل ا. هـ وهو نفيس جدا..

الوجه الثانى : أن التصوف هو العلم الذى تكفل بالبحث عن علل النفوس وأدوائها وبيان علاجها ودوائها، لتصل إلى مرتبة الكمال والفلاح ، وتدخل فى ضمن قوله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ .. ولا شك أن علاج النفوس من أمراضها وأدرانها، أمر يوجبه الشرع القويم ويستحسنه العقل السليم ، ولولا ذلك لما كان هناك فرق بين الإنسان والحيوان .

الوجه الثالث: أن التصوف عنى بتهذيب الأخلاق وتزكيتها ومخالفة هوى النفس والأخذ بعزائم الأمور ، والارتفاع بالنفس عن حضيض الشهوات إلى حيث تستمتع بما تورثه الطاعة من لذة روحية تصغر بجانبها كل لذة مهما عظم قدرها .

الوجه الرابع : أن التصوف هو خلق الصحابة والتابعين والسلف الصالح الذين أمرنا بالاقتداء بهم والاهتداء بهديهم ، وقد بين ذلك والدى رضى الله تعالى عنه فى فتواه التى نقلنا منها آنفا فقال عقب كلامه السابق مانصه : وأما قولك فهل لما أسست الطريقة ... إلخ .. فجوابه يعلم مما قبله ، فإنها وإن كانت من الدين بل وهى أشرف أركانه ، وكانت بوحى كما قلناه ، وكان الصحابة بالحالة التى بلغتنا عنهم تواترا من المسارعة إلى امتثال أمر الله ، كانوا بالضرورة أول داخل فيها وعامل بمقتضاها ، وذائق لأسرارها وثمراتها ، ولهذا كانوا على غاية ما يكون من الزهد فى الدنيا والمجاهدة لأنفسهم ومحبة الله ورسوله والدار الآخرة ، والصبر والإيثار والرضا والتسليم وغير ذلك من الأخلاق التى يحبها الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وتوصل إلى قربهما ، وهى المعبرٌ عنها بالتصوف والطريقة وكما كانوا رضى الله تعالى عنهم على هذه الحالة الشريفة كان أتباعهم أيضا عليها ، وإن كانوا دونهم فيها ، كذلك كان أتباع الأتباع .. وهلم جرا إلى أن ظهرت البدع وتأخرت الأعمال ، وتنافس الناس فى الدنيا وحييت النفوس بعد موتها ، فتأخرت بذلك أنوار القلوب ، ووقع ما وقع فى الدين ، وكادت الحقائق تنقلب ، وكان ابتداء ذلك فى أواخر المائة الأولى من الهجرة، ولم يزل ذلك يزيد سنة بعد سنة إلى أن وصل ذلك إلى حالة تخوّف منها السلف الصالح على الدين ، فانتدب عند ذلك العلماء لحفظ هذا الدين الشريف.. فقامت طائفة منهم بحفظ مقام الإسلام وضبط فروعه وقواعده ، وقامت أخرى بحفظ مقام الإيمان وضبط أصوله وقواعده على ما كان عند سلفهم الصالح ، وقامت أخرى بحفظ مقام الإحسان وضبط أعماله وأحواله.

فكان من الطائفة الأولى الأئمة الأربعة وأتباعهم رضى الله تعالى عنهم وكان من الطائفة الثانية الأشعرى وأشياخه وأصحابه وكان من الثالثة الجنيد وأشياخه وأصحابه ، فعلى هذا ليس الجنيد هو المؤسس للطريقة لما ذكرناه من أنها بوحى إلهى ، وإنما نسبت إليه لتصديه لحفظ قواعدها وأصولها ، ودعائه للعمل بذلك عندما ظهر التأخر عنها ، ولهذا السبب نفسه نسبت العقائد للأشعرى ، والفقه للأئمة الأربعة مع أن الجميع بوحى من الله تبارك وتعالى . ا. هـ

وهو تحقيق بالغ يعلم منه أن ما يسمى الآن تصوفا وطريقة لم يتجاوز ما كان عليه الصحابة والتابعون من الأخلاق الفاضلة والصفات الجميلة، التى حض الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم على التخلق بها ومدح أصحابها فى غير آية وحديث .

الوجه الخامس : أن فى سلوك الطريق صحبة المشايخ الكُمَّل والاقتداء بهم والاهتداء بهديهم ، وقد أمر الله بذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ ..

قال الإمام أحمد بن زروق رحمه الله تعالى والإنابة إلى الله تعالى لا تكون إلا بعلم واضح وعمل صحيح وحال ثابت لا ينقضه كتاب ولا سنة.

الوجه السادس : أن سلوك الطريق ينور بصيرة الشخص ويسمو بهمته حتى لا يبقى له تعلق إلا بالله ، ولا يكون له اعتماد إلا عليه سبحانه، فيصير مصون السر عن الالتفات إلى الخلق، مرفوع الهمة عن تأميلهم اكتفاء بالحق ، متحققا بالحقيقة فى جميع الأحوال ، متوسما بالشريعة فى الأقوال والأفعال ، وهذا أعلى ما يُطلب من المؤمن ، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام

لابن عباس رضى الله تعالى عنهما : « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله » رواه الإمام أحمد والترمذى وصححه .. وبايع الصحابة ، منهم ثوبان مولاه ، والصديق صاحبه على أن لا يسألوا الناس شيئا ، وذلك لرفع الهمة عن الخلق ، والاكتفاء بالالتجاء إلى الحق ..

الوجه السابع : أن فى سلوك الطريق بصحبة شيخ مرشد عارف خروجا من رعونات النفس وحماية للمريد من كل ما يمنعه من الوصول إلى الله تعالى من أنواع الجهل والغرور ودواعى الهوى الموقعة فى ظلمة القلب وإطفاء النور ، ولهذا قال الشيخ ابن عطاء الله السكندرى رحمه الله تعالى فى لطائف المنن : شيخك هو الذى أخرجك من سجن الهوى ودخل بك على المولى ، شيخك هو الذى مازال يجلو مرآة قلبك حتى تجلى فيه أنوار ربك ، نهض بك إلى الله فنهضت إليه ، وسار بك حتى وصلت إليه ، لا زال محاذيا لك حتى ألقاك بين يديه ، فزج بك فى نور الحضرة وقال : ها أنت وربك » ا. هـ

وقال أيضا : إنما يكون الاقتداء بولى دلك الله عليه ، وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه ، فطوى عنك شهود بشريته فى وجود خصوصيته ، فألقيت إليه القياد ، فسلك بك سبيل الرشاد يعرفك برعونة نفسك ، ويدلك على الجمع على الله، ويعلمك الفرار عما سوى الله ، ويسايرك فى طريقك حتى تصل إلى الله ، يوقفك على إساءة نفسك ، ويعرفك بإحسان الله إليك فيفيدك معرفة إساءة نفسك الهرب منها ، وعدم الركون إليها ، ويفيدك العلم بإحسان الله إليك الإقبال عليه والقيام بالشكر إليه ، والدوام على ممر الساعات بين يديه ، قال : فإن قلت : فأين من

هذا وصفه ، لقد دللتنى على أغرب من عنقاء مغرب ؟

فاعلم أنه لا يعوزك وجدان الدالين ، وإنما يعوزك وجدان الصدق فى طلبهم ، جُدّ صدقا تجدْ مرشدا ، وتجد ذلك فى آيتين من كتاب الله تعالى قال الله تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ فلو اضطررت إلى من يوصلك إلى الله اضطرار الظمآن إلى الماء ، والخائف إلى الأمن، لوجدت ذلك أقرب إليك من وجود طلبك ، ولو اضطررت إلى الله اضطرار الأم لولدها إذا فقدته لوجدت الحق منك قريبا ولك مجيبا ، ولوجدت الوصول غير متعذر ، ولتوجه الحق بتيسير ذلك عليه ا. هـ.

الوجه الثامن : أن فى سلوك الطريق الإكثار من ذكر الله والاستعانة بصحبة الشيخ على ذلك ، ولا شك أن الذكر يصفي القلوب ، ويدعو إلى اطمئنانها كما قال تعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ وكل أمرٍ أمر الله به فى القرآن جعل له حدًّا وشرطا ونهاية إلا الذكر فإن الله تعالى لم يقيده بحدّ ولا شرط ولا نهاية ، حيث قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ ..

فلهذه الوجوه التى ذكرناها وغيرها كان سلوك طريق التصوف واجبا ، والانخراط فى سلك أهله أمرا لازما ، ونحن لا ننكر أنه دخل فى الطريق دخلاء أدعياء ، وجهلاء أغبياء ، اتخذوا الطريق سلما لتحصيل أغراضهم وشهواتهم ، وابتدعوا فيه بدعًا ما أنزل الله بها من سلطان ، وزعموا أنهم أهل الحقيقة ، يجوز لهم ما يكون محرماً فى الشريعة وكذبوا ، فإن الشريعة والحقيقة صنوان ، وما خالفت الشريعة الحقيقة قط إلا فى نظر

جاهل ، فمثل هؤلاء ليسوا من الصوفية فى شىء ، أول من يبرأ منهم الصوفية ، ومن الظلم البين أن يعترض بعض الناس بفعل هؤلاء الجهلة ، ويجعله حجة على التصوف والصوفية ، فما التصوف إلا اتباع الكتاب والسنة ، وما الصوفية إلا قوم جاهدوا أنفسهم فى الله فهداهم الله .. ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[1] . ا. هـ

---

(١) رسالة ، حسن التلطف فى وجوب سلوك التصوف ، من ص ٧ : ١٣ .

الفصـــل العاشـــر

الصحبــة وضرورتها للسالك

من الأمور التى ينكرها خصوم التصوف الإسلامى ضرورة السلوك على يد شيخ عارف مرشد ويقولون : إنه لا حاجة للمسلم أن يسلك على يد أحد ويكفيه أن يدرس الكتاب والسنة ثم يسير عليهما وحده ..

والحق يقال : إن الصوفية فى هذا يصدرون عن صحيح الشريعة وصحيح الطبيعة ، وصحيح التجربة ، وصحيح الممارسة والواقع يقتضى اتخاذ الشيخ المرشد المربى .

أما الشريعة فالله تعالى يقول : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴾ كما يقول سبحانه ﴿ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ ويقول : ﴿ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ ويقول : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ وقال : ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ وقال : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾..

وفى الحديث : (هلا سألوا إذ لم يعلموا فإن شفاء العيِّ السؤال)[١] .

---

(١) رواه ابن ماجه وأبو داود والإمام أحمد والدارمى والدارقطنى .. راجع كشف الخفا حـ١ / ٢١٣ فالحديث بطوله وتخريجه هناك .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ فقد دلت هذه الآية على أن الغاية في القدرة على الهداية هو الولي المرشد ، إذ الآية تبين أن الولي المرشد نفسه لا يخرق مراد الله، إذا أراد الله إضلال إنسان ، ومن ثم نعلم أن الدعوة إلى الله تعالى تكون أكمل ماتكون إذا وجد الولي المرشد، وعندما يضع الإنسان يده بيد الولي المرشد يكون ذلك أجود ما يكون في باب الهداية إلى الله وإلى طريقه ، وإذا كان الرسل عليهم السلام في الأصل هم الهداة الحقيقيين إلى الله عز وجل ، فالأولياء المرشدون هم الورّاث الكاملون للأنبياء في باب الدعوة إلى الله عز وجل .. ومن هذا المعنى الذي ذكرناه ندرك أهمية وجود الولي المرشد لصلاح الدعوة إلى الله عز وجل [١] .

وإذن.. فلابد من هاد قدوة سئول ، ذا ذكر ، خبير بوسائل الفرار إلى الله تعالى ، والهجرة إليه ، ألم تر إلى سيدنا موسى عليه السلام كيف طلب المرشد ليتبعه ، كما جاء في سورة الكهف ، وكيف كان أدب سيدنا موسى عليه السلام مع مرشده ..

ولذا كان لابد لطالب حفظ القرآن من المقرئ الموقف الخبير بأحكام التلاوة ، وصحة الأداء ، ولو ترك القارئ العاديّ لنفسه لاستحال عليه أن يحصّل حق التلاوة وصحة الأداء ، وبالتالي ربما اضطربت معه مفاهيم الآيات ، وغابت الأحكام ، وقُل مثل ذلك في كل علوم الدين، واللغة ، وكل علوم الدنيا نظرية كانت أو عملية ، حتى الحرف والمهن ، مهما علت أو دنت ، لابد لها من اختصاصي يلقنها ويكشف أسرارها ، فما لم يكن للمرء

---

(١) ينظر : تربيتنا الروحية : للشيخ سعيد حوى ص ١٨٢ .

شيخ فى العلم: ضل وافترسه الشيطان ، واستهواه وجعل إلهه هواه فهلك .

وما لم يكن للمرء معلّم فى بقية الصناعات لما أصاب ولا أجاد ، وربما هلك وهو يطلب الحياة .

ومن هنا كان لابد للسالك إلى الله من إمام يرشده ويوجهه ويسدّده ويكشف له أحابيل الشيطان ، فى العبادات والمعاملات والخطرات النفسية والإرادات القلبية ، والواردات التى قد تكون أخطر على صاحبها من الكفر الصريح[1] .

ولهذا سجل كبار أئمة الأمة أخذهم وتلقيهم عن كبار شيوخهم كابرا عن كابر بالإجازة الشريفة والثبت المحكم ، سواء فى العلوم أو فى تلقى البيعة الصوفية ، واتصال السند .

ولا يزال فى عصرنا هذا يستعد الطالب لأعلى درجات الثقافة (الدكتوراه) مثلا ولا بد له من مشرف يشاركه رحلة العلم والجهد ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ ، الرعد : ١٦ ، ..

وقد تلقينا من قواعد أهل العلم قولهم : « لا تأخذ العلم من صحفىّ ولا القرآن من مُصحفى » ..

والصحفىّ : هو الذى جعل محصوله من الصحف وحدها من دون مرشد معلم خبير .

والمصحفى : من قرأ القرآن وحده ، من غير موقّف ملقّن .

---

(١) أبجديه التصوف الإسلامى للشيخ / محمد زكى إبراهيم ص ٤٣ ، ٤٤ .

وهذا مجرّح عند أهل العلم .

تأملْ يا أخى المسلم فى موقف الإمام فى الصلاة ، وفى تلقى الرسول عن جبريل عليهما الصلاة والسلام .

ثم تأمل مرة أخرى بعثة الرسل إلى الناس ، ونزول جبريل عليه السلام على الأنبياء والمرسلين عليهم السلام بالتوجيه والهداية .

ولا تنسَ أن التقاء روح الطالب والأستاذ، وتبادل الود ووحدة الإرادة واندماج الشخصيتين بالحب والتسامى وقصد وجه الله تعالى.. فيه أثر روحى ونفسى مقرر عند أهل العلم بالقديم والحديث ، وحين يكون السند موصولا ، يكون من ورائه سر مجرب ، يسميه الصوفية « بركة السند » ، وإن لم يؤمن الجاهلون بسرّه ، ألا ترى قوله تعالى : ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ﴾ الأحزاب : ٤٦ » ..

تأمل فمن هنا تبدأ البركة ثم تسلسل[١] .

قال أبو علىّ الدقاق رحمه الله تعالى : « الشجرة التى تنبت بنفسها من غير صاحب لا تعيش ولا تثمر ، وإن عاشت وأثمرت كان ثمرها من غير لذة ، وسنة الله تعالى جارية على أنواع من النسب والسبب وكما أنّ التناسل والتوالد الحقيقى لا يحصل إلا بواسطة الوالد والوالدة ، فكذلك التوالد والنسل المعنوى حصوله بغير مرشد متعذر؛ لحكمة ما جرت عادة الله تعالى به .

وقد ورد فى السنة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

---

(١) المرجع السابق ص ٤٤ ، ٤٥ .

(والذى نفسى بيده لئن شئتم لأقسمن لكم : إن أحب عباد الله إلى الله الذين يحببون الله إلى عباده ويحبّبون عباد الله إلى الله ، ويمشون على الأرض بالنصيحة)[١] .

ومن أصدق فى التعبير عن هذه المنزلة الرفيعة من المشايخ والدعاة إلى الله تعالى ؟ فهم الذين يحببون الله إلى عباده حقيقة ويحببون عباد الله إلى الله تعالى .. ورتبة المشيخة من أعلى الرتب فى طريق الصوفية ، لأن فيها معنى نيابة النبوة فى الدعوة إلى الله تعالى .

فأما وجه كون الشيخ يحبّب الله تعالى إلى عباده ، فلأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن صح اقتداؤه واتباعه أحبه الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[٢] .

ووجه كونه يحبّب عباد الله تعالى إليه ، أنه يسلك بالمريد طريق التزكية ، وإذا تزكت النفس انجلت مرآة القلب وانعكست فيه أنوار العظمة الإلهية ، ولاح فيها جمال التوحيد وانجذبت أحداق البصيرة إلى مطالعة أنوار جلال القدم ورؤية الكمال الأزلى ، فأحب العبد ربه لا محالة ، وذلك ميراث التزكية كما قال الله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾[٣] . وفلاحها بالظفر بمعرفة الله تعالى ويزيد على ذلك أن مرآة القلب إذا انجلت لاحت فيها الدنيا بقبحها وحقيقتها وماهيتها ، ولاحت الأخرى ونفائسها بكنهها وغايتها ، فتنكشف للبصيرة حقيقة الدارين وحاصل المنزلين ، فيحب العبد

---

(١) انظر جامع العلوم والحكم ١/٨١ ومصنف ابن أبى شيبة ٧/٧٣ .

(٢) آل عمران : ٣١ .

(٣) الشمس : ٩ .

الباقي ويزهد في الفاني ، فتظهر فائدة التزكية وجدوى المشيخة والتربية ، فالشيخ من جنود الله تعالى ، يرشد به المريدين ويهدى به الطالبين[١] .

قال محمد بن عيسى رضى الله تعالى عنه : « ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح ، ومخالطة الخواص تكسب ثلاث خصال : العلم ، وصفاء القلب وسلامة الصدر والعكس بالعكس ، والصدق مع الله نور ، والمعرفة برهان ، والالتفات إلى غيره بهتان ، وإضاعة حقوقه كفران ، والغفلة عن ذكره خسران »[٢] .

إذا كنتَ في قومٍ فصاحب خيارَهُمْ
ولا تَصْحَبِ الأردَى فتَرْدَى مَعَ الرّدِي

عَنِ المرءِ لا تَسْأَلْ وسَلْ عَنْ قَرِينِهِ
فكُلُّ قَرِينٍ بالمُقَارَنِ يَقْتَدِي

وما نال الصحابة رضوان الله تعالى عليهم هذا المقام السامي والدرجة الرفيعة بعد أن كانوا فى ظلمات الجاهلية والضلال المبين إلا بمصاحبتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومجالستهم له ، وما أحرز التابعون هذا الشرف العظيم إلا باجتماعهم بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأخذ عنهم ، وبما أن رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم عامة خالدة إلى قيام الساعة ، فإن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورّاثا من العلماء العارفين بالله تعالى ورثوا عن نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) البيان الجازم ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

(٢) إتحاف إعلان الناس ـ للشيخ مولاى عبد الرحمن بن زيدان ٤/١١ .

العلم والعمل والخلق والإيمان والتقوى ، فكانوا خلفاء عنه في الهداية والإرشاد والدعوة إلى الله تعالى يقتبسون من نوره ليضيئوا للإنسانية طريق الحق والرشــاد ، فمن جالسهم سرى إليـه من حالهم الذى اقتبسوه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

ومن نصرهم فقد نصر الدين ، ومن ربط حبله بحبالهم فقد اتصل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن استقى من هدايتهم وإرشادهم فقد استقى من نبع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

هؤلاء الوراث هم الذين ينقلون للناس الدين ممثلا في سلوكهم ، حيًا في أحوالهم ، واضحا في حركاتهم وسكناتهـم ، هم من الذين عناهـم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : (ولن تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم أو خذلهـم حتى يأتـي أمر الله وهم كذلك)[1].

لا ينقطع أثرهم على مر الزمان ، ولا يخلو منهم قطر من الأقطار وهؤلاء الوراث المرشدون الصادقون صحبتهم ترياق مجرب ، والبعد عنهم سمّ قاتل ، إذ هم القوم لا يشقى بهم جليسهم ، ومرافقتهم هي العلاج العملي الفعال لإصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق ، وغرس العقيدة ، ورسوخ الإيمان لأن هذه أمور لا تنال بقراءة الكتب ، ومطالعة الكراريس ، إنما هي خصال عملية وجدانية ، تقتبس بالاقتداء ، وتنال بالاستقاء القلبي والتأثر الروحي.

ومن ناحية أخرى ، فكل إنسان لا يخلو من أمراض قلبية وعلل خفية لا يدركها بنفسه ، كالرياء والنفاق والغرور والحقد والحسد والعجب والأنانية

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه والبخاري والترمذي وابن ماجه .

وحب الشهرة والكبر والبخل والضغينة، وحب المحمدة ، وغير ذلك من الصفات الذميمة .. بل قد يعتقد أنه أكمل الناس خلقا وأقومهم دينا ، وهذا هو الجهل المركب والضلال المبين قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ « الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٤ ».

فكما أن المرء لا يرى عيوب وجهه إلا بمرآة صافية مستوية ، تكشف له عن حقيقة حاله ، فكذلك لابد للمؤمن من أخ مؤمن مخلص ناصح صادق ، أحسن منه حالا وأقوم خلقا ، وأقوى إيمانا يصاحبه ويلازمه ، فيريه عيوب عيوبه النفسية ، ويكشف له عن خفايا أمراضه القلبية إما بقاله أو بحاله ..

وهذا سر قوله صلى الله عليه وآله وسلم (المؤمن مرآة المؤمن)[1]. وعلينا أن نلاحظ أن المرايا أنواع وأشكال ، فمنها الصافية المستوية ، ومنها الجرباء التى تشوه جمال الوجه ، ومنها التى تكبِّر أو تصغِّر .

وهكذا الأصحاب ، فمنهم الذى لا يريك نفسك على حقيقتها ، فيمدحك ، حتى تظن فى نفسك الكمال، ويدخل عليك الغرور والعجب ، أو يذمك حتىٰ تيأس وتقنط من إصلاح نفسك ، أما المؤمن الكامل فهو المرشد الصادق الذى صقلت مرآته بصحبة مرشد كامل ، ورث عن مرشد قبله وهكذا حتى يتصل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو المرآة التى جعلها الله تعالى المثل الأعلى للإنسانية الفاضلة.. قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ

---

(١) رواه أبو داود عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ورواه البخارى فى الأدب المفرد ، وقال الزين العراقى : إسناده حسن « فيض القدير ٦/٢٥٢ .

لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ « الأحزاب : ٢١ »...

فالطريق العملى الموصل لتزكية النفوس والتحلى بالكمالات الخلقية هو صحبة الوارث المحمدى والمرشد الصادق الذى تزداد بصحبته إيمانا وتقوى وأخلاقا ، وتشفى بملازمته وحضور مجالسه من أمراضك القلبية وعيوبك النفسية ، وتتأثر شخصيتك بشخصيته التى هى صورة عن الشخصية المثالية شخصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن هنا يتبين خطأ من يظن أنه يستطيع بنفسه أن يعالج أمراضه القلبية ، وأن يتخلص من علله النفسية بمجرد قراءة القرآن الكريم والاطلاع على أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ذلك بأن الكتاب والسنة قد جمعا أنواع الأدوية لمختلف العلل النفسية والقلبية ، فلابد معهما من طبيب يصف لكل داء دواءه ولكل علة علاجها .

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يطبّب قلوب أصحابه ويزكى نفوسهم بحاله وبمقاله صلى الله عليه وآله وسلم وبدعائه كذلك والدليل على ذلك ما حدث مع الصحابى الجليل أبىّ بن كعب رضى الله تعالى عنه قال : كنت فى المسجد ، فدخل رجل فصلى ، فقرأ قراءة أنكرتها عليه ، ثم دخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه ، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .. فقلت : إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه ، فدخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه ، فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقرآ، فحسّن النبى صلى الله عليه وآله وسلم شأنهما ، فسقط فى نفسى من التكذيب ، ولا إذ كنت فى الجاهلية ،

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما قد غشينى ضرب فى صدرى ، ففضت عرقا، وكأنى أنظر إلى الله عز وجل فرقا[١] . يعنى خوفًا.. وقد روى الشيخان أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا لسيدنا عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما بقوله : (اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل) فسمى بعد بالحبر وترجمان القرآن ودعا لعبد الله ابن جعفر بالبركة فى صفقة يمينه فما اشترى شيئا إلا ربح فيه ـ كما رواه البيهقى عن عمرو بن حريث والقاضى عياض فى الشفا ، ودعا للمقداد بن الأسود بالبركة فكان له غرائر من المال ـ يعنى جوالق ـ رواه البيهقى فى الدلائل عن ضباعة بنت الزبير، ودعا بمثله لعروة بن أبى الجعد ، كما فى البخارى ، فقال اللهم بارك له فى صفقة يمينه .. قال عروة : فلقد كنت أقوم بالكناسة ـ يعنى سوق الكوفة ـ فما أرجع حتى أربح أربعين ألفًا .. قال البخارى فى حديثه : فكان لو اشترى التراب ربح فيه ..

ولهذا لم يستطع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يطيبوا أنفسهم بمجرد قراءة القرآن الكريم ، ولكنهم لازموا مستشفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكان هو المزكى لهم ، والمشرف على تربيتهم كما وصفه الله تعالى بقوله ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ « الجمعة : ٢ » .

فالتزكية شيء ، وتعليم القرآن شيء آخر، إذ المراد من قوله تعالى: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ يعطيهم حالة التزكية ، ففرق كبير بين علم التزكية وحالة التزكية كما هو الفرق بين علم الصحة وحالة الصحة ، والجمع بينهما

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه باب : بيان القرآن على سبعة أحرف .

هو الكمال.

وكم نسمع عن أناس متحيرين يقرأون القرآن الكريم ، ويطلعون على العلوم الكثيرة ، ويتحدثون عن الوساوس الشيطانية ، وهم مع ذلك لا يستطيعون أن يتخلصوا منها فى صلاتهم .

فإذا ثبت فى الطب الحديث أن الإنسان لا يستطيع أن يطبب نفسه بنفسه ، ولو قرأ كتب الطب ، بل لابد له من طبيب خبير يكشف خفايا علله ، ويطلع على ما عمى عليه من دقائق مرضه ، فإن الأمراض القلبية والعلل النفسية أشد احتياجا للطبيب المزكى ، لأنها أعظم خطراً، وأشد خفاءً وأكثر دقة ..

ولهذا كان من المفيد عمليا تزكية النفس، والتخلص من عللها على يد مرشد كامل مأذون بالإرشاد ، قد ورث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العلم والتقوى ، وأهلية التزكية ، والتوجيه والإرشاد [(١)] .

وها نحن نورد لك أيها الأخ السالك المنصف الذى يريد طريق الحق من أقوال علماء الشريعة من المحدثين والفقهاء والربانيين ما يثبت لك أهمية صحبة الهداة الدالين على الله الوارثين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما فى ذلك من الآثار الحسنة، والنتائج الطيبة .

---

(١) ينظر : حقائق عن التصوف ٤٢ ـ ٤٦ .

أقوال الفقهاء والمحدثين فى أهمية الصحبة وآدابها

العلامة ابن حجر الهيتمي :

يقول العلامة الفقيه المحدث أحمد بن حجر الهيتمى المكى رحمه الله تعالى فى كتابه « الفتاوى الحديثية » والحاصل أن الأولى بالسالك قبل الوصول إلى هذه المعارف أن يكون مُديما لما يأمره به أستاذه الجامع لطرفى الشريعة والحقيقة ، فإنه هوالطبيب الأعظم ، فبمقتضى معارفه الذوقية وحكمه الربانية ، يعطى كل بدن ونفس ما يراه هو اللائق بشفائها ، والمصلح لغذائها[١] .

الإمام المفسر فخر الدين الرازي :

قال الإمام الفخر الرازى فى تفسيره « مفاتيح الغيب » عند تفسيره سورة الفاتحة : الباب الثالث فى الأسرار العقلية المستنبطة من هذه السورة اللطيفة الثالثة : قال بعضهم : إنه لما قال « اهدنا الصراط المستقيم » لم يقتصر عليه بل قال : « صراط الذين أنعمت عليهم » وهذا يدل على أن المريد لا سبيل له إلى الوصول إلى مقامات الهداية والمكاشفة إلا إذا اقتدى بشيخ يهديه إلى سواء السبيل ، ويجنبه عن مواقع الأغاليط والأضاليل ، وذلك لأن النقص غالب على أكثر الخلق ، وعقولهم غير وافية بإدراك الحق وتمييز الصواب عن الغلط ، فلابد من كامل يقتدى به الناقص حتى يتقوى عقل ذلك الناقص بنور عقل الكامل ، فحينئذ يصل إلى مدارج

(١) الفتاوى الحديثية للمحدث ابن حجر الهيتمى المتوفى سنة ٩٧٤ هـ .

السعادات ومعارج الكمالات[١] .

شيخ الإسلام إبراهيم الباجوري :

قال شيخ الإسلام الإمام إبراهيم الباجورى الشافعى رحمه الله تعالى عند شرح قول الشيخ اللقانى صاحب « جوهرة التوحيد » :

وكن كما كان خيار الخلق حليف حلم تابعا للحــق

« أى كن متصفا بأخلاق مثل الأخلاق التى كان عليها خيار الخلق.. إلى أن قال : وإذا كانت المجاهدة على يد شيخ من العارفين كانت أنفع ، لقولهم : حـال رجل فى ألف رجل أنفع من وعظ ألف رجل فى رجل فينبغى للشخص أن يلـزم شيخـا عارفا علـى الكتاب والسنة ، بأن يزنـه قبل الأخذ عنه ، فإن وجده على الكتـاب والسنة لازمـه ، وتأدب مـعه ، فعساه أن يكتسب من حالـه ما يكون به صفاء باطنـه ، والله تعالـى يتولـى هــداه »[٢] .

الإمام المحدث عبد الله بن أبي جمرة :

شرح الإمام الحـافظ المحدث الورع العارف أبو مـحـمـد عبـد الله بن أبى جمرة الأزدى الأندلسى حديث البخارى ، عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهمـا قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليـه وآلـه وسلم فاستأذنه فى الجهاد فقال: أحَيٌّ والداك؟ قال نعم، قال : (ففيهما فجاهد)

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازى ١٤٢/١

(٢) شرح الجوهرة للباجورى ص١٣٣ وكان الشيخ الباجورى شيخ الأزهر فى عصره وهو من العلماء الأعلام ومن المحققين فى مذهب الإمام الشافعى توفى عام ١٢٧٧ هـ

وبعد أن شرحه بين عشرة وجوه فيه .. فقال في الوجه العاشر :

« فيه دليل على أن الدخول في السلوك والمجاهدات ، السنة فيه أن يكون على يد عارف به ، فيرشد إلى ما هو الأصلح فيه ، والأسدُّ بالنسبة إلى حال السالك ، لأن هذا الصحابي رضي الله تعالى عنه لما أن أراد الخروج إلى الجهاد لم يستبد برأى نفسه في ذلك حتى استشار من هو أعلم منه وأعرف ، هذا ما هو في الجهاد الأصغر ، فكيف به في الجهاد الأكبر؟ »[1] .

الشيخ ابن تيمية :

قال الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى وأثابه : والشيوخ الذين يقتدى بهم يدلون عليه ويرشدون إليه بمنزلة الأئمة في الصلاة ، يصلون ، ويصلى الناس خلفهم ، وبمنزلة الدليل الذى للحاج هو يدلهم على البيت، وهو وهم جميعا يحجون إليه [2] .

ويقول في موضع آخر : وأما انتساب الطائفة إلى شيخ معين فلاريب أن الناس يحتاجون إلى من يتلقون عنه الإيمان والقرآن ، كما تلقى الصحابة ذلك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وتلقاه عنهم التابعون ، وبذلك يحصل اتباع السابقين الأولين بإحسان ، فكما أن المرء له من يعلمه القرآن ونحوه ، فكذلك له من يعلمه الدين الظاهر والباطن[3] .

---

(١) بهجة النفوس ، شرح مختصر البخارى لابن أبى جمرة المتوفى عام ٦٩٩ هـ جـ ١٤٦/٣ .

(٢) مجموع الفتاوى جـ ٤٩٧/١١ .

(٣) المرجع السابق جـ ٥١٠/١١ .

تأمل أخى القارئ هذا الكلام النفيس فى أهمية اتخاذ الشيوخ العارفين الدالين على الله بحالهم ومقالهم ،وقارن بينه وبين ما يقوله المنتسبون إلى الشيخ ابن تيمية الذين ينعون على الصوفية اتخاذهم الشيخ المربى، ويعتقدون أن المسلم ليس محتاجا إلى شيخ يربيه ، ويرشده، ويقوم سلوكه ويعينه على التخلص من رعونات نفسه وعيوبها ؛ حتى تعرف خطأهم وبعدهم عن جادة الطريق ، والرجل يدور مع الحق حيث دار ، ولا يتبع الهوى؛ فيضله عن سبيل الله..

وإذا أتى الإرشاد من قبل الهوى ومن الغـرور فسمّــه التضليلا

الشيخ ابن القيم تلميذ الشيخ ابن تيمية :

قال الشيخ الحافظ أبو عبد الله محمد الشهير بابن القيم رحمه الله تعالى « فإذا أراد العبد أن يقتدى برجل فلينظر هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين ، وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحى ؟ فإذا كان الحاكم عليه هو الهوى ، وهو من أهل الغفلة كان أمره فرطا ... إلى أن قال : فينبغى للرجل أن ينظر فى شيخه وقدوته ومتبوعه ، فإن وجده كذلك فليبعد منه ، وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى ، واتباع السنة ، وأمره غير مفروط عليه ، بل هو حازم فى أمره فليستمسك بغرْزه »[١].

الفقيه عبد الواحد بن عاشر :

قال الفقيه المالكى عبد الواحد بن عاشر رحمه الله تعالى، وأثابه فى منظومته التى تشتمل على العقائد والفقه المالكى وعلم التصوف ، المسماة

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب للشيخ ابن القيم ص ٥٣ .

« نظم المرشد المعين على الضرورى من علوم الدين » مبينا ضرورة صحبة الشيخ العارف المرشد ، وما تنتج عنه من آثار طيبة :

يصحب شيخا عارف المسالك	يقيه فى طريقه المهالك
يذكره الله إذا رآه	ويوصل العبد إلى مولاه
يحاسب النفس على الأنفاس	ويزن الخاطر بالقسطاس
ويحفظ المفروض رأس المال	والنفل ربحه به يوالى
ويكثر الذكر بصفو لُبِّه	والعون فى جميع ذا بربّه
يجاهد النفس لرب العالمينْ	ويتجلى بمقامات اليقينْ
يصير عند ذاك عارفا به	حراً وغيره خلا من قلبه
فحَبُّه الإله واصطفاه	لحضرة القدوس واجتباه

قال شارح هذه المنظومة : الشيخ محمد بن يوسف المعروف بالكافى فى كتابه : « النور المبين على المرشد المعين » : « إن من نتائج صحبة الشيخ السالك ما يحصل لمريده من أنه يذكره الله ، أى يكون سببا قويا فى ذكر المريد ربه إذا رأى الشيخ لما عليه من المهابة التى ألبسه الله إياها ، ويشهد لذلك ما رواه الحاكم عن أنس رضى الله تعالى عنه ، أفضلكم الذين إذا رأُوا ذُكر الله تعالى لرؤيتهم » ..

وروى ابن أبى الدنيا عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ألا أخبركم بخير جلسائكم؟ من ذكركم الله رؤيته وزادكم فى علمكم منطقه، ورغبكم فى الآخرة عمله ..

وعن سعيد بن جبير قال : قيل يا رسول الله : من أولياء الله ؟ قال : (الذين إذا رأوا ذكر الله)[١] ... رواه الطبراني ، ثم يقول الشيخ الكافي : ومن ثمرة صحبة هذا الشيخ السالك أيضا أنه يوصل العبد إلى مولاه بسبب ما يريه من عيوب نفسه ، ونصحه بالهروب من غير الله تعالى إلى الله تعالى فلا يرى لنفسه ولا لمخلوق نفعا ولا ضرا ، ولا يركن لمخلوق فى دفع ضر أو جلب نفع ، بل يرى جميع الانقلابات والتصرفات فى الحركات والسكنات لله تعالى وهذا معنى الوصول إلى الله تعالى .. ففائدة الشيخ مع المريد هى إظهار العيوب القاطعة عن الله تعالى للمريد فيشخصها له ، ويريه دواءها ، ولا يتم ذلك إلا مع مريد صادق ألقى مقاليد نفسه لشيخه ، وألزم نفسه ألا يكتم خاطرا ما عن شيخه وأما إذا كتمه ولو واحداً فلا ينتفع بشيخه ألبتة ،[٢] .

العلامة الطيبي صاحب « حاشية الكشاف » :

قال العلامة الطيبى ـ طيب الله ثراه ـ : « لا ينبغى للعالم ـ ولو تبحر فى العلم حتى صار أوحد أهل زمانه ـ أن يقتنع بما علمه ، وإنما الواجب عليه الاجتماع بأهل الطريق؛ ليدلوه على الصراط المستقيم ، حتى يكون ممن يحدثهم الحق فى سرائرهم من شدة صفاء باطنهم ، ويخلّص من الأدناس ، وأن يجتنب ما شاب علمه من كدرات الهوى، وحظوظ نفسه الأمارة بالسوء ، حتى يستعد لفيضان العلوم اللدنية على قلبه ، والاقتباس من مشكاة النبوة .. ولا يتيسر ذلك عادة إلا على يد شيخ كامل عالم بعلاج أمراض النفوس ، وتطهيرها من النجاسات المعنوية ، وحكمة

---

(١) أخرجه المتقى الهندى في كنز العمال ج١ ص٤١٩ برقم ١٧٨٤ والسيوطى فى الجامع الصغير ج١ص٥١ وعزاه للحكيم عن أنس وأشار له بالضعف.

(٢) النور المبين على المرشد المعين ص ١٧٨ .

معاملاتها علما وذوقا ، ليخرجه من رعونات نفسه الأمارة بالسوء ودسائسها الخفية .

فقد أجمع أهل الطريق على وجوب اتخاذ الإنسان شيخا له يرشده إلى زوال تلك الصفات التى تمنعه من دخول حضرة الله بقلبه ، ليصح حضوره وخشوعه فى سائر العبادات ، من باب ، ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ولا شك أن علاج أمراض الباطن واجب ، فيجب على كل من غلبت عليه الأمراض أن يطلب شيخا يخرجه من كل ورطة ، وإن لم يجد فى بلده أو إقليمه وجب السفر إليه "[١] .

أقوال العارفين بالله من أئمة التصوف في فائدة الصحبة :

إن السادة الصوفية هم أحرص الناس على حياة تعبدية خالصة ، تقوم أسسها على السمع والطاعة ، والإذعان لنصيحة الناصح ، أو توجيه المرشد الأمين ، فنشأت بينهم تلك المدارس الروحية التى قامت على أعظم أساليب التربية والتقويم وأقوى صلات الروح بين الشيخ والمريد..

ومن ثَم يوصى العارفون كل من أراد سلوك طريق الحق الموصل إلى معرفة الله تعالى ، ورضاه بالصحبة ، وروحها الاعتقاد والتصديق بهؤلاء المرشدين الدالين على الله تعالى ، الموصلين إلى حضرته القدسية[٢] .

وها هى أقوالهم تشهد بذلك ..

---

(١) تنوير القلوب للعلامة الشيخ أمين الكردى الشافعى ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٢) ينظر حقائق عن التصوف ص ٥٢ .

الإمام أبو حامد الغزالى صاحب الإحياء :

قال العلامة الحجة الشيخ أبو حامد الغزالى رحمه الله تعالى :

« الدخول مع الصوفية فرض عين ، إذ لا يخلو أحد من عيب أو مرض إلا الأنبياء عليهم السلام »[١].

وقال رحمه الله تعالى « كنت فى مبدأ أمرى منكرا لأحوال الصالحين ومقامات العارفين ، حتى صحبت شيخى « يوسف النسّاج » فلم يزل يصقلنى بالمجاهدة، حتى حظيت بالواردات ، فرأيت الله تعالى فى المنام ، فقال لى : « يا أبا حامد ، دع شواغلك ، واصحب أقواما جعلتهم فى أرضى محل نظرى ، وهم الذين باعوا الدارين بحبى ، قلت : بعزتك إلا أذقتنى بَرْدَ حسنِ الظن بهم ، قال : قد فعلت ، والقاطع بينك وبينهم تشاغلك بحب الدنيا ، فاخرج منها مختارا قبل أن تخرج صاغرا ، فقد أفضت عليك أنواراً من جوار قدسى » .

فاستيقظت فرحا مسروراً ، وجئت إلى شيخى « يوسف النسّاج » فقصصت عليه المنام ، فتبسم وقال : يا أبا حامد هذه ألواحنا فى البداية ، بل إن صحبتنى ستكحل بصيرتك بإثمد التأييد .. إلخ »[٢].

وقال أيضا : « مما يجب فى حق سالك طريق الحق أن يكون له مرشد ومربٍّ ليدله على الطريق ، ويرفع عنه الأخلاق المذمومة ، ويضع مكانها الأخلاق المحمودة ، ومعنى التربية أن يكون المربى كالزارع الذى يربى الزرع ، فكلما رأى حجرا أو نباتا مضرا بالزرع قلعه وطرحه خارجا ،

---

(١) شرح الحكم للشيخ ابن عجيبة ١/٧ .

(٢) شخصيات صوفية لطه عبد الباقى سرور ص ١٥٤ .

ويسقى الزرع مرارا إلى أن ينموَ ويتربى ، ليكون أحسن من غيره ، وإذا علمت أن الزرع محتاج للمربى علمت أنه لابد للسالك من مرشد ألبتة ، لأن الله تعالى أرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام إلى الخلق ليكونوا دليلا لهم ، ويرشدوهم إلى الطريق المستقيم ، وقبل انتقال المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى الدار الآخرة قد جعل الخلفاء الراشدين نوابا عنه ؛ ليدلوا الخلق إلى طريق الله تعالى ..

وهكذا إلى يوم القيامة ، فالسالك لا يستغنى عن المرشد ألبتة »(١) .

ومن قوله : « يحتاج المريد إلى شيخ وأستاذ يقتدى به لا محالة ليهديه إلى سواء السبيل ، فإن سبيل الله غامض ، وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة ، فمن لم يكن له شيخ يهديه ، قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة .. فمن سلك البوادى المهلكة بغير خفير فقد خاطر بنفسه وأهلكها ، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التى تنبت بنفسها فإنها تجف على القرب ، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر ، فمعتصمُ المريد شيخه فليتمسك به »(٢) .

ويقول فى موضع آخر : « إن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيراً بصّره بعيوب نفسه ، فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه ، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج ، ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم ، يرى أحدهم القذى فى عين أخيه ولا يرى الجذع فى عين نفسه ، فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه **فله أربعة طرق :**

الأول : أن يجلس بين يدى شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على

---

(١) خلاصة التصانيف فى التصوف لحجة الإسلام أبى حامد الغزالى ص ١٨ .
(٢) الإحياء ٦٥/٣ .

خفايا الآفات ، ويحكّمه فى نفسه ويتبع إشاراته فى مجاهداته وهذا شأن المريد مع شيخه والتلميذ مع أستاذه ، فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجها ... إلخ [١] .

الإمام الأزهري الشيخ أحمد بن عطاء الله السكندري :

قال الشيخ ابن عطاء الله رضى الله تعالى عنه وينبغى لمن عزم على الاسترشاد وسلوك طريق الرشاد ، أن يبحث عن شيخ من أهل التحقيق ، سالك الطريق ، تارك لهواه ، راسخ القدم فى خدمة مولاه ، فإذا وجده فليمتثل ما أمر ، ولينته عما نهى عنه وزجر »[٢] .

وقال : « ليس شيخك من سمعت منه ، وإنما شيخك من أخذت عنه ، وليس شيخك من واجهتك عبارته ، إنما شيخك الذى سرت فيك إشارته وليس شيخك من دعاك إلى الباب ، إنما شيخك الذى رفع بينك وبينه الحجاب، وليس شيخك من واجهك مقاله ، إنما شيخك الذى نهض بك حاله شيخك هو الذى أخرجك من سجن الهوى ، ودخل بك على المولى ، شيخك هو الذى مازال يجلو مرآة قلبك ، حتى تجلت فيها أنوار ربك ، أنهضك إلى الله فنهضت إليه ، وسار بك حتى وصلت إليه ، ومازالت محاذيا لك حتى ألقاك بين يديه ، فزج بك فى نور الحضرة وقال : ها أنت وربك ، هنالك محل الولاية من الله ، ومواطن الإمداد من الله، وبساط التلقى من الله[٣] .

وقال فى حِكمِه : « لا تصحب من لا ينهضك حاله ، ولا يدلك على

---

(١) المرجع السابق ٣/٥٥ .

(٢) مفتاح الفلاح ص ٣٠ .

(٣) لطائف المنن للشيخ ابن عطا الله ص ٢٠٤ .

الله مقاله .

الإمام سيدي عبد القادر الجيلاني الحنبليّ :

قال الشيخ الإمام سيدى عبد القادر الجيلانى فى قصيدته العينية :

وإن ساعد المقدور أو ساقك القضا   إلى شيخ حق فى الحقيقة بارع
فـقم فـى رضـاه واتَّبع لمراده   ودع كل ما من قبل كنت تسارع
ولا تعترض فيما جهلت من امره   عليـه فـإن الاعـتراض تـنازع
ففى قصة الخضر الكريم كفاية   بقـتـل غـلام والكـليـم يدافع
فلما أضاء الصبح عن ليل سرّه   وسلّ حسامًا للغياهب قاطع
أقـام لـه الـعـذر الكـليـم وإنـه   كـذلك علم القوم فيـه بدائع[1]

الشيخ أبو مدين رحمه الله تعالى :

قال : رضى الله تعالى عنه ، من لم يأخذ الآداب من المتأدبين أفسد من يتبعه ،[2] .

الشيخ أبو علي الثقفي رحمه الله تعالى:

قال الشيخ أبو على الثقفى : ، لو أن رجلا جمع العلوم كلها وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ مؤدب ناصح ،

---

(١) فتوح الغيب للإمام الجيلانى من قصيدة تسمى ، النوادر العينية فى البوادر الغيبية ، تبلغ عدتها ٥٣٤ بيتا ص ٢٠١ .

(٢) النصرة النبوية لمصطفى المدنى ص ١٣ .

ومن لم يأخذ أدبه عن آمرٍ له وناهٍ ، يريه عيوب أعماله ، ورعونات نفسه لا يجوز الاقتداء به فى تصحيح المعاملات ،[١].

العالم الأزهري الشيخ أحمد بن زروق رحمه الله تعالى :

قال الشيخ أحمد بن زروق المالكى فى قواعده : ، أخْذ العلم والعمل من المشايخ أتم من أخذه دونهم ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ ، العنكبوت : ٤٩ ، .. ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ ، لقمان : ١٥، فلزمت المشيخة ، سيما والصحابة أخذوا عنه عليه الصلاة والسلام ، وقد أخذ هو عن جبريل ، واتبع إشارته فى أن يكون عبدا نبيا ، وأخذ التابعون عن الصحابة ، فكان لكل أتباعٌ يختصون به: كابن سيرين، وابن المسيب والأعرج لأبى هريرة ، وطاوس ومجاهد ووهب لابن عباس إلى غير ذلك.

فأماالعلم والعمل فأخذه جلى فيما ذكروا كما ذكروا ..

وأما الإفادة بالهمة والحال فقد أشار إليها أنس بقوله : ، ما نفضنا التراب عن أيدينا من دفنه عليه الصلاة والسلام حتى أنكرنا قلوبنا ،[٢].

فأبان أن رؤية شخصه الكريم كانت نافعة لهم فى قلوبهم ، إذ من تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها ، فلذلك أمر بصحبة الصالحين ونهى عن صحبة الفاسقين ،[٣].

وذلك لأن من جالس جانس ، والطبع يسرق من الطبع كما

---

(١) طبقات الصوفية للسلمى ص ٣٦٥ .

(٢) رواه الإمام أحمد وابن ماجه والترمذى وقال : حسن صحيح غريب .

(٣) قواعد التصوف للشيخ أحمد بن زروق القاعدة ٦٥ .

يقول الحكماء.

الشيخ علي الخواص رحمه الله تعالى شيخ الشعراني :

وقال سيدى على الخواص رضى الله تعالى عنه :

لا تسلكن طريقا لست تعرفها بلا دليل فتهوى فى مهاويها(١)

وذلك لأن الدليل والمرشد يوصل السالك إلى ساحل الأمان ، ويجنبه مزالق الأقدام ومخاطر الطريق ، وذلك لأن هذا الدليل المرشد قد سبق له سلوك الطريق على يد دليل عارف بخفايا السير ، مطلع على مجاهله ومأمنه ، فلم يزل مرافقا له حتى أوصله إلى الغاية المنشودة ، ثم أذن بإرشاد غيره . وإلى هذا أشار الشيخ ابن البنا فى منظومته :

وإنما القوم مسافرونا لحضرة الحق وظاعنونا

فافتقروا فيه إلى دليل ذى بصر بالسير والمقيل

قد سلك الطريق ثم عادا ليخبر القوم بما استفادا(٢)

الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى :

قال العالم الربانى الإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ، أُخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نواظب على الركعتين بعد كل وضوء بشرط أن لا نحدث فيهما أنفسنا بشيء من

---

(١) المنن للشعرانى ٥١/١ .

(٢) الفتوحات الإلهية شرح المباحث الأصلية للشيخ أحمد بن محمد التجيبى المعروف بابن البنا جـ١ /١٤٢

أمورالدنيـا أو بشيء لم يشرع لنا فى الصلاة ، ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يسلك به ، حتى يقطع عنه الخواطر المشغلة عن خطاب الله تعالى .

ثم قال : فاسلك يا أخى على يد شيخ ناصح ، يشغلك بالله تعالى، حتى يقطع عنك حديث النفس فى الصلاة ، كقولك : أروح لكذا ، أفعل كذا ، أقول كذا ، أو نحو ذلك ، وإلا فقد لازمك حديث النفس فى الصلاة ولا يكاد يسلم لك منه صلاة واحدة ، لا فرض ولا نفل ، فاعلم ذلك وإياك أن تريد الوصول إلى ذلك بغير شيخ كما عليه طائفة بغير علم ، فإن ذلك لا يصح أبداً ،[1].

ويقول فى لطائف المنن كذلك : ، وكانت صور مجاهداتى لنفسى من غير شيخ أننى كنت أطالع كتب القوم كرسالة القشيرى وعوارف المعارف للسهروردى ، والقوت لأبى طالب المكى والإحياء للغزالى ، ونحو ذلك ، وأعمل بما ينقدح لى من طريق الفهم ، ثم بعد مدة يبدو لى خلاف ذلك ، فأترك الأمر الأول وأعمل بالثانى .. وهكذا .. فكنت كالذى يدخل دربا لا يدرى : هل ينفذ أو لا ؟ فإن رآه نافذا خرج منه ، وإلا رجع ، ولو أنه اجتمع بمن يعرّفه أمر الدرب قبل دخوله لكان بيَن له أمره وأراحه من التعب ، فهذا مثال من لا شيخ له ، فإن فائدة الشيخ إنما هى اختصار الطريق للمريد ومن سلك من غير شيخ تاه ، وقطع عمره ولم يصل إلى مقصوده لأن مثال الشيخ مثال دليل الحجاج إلى مكة فى الليالى المظلمة ،[2].

---

(١) لواقح الأنوار القدسية فى بيان العهود المحمدية للشعرانى ١/٥١ .
(٢) لطائف المنن والأخلاق للشعرانى ١/٤٨ ، ٤٩ .

وقال فى موضع آخر : « ولو أن طريق القوم يوصل إليها بالفهم من غير شيخ يسير بالطالب فيها لما احتاج مثل حجه الإسلام الإمام الغزالى والشيخ عز الدين بن عبد السلام أخذ أدبهما عن شيخ مع أنهما كانا يقولان قبل دخول طريق القوم : كل من قال : إن ثمَّ طريقا للعلم غير ما بأيدينا فقد افترى على الله عز وجل .. فلما دخلا طريق القوم كانا يقولان : قد ضيعنا عمرنا فى البطالة والحجاب ، وأثبتا طريق القوم ومدحاها »(١).

ثم قال : « وكفى شرفا لأهل الطريق قول السيد موسى عليه السلام للخضر : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ « الكهف : ٦٦ » واعتراف الإمام أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه وأرضاه لأبى حمزة البغدادى بالفضل عليه ، واعتراف الإمام أحمد بن سريج رحمه الله تعالى لأبى القاسم الجنيد ، وطلب الإمام الغزالى له شيخا يدله على الطريق مع كونه كان حجة الإسلام ، وكذلك طلب الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخا مع أنه لقب بسلطان العلماء .. وكان رضى الله تعالى عنه يقول : ما عرفت الإسلام الكامل إلا بعد اجتماعى على الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله تعالى عنه وأرضاه .. فإذا كان هذان الشيخان قد احتاجا إلى الشيخ مع سعة علمهما بالشريعة فغيرهما من أمثالنا من باب أولى »(٢).

الأمير عبد القادر الجزائري طيب الله تعالى ثراه :

قال رضى الله تعالى عنه فى كتابه « المواقف » :

« الموقف المائة والواحد والخمسون : قال الله تعالى حاكيا قول موسى

---

(١) المرجع السابق ١/٢٥ .
(٢) المرجع السابق ١/٥٠ .

للخضر عليهما السـلام : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ « الكهف : ٦٦ » : اعلم أن المريد لا ينتفع بعلوم الشيخ وأحواله إلا إذا انقاد له الانقياد التام ، ووقف عند أمره ونهيه ، مع اعتقاد الأفضلية والأكملية ، ولا يغنى أحدهما عن الآخر ، كحال بعض الناس يعتقد فى الشيخ غاية الكمال ، ويظن أن ذلك يكفيه فى نيل غرضه ، وحصول مطلبه ، وهو غير ممتثل ولا فاعل لما يأمره الشيخ به ، أو ينهاه عنه . فهذا موسى عليه السلام مع جلالة قدره وفخامة أمره ، طلب لقاء الخضر عليه السلام وسأل السبيل إلى لقيّه ، وتجشم مشاق ومتاعب فى سفره كما قال : ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ « الكهف : ٦٢ » .

ومع هذا كله لمـا لم يمتثل نهيا واحداً ، وهو قوله : ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ « الكهف : ٧٠ » ، ما انتفع بعلوم الخضر عليه السلام .. مع يقين موسى عليه السلام الجازم أن الخضر أعلم منه بشهادة الله تعالى لقوله تعالى عندما قال موسى عليه السلام لا أعلم أحداً أعلم منى : [بلى عبدنا خضر] وما خص علما دون علم بل عمم .

وكان موسى عليه السلام أولاً ما علم أن استعداده لا يقبل شيئا من علوم خضر عليه السلام وأما خضر عليه السلام فإنه علم ذلك أول وهلة فقال : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ « الكهف : ٦٧ » ..

وهذا من شواهد علمية الخَضِر عليه السلام فلينظر العاقل إلى أدب هذين السيدين .

قال موسى عليه السـلام ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ

رُشْدًا ﴾ ، الكهف : ٦٦ ، .. أي هل تأذن فى اتباعك لأتعلم منك ؟ ففى هذه الكلمات من حلاوة الأدب ما يذوقها كل سليم الذوق ..

وقال خَضِرٌ عليه السلام : ﴿ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾، الكهف : ٧٠ ، .. وما قال : فلا تسألن، وسكت فيبقى موسى عليه السلام حيران متعطشا ، بل وعده أن يحدث له ذكرا ، أى علما بالحكمة فيما فعل ، أو ذكرا : بمعنى تذكراً .

فأكملية الشيخ فى العلم المطلوب منه المقصود لأجله لا تغنى عن المريد شيئا ، إذا لم يكن ممتثلا لأوامر الشيخ مجتنبا لنواهيه ..

وما ينفع الأصل من هاشم   إذا كانت النفس من باهلـــهْ

وإنما تنفع أكملية الشيخ من حيث الدلالة الموصلة إلى المقصود ، وإلا فالشيخ لا يعطى المريد إلا ما أعطاه له استعداده ، واستعداده منطو فيه وفى أعماله ، كالطبيب الماهر إذ حضر المريض وأمر له بأدوية فلم يستعملها المريض ، فما عسى أن تغنى عنه مهارة الطبيب؟ وعدم امتثال المريض دليل على أن الله تعالى ما أراد شفاءه من علته ، فإن الله إذا أراد أمرا هيأ له أسبابه ، وإنما وجب على المريد طلب الأكمل الأفضل من المشايخ خشية أن يلقى قياده بيد جاهل بالطريق الموصل إلى المقصود ، فيكون ذلك عونا على هلاكه »[١].

---

(١) المواقف ٣٠٥/١ للأمير عبد القادر الجزائرى .

وترجمته رحمه الله تعالى وأجزل مثوبته :

هو الأمير عبد القادر الجزائرى الذى ولد سنة ١٢٢٢ هـ الموافق ١٨١٧م بقرية قيطنة فى الجزائر وتوفى سنة ١٣٠٠هـ الموافق ١٨٨٣م ودفن بجوار الشيخ الأكبر -

الإمام أبو البركات سيدي أحمد الدردير رضي الله تعالى عنه :

قال سيدى أحمد الدردير الذى كان يلقب ، بمالك الصغير ، لتبحره

= محيى الدين بن عربى داخل القبة رحمة الله تعالى عليهما ثم نقل جثمانه إلى بلده الجزائر عام ١٣٨٦ الموافق ١٩٦٦م ، وهذا المجاهد الكبير الذى جاهد الفرنسيين الطغاة، ووقف سداً منيعا أمام الاستعمار الفرنسى سبعة عشر عاما مجاهدا ومناضلا ، أشهر من أن يعرّف وإنه لغريب على الأسماع القول بتصوف الأمير عبد القادر الجزائرى مع أنه من صفوتهم ، وكتابه المواقف يشهد بذلك ، وله ديوان متوسط الحجم ، أطول قصيدة فيه الرائية وعنوانها ، أستاذى الصوفى ، اخترنا لك منها :

أمسعود جاء السعد والخير واليسر ... وولت جيوش النحس ليس لها ذكرُ
أسائل كل الخلق هل من مُخبر؟ ... يحدثنى عنكم فينعشنى الخبرُ
إلى أن دعتنى همة الشيخ من مدى ... بعيد ألا فادن فعندى لك الذخر
فشمرت عن ذيلى الأطار وطار بى ... جناح اشتياق ليس يخشى له كسر
إلى أن أنخنا بالبطاح ركابنا ... وحطت بها رحلى وتم لها البشر
أتانى مربى العارفين بنفسه ... ولا عجب فالشأن أضحى له أمر
وقال فإنى منذ أعداد حجة ... لمنتظر لقياك يا أيها البدر
فأنت بُنيى مذ ، ألست بربكم ، ... وذا الوقت حقا ضمه اللوح والسطر
وجدك قد أعطاك من قدم لنا ... ذخيرتكم فينا ويا حبذا الذخر
فقبلت من أقدامه وبساطه ... وقال: لك البشرى بذا قضى الأمر
وألقى على صُفْرى★ بإكسير سره ... فقيل له هذا هو الذهب التبر
محمد الفاسى له من محمد ... صفى الإله الحال والشيمُ الغرُّ
عليه صلاة الله ما قال قائل ... أمسعود جاء السعد والخير واليسر

★ الصفر : النحاس

فى علم الفقه :

فكـن له مسلّمــا كى تسلما   واتبــع سبيل الناسكين العلما

يقول فى شرح الشطر الثانى من البيت :

الأصل الخامس من أصول الطريق الصوفى : اتباع شيخ عارف قد سلك طريق أهل الله على يد شيخ كذلك إلى أن ينتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن لم يصحب شيخا يدله على الطريق إلى الله ، واشتغل بما عنده من عبادة أو علم فقد تعرض لإغراء الشيطان له ، ولهذا قيل : « من لا شيخ له فالشيطان شيخه » .

وبالجملة : من لم يسلك على يد شيخ عارف فلا يمكنه الترقى إلى منازل القرب ولو أتى بعبادة الثقلين . وعلامته السخاء وحسن الخلق والشفقة على خلق الله تعالى وعدم انكبابه على جمع الدنيا ، وعدم الدعوى ولو بالتكلم بمصطلح القوم إلا لأمر اقتضى ذلك ، وعدم الشكوى من ضيق الدنيا ، أو إعراض الناس عنه ، وأن يرى عليه مخايل الذل والانكسار وحب الخمول ، وأن تظهر على أصحابه البركة والصلاح ، وهذا مأخوذ من قولنا (واتبع) فى سيرك (سبيل) أى طريق (الناسكين) جمع ناسك أى عابد (العلماء) جمع عالم ، وهو العارف بالأحكام الشرعية التى عليها مدار صحة الدين ، اعتقادية كانت أو عملية ، والمراد بهم السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان ، وسبيلهم منحصر فى اعتقاد وعلم وعمل طبق العلم وافترق من جاء بعدهم من أئمة الأمة الذين يجب اتباعهم على ثلاث فرق:

(أ) فرقة نصبت نفسها لبيان الأحكام الشرعية العملية، وهم الأئمة الأربعة وغيرهم من المجتهدين ، لكن لم يستقر من المذاهب المرضية سوى

مذاهب الأئمة الأربعة .

(ب) وفرقة نصبت نفسها للاشتغال ببيان العقائد التى كان عليها السلف وهم : الأشعرى والماتريدى ومن تبعهما .

(ج)وفرقة نصبت نفسها للاشتغال بالعمل والمجاهدات على طبق ما ذهب إليه الفرقتان المتقدمتان ، وهو الإمام أبو القاسم الجنيد ومن تبعه ، فهؤلاء الفرق الثلاثة هم خواص الأمة المحمدية ، ومن عداهم من جميع الفرق على ضلال ، وإن كان البعض منهم يحكم له بالإسلام ، فالناجى من كان فى عقيدته على طبق ما بينه أهل السنة ، وقلد فى الأحكام العملية إماماً من الأئمة الأربعة المرضية ، ثم تمام النعمة والنجاة فى سلوك مسلك الجنيد وأتباعه ، بعد أن أحكم دينه على ما بينه الفريقان المتقدمان ممن سلك مسلكه القطب الربانى الإمام سيدى أحمد الرفاعى وأتباعه ، والقطب الربانى الإمام سيدى عبد القادر الجيلانى وأتباعه والقطب الربانى السيد أحمد البدوى وأتباعه ، القطب الربانى السيد إبراهيم الدسوقى وأتباعه ، والقطب الربانى السيد على أبو الحسن الشاذلى وأتباعه ، والقطب الربانى سيدى محمد الخلوتى وأتباعه والقطب الربانى سيدى عبد الله النقشبندى وأتباعه ، فهؤلاء كلهم سادات الأمة المحمدية رضى الله تعالى عنهم وعنا بهم آمين.

فالشيخ الذى يدل على الله تعالى .. يجب أن يكون قد سلك على طريقة شيخ من مشايخ الطريق ، وتعب وجاهد نفسه حتى تهذبت ، وزالت عنها الرعونات البشرية ، وإلا فيجب اجتنابه ، فإن كثيرا من الناس من قلد إماما من الأئمة الأربعة رضى الله تعالى عنهم ولكنه فى عقائده زاغ عن

اعتقادهم ، فلم يعتقد معتقد أهل السنة ، وهم فرق شتى قد ضلوا فى عقائدهم كالقدرية وغيرهم ، ومن الناس من لم يرض بتقليد إمام من الأئمة الأربعة ولا باعتقاد أهل السنة وهم أضل ممن قبلهم [١] . ا. هـ

ثم يقول الشيخ رحمه الله تعالى وأثابه : « فعلى من تشوفت نفسه إلى سلوك طريق التجريد حتى يستغرق فى بحار التوحيد ملازمة التقوى ، والالتجاء إلى الله تعالى والتوسل إليه برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى أن يجمعه على شيخ عارف يربيه ، ويخرجه من الظلمات النفسية ويصفيه ، ويسقيه من خمر المحبة ويصافيه ، فإذا علم الله صدقك أطلعك عليه ، فإذا اجتمعت به فشد يدك عليه ، وكن كالميت بين يديه، وقل الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، ثم خذ فى الجد والابتهال وجد بنفسك لا بالمال .. كما قال :

فنافس ببذل النفس فيها أخا الهوى

فإن قبلتها منك يا حبـذا البـذل

ومن لم يجد فى حب نعمى بنفسه

ولو جاد بالدنيا إليه انتهى البخـل [٢]

ولا يُقال: أين من هذا وصفه؟ لأنا نقول كما قال الشيخ ابن عطاء الله السكندرى فى « لطائف المنن » : « لا يعوزك وجود الدالين وإنما يعوزك وجود الصدق فى طلبهم ، جِدْ صدقاً تجد مرشداً » ..

---

(١) الخريدة البهية للشيخ أحمد الدردير ..

(٢) المرجع السابق .

لكن سرّ الله فى صدق الطلب كم ريئَ فى أصحابه من العجب

وقال فى ، لطائف المنن ، أيضا : ، إنما يكون الاقتداء بولى دلك الله عليه وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه ، فطوى عنك شهود بشريته فى وجود خصوصيته ، فألقيت إليه القياد ، فسلك بك سبيل الرشاد.. الخ ،.

وقال الشيخ ابن عطاء الله السكندرى رضى الله تعالى عنه فى حكمه : ، سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه ،[١].

وأراك أيها القارئ الكريم قد اشتقت إلى معرفة شرائط الشيخ الولى المرشد الرشيد فإليك البيان والمزيد ، والله تعالى وحده يهدينا إلى أقوم طريق إنه على كل شيء قدير .

---

(١) شرح شطرنج العارفين للشيخ محمد الهاشمى التلمسانى ص ١٤ .

الفصل الحادى عشر

شروط الشيخ المربي وصفاته وعلاماته

مما سبق يتبين لنا أهمية صحبة الوارث المحمدى المرشد للمريد إلى أقوم طريق للترقى فى مدارج الكمال والتأييد ، وتلقى دروس الآداب والفضائل والتحقيق ، واكتشاف العيوب الخفية والأمراض القلبية والعلل الباطنية .

ولكن قد يسأل سائل : كيف الاهتداء إليه ؟ والوصول إلى معرفته ؟ وما هى شروطه وأوصافه ؟ فنقول وبالله التوفيق :

حين يشعرالطالب بحاجته إليه كشعور المريض بحاجته إلى الطبيب ، عليه أن يصدق العزم ، ويصحح النية ويتجه إلى الله تعالى بقلب ضارع منكسر ، يناديه فى جوف الليل ، ويدعوه فى سجوده وأدبار صلواته قائلا : « اللهم دلّنى على من يدلنى عليك ، وأوصلنى إلى من يوصلنى إليك » ..

قال الله تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ « النمل: ٦٢ » .
وقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ « محمد: ٢١ » .

فلو اضطررت إلى من يوصلك إلى الله اضطرار الظمآن إلى الماء والخائف إلى الأمن لوجدت ذلك أقرب إليك من وجود طلبك، ولو اضطررت إلى الله اضطرار الأم لولدها إذا فقدته لوجدت الحق منك قريبا، ولك مجيبا ، ولوجدت الوصول غير متعذر عليك ، ولتوجه الحق

بتيسير ذلك عليك ».

فعلى كل من أراد أن يجمعه الله تعالى على شيخ عارف بالله أن يبحث عنه فى بلده ، ويفتش ، ويسأل بدقة وانتباه غير ملتفت لما يشيعه بعضهم من فقد المرشد المربى فى هذا الزمن[١] .

وفى هذا يقول العلامة المفسر الإمام ابن عجيبة الحسنى - رحمه الله تعالى والناس فى إثبات الخصوصية ونفيها على ثلاثة أقسام :

١) قسم أثبتوها للمتقدمين ونفوها عن المتأخرين ، وهم أقبح العوام.

٢) وقسم أقروها قديما وحديثا ، وقالوا : إنهم أخفياء فى زمانهم فحرمهم الله بركتهم .

٣) وقوم أقروا الخصوصية فى أهل زمانهم ، مع إقرارهم بخصوصية السلف ، وعرفوهم ، وظفروا بهم وعظموهم ، وهم السعداء الذين أراد الله أن يرحلهم إليه ويقربهم إلى حضرته . وفى الحِكم « سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ،ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه » وبهذا يُرَدُّ على من زعم أن شيخ التربية انقطع ، فإن قدرة الله تعالى عامة ، وملك الله قائم ، والأرض لا تخلو ممن يقوم بالحجة حتى يأتى أمر الله[٢] .

وقد قال بعض أهل العلم والحكمة شعراً يرد فيه على من يدعى أن المرشدين فى زماننا هذا قد عدموا أو قلوا :

---

(١) ينظر : حقائق عن التصوف ص ٦٢ .

(٢) البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد للشيخ ابن عجيبة الحسنى ١/٧٧ .

يقول قوم عن هداهم ضلوا قد عدموا فى عصرنا أو قلوا

فقلت : كلا إنما قد جلــوا عن أن تراهم أعين الجهــال

فإذا لم يجد أحداً فى مدينته فليبحث عنه فى مدن أخرى . ألا ترى المريض يسافر إلى بلدة ثانية ، بل إلى بلاد كثيرة إذا لم يجد الطبيب الماهر الحاذق المختص ، أو حين يعجز أطباء مدينته عن تشخيص دائه ومعرفة دوائه ، فمداواة القلوب والأرواح أحوج إلى أطباء أمهر، وأحذق من أطباء الأجسام ؛ لأن أمراض القلوب أعتى وأشد ، نسأل الله العفو والعافية منها بمنه وكرمه(١) .

أنواع الشيوخ عند أهل العلم :

يقول الشيخ المحدث حبيب الله الشنقيطى رحمه الله تعالى فى بيان أنواع الشيوخ عند شرح حديث ، من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ، المتفق عليه عند البخارى ومسلم .. وقد قال أخى شقيقى وشيخى العلامة المحقق ذو المناقب ، الجامع للشريعة والحقيقة الشيخ محمد العاقب : واعلم أن الشيخ فى العرف من حيث هو يطلق على ثلاثة أقسام :

الأول : شيخ التعليم .. ووظيفته الإخبار بالأحكام، وتبيين المحتاج إليه منها .

الثاني : شيخ الترقية ـ بالقاف ـ ووظيفته التوجه إلى الله تعالى فى إصلاح المريد ، ويحيل عليه همته فى ذلك فينتفع به .

الثالث : شيخ التربيَّة ـ بالباء الموحده بعدها ياء مثناة مشددة.

---

(١) ينظر : حقائق عن التصوف ٦٢ .

ووظيفته : تدريج المريد فى طريقه ، ومعالجته بما يصلح به حاله .. وضربوا لذلك مثلاً :

قال الحسن اليوسى : وذلك أن المريد لو وجد فى نفسه صفة كالكبر مثلا ، فإن شيخ التعليم يخبره بأنها من المحرمات المهلكات .

وشيخ الترقية .. ينبهه على الطريقة والأدب ، ويتوجه إلى الله تعالى فى أن يطهره منها بحوله وقوته تعالى ، فيرقيه بهمته .

وشيخ التربية يأخذ معه فى معالجته على ما يجد ببصيرته النورانية وفراسته الربانية ، كأن يأمره مثلا بحزمة من حطب يحملها، ويشق بها الأسواق ، ومجامع المعارف، كما كان السيد أبو هريرة رضى الله تعالى عنه يفعله اختبارا لنفسه ، أو يأمره بأمر صعب لا تأباه الشريعة ، أو يلقنه دعاءً، أو غير ذلك .

وقد تجتمع هذه الأمور فى واحد ؛ فيعلم ، ويربى ، ويرقى، وهو الكامل ، وقد يكون اثنان منها : يعلّم ويرقى بهمته، وهو الذى فى زماننا ، فقد نص شيوخ الطريق على انقطاع التربية المصطلح عليها منذ زمان ، وكرهوا السلوك بها.. ا. هـ من خطه رحمه الله تعالى مع إصلاح يسير[١] .

وقد تحدث العلامة السيد أحمد بن زروق المالكى رضى الله تعالى عنه عن شروط الشيوخ الثلاثة فقال :

- **شيخ تعليم وشروطه ثلاثة :** تحصيل عقد الباب المتكلم فيه ، والقدرة على الإلقاء بلا تقصير ، والانصاف فى الرد والقبول .

---

(١) فتح المنعم بشرح زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم للشيخ العلامة المحدث حبيب الله الشنقيطى جـ٥ / ٣٢٠ .

● **شيخ تربية ، وشروطه ثلاثة :** علم المعاملة ظاهرا ، وباطنا ، والبصيرة النافذة ، والتجربة الحاصلة .

● **وشيخ ترقية ، وشروطه ثلاثة :** البصيرة النافذة ، والنور التام والهمة العالية ، فبالبصيرة يميّز ، وبالنور يمد ، وبالهمة يرفع .

كما أن الذى قبله بالعلم يربى ، وبالبصيرة يرفع، وبالتربية يحقق كما أن الذى قبله بالتحصيل يفيد ، وبالعبارة يوصل ، وبالانصاف يحقق[١] .

الشروط الواجب توافرها في الشيخ المرشد :

لا يصدق لفظ الشيخ إلا على كل عالم عامل تقى نقى ، فما كل من تصدر للإرشاد شيخ أو تقدم على الناس إمام ، وقد قال أحد الحكماء :

« فما كل النيران كنار موسى ولا كل الفواطــم كالبتــول »

ومن ثم كان للشيخ المتصدر للإرشاد شروط دقيقة ، وصفات حق وحقيقة حتى يتأهل لإرشاد الناس ، فإن توافرت فهو المقصود بالشيخ عند الحديث وإلا كان مدعيا وهى أربعة :

١) أن يكون عالما بالفرائض العينية ..

٢) أن يكون عارفا بالله ..

٣) أن يكون خبيراً بطرائق تزكية النفوس ووسائل تربيتها .

٤) أن يكون مأذونا بالإرشاد من شيخه .

أما الشرط الأول: فينبغى أن يكون المرشد عالما بالفرائض العينية : كأحكام الصلاة والصيام والزكاة إن كان مالكا للنصاب ، وأحكام المعاملات

---

(١) قواعد التصوف للشيخ أحمد بن زروق المالكى .

والبيوع إن كان ممن يتعاطى التجارة .. إلخ .

وأن يكون عالما بعقيدة أهل السنة والجماعة في التوحيد ، فيعرف مايجب لله تعالى ، وما يجوز وما يستحيل إجمالا وتفصيلا ، وكذلك في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وهكذا سائر أركان الإسلام ..

وأما الشرط الثاني : فينبغي أن يتحقق المرشد بعقيدة أهل السنة عملا وذوقا بعد أن عرفها علما ودراية ، فيشهد في قلبه وروحه صحتها ، ويشهد أن الله تعالى واحد في ذاته ، واحد في صفاته ، واحد في أفعاله ، ويتعرف على حضرات أسماء الله تعالى ذوقا وشهودا ، ويرجعها إلى الحضرة الجامعة ، ولا يشتبه عليه تعدد الحضرات إذ تعدد الحضرات لا يدل على تعدد الذات.

وأما الشرط الثالث : فلابد أن يكون قد زكى نفسه على يد مرب ومرشد ، فخبر مراتب النفس وأمراضها ووساوسها ، وعرف أساليب الشيطان ومداخله ، وآفات كل مرحلة من مراحل السير ، وطرائق معالجة كل ذلك بما يلائم حالة كل شخص وأوضاعه .

وأما الشرط الرابع : فلابد للمرشد من أن يكون قد أجيز من شيخه بهذه التربية وهذا السير ، فمن لم يشهد له الاختصاصيون بعلم يدّعيه لا يحق له أن يتصدر فيه . فالإجازة : هى شهادة أهلية الإرشاد وحيازة صفاته، وعليها أسست الآن فكرة المدارس والجامعات ، فكما لا يجوز لمن لا يحمل شهادة الطب أن يفتح عيادة لمداواة المرضى ، ولا يصح لغير المجاز في الهندسة أن يرسم مخططا للبناء ، وكما لا يجوز للذى لا يحمل شهادة أهلية التعليم أن يعلم أو يدرس في المدارس والجامعات ، فكذلك لا يجوز أن

يدعي الإرشاد غير مأذون له به من قبل مرشدين مأذونين مؤهلين ، يتصل سندهم بالتسلسل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وهذا على غرار علماء الحديث الذين تناقلوا أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالسند رجلا عن رجل إلي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واعتبروا السند أساسا لحفظ السنة النبوية من الضياع والتحريف وعلى غرار علماء القراءات القرآنية بالسند المتصل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يلقونها شيخاً عن شيخ ، فكذلك أهل الطريق فى تلقين الذكر والأسماء الحسنى التى يتعبد بها المريد ..

ولهذا قال الإمام سيدنا عبد الله بن مبارك : « الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ماشاء ».

فكما أنه لا يصح من العاقل أن يتدواى عند جاهل بالطب ، كذلك لا يجوز للمرء أن يركن إلى غير المرشد المأذون المختص بالتوجيه والإرشاد وكل من درس الوضع العلمى فى الماضى يعرف قيمة الإجازة من الأشياخ وأهمية التلقى عندهم ، حتى إنهم أطلقوا على من لم يأخذ علمه من العلماء اسم « الصحفى » لأنه أخذ علمه من الصحف والمطالعة الخاصة ، ومن مقولاتهم الموروثة : « لا تأخذ العلم من صحفى ولا القرآن من مصحفى »

قال تعالى ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ « العنكبوت : ٤٩ » ..

قال ابن سيرين رحمه الله تعالى : « إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم » .. رواه الإمام مسلم فى مقدمة صحيحه.

وقـد أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ابن عمر رضى الله تعالى عنهما بذلك فقـال : « يا ابن عمر دينك دينك إنما هـو لحمـك ودمـك فانظـر عمن تأخـذ .. خذ الدين عن الذين استقاموا ، ولا تأخذ عن الذين مالوا »(١) .

العلم روح تنفخ لا مسائل تنسخ ، فليتنبه المتعلمون عمن يأخذون وليتنبه العالمون لمن يعطون .

ثم اعلم أن من علامات المرشد أموراً يمكن ملاحظتها :

منها : أنك اذا جالسته تشعر بنفحة إيمانية ، ونشوة روحية لا يتكلم إلا لله ، ولا ينطق إلا بخير ، ولا يتحدث إلا بموعظة أو نصيحـة ، تستفيد من كلامه، وتنتفع من قربه ، كما تنتفع من بعده تستفيد من لحظه كما تستفيد من لفظه .

ومنها .. أن تلاحظ فى إخوانه ومريديه صور الإيمان والإخـلاص والتقوى والتواضع ، وتتذكر وأنت تخالطهم المثل العليا من الحب والصدق والإيثار والأخـوة الخالصـة ، وهكـذا يعرف الطبيب الماهـر بآثاره ونتائج جهوده ، حيث ترى المرضى الذين شفوا على يديه ، وتخرجوا من مصحته بأوفر قوّة وأتم عافية .

مع العلم بأن كثرة الأتباع والمريدين والتلاميذ وقلتهم ليست مقياسا وحيداً ، وإنما العبرة بصلاح هؤلاء المريدين، وتقواهم ، وخوفهم من الله ، وتخلصهم من العيوب والأمراض ، واستقامتهم على شرع الله تعالى .

---

(١) أخرجه الحافظ ابن عدى عن ابن عمر كذا فى كنز العمال جـ ١٥٣/٣

ومنهـا : أنك ترى تلامذته يمثلون مختلف طبقات الأمة كما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ..

فالظفر به يدفع الطالب للأخذ بيده، والتزام مجالسه[١]. والتأدب معه ، والعمل بنصحه وإرشاده فى سبيل الفوز بالدارين ، وقد نظم الشريشى أوصاف الشيخ الصحيح فقال:

وللشيخ آيات إذا لم تكن فيـه   فما هو إلا فى ليالى الهوى يسرى

إذا لم يكن علم لديه بظاهر   ولا باطن فاضرب به لجج البحر

وإن كان إلا أنه غيـر جامع   لوصفَيْها جَمْعًا على أكمل الأمر

فأقرب أحوال العليل إلى الردى   اذا لم يكن منها الطبيب على خُبْرِ

فمن هذا تبين عدم صحة الانتساب إلى غير علماء الشريعة لأن الجهل به نقص لا يصلح للمرشد[٢].

ومن ثم يقول الشيخ عبد القادر الجيلانى الحنبلى فى شروط الشيخ كذلك :

إذا لم يكن فى الشيخ خمس فوائد   وإلا فدجال يقود إلى الجهل

عليم بأحكام الشريعة ظاهراً   ويبحث عن علم الحقيقة عن أصل

ويظهر للورّاد بالبشر والقرى   ويخضع للمسكين بالقول والفعل

فذاك هو الشيخ المعظم قدره   عليم بأحكام الحرام من الحل

---

(١) راجع حقائق عن التصوف ص ٦٢ وما بعدها .

(٢) الإمداد شرح منظومة الإسناد ٢٦/٣ د/ أكرم عبد الوهاب ـ دار الكتب والنشر ـ جامعة الموصل .

يهذب طلاب الطريق ونفسه فهذبه من قبل ذو كرم كلى(١)

ويقول سيدى أحمد بن زروق الفقيه المالكى رضى الله تعالى عنه :

« وشرط الشيخ الذى يلقى المريد إليه نفسه خمسة : « علم صحيح وذوق صريح ،وهمة عالية ، وحالة مرضية ، وبصيرة نافذة ، ثم قال : ولا تصلح المشيخة الكاملة إلا لمن كان على قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو من كملت أحواله واستقامت أقواله وأفعاله ، وكان متخلقا بالقرآن العظيم متحليا بمعانى أسماء الله الحسنى، وكان ذا علم راسخ وعقل سليم ونفس طاهرة ، وذهب هواه ، وانشرح صدره ، وتنور قلبه بأنوار المعرفة ، فسلمت بواطنه وفطرته وتنورت بصيرته وترجح رأيه وأخذ من وارث ، ومن كانت فيه خمسة لا تصح مشيخته : الجهل بالدين ، واسقاط حرمة المسلمين، والدخول فيما لا يعنى ، واتباع الهوى فى كل شىء ، وسوء الخلق من غير مبالاة(٢)

فائدة اتخاذ الشيخ المرشد :

وقد آن الأوان بعد الذى ذكرناه من شروط الشيخ أن نبين فائدة اتخاذ الشيخ فى العلم والتربية إذ أن كثيراً من الناس يقول: إن الشيخ لا دخل له فى التربية ولا محل له أصلا فى القدوة.

ومن ثم فلا بد من توضيح هذه النقطة المهمة فى بيان فائدته :

١) إن الشيخ البصير فى الأمور يختصر لك الطريق ؛ فبدلاً من أن

---

(١) الفتح المبين للشيخ عبد القادر الجيلانى ط ١ المطبعة الخيرية ، مصر ١٣٠٦ هـ ص ٢٨

(٢) تنقيح روضة الأزهار فى مناقب سيدى عبد السلام الأسمر للشيخ كريم الدين البرمونى ص ٢٢٣ ، الناشر مكتبة النجاح طرابلس ـ ليبيا .

تتعـب فى الطريق ـ أى طريق ـ سواء كان طريق تحصيل علم ، أو طريق استدلال على صلاح القلب ، أو طريق تخلص من مرض فإنه يختصر لك ذلك كله .

٢) إن الشيخ الكامل يجنبك الخطأ فى الفهم ، أو الخطأ فى السلوك أو الخطأ فى التصورات التى يمكن أن تنشأ عن سير الإنسان نفسه .

٣) إن الشيخ من خلال صحبته تأخذ منه حالا ، وتأخذ منه سمت العلماء وأدبهم ، ونور العلم ، وتنوير القلب .

٤) إن مجرد قبول الإنسان أن يأخذ العلم أو التربية عن أهلها يحرزه من كثير من الأمراض ، كمرض الغرور أو العجب ، أو الكبر أو العنجهية.

٥) وكل حالة يفترض على إنسان تحصيل شيء ولا يستطيع تحصيله إلا من جهة ما فإن الأخذ عن هذه الجهة يعتبر فريضة فى حقه من باب : ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

٦) وإذا كان الشيخ صالحا وداعيا إلى هدى فإن الانتفاع به فى الدنيا والآخرة تدل عليه النصوص .

٧) والتجمع حول الشيخ والمشاركة فى حلقات العلم والذكر والتآخى الخاص فى هذه الأجواء تترتب عليه مصالح كثيرة فى الدنيا والآخرة[١]

---

(١) تربيتنا الروحية للشيخ سعيد حوى ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

إذن فنقطة الانطلاق الصحيحة هى وجود الولى المرشد .. ومن ثم يقول الشيخ ابن عطاء الله السكندرى رحمه الله تعالى فى شأن الشيخ : « لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله ،ربما كنت مسيئا فأراك الإحسان منك صحبتك لمن هو أسوأ حالاً منك » .

ضرورة أخذ التصوف عن شيخ :

إن الله تعالى وضع للمسلمين منهجا كاملاً شاملا لكل جوانب الحياة فأنزل القرآن الكريم وأوحى بالسنة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فكانا نورين يقتدى بهما ويسار فى ضيائهما ، ولكن لما كان الإنسان مبتلى بنفس أمارة بالسوء ذات شهوة بهيمية من جهة ، وشيطان يوسوس إليه من جهة أخرى ، فقد يعدل المسلم عن طريق الرشاد مع علمه به إلى طريق الهوى والزيغ ، وأن الإنسان بطبعه اجتماعى يتأثر بالخارج ، كان لاتخاذ الشيخ المربى أثر عميق فى نفسه ، ومن ثم أكد السادة الصوفية أجمعهم على ضرورة اتخاذ الشيخ المرشد، وأخذ التصوف عنه ، وبينوا حكم ذلك..

يقول الشيخ عبد القادر الجيلانى رضى الله تعالى عنه « لابد لكل مريد لله من شيخ ، فالمشايخ هم الطريق إلى الله تعالى والأدلاء عليه والباب يُدخل منه إليه »[١] .

ومن متابعة سيرة الشيخ عبد القادر نرى أنه تلقن فروع العلم التى لا حصر لها من علماء الشريعة ، إلا أنه لما أخذ الطريق لم يصحب غير شيخه : حماد الدبّاس »[٢] .

---

(١) الغنية لطالبى طريق الحق ١٦٢٩/٣ ط / دار الألباب ـ دمشق .

(٢) الطريق الصوفى وفروع القادرية بمصر ص ٤٦ أ/يوسف زيدان . دار الجيل، لبنان

وفى هذا يقول : « إن الشيخ يختلف عن علماء الظاهر الذين يأخذ المبتدئ منهم علوم الشرع ، حيث يمكن للسالك تلقى علوم وفنون الشريعة من جملة علماء . أما الطريقة فلا يدركها السالك إلا بصحبة شيخ واحد »[١] .

ويقول العلامة الأصولى الشاطبى « طريق القوم طريق الصحبة والبيعة والإرشاد والتربية بالهمة والإرادة والحال والنظر ، لا يصح فيه إلا الانفراد والبيعة والمعاهدة لشيخ واحد »[٢] .

ومن اطلع على ماكتبة أئمة التصوف المقتدى بهم يجد أنهم نصوا على أن التربية والترقية أن يتقيد المريد بشيخ واحد يلقى إليه قياده ، ويتبع أمره ، ولا يخالفه فى شىء له ، سامعاً مطيعًا ، وأن يترك الاعتراض على الولى المرشد[٣] .

وهذا الإمام القشيرى يوجب السلوك على يد شيخ عارف إذ يقول : «ويجب على المريد أن يتأدب على يد شيخ ، فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبداً ، وهكذا كان أبو يزيد البسطامى يقول : من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان ، وسمعت أستاذى أبا على الدقاق يقول : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس يغرسها فإنها تورق لكن لا تثمر ، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقه نفساً نفساً فهو عابد هواه[٤] .

---

(١) الطريق الصوفى وفروع القادرية بمصر ص ٤٦

(٢) الموافقات فى أصول الفقه للإمام الشاطبى ٢/٢٢٠ ت الشيخ عبد الله دراز- المعرفة بيروت .

(٣) الطبقات الكبرى للشعرانى ١/٢٢ .

(٤) يراجع : الرسالة القشيرية ٦٩٩ .

كذلك الإمام الشعرانى رحمه الله تعالى ذهب إلى وجوب اتخاذ الشيخ المربى إذ يقول : « فائدة الشيخ إنما هو اختصار الطريق للمريد ، ومن سلك من غير شيخ تاه وقطع عمره ، ولم يصل إلى مقصوده لأن مثال الشيخ مثال دليل الحجاج إلى مكة فى الليالى المظلمة »(١).

« ولو أن رجلا جمع العلوم كلها ، وصحب طرائق الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة مع شيخ مؤدب ناصح » .. قاله أبو على الثقفى (٢).

ويقول الإمام أبو حامد الغزالى : « ويجب فى حق السالك لطريق الحق أن يكون له مرشد ومرب ليدله على الطريق ويرفع عنه الأخلاق المذمومة ويضع مكانها الأخلاق المحمودة »(٣).

ولقد أشار الإمام إلى مناط الحكم الشرعى فى وجوب اتخاذ الشيخ المربى بقوله : « يحتاج المريد إلى شيخ يقتدى به لا محالة ليهديه إلى سواء السبيل ، فإن سبيل الدين غامض وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة ، فمن لم يكن له شيخ قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة فمن سلك سبيل البوادى المهلكة من غير خفير خاطر بنفسه وأهلكها »(٤).

وكذلك الإمام الشعرانى رحمه الله تعالى يوضح الأمر توضيحا لا لبس فيه ولا غموض فيقول : « وكذلك أجمع أهل الطريق على وجوب اتخاذ الإنسان شيخا له يرشده إلى زوال تلك الصفات التى تمنعه من دخول حضرة الله تعالى بقلبه من باب « مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب » ولا

---

(١) لطائف المنن والأخلاق لابن عطاء الله السكندرى ت د/ عبد الحليم محمود ص٤٩ .

(٢) الرسالة القشيرية ص ٤٤ .

(٣) إحياء علوم الدين ٣/٥٥ .

(٤) إحياء علوم الدين ٣/٥٥ .

شك أن علاج الأمراض الباطنية من حب الدنيا والكبر والعجب والرياء والحسد والحقد والغل والنفاق ونحوها كله واجب كما تشهد له الأحاديث الواردة في تحريم هذه الأمور والتوعد بالعقاب عليها .

فعلم أن كل من لم يتخذ له شيخا يرشده إلى الخروج من هذه الصفات فهو عاص لله تعالى ، وللرسول صلى الله عليه وآله وسلم [١] .

ثم يعلل ذلك بقوله : « لأنه لا يهتدى لطريق العلاج بغير شيخ ، ولو حفظ ألف كتاب فى العلم ، فهو كمن يحفظ كتابا فى الطب ، ولا يعرف نزول الدواء على الداء ، فكل من سمعه ،وهو يدرس في الكتب يقول : إنه طبيب عظيم ، ومن رآه حين يسأله عن اسم المرض، وكيفية إزالته قال : إنه جاهل ، فاتخذ لك يا أخى شيخا ، واقبل نصيحتى »[٢] .

فهذا ما ذكره الإمام الشعرانى فى الحكم العام لاتخاذ الشيخ ثم ذكر الشطر الثانى فقال : « واعلم أن كل من رزقه الله تعالى السلامة من الأمراض الباطنية كالسلف الصالح والأئمة المجتهدين فلا يحتاج إلى شيخ ﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾[٣] . « سورة القيامة : ١٤ » ..

ولكن هناك أمر ينبغى التنبه له وهو أن يقال : « كم شخص حصن نفسه من أمراضها فى زماننا هذا كالسلف الصالح ؟

هيهات هيهات . كيف والإمام الغزالى لم يستغن عن اتخاذ الشيخ وكذلك العز بن عبد السلام سلطان العلماء وكذلك الإمام الشعرانى والإمام الشيخ الدردير المالكى وغيرهم من أساطين العلم وأئمته .

---

(١) لواقح الأنوار ص ١٤ .

(٢ ، ٣) المصدر السابق ص ١٧ .

فإذا كان هذا حالهم فكيف بحالنا وقد ابتلينا بنفوس أمارة وزمان أصعب من زمانهما ؟؟

ولكن ههنا سؤال يفرض نفسه وهو : لماذا لا يكون للمريد إلا شيخ واحد ؟

يجيب فضيلة الإمام الرائد الشيخ محمد زكى إبراهيم رحمه الله تعالى على ذلك فيقول : الصوفية لا يمنعون أن يتردد المريد على أى إنسان للتزود بالثقافة والعلم ، ولكنهم يمنعون أن يجمع المريد بين عدة وسائل للسلوك ، فإنه لا يجوز للمأموم أن يأتم إلا بواحد فى الفرض الواحد ، ولا يجوز للمريض أن يتناول أدوية عدد من الأطباء فى وقت واحد ، والتربية شىء غير العلم . فالعلم مطالب تأتلف ، والسلوك مشارب تختلف ، فهو أبوة روحية ، ولا يمكن أن يكون للإنسان إلا أب واحد ، وحب الأب لا يمنع حب الأعمام والأخوال وتوقيرهم .

فإذا توفى الشيخ قبل نضوج المريد ، جاز للمريد أن يتخذ من يتم به رحلته ، وإذا ثبت أن الشيخ جاهل ، أو منحرف تعين أن يبحث المريد عن سواه ، فإذا تم للمريد مقامه ، جاز أن يتلقى للتبرك عن عدد من الأشياخ ، من دون أن يدع طريقه الأصيل الذى كان سببا فى الفتح بحال من الأحوال ، كشأن كبار الرجال سلفا وخلفا كما هو مسجل فى ، أثباتهم وإجازاتهم ،[1] .

---

(١) أبجدية التصوف الإسلامى ص ١٢٦ .

الفصل الثانى عشر

أعمال الصوفية بأدلتها التفصيلية

العهد والبيعة وبيان أقسامهما

من الأمور التى يعترض عليها المعترضون أخذ العهد والبيعة على المريدين ويقولون : لا أصل لذلك فى الإسلام ، وإن ذلك من البدع المُحْدَثة وللإجابة على هذه الشبهة نبين أصل العهد والبيعة ومشروعيتهما من الكتاب والسنة وكلام الأئمة الأعلام رضى الله تعالى عنهم .. فنقول :

أولاً : العهد والبيعة في اللغة :

العهد : الأمان ، واليمين المُوثَّق والذمة ، والحفاظ والوصية[١] .

والبيعة : هى الطاعة والمعاقدة والمعاهدة ، كأن كل واحد من المتبايعين باع ما عنده من صاحبه وأعطاه خالصة نفسه ودخيلة أمره [٢] .

ثانياً : العهد والبيعة في الاصطلاح :

وأما فى الاصطلاح الشرعى : فالبيعة هى العهد على الطاعة ، كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر فى أمر نفسه وأمور المسلمين لا ينازعه فى شىء من ذلك ، ويطيعه فيما يكلفه من الأمر على المَنْشَط

---

(١) ينظر مختار الصحاح للرازى ، مادة (عهد) ص ٤٠٦ والقاموس المحيط للفيروزابادى .

(٢) ينظر أساس البلاغة للزمخشرى ص ٥٧ .

والمَكْرَه ، فإنه تتأكد معرفته بحق المسلم لما يلزمه من حق سلطانه وإمامه ، لئلا تكون أفعاله عبثا [١] .

وفى اصطلاح أهل التصوف العهد والبيعة مترادفان وهما ارتباط بين الشيخ والمريد ، وتحكيم من المريد للشيخ فى نفسه لمصالح دينية يرشده ويهديه ويبصره بآفات النفوس وفساد الأعمال ومداخل العدو [٢] .

ولما كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم هو مربى المؤمنين ومزكيهم ومعلمهم وأميرهم ، فقد تعلق به المؤمنون لمصلحة دينهم ودنياهم . فبايعوه بيعة الإمارة ، وبيعة الطاعة وارتبطت قلوبهم به ، فصار أميرهم فى أمور دنياهم ومربيهم للسير إلى أخراهم .

وكذلك الحال بالنسبة للخلفاء الراشدين . ولكن لما تقادم العهد وتغير الحال آلت الخلافة إلى الأمراء والرؤساء ، وآلت تزكية النفوس وتربية القلوب إلى الصالحين فصارت البيعة بيعتين [٣] .

ثالثا : أقسام البيعة :

البيعة نوعان : بيعة الإمامة الكبرى : وهى البيعة للخليفة على إمارته ، وهى التى يعنى بها علماء الشرع..وبيعة الشيخ المربى : حتى يتزكى المسلم على يديه ، وهى التى يعنى بها أهل التصوف .

قال الشيخ إسماعيل بن سودكين : « المبايعون ثلاثة : الرسل والشيوخ الورثة ، والسلاطين ، والمبايع فى هؤلاء الثلاثة على الحقيقة هو الله تعالى

---

(١) ينظر مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٩ ت أ.م كارترهيد ط سنة ١٩٨٤ م

(٢ ، ٣) ينظر عوارف المعارف للسهروردى ص ٧٨ دار المعرفة ـ بيروت .

وهؤلاء شهود الله تعالى على بيعة هؤلاء الأتباع وعلى هؤلاء الثلاثة شروط يجمعها القيام بأمر الله تعالى وعلى الأتباع الذين بايعوهم شروط يجمعها المتابعة فيما أمروا به » .

ومن المعلوم أن بيعة الرسل قد ختمت ببيعة النبى صلى الله عليه وآله وسلم فبقيت بيعة الرؤساء والشيوخ ، ثم قال الشيخ : فأما الرسل والشيوخ فلا يأمرون بمعصية أصلاً، فإن الرسل معصومون من هذا ، والشيوخ محفوظون ، وأما السلاطين فيطاعون بالمعروف لا بالمعصية ، والبيعة لازمة حتى يلقوا الله تعالى »[1] .

يقول فضيلة الشيخ سعيد حوى رحمه الله تعالى : « إن شيوخنا كانوا يرون أن البيعة التى تعطى للشيخ عند الصوفية هى بيعة على التقوى ولذلك فإنهم يكتفون فيها بوضع اليد وقراءة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ « الفتح: ١٠ »..
دون أن يضيفوا شيئا آخر..

إن البيعة فى هذا الإطار ليس لها أحكام البيعة العامة ، ولا تحول دون الالتزام بجماعة المسلمين وخليفتهم الراشد إن وجد كما أنها لا تحول دون أن يعطى الإنسان بيعة لجهة أخرى على الخير نفسه ، أو على شىء آخر من الخير ، لذلك درج الصوفية القدماء على تعداد الشيوخ ، وضيّق المتأخرون منهم فى ذلك والأمر واسع إذا وجدت الاستقامة وهى فى هذا

---

(١) تفسير روح البيان للشيخ إسماعيل حقى البروسوى ٩/٢١ ط دار الفكر للطباعة والنشر ـ بيروت .

الإطار لا حرج فيها ، ولكن للالتباس الذى حدث فإننا نؤثر أن نطلق عليها اسما آخر كالعقد أو الوعد ، أو أن نشرح لمن يعطى البيعة أن هذه البيعة بيعة التقوى ، وأنها تأكيد لما ألزمنا به الشارع وليست إنشاءً لأحكام جديدة، يصبح أمر الشيخ فيها بالمباح فريضة فضلاً عن أن يحرم حلالاً أو يحلل حرامًا ، والطاعة فى هذه الحالة بالمعروف طاعة حبية وودية فيما هو مباح »(١) .

وقفة مع آية البيعة فى سورة الفتح :

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ « الفتح : ١٠ » ..

قال القرطبى : « وهذه البيعة هى بيعة الرضوان تحت شجرة سمرة بالحديبية »(٢) .

ولابد من وقفة ههنا عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ إذ هى المقصود من كلام الصوفية ، أن العهد ليس مع ولى أو شيخ أو نبى ، وإنما هى مع الله تعالى وبهذا تستمر البيعة إلى قيام الساعة ..

قال الشيخ الصيادى فى تفسير هذه الآية : إن بيعة الإمام المبين والصادق الأمين صلى الله عليه وآله وسلم .. ما تزال سارية باقية هى هى تتلقاها الأنفس السليمة ، وتعقد عليها الأكف الكريمة.. لا تبديل لكلمات الله،

---

(١) تربيتنا الروحية ص ٢٠٠ .

(٢) تفسير القرطبى ١٦٩/٨ ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان سنة ١٤٢٠ هـ

فهو من نواب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[١] .

وقال العلامة الشيخ أحمد الصاوى المالكى : « وهذه الآية وإن كان سبب نزولها بيعة الرضوان إلا أن العبرة بعموم اللفظ ، فيشمل مبايعة الإمام على الطاعة والوفاء بالعهد ، ومبايعة الشيخ العارف على محبة الله ورسوله والتزام شروطه وآدابه »[٢] .

ومن ثم فقد كان المرشد يعاهد المريد على السير إلى الله تعالى فى طريق التخلى عن العيوب والتحلى بالصفات الحسنة والتحقق بركن الإحسان والترقى فى مقاماته .

ولما كانت البيعة فى الواقع لله تعالى حذر الله تعالى من نقضها تحذيراً فقال : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ « النحل : ٩١ » .

﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ « الإسراء : ٣٤ » .

بيعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعمومها :

مما سبق ذكره فى آية البيعة من سورة الفتح وما فيها من مدح للمبايعين الذين أوفوا بعهدهم وبيعتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتبين لنا مدى أهمية البيعة لكل مسلم يريد وجه الله تعالى ، لذا فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد فتح البيعة لكل المسلمين فى وقته.

---

(١) قلادة الجواهر فى ذكر الغوث الرفاعى والسادة الأكابر للعلامة أبى الهدى الصيادى ص ٣٠٠ .

(٢) حاشية الصاوى على الجلالين ٤/٩٨ ط / دار الفكر - بيروت - سنة ١٣٨٥ هـ .

والناظر المتتبع لكتب السنة والسيرة يجد أن أخذ العهد والبيعة ما كان يتخذ صورة واحدة من التلقين ، أو يختص بجماعة من المسلمين ، وإنما كان أخذ العهد جامعاً بين بيعة الرجال وتلقين الجماعات والأفراد ، والنساء والأطفال(١) .

واستفاض عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن الناس كانوا يبايعونه تارة على الجهاد والهجرة ، وتارة على إقامة أركان الإسلام ، وتارة على الثبات والقرار في معركة الكفار ، وتارة على التمسك بالسنة والابتعاد عن البدعة والحرص على الطاعات ، كما صح أنه صلى الله عليه وآله وسلم بايع نسوة من الأنصار على أن لا ينُحن ـ من النياحة على الميت ـ .

وروى ابن ماجه أنه صلى الله عليه وآله وسلم بايع ناساً من فقراء المهاجرين على أن لا يسألوا الناس شيئا فكان أحدهم يسقط سوطه فينزل عن فرسه فيأخذه ولا يسأل أحداً أن يناوله إياه .

ومما لا شك فيه ولا شبهة أنه إذا ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فعلٌ على سبيل العبادة والاهتمام بشأنه فإنه لا ينزل عن كونه سنة في الدين ، غير أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان خليفة الله في أرضه وعالما بما أنزله الله تعالى من القرآن والحكمة ومعلماً للكتاب والسنة ومزكيا للأمة .

فما فعله على جهة الخلافة كان سنة للخلفاء ، وما فعله على جهة كونه معلماً للكتاب والحكمة ومزكياً للأمة كان سنة للعلماء الراسخين .

---

(١) ينظر حقائق عن التصوف ص ٦٦ .

فلنبحث عن البيعة من أى قسم هى ، فظن قوم أنها مقصورة على قبوله الخلافة وأن الذى تعتاده الصوفية من مبايعة المتصوفين ليس بشيء، وهذا ظن فاسد ؛ لما ذكرنا من أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان يبايع تارة على إقامة أركان الإسلام ، وتارة على التمسك بالسنة وهذا صحيح البخارى شاهد على أنه صلى الله عليه وآله وسلم اشترط على جرير عند مبايعته فقال : والنصح لكل مسلم ، وأنه بايع قوماً من الأنصار فاشترط أن لا يخافوا فى الله لومة لائم ، ويقولوا بالحق حيث كانوا فكان أحدهم يجاهر الأمراء والملوك بالرد والإنكار ، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم بايع نسوة من الأنصار واشترط عليهن الاجتناب عن النواحة .. إلى غير ذلك ، وكل ذلك من التزكية ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر(١) .

أنــواع البيعــة :

فالحق أن البيعة على أقســام : منها بيعة الخلافة ، ومنها بيعة التمسك بحبل التقوى ، ومنها بيعة الهجرة والجهاد ، ومنها بيعة التوثق فى الجهاد .

قال الشيخ الجليل الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولى الله الدهلوى فى كتابه « القول الجميل » عن حقيقة البيعة :

اعلم أن البيعة المتوازنة بين الصوفية على وجوه :

الأول : بيعة التوبة من المعاصى .

والثانى : بيعة التبرك فى سلسلة الصالحين بمنزلة إسناد الحديث فإن

---

(١) الشريعة والطريقة للكاندهلوى ص ١١٩ ، ١٢٠ .

فيها بركة .

والثالث : بيعة تأكد العزيمة على التجرد لأمر الله وترك ما نهى عنه ظاهراً وباطناً ، وتعليق القلب بالله تعالى وهو الأصل وأما الأولان فالوفاء بالبيعة فيهما ترك الكبائر وعدم الإصرار على الصغائر ، والتمسك بالطاعات المذكورة من الواجبات والسنن الرواتب ، النكث بالإخلال فيما ذكرنا .

وأما الرابع : فالوفاء : البقاء على هذه الهجرة والمجاهدة حتى يكون متنورا بنور السكينة ، ويصير ذلك ديدناً له وخلقا وجبلة فعند ذلك قد يرخص فيما أباحه الشرع من اللذات والاشتغال ببعض ما يحتاج إلى طول التعهد كالتدريس والقضاء ، والنكث بالإخلال في ذلك[1] .

نماذج مشرقة من بيعة النبى صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه

أولاً : بيعة الرجال :

روى البخارى بسنده عن عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونحن فى مجلسه : ، تبايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا فى معروف ، فمن وفَى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستَره الله ،

---

(١) الشريعة والطريقة ص ١٢١ .

فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه ، فبايعناه على ذلك[١] ..

وعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله تعالى عنه قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم تسعة ، أو ثمانية ، أو سبعة فقال : ألا تبايعون رسول الله ؟ فبسطنا أيدينا ، وقلنا : علام نبايعك يا رسول الله ؟ قال : على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وتصلوا الصلوات الخمس ، وتسمعوا وتطيعوا وأسر كلمة خفية ، قال : ولا تسألوا الناس شيئاً . فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه » رواه الإمام مسلم وأبو داود والنسائي .

ثانيا : البيعة على أعمال الإسلام :

أخرج الحسن بن سفيان ، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم ، والحاكم، والبيهقي وابن عساكر ، عن بشير بن الخصاصية رضي الله تعالى عنه قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبايعه ، فقلت : علام تبايعني يا رسول الله ؟ فمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده فقال : « تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وتصلي الصلوات الخمس لوقتها ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان وتحج البيت وتجاهد في سبيل الله » .. قلت يارسول الله : كلاً نطيق إلا اثنتين فلا أطيقهما : الزكاة ، والله مالي إلا عشر زَوْدٌ[٢] ، هن رُسُل[٣] . أهلي

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان ومسلم والترمذي والنسائي.

(٢) الزود : القطيع من الإبل من الثلاث إلى التسع وقيل ما بين الثلاث إلى العشر وقيل ما بين الثنتين والتسع ، ولا يكون إلا من الإناث دون الذكور . لسان العرب .

(٣) رسْل – أي يسعون عليها ويركبونها .

وحمولتهن ، وأما الجهاد فإنى رجل جبان ، ويزعمون أنه من ولّى فقد باء بغضب من الله ، وأخاف إن حضر القتال أن أخشع بنفسى فأفرّ فأبوء بغضب من الله ، فقبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده ثم حركها ثم قال : يا بشير ، لا صدقة ، ولا جهاد !! فبم إذن تدخل الجنة ؟! قلت : يارسول الله ، ابسط يدك أبايعك ، فبسط يده فبايعته عليهن كلهن . كذا فى كنز العمال ١٢/٦ وأخرجه أحمد ، ورجاله موثقون كما قال الهيتمي ٤٢/١ [(١)] ..

ثالثا :بيعة ثوبان علي أن لا يسأل أحداً شيئا :

وأخرج الطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ومن يبايع ؟ » فقال ثوبان رضى الله تعالى عنه مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بايعنا رسول الله قال : « على أن لا تسأل أحداً شيئاً » فقال ثوبان : فما له يا رسول الله ؟ قال : « الجنة » فبايعه ثوبان .

قال أبو أمامة : فلقد رأيته بمكة فى أجمع ما يكون من الناس يسقط سوطه وهو راكب ، فربما وقع على عاتق رجل ، فيأخذه الرجل فيناوله ، فما يأخذه حتى يكون هو ينزل فيأخذه ، وأخرجه أيضاً أحمد والنسائى وغيرهما عن ثوبان مختصراً ، وذكر قصة الثوب عن أبى بكر رضى الله تعالى عنه كما فى الترغيب والترهيب ٩٩/٢ ، ١٠٠ .

وقد روى أحاديث كثيرة فى هذا المعنى العلامة محمد بن يوسف الكاندهلوى فى « حياة الصحابة » فمن أراد الاستزادة فليرجع إلى

---

(١) حياة الصحابة للكاندهلوى ١٩٣/١ .

جـ١/١٩٤ ، ١٩٥ ..

كما روى أحاديث فى البيعة على الهجرة ، والبيعة على النصرة ، والبيعة علىٰ الجهاد ، والبيعة على الموت . جـ ١/١٩٥ ، ٢٠٠ ..

رابعاً : البيعة على السمع والطاعة والمحبة :

أخرج البيهقى عن عبيد بن رافع رضى الله تعالى عنه قال : قدمت روايـا[١] . خمر فأتاها عباده بن الصامت رضى الله تعالى عنه فخرّقها وقال : إنا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، والنفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى أن نقول فى الله ، ما لا تأخذنا فيه لومة لائم ، وعلى أن ننصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قدم علينا يثرب مما نمنع منه أنفسنا وأزواجنا وأبناءنا ولنـا الجنة ، فهذه بيعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التى بايعناه عليها.. وهذا إسناد جيد قوى ولم يخرجوه.

وأخرج البغوى ، وأبو نعيم ، وابن عساكر عن عتبة بن عبد رضى الله تعالى عنه قال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبع بيعات: خمس على الطاعة واثنتين على المحبة . كذا فى كنز العمال ١/٨٣ .

وأخرج البخارى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : كنا إذا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على السمع والطاعة يقول لنـا : فيما استطعت[٢] .

---

(١) روايا : جمع راوية وهى المزادة فيها الماء .
(٢) حياة الصحابة ١/٢٠٠ ، ٢٠١

خامساً : بيعة النساء :

أما بيعة النساء فقد ذكرها الله تعالى فى القرآن الكريم فى سورة الممتحنة آية رقم ١٢ ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبايع النساء على أعمال الإسلام من غير أن يصافحهن فقد روى مسلم فى صحيحه عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت : « والله ما أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على النساء قط إلا بما أمر الله تعالى وما مست كف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كف امرأة قط وكان يقول لهن إذا أخذ عليهن : قد بايعتكن كلامًا » .

وأخرج أحمد وأبو يعلى والطبرانى ـ ورجاله ثقاة ـ كما قال الهيتمى ٣٨/٦ : عن أم عطية رضى الله تعالى عنها ، قالت : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة جمع نساء الأنصار فى بيت ، ثم أرسل إليهن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فقام على الباب ، فسلم عليهن فرددن السلام ، فقال : أنا رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم إليكن فقلنا : مرحباً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبرسول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: تبايعن على أن لا تشركن بالله شيئاً ، ولا تسرقن ولا تزنين ، ولا تقتلن أولادكن، ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن ، ولا تعصين فى معروف. قلن: نعم، فمد عمر يده من خارج الباب ، ومددن أيديهن من داخل ثم قال : اللهم اشهد ، وأمرنا أن نُخرج فى العيدين الحُيَّض والعُتَق[1] . ونُهينا عن اتباع الجنائز، ولا جمعة علينا، فسألته عن البهتان وعن قوله «ولا يعصينك فى معروف » قال: هى النياحة

---

(١) العُتَق : جمع عاتق وهى البنت إذا بلغت .

ورواه أبو داود باختصار كثير. كذا في مجمع الزوائد ٦/٣٨ .

وأخرج مالك وصححه ابن حبان عن أميمة بنت رقيقة قالت : أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في نسوة يبايعنه ، فقلنا نبايعك يارسول الله ، على أن لا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزني ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيك في معروف .. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : فيما استطعتن وأطقتن ، فقلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا . هلم نبايعك يا رسول الله ، قال : (إني لا أصافح النساء ، إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة) وأخرجه الترمذي وغيره مختصرا كما في الإصابة ٤/٢٤٠ .

سادسا : بيعة من لم يحتلم :

وأما بيعة الصغار دون البلوغ فقد أخرج الطبراني عن محمد بن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهم .. أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بايع الحسن والحسين وعبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر وهم صغار ولم يبقلوا ولم يبلغوا ولم يبايع صغيرا إلا منا . قال الهيثمي : وهو مرسل ورجاله ثقات ومعنى لم يبقلوا ـ أي لم تنبت لحاهم في وجوههم ..

وأخرج الطبراني أيضاً عن عبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر رضي الله تعالى عنهم أنهما بايعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهما ابنا سبع سنين فلما رآهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تبسم ، وبسط يده ، فبايعهما .. قال الهيثمي الحافظ : وفيه إسماعيل بن عياش ، وفيه خلاف ، وبقية رجاله رجال الصحيح . مجمع الزوائد ٩/٢٨٥ .

سابعاً : بيعة عامة لجميع الطوائف يوم الفتح :

قد ورد حديث جامع لكل ما مضى ذكره .. وهو ما رواه الإمام أحمد والطبرانى فى الكبير والحاكم فى المستدرك عن محمد بن الأسود أن أباه الأسود رضى الله تعالى عنه رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبايع الناس يوم الفتح ، قال : جلس عند قَرْن مستقبله – يعنى جبلاً صغيراً ، فبايع الناس على الإسلام والشهادة ، قال : قلت وما الشهادة ؟ قال أخبرنى محمد بن الأسود بن خلف أنه بايعهم على الإيمان بالله وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فجاء الناس الكبار والصغار والرجال والنساء فبايعهم على الإسلام والشهادة [(١)] .

الخلاصة :

والحاصل من هذه الأدلة المعروضة من الكتاب والسنة أن بيعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت عامة شاملة ، لا يحرم منها من أرادها من المسلمين ، صغاراً وكباراً ، رجالا ونساءً وهذا ما استدل به السادة الصوفية على فتحهم باب البيعة لجميع المسلمين امتداداً للبيعة النبوية .

وقد ذكر العلامة الهندى الشيخ محمد بن زكريا الكاندهلوى نقلاً عن العلامة التهانوى رحمه الله تعالى فى كتابه « التكشف » أنه قال : « إن البيعة المعمول بها عند السادة الصوفية حاصلها أنها معاهدة للالتزام بالأحكام ، والاهتمام بالأعمال الظاهرة والباطنة ويقال لها فى عرفهم « بيعة الطريقة » .. ويقول عنها بعض أهل الظاهر إنها بدعة، بناء على

---

(١) المسند ١٦٨/٤ ، المعجم الكبير ٢٨٠/١ ، المستدرك ٣٣٥/٣ ، البداية ٣١٨/٤ .

أنها لم تثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم ، فالثابت أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يبايع الكفار على الإسلام ، ويبايع المسلمين على الجهاد فقط . ولكن في هذه الأحاديث التي مرت إثبات صريح على أن المخاطبين كانوا من الصحابة رضي الله تعالى عنهم فليست إذن هذه بيعة الإسلام قطعاً ، إذ يلزم بذلك تحصيل الحاصل . ويظهر من ألفاظ البيعة أنها ليست ببيعة الجهاد فقط ، بل علم بدلالة الألفاظ أنها للالتزام والاهتمام بالأعمال ، فثبت بذلك المقصود .

وهذه هي بيعة الطريقة الرائجة عند السادة الصوفية ، فثبت أن إنكار هذه البيعة جهل [١].

ومن ثم فقد نهج الورّاث المحمديون من مرشدي الصوفية منهج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أخذ البيعة في كل عصر ومصر ..

فقد ذكر العلامة أبو الحسن الندوي رحمه الله تعالى في كتابه ، رجال الفكر والدعوة في الإسلام ، : ، أن الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى .. فتح باب البيعة والتوبة على مصراعيه ، يدخل فيه المسلمون من كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي ، يجدّدون العهد والميثاق مع الله تعالى ويعاهدون على ألا يشركوا بالله شيئاً ، ولا يكفروا ، ولا يفسقوا ، ولا يبتدعوا ، ولا يظلموا ، ولا يستحلوا ما حرم الله ، ولا يتركوا ما فرض الله ، ولا يتفانوا في الدنيا ، ولا يتناسوا الآخرة ، وقد دخل في هذا الباب ـ وقد فتحه الله على يد الشيخ عبد القادر الجيلاني ـ خلق لا يحصيهم إلا الله تعالى ، وصلحت أحوالهم ، وحسن إسلامهم ، وظل الشيخ يربيهم

---

(١) الشريعة والطريقة ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

ويحاسبهم ، ويشرف عليهم ، وعلى تقدمهم ، فأصبح هؤلاء التلاميذ الروحيون يشعرون بالمسئولية بعد البيعة والتوبة وتجديد الإيمان »[١] .

فكان لهذه المعاهدات والبيعات من الأثر فى التزكية والإصلاح الفردى والجماعى أقوى شأن وأوفر نصيب ..

حكم العهد والبيعة :

قال الإمام الدهلوى فى كتابه « القول الجميل » : « إن البيعة سنة وليست بواجبة » ؛ لأن الناس بايعوا النبى صلى الله عليه وآله وسلم وتقربوا بها إلى الله عز وجل ولم يدل دليل على تأثيم تاركها ، ولم ينكر أحد من الأئمة على تاركها ، فكان كالإجماع على أنها ليست بواجبة [٢] .

فالبيعة سنة حميدة من سنن الإسلام ؛ لأن فيها التزام قربة دينية لا ينبغى إنكارها ؛ لأن لها أصلا فى الشرع من فعله صلى الله عليه وآله وسلم وفعل أصحابه فرادى وجماعات ، صغاراً وكباراً ، ذكوراً وإناثاً كما مر ذكره ، فكيف يسوغ لمسلم أن ينكر على فعله صلى الله عليه وآله وسلم وفعل أصحابه من بعده والسلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم .. ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٣] .

الالتزام بالعهد :

إذا عاهد المريد الشيخ على الالتزام بنوع خاص من الطاعة يصبح

---

(١) رجال الفكر والدعوة فى الإسلام ص ٢٤٨ .

(٢) الشريعة والطريقة ص ١٢١.

(٣) النور : ٦٣ .

ملزماً بالوفاء والالتزام به ، وقد مرّ ذكر حديث عوف بن مالك رضى الله تعالى عنه ورأينا كيف كان بعض الصحابة الذين عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يسألون الناس شيئاً حتى إنه يسقط من أحدهم السوط فلا يسأل أحداً أن يناوله له ، مع أنه لا حرمة ولا كراهة فى مناولة السوط علماً بأن ظاهر الحديث يفهم منه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنما منعهم من طلب المال وما شابهه ، مما يطلب عادة من الغير ، لا مثل هذه الأمور التافهة اليسيرة ، التى قد يطلبها الإنسان من ابنه . أو صاحبه ، ولكن القوم لا يتأولون ، ولا يترخصون ، معرفة منهم بما يعنيه العهد ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ « الإسراء : ٣٤ » .. كما قال عز من قائل ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ﴾ « النحل : ٩١ » .. وقال سبحانه فى جزاء الوفاء ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ « الفتح : ١٠» ، ويتأسس على هذا أن المريد إذا عاهد الشيخ على عدم الكذب أو قراءة جزء من القرآن الكريم كل يوم مثلاً ، يصبح هذا التعهد ملزماً للمعاهد بالوفاء من حيث إنه عهد ، لا من حيث حكمه الشرعى بالوجوب أو الحرمة ، فإن الحكم الشرعى يرجع إلى الفعل فى حدّ ذاته ، فالكذب رذيلة محرمة على كل مسلم ، ومن كذب وجب عليه أن يستغفر الله تعالى ويتوب إليه فى الحال ، ويصلح ما أحدثه كذبه من ضرر ، ولكن شتان بين من يعاهد الله على ألا يكذب ، وبين من يعرف أن الكذب حرام ويوجب التوبة [١] .

---

(١) يراجع : الحجة للقطعانى ص ١٦٧ وما بعدها ، وأصول الأصول الرشيد للشيخ عبد الرشيد صديق ص ١١٥ .

التلقين ومدى مشروعيته :

إن التلقين هو تعليم الشيخ للمريد كيفية الذكر نطقاً وبدءاً ، والأصل فيه تلقين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لصحابته رضى الله تعالى عنهم جميعاً جماعة وأفراداً .

التلقين الجماعي :

عن يعلى بن شداد بن أوس قال : حدثنى أبى شداد بن أوس وعبادة ابن الصامت حاضر يصدقه قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : هل فيكم غريب ؟ فقلنا : لا يا رسول الله ، فأمر بغلق الباب ، فقال : ارفعوا أيديكم وقولوا : لا إله إلا الله ، فرفعنا أيدينا وقلنا : لا إله إلا الله ، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم : الحمد لله.. اللهم إنك بعثتنى بهذه الكلمة ، وأمرتنى بها ، ووعدتنى عليها الجنة ، وإنك لا تخلف الميعاد ، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم : أبشروا فإن الله قد غفر لكم ،، والمراد بالغريب هنا من كان من أهل الكتاب .

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد فى المسند ، وقال الهيثمى : رجاله موثقون كما فى مجمع الزوائد ١٩/١ ورواه أيضاً الطبرانى والبزار بإسناد حسن .

والآن أيها المنكر للتلقين ترى ألم يكن أولئك الصحابة الكرام يعرفون معنى كلمة ، لا إله إلا الله ، أو النطق بها ، أم أنهم قدموا من بلاد أعجمية فلا يستطيعون النطق بها فاحتاجوا لمن يعلمهم أم أنه التلقين وطريقة الذكر.

وروى أبو داود فى سننه والترمذى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن

جده أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يعلمهم من الفزع كلمات : (أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون) قال الترمذى : حديث حسن ..

قال الإمام النووى : وكان عبد الله بن عمرو رضى الله تعالى عنهما يعلمهن من عقل من بنيه ، ومن لم يعقل كتبه فعلقه عليه [١].

التلقين الإفــرادى :

أما التلقين الإفرادى فهو كثير نورد بعض أدلته :

منها ما رواه النسائي وابن السنى عن عبد الله بن جعفر عن على رضى الله تعالى عنهم قال : « لقننى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هؤلاء الكلمات ، وأمرنى إن نزل بى كرب أو شدة أن أقول : لا إله إلا الله الكريم العظيم سبحانه تبارك الله رب العرش العظيم الحمد لله رب العالمين »

وكان عبد الله بن جعفر يلقنها وينفث بها على الموعوك ، ويعلمها المغتربة من بناته .

قال الإمام النووى : الموعوك : المحموم ، وقيل : هو الذى أصابه مغث الحمى ، والمغتربة من النساء التى تزوج من غير أقاربها .

ومنها ما رواه أبو داود فى سننه وابن ماجه عن أسماء بنت عميس رضى الله تعالى عنها قالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ألا أعلمك كلمات تقولهن عند الكرب أو فى الكرب (الله الله ربى لا أشرك به شيئاً) [٢].

---

(١) الأذكار للإمام النووى ص ١٦٩ .

(٢) الأذكار للإمام النووى ص ١٦٧ ، ١٦٨

وروى ابن السنى فى عمل اليوم والليلة عن على رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا على ألا أعلمك كلمات إذا وقعت فى ورطة قلتها ؟ قلت : بلى ، جعلنى الله فداءك ، قال : إذا وقعت فى ورطة فقل : بسم الله الرحمن الرحيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، فإن الله تعالى يصرف بها ما يشاء من أنواع البلاء ..

قال الإمام النووى : الورطة هى الهلاك [١] ..

ومنها هذا الحديث العظيم الذى يدل دلالة واضحة لا لبس فيها ولا غموض على أهمية التلقين وكيفية أداء الذكر بالطريقة الصحيحة .. فقد روى الطبرانى والبزار والسيوطى بأسانيد حسنة عن الإمام على كرم الله وجهه أنه سأل النبى صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : « يا رسول الله دلنى على أقرب الطرق إلى الله وأسهلها على عباده ، وأفضلها عنده تعالى ، فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : (عليك بمداومة ذكر الله سراً وجهراً) فقال على رضى الله تعالى عنه كل الناس ذاكرون فخصّنى بشىء فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله ، ولو أن السموات والأرضين فى كفة ، ولا إله إلا الله فى كفة ، لرجحت بهم ، ولا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول : لا إله إلا الله.. ثم قال على : فكيف أذكر؟ قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم غمض عينيك واسمع منى « لا إله إلا الله » ثلاث مرات ، ثم قلها « ثلاثا » وأنا أسمع ثم فعل ذلك برفع الصوت » .

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٠ .

تناقـل الإذن :

قد تبين لنا من هذه الأحاديث الماضية مدى شرعية التلقين وأنه منذ عهد رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم إلى يومنا هذا تناقل هذا الإذن والتلقين والعهد رجال عن رجال ، فوصل إلينا محققاً مسلسلاً مسجلاً ، والصوفية يسمون البيعة والإذن والتلقين باسم « القبضة » يتلقاها واحد عن واحد ، يقبض كل منهما يد الآخر ، فكأنما التقى السالب بالموجب ، فارتبط التيار واتصل السند ، ونفذ التأثير الروحي المحسوس المجرب .

وما هؤلاء المرشدون المجددون على توالى العصور والأزمان الذين يربطون قلوب الناس بهم حتى يوصلوها بنور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا كالمراكز الكهربائية التى توضع فى الأماكن البعيدة عن المولد الكهربائى فتأخذ النور من مركز التوليد لتعطيه لمن حولها قوياً وهاجًا ، فهذه المراكز ليست مصدر النور ولكنها موزِّعة له وناقلة ، ولكن لبعد المسافة يضعف نور الشريط المتصل بالمولد ، فاحتاج الأمر إلى هذه المراكز التى تعيد لهذا النور قوته وحيويته .

وهكذا ، فإن المرشدين يجددون النشاط الإيمانى فى عصرهم ، ويعيدون النور المحمدى إلى ضيائه وبريقه بعد تطاول الزمن وتعاقب القرون وهذا سر قوله صلى الله عليه وآله وسلم: ...وإن العلماء ورثة الأنبياء .. رواه الترمذى وغيره من حديث أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه .

والتجربة العملية هى الدليل الأكبر على ما يثمره أخذ العهد من نتائج طيبة وآثار حميدة ، ولهذا اعتصم به السلف الصالح وورثه عنهم صالحو الخلف ، وسار عليه جمهور الأمة ممن وفق الله

تعالـــى[١] .

القول الصائب في انتفاع المريد بالشيخ الغائب :

يعترض المنكرون على التصوف بقولهم : كيف ينتفع المريد بالشيخ وهو غائب عنه وكيف يتخيله فى ذهنه وفكره وهو ليس موجوداً معه ويعدون ذلك من باب الشرك .

ولكن العلماء يقولون : الحكم على الشيء فرع عن تصوره ، فلنذكر ما قاله أهل العلم بهذا الفن حتى يتبين الحق واضحاً لا لبس فيه ولا غموض ..

إن في استحضار خيال الشيخ بين عينى سراً لطيفاً يدركه الذين قاسوا المجاهدة وتهذيب النفوس وقطعها عن الباطل .

فإن المريد إذا وضع خيال الشيخ بين عينيه كلما هم بمعصية الله تعالى استحيا من شيخه ، ثم ومع الترقى فى مقامات المعرفة يعرف سذاجة حيائه من شيخه دون الحياء من الله تعالى ، فيراقب الحق سبحانه وتعالى .

وقد روى أن علقمة بن علاثة قال يارسول الله عظنى .. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (استح من الله تعالى استحياءك من ذى الهيبة من قومك) .. وفى رواية (كما تستحى من رجل من صالح عشيرتك) [٢] ..

---

(١) يراجع حقائق عن التصوف ص ٧٢ .

(٢) هذا الحديث ذكره الحافظ ابن حجر فى الإصابة فى تمييز الصحابة جـ٢/٥٠ ترجمة رقم ٣٢٩٢ وجـ٢/٢٤٢ ترجمة رقم ٤٣٩٧ ، وذكره أبو الحسن الماوردى فى كتاب أدب الدنيا والدين ص١٨٢ ، والحافظ ابن رجب فى جامع العلوم والحكم ص ١٧٥ .

ومعنى الحديث أن الإنسان فى حضرة الرجال الذين يجلهم ويحرص على استرضائهم يضبط سلوكه ضبطاً محكماً ، فيتكلم بقدر ، ويتصرف بحذر ، والمسلم الذى يعرف من تعاليم دينه أنه لا يغيب عن الله أبداً ؛ لأنه ماثل فى حضرته ليلاً ونهاراً ، ينبغى أن يكون تهيبه لجلال الله أعظم ، وتأدبه بشرائع الله أحكم [١].

وقال الشيخ ابن القيم رحمه الله تعالى وكان بعض الأنصار من أقارب عبد الله بن رواحة يقول : اللهم إنى أعوذ بك من عمل أخزى به عند عبد الله بن رواحة ، كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبد الله .

ذكر ذلك الشيخ فى معرض كلامه عن عرض الأعمال على الأموات ومعرفة الأموات زيارة الأحياء لهم وسماع سلامهم [٢].

ويقول الشيخ محمد زكى إبراهيم رداً على سؤال وجه إليه فى اشتراط تخيل المريد شيخه بين عينيه عند الذكر : إن المراد الأساسى من هذا هو اجتماع الهمة وطرد الشواغل ، وتفريغ القلب لحسن التوجه ، والاستعداد للاستمداد ، فهو وسيلة ـ مؤقتة ـ للتجهيز لدخول حضرة الحق .. فإذا ما انحصرت الطاقة فى تصور الشيخ والنبى صلى الله عليه وآله وسلم وهما يدفعان المريد إلى الله تعالى ويهيئانه للعمل ، ثم إذا أخذ المريد فى الذكر ، كان أول ما يطرح عن المريد هو هذا الخيال الفانى ، فلم يبق إلا الله الباقى.

ويقول الشيخ صالح الجعفرى رضى الله تعالى عنه فى هذا المعنى [١] .

---

(١) خلق المسلم للشيخ الغزالى ص ١٧٩ .

(٢) الـــروح ص ٨ .

(٣) الإلهام النافع على رسالة القواعد.

فبابك للمختـــــار شيخـك يا فتى

به الوصل للمختارفى حضرة القرب

وبالسيـد المختار ترقى إلى العـلا

ويدنيك من رب الوجود بلا حجـب

هذا هو أصل الموضوع عندهم ..

وتخيل صورة الشيخ ليست شرطاً ، ولكنها من الوسائل الاجتهادية والتجريبية النافلة ، ولهذا لم يقل بها كثير من الشيوخ ، اكتفاء بالصدق فى المحبة والرابطة بين المريد وشيخه ونبيه صلى الله عليه وآله وسلم حتى كأنه بينهما ، وفى هذا الموضوع بحوث نفيسة عميقة .

وإذا عرفنا أن هذه الحالة ـ عندهم ـ إنما تكون قبيل البدء فى التعبد ، ولمدة لحظات فقط، ثم يكون الذكر الذى يستغرق كل أحاسيس الذاكر .. ثم إن تخيل النبى صلى الله عليه وآله وسلم والشيخ عند الذكر أشبه بما يخطر على بال المصلى من أخيلة الجنة والنار ، والإنس والجن ، وأهوال المحشر وعظمة الله تعالى وهذه صور لا تبطل الصلاة ، ولا تتهم بالوثنية فالموقف هنا وهنا واحد ، وبالتالى يكون الحكم واحداً ، فقد انتفت دعوى الوثنية ، التى يُرمى بها الصوفية أو بعضهم ، فى هذا المجال تهوراً ومجازفة[1] .

وأما تعلق روحانية الشيخ بروحانية المريد فقد ذكر الصوفية أن هذا لا يصدر على جهة الاستقلال ، بل هو بإقدار الله تعالى وإمداده وإيجاده .

قال الشيخ ابن عطاء الله السكندرى : « سبحان من لم يجعل الدليل

(١) أبجدية التصوف ص ٥٢ ، ٥٣ .

على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصل إليهم إلا من أراد الوصول إليه فإذا ما تعلقت روح المريد بروح الشيخ فإنه يحدث بينهما من الألفة والمودة ما لا يدخل تحت القياس[١] .

قال الشيخ ابن القيم : « وقد تتناسب الروحان وتشتد علاقة إحداهما بالأخرى فيشعر كل منهما ببعض ما يحدث لصاحبه وإن لم يشعر بما يحدث لغيره لشدة العلاقة بينهما ، وقد شاهد الناس من ذلك عجائب[٢] .

بيان مشروعية التبرك بالأنبياء والأولياء الصالحين :

حينما نعمد إلى مناقشة قضية التبرك نجد فداحة جرم خصوم التصوف فى رميهم للصوفية بالشرك ، وعبادة الجبت والطاغوت لاحدود لها ، فإن أمر التبرك فى جوهره لا يخرج عن التماس البركة .. وهى كثرةالخير والنفع . ممن جعلها الله تعالى فيه ، أو مما وضعت فيه بتقدير الله تعالى وتأثيره على التوحد والانفراد ..

والحكم على الشيء فرع عن تصوره فلنبدأ ببيان معنى التبرك ثم ببيان مواضعه من القرآن والسنة والآثار .

معني التبرك في اللغة :

التبرك : مصدر تبرك يتبرك تبركاً ، وهو طلب البركة ، جاء فى بعض كتب اللغة : تبركت به أى تيمنت به واليمن : البركة ، وقد يمن فلان على قومه فهو ميمون إذا صار مباركاً عليهم ، وتيمنت به تبركت[٣] .

---

(١) الحجة ص ٢١٨ .   (٢) الـروح ص ٣٢ .

(٣) الصحاح للجوهرى وينظر لسان العرب لابن منظور والقاموس المحيط .

وقال ابن الأثير : وقد تكرر ذكر اليُمْن فى الحديث وهو البركة وضده الشؤم[1] .

وأصل البركة فى اللغة العربية الثبوت والدوام ، جاء فى كتاب معجم مقاييس اللغة : « برك ، الباء والراء والكاف أصل واحد وهو ثبات الشيء[2] .

وقال الراغب الأصفهانى : « برك البعير ألقى ركبه ، واعتبر منه معنى اللزوم فقيل: ابتركوا فى الحرب أى اثبتوا ولازموا مواضع الحرب.. ثم قال : البركة ثبوت الخير الإلهى فى الشيء قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، الأعراف: ٦٩ ، .. وسمى بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء فى البِرْكة ، والمبارك ما فيه ذلك الخير[3] .. وهذا هو المعنى الأول للبركة .

والمعنى الثانى للبركة : أنها تطلق على النماء والزيادة ..

جاء فى كتاب جمهرة اللغة لابن دريد : يقال : لا بارك الله فيه أى لا نمَّاه ، .وفى معجم مقاييس اللغة ، وقال الخليل : البركة من الزيادة والنماء .

وقد وردت هذه اللفظة فى القرآن الكريم بتصاريفها فى أربعة وثلاثين موضعاً على ثمانى صيغ هى : « بارك - باركنا - بورك - تبارك - بركات - بركاته - مباركة - مبارك » وهى كلها تدور حول هذين المعنيين .

---

(١) النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير .

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١/ ٢٢٧ ، ٢٢٨.

(٣) المفردات للراغب الأصفهانى ص ١١٩ .

أما فى الحديث الشريف فقد وردت لفظة البركة وما تصرف منها فى مواضع كثيرة ، ما يقارب مائة وثلاثين مرة بصيغ متعددة منها :

برّك، أى دعا بالبركة، ومنها : بارك ، وبورك ، ويبارك ، ومبارك ، ومباركة ، وتبارك ، وتباركت ، والبركة .

وهى كلها تدور حول المعنيين الواردين فى القرآن الكريم كما سبق ، ومن شواهد الحديث الشريف على أنه يقصد بالبركة : كثرة الخير قصة السيدة جويرية بنت الحارث بن المصطلق أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها حين أعتق الصحابة سباياهم من بنى المصطلق لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بها، وقد قالت السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها ، فما رأينا امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها ، أعتق فى سببها مائة أهل بيت من بنى المصطلق »[١].

التبرك بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم :

لا يشك مسلم فى أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الأنبياء والمرسلين وسيد ولد آدم أجمعين .. وأكرم الأولين والآخرين ورحمة الله للعالمين .

ذلك بأن الله تعالى اختاره من بين سائر خلقه واصطفاه من البشر كلهم ليكون أفضل أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام وهذا فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ..

---

(١) سنن أبى داود مع بذل المجهود فى حل سنن أبى داود للسهارنفورى ٦٦/١٦ ومسند الإمام أحمد ٢٧٧/٦ .

ومن فضائله صلى الله عليه وآله وسلم بركاته الكثيرة المتنوعة ، فمما لا شك فيه أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم مبارك فى ذاته وآثاره ولهذا فإن صحابته صلى الله عليه وآله وسلم ورضى الله تعالى عنهم تبركوا بذاته صلى الله عليه وآله وسلم وبآثاره الحسية المنفصلة عنه صلى الله عليه وآله وسلم فى حياتهم وأقرهم صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك ولم ينكر عليهم ، ثم جاء التابعون من سلف الأمة وتبركوا بها بعد وفاته ، وهذا ما يدل على مشروعية التبرك بالإجماع السكوتى وينبغى أن يعلم أنه لا يصاحب هذا التبرك من جهة الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح شيء يعارض أو يناقض توحيد الله تعالى ، وإن هذا ليس من باب الغلو المذموم ، وإلا لنبه على ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صحابته فينظر إذاً إلى هذا على أنه تكريم وتشريف من الخالق جل وعلا .. لصفوة خلقه صلى الله عليه وآله وسلم فى بدنه وما ينفصل عنه من آثاره الحسية ، حيث وضع الله تعالى فى ذلك الخير كله والبركة[١] .

تبرك الصحابة بذاته صلى الله عليه وآله وسلم وآثاره في حياته :

هناك نماذج نقلت إلينا نقلاً صحيحاً من الأخبار والآثار من تبرك جماعة من الصحابة رضى الله تعالى عنهم بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أثناء حياته بذاته الشريفة وبآثاره المباركة .

روى البخارى ومسلم عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه أنه قال

---

(١) ينظر : التبرك والبركة فى الشريعة الإسلامية .. تأليف الأستاذ / ظاهر فياض جاسم ، ط / دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ص ٥١ ، ٥٢ سنة ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م .

« كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا صلى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء ، فما يؤتى بإناء إلا غمس يده فيها ، فربما جاءوا فى الغداة الباردة فيغمس يده فيها »..

وفي الصحيحين عن أبى جحيفة رضى الله تعالى عنه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالهاجرة إلى البطحاء فتوضأ ثم صلى الظهر ركعتين ، والعصر ركعتين ، وفيه قام الناس يأخذون بيده فيمسحون بها وجوههم ، قال فأخذت بيده ووضعتها على وجهى ، وإذا هى أبرد من الثلج وأطيب رائحة من المسك ..

وهناك آثار في الصحيحين وغيرهما تبين تبرك الصحابة بشعره صلى الله عليه وآله وسلم وحب اقتنائه عندهم ، وكذلك التبرك بريقه ونخامته صلى الله عليه وآله وسلم وعرقه الشريف ودمه الطاهر ، وأظفاره المباركة ، وثيابه العطرة ، وبما لمسه صلى الله عليه وآله وسلم بيده الشريفة، والمكان الذى صلى فيه صلى الله عليه وآله وسلم وبفضل شربه وطعامه وأوانيه وبفضل وضوئه صلى الله عليه وآله وسلم ومن أراد الاستزادة فعليه بالرجوع إلى دواوين السنة ففيها التفصيل الكثير فى ذلك .. والحق أحق أن يتبع ..

التبرك بآثار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته :

قد يقول المعترض إن هذا التبرك جائز فى حال حياته فقط ، أما بعد وفاته فلا يصح ولا يجوز .

وهذا قول بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير؛ فقد ثبت أن الصحابة

رضى الله تعالى عنهم تبركوا بآثاره صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته وكذلك التابعون.. وقد عقد البخارى بابا بعنوان « باب ما ذكر من درع النبى صلى الله عليه وآله وسلم وعصاه وسيفه وقدحه وخاتمه . وما استعمل الخلفاء بعده من ذلك مما لم يذكر قسمته ، ومن شعره ونعله وآنيته مما تبرك به أصحابه وغيرهم بعد وفاته ثم ساق البخارى رحمه الله تعالى جملة من أحاديث هذا الباب ..وذلك فى الجزء الرابع ص ٦٤ وما بعدها فراجعها هناك ..

وجاء فى صحيح مسلم أن أسماء بنت أبى بكر رضى الله تعالى عنهما أنها أخرجت جبة طيالسة – أى سوداء – وقالت : « هذه كانت عند عائشة حتى قبضت ، فلما قبضت قبضتها ، وكان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يلبسها ، فنحن نغسلها للمرضى يستشفى بها » جـ ١٦٤١/٣. ويكفى هذا الدليل ..

ومن الأدلة الواضحة على جواز التبرك ماجاء فى كتاب « البداية والنهاية » لابن كثير فيما يخص بردة النبى صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال : الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى « وقد توارث بنو العباس هذه البردة خلفاً عن سلف وكان الخليفة يلبسها يوم العيد على كتفيه ، ويأخذ القضيب المنسوب إليه صلوات الله وسلامه عليه فى إحدى يديه ، فيخرج وعليه من السكينة والوقار ما يصدع به القلوب ويبهر به الأبصار »[1].

وعلى أى حال فإن التبرك الأسمى والأعلى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو اتباع ما أُثر عنه من قول أو فعل أو وصف مع السير على

---

(١) البداية والنهاية : ٨/٦ ط مكتبة المعارف – بيروت ١٩٧٧م.

منهاجه ظاهراً وباطناً يقول الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى : كان أهل المدينة لما قدم عليهم النبى صلى الله عليه وآله وسلم يعيشون فى بركته لما آمنوا به وأطاعوه ، فببركة ذلك حصل لهم سعادة الدنيا والآخرة ، بل كل مؤمن آمن بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأطاعه حصل له من بركة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بسبب إيمانه وطاعته من خير الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله تعالى »[1].

ما ورد في القرآن الكريم من مشروعية التبرك بالآثار :

وقد أثبت القرآن الكريم بركة للذوات ــ أى الأشخاص الفاضلة ــ وبركة للآثار التابعة للذوات الكريمة ، وبركة للأماكن والبقاع التى خصها الله تعالى بمزيد من الخيرية .

فيشهد للنوع الأول قوله تعالى ــ حكاية عن سيدنا عيسى عليه السلام : ﴿ وجعلني مباركًا أين ما كنت ﴾ « مريم : ٣١ » وقوله تعالى : ﴿ رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ « هود : ٧٣ » .

ويشهد للنوع الثانى قوله تعالى : ﴿ وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ﴾ « البقرة : ٢٤٨ » .وقد فسر الإمام البيضاوى هذه البقية بأنها : « رضاض الألواح وعصا موسى وثيابه وعمامة هارون » وقيل كان فيه قفيز من المن الذى كان ينزل عليهم .. وقال فى تفسير « تحمله الملائكة » قيل رفعها الله بعد موسى فنزلت به الملائكة وهم ينظرون إليه .

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١١/١١٣ ط / أولى دون تاريخ .

فانظر كيف كان تعظيم الله لهذه الأشياء جعل الملائكة تحملها . وفيها نعلا موسى عليه السلام المباركتان ، وعصاه ، وعمامة هارون عليه السلام فما أعظم عناية الله بهذه الأشياء .

أولا : بالحفظ لها زمان موسى عليه السلام إلى زمان داود عليه السلام وهى مدة طويلة .

ثانيا : بحمل الملائكة لها لكونها من آثار هذين العبدين الصالحين .

فما أبرك هذا النعل وسائر ما حواه الصندوق من بقية ملبوسهم ومأكولهم تحمله الملائكة بأمر الله تعالى . وما أعظم هذا التشريف من الله لآثارهم وقد جعلها الله آية لمن يؤمن ، بخلاف من لا يؤمن فإنه محجور عن رؤية آيات الله تعالى . محروم عن معْرفة بركتها وشرفها مادة ومعنى ولذلك قال الله تعالى فى ختام الآية ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾. فشرط الإيمان لمعرفة آياته فتح الله أقفال قلوبنا لفهم ما يريده منا ..

كما يشهد للتبرك بالآثار في القرآن الكريم قوله تعالى – فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً ﴾ إلخ الآيات المذكورة فى القصة من ٩٣ إلى ٩٦ ..

فانظر كيف أمر سيدنا يوسف عليه السلام إخوته بإلقاء أثره المبارك وهو القميص على وجه أبيه يعقوب عليه السلام الذى ابيضت عيناه من الحزن ، فلما ألقاه على وجهه ارتد بصيراً ، ولم يرم أحد سيدنا يوسف ولاسيدنا يعقوب عليهما السلام بالإشراك ولا بعبادة القميص واتخاذه وثناً.

فيا قوم تدبروا كتاب الله ترشدوا ولا تضلوا بأهوائكم ..

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ « البقرة : ١٢٥ » .

فقد أمرنا الله تعالى : أن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى نصلى فيه ، والحكمة فى ذلك إنما هو التماس البركة فى آثار قدمه الشريفة والموضع الذى كان فيه الحجر حين وضع عليه قدميه عند بناء الكعبة ، وحين قام عليه يؤذن فى الناس بالحج ويقول « يا أيها الناس أجيبوا ربكم » صححه الحافظ فى فتح البارى من رواية الفاكهى بإسناد صحيح عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما .

وقد عظم الله تعالى هذا المقام وجعله من آياته البينات فقال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ « آل عمران : ٩٦ » ..

فجعل أثر العبد الصالح من آياته البينات ، وكذلك سائر آثار عباد الله الصالحين فلم تزل معظمة من قديم الزمان فى سالف الأمم .

والصلاة والعبادة فى آثارهم لها بركة عظيمة وثواب كبير ، ليس لغيرها مثلها ولذلك كان الصحابة رضى الله تعالى عنهم يطلبون من النبى صلى الله عليه وآله وسلم أن يشرف بيوتهم فيصلى لهم فيها فيبقى محل صلاته موضعاً لالتماس البركة فيه أبداً ، وكان عليه الصلاة والسلام يجيبهم لذلك كما ثبت فى البخارى وغيره ..

وفى التبرك بآثار الصالحين من غير الأنبياء ، أهل الكهف الذين قال

الله تعالى فى شأنهم : ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ .. فالذين غلبوا على أمرهم هم المؤمنون الذى يصلون كما ذكر جمهور المفسرين ، وذلك للتبرك بآثارهم حيث يعبدون الله تعالى فيه عندهم، وبالقرب منهم لما يعلمون من مضاعفة الأجور فى آثار أولئك الصالحين ، وفى هذا دليل على أن آثار الصالحين لا تخلو من البركة ، والتماسها فى آثارهم قربة ، وعمارة المساجد عليهم لعبادة الله ، فيه سنة من سنن الله تعالى.

فتوى الإمام أحمد بجواز تقبيل القبر النبوي والتبرك به :

لقد نقل عن العلامة المقرى المكى فى كتابه « فتح المتعال بصفة النعال » نقلاً عن ولى الدين العراقى أنه قال : أخبرنى الحافظ أبو سعيد بن العلاء قال : رأيت فى كلام أحمد بن حنبل فى جزء قديم عليه خط ابن ناصر وغيره من الحفاظ أن الإمام أحمد سئل عن تقبيل قبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم وتقبيل منبره فقال : لا بأس بذلك ، قال العراقى : فأريناه ابن تيمية فصار يتعجب من ذلك ويقول : أحمد عندى جليل . هذا كلامه أو معنى كلامه ، قال الحافظ العراقى وأى عجب فى ذلك وقد روينا عن الإمام أحمد أنه غسل قميصاً للشافعى وشرب الماء الذى غسله به « أى تبركا » ..

بل قد روى ابن تيمية نفسه تبرك أحمد بآثار الشافعى ..

وفى الحكايات المنثورة للإمام المحدث الحافظ الضياء المقدسى أن الحافظ عبد الغنى المقدسى الحنبلى أصيب بدمل أعجزه علاجه ، فمسح به

قبر الإمام أحمد بن حنبل تبركاً فبرئ (١)..

وفى « تاريخ الخطيب » أن الإمام الشافعى كان يتبرك بزيارة قبر الإمام« أبى حنيفة مدة إقامته بالعراق ، كما صح عنه أنه كان يتبرك بغسالة قميص الإمام أحمد ، فكان يأخذ منها ما يمسح به وجهه وأعضاءه كما ذكره أصحاب الطبقات وغيرهم .

وإذا كان هذا تعظيمه لأهل العلم فما بالك بمقادير الصحابة؟ وكيف بآثار الأنبياء عليهم السلام .

وقد صنف العلامة المحدث الشيخ عبد الله بن الصديق الغمارى رسالة لطيفة فى هذا الباب عنوانها « إعلام النبيل بجواز التقبيل » قال فيها : أما تقبيل غير الأعضاء فقد تقدم أن أبا العالية قبل تفاحة تبركاً بمسها لكف أنس رضى الله تعالى عنه ، وأجاز أحمد تقبيل قبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم ..

وأجاز ابن أبى الصيف والمحب الطبرى تقبيل قبور الصالحين ، وأخرج ابن عساكر بسند جيد عن أبى الدرداء قصة نزول بلال « بِدَارْيا » بعد فتح بيت المقدس ، قال : ثم إن بلالا ـ رأى النبى صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول : ما هذه الجفوة يا بلال ؟ أما آن لك أن تزورنا ، فانتبه حزينًا خائفا فركب راحلته وقصد المدينة فأتى قبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم فجعل يبكى ويمرغ وجهه على القبر .. إلخ القصة ، وكان ذلك بحضور الصحابة فلم ينكر عليه أحد ..

وأخرج الإمام أحمد فى مسنده والحاكم فى المستدرك قالا أقبل مروان

(١) ذكره الشيخ الكوثرى فى هامش السيف الصقيل ص ١٨٥ .

يوماً فوجد رجلاً واضعاً جبهته على القبر ، فقال : أتدرى ما تصنع ؟ فأقبل عليه فإذا أبو أيوب الأنصارى فقال : جئت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم آت الحجرة ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله ، ولكن ابكوا على الدين إذا وليه غير أهله ».

والعجيب أن ابن تيمية يصرح بترخيص الإمام أحمد وغيره فى التمسح بالمنبر إذ قال فى « اقتضاء الصراط المستقيم» فقد رخص أحمد وغيره فى التمسح بالمنبر والرمانة التى هى موضع مقعد النبى صلى الله عليه وآله وسلم ويده » .

وما حرص سيدنا أبو بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما على الدفن بجواره صلى الله عليه وآله وسلم إلا للتبرك به .

ومرجع هذا كله طلب البركة ، وفيه توجه إلى الله تعالى بما له تعلق برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسائر أحبابه ، وإذا صح استنزال الرحمة بما هو من الجمادات لتعلقه من قرب أو بعد بذاته الشريفة وذوات أحباب الله تعالى .. يصح التوسل بالأولى بذاته الشريفة وذوات سائر أحبابه تعالى ..

قال العلامة شهاب الدين الخفاجى فى حاشيته على شرح الشفا لملا على القارى: « إن هذا يدل على جواز التبرك بالأنبياء والصالحين وآثارهم، وبما يتعلق بهم ، ولا عبرة بمن أنكر ذلك من جهلة عصرنا ، وقطع عمر للشجرة التى وقعت عندها بيعة الرضوان إنما كان لقرب عهد كثير من الناس يومئذ بالجاهلية لامنعاً للتبرك ، إذ هو نفسه رضى الله تعالى

عنه قد طلب أن يدفن بجوار رسول الله صلى الله عليه واله وسلم رجاء أن تصيبه بركة ذلك .

سبب قطع شجرة البيعـة :

التحقيـق أن سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه لم يقطع الشجرة ، وإنما جاء بعض الصحابة العام القابل من البيعة فبحثوا عن الشجرة فخفيت عليهم ، ولعله قطع بعض الشجر الذى ظنه الناس شجرة البيعة ، وفى حديث مسلم (٣٤٥٩ ، ٣٤٦٠) عن سعيد بن المسيب عن أبيه أنهم كانوا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عام الشجرة قال : فنسوها من العام المقبل . وهو عند البخارى (٣٨٤٥) عن سعيد بن المسيب قال : حدثنى أبى أنه كان فيمن بايع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحت الشجرة .. قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها ، ونحوه عند البخارى (٣٨٤٤ ، ٣٤٦١) وعند مسلم (٣٤٦١) .

وعلى تقدير قطع عمر للشجرة عينها ، أو لشجرة ظنها الناس شجرة البيعة فقد قال الشيخ محمد زكى إبراهيم رحمه الله تعالى فى رسالة الزيارة « وعمر الذى أمر بقطع شجرةالبيعة التى كان يتبرك بها الناس هو عمر الذى لم يردم (بئر حاء) وقد كان ولا يزال يتبرك بها الناس .

ثم قال : « من العجب أن هؤلاء الذين يستشهدون بفعل عمر هنا هم الذين يخالفون فعل عمر بصلاة التراويح عشرين ركعة ويصلونها ثمانية ، فليس الأمر ديناً ، وإنما هو شهوة المخالفة . وعلى كل حال فإن قطع الشجرة إن ثبت لا يمس جانب التبرك بآثاره صلى الله عليه وآله وسلم الذى

قد ثبت بالأدلة الصحيحة القطعية[١] .

الحاصل في مشروعية التبرك والتقبيل :

هذه هى سماحة الإسلام بلا ابتداع ولا هوى ، وإنما إباحة ماأحله الله وتحريم ما حرم بلا شطط أو غلو أو احتكار للحكم فى دين الله بالتعصب المذهبى ، فلماذا يا بنى الإسلام نحيد عن سماحة الإسلام إلى الغلو فيه؟ وإخراج أهله منه أكبر عند الله .

يقول الشيخ صالح الجعفرى رضى الله تعالى عنه فى قصيدته روضة القلوب والأرواح :

لماذا يا بنى الإسلام نطغى ... ونهدم ديننا كالهادمينا

يكفر بعضنا بعضا جهارا ... على فعل رآه القوم دينا

لقد قال أحد الأثبات الفقهيين فى دين الله تعالى فى سماحة ويسر وهو العلامة السمنودى فى هذا الباب من كتابه « سعادة الدارين » ما نصه: « فقد صرح غير واحد من الأئمة هداة الأمة بإباحة التمسح بقبور الصالحين وتقبيلها وتمريغ الخد عليها وتقبيل أعتابها بقصد التبرك ، ومنع من ذلك بعضهم ، لكنه قال بالكراهة لا بالحرمة فضلاً عن التكفير .

سيقول الخصماء : إن الشيخ السمنودى وأمثاله من المتصوفة الذين لا يحتج به عندهم ، مع أنه يحتكم فى كتابه القيم إلى الأدلة النقلية والعقلية الصريحة .

---

(١) يراجع الإفهام والإفحام لفضيلة الشيخ محمد زكى إبراهيم ص ٦٠ : ٦٣ .

ونقول لهم : فما تقولون فيما قرره العديد من الفقهاء شيوخ الإسلام كالإمام البيجورى والعلامة الرملى والفقيه البجيرمى ونحوهم ممن تربى على أيديهم ألوف العلماء وعلى كتبهم ممن لا يحصون عددا من علماء الأمة وفقهائها؟ (١).

فتاوى الفقهاء بجواز التقبيل للتبرك :

لقد قال الإمام شيخ الإسلام الشيخ إبراهيم البيجورى فى حاشيته على شرح ابن قاسم فى فقه الشافعية ، وهذه الحاشية لاتزال تدرس إلى الآن فى المعاهد الأزهرية ، ما نصه : « ويكره تقبيل القبر واستلامه ، ومثله التابوت الذى يجعل فوقه ، وكذا تقبيل الأعتاب عند الدخول لزيارة الأولياء، إلا إن قصد به التبرك بهم فلا يكره » .

وقال الشيخ العلامة سليمان البجيرمى فى حاشيته ، تحفة الحبيب على شرح الخطيب ، تعليقاً على قول الشارح فى كتاب الصلاة : « ومما يحرم ما يفعله كثير من الجهلة من السجود بين يدى المشايخ ولو إلى القبلة » قال : « هل مثله ما يقع لبعضهم من الانحناء إلى حد الركوع أو مازاد عليه بحيث يقرب إلى السجود أو لا ؟ فيه نظر ، ولا يبعد أنه مثله ، وأما تقبيل أعتاب المشايخ فمستحب لابأس به » (٢).

أما ما يكون من بعض العوام من أخطاء فى الأقوال أو الأعمال فإن حسن نياتهم وصفاء إيمانهم يعصمهم من كل زلة تخشى قال تعالى : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ « الأحزاب: ٥ » ..

---

(١) معالم الطريق الصوفى .. د/ جودة أبو اليزيد ص ٥٩ ، ٦٠ .
(٢) المرجع السابق الصفحة ٦٠ ، ٦١ .

وعلى العالم أن يبصر الجاهل بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإنه ليس من حق كائن – أيا كان شأنه – أن يخرج مسلماً من حظيرة الإسلام بخطأ أو جهالة أو اجتهاد ، وإنما نريد تجميع الأمة والتقريب بين الآراء ، ولكل وجهة هو موليها ، ولا علينا أن نُسمّى عند بعضهم « بالقبوريين » فتكريم أصحاب القبور من صميم التوحيد .. » والله يعلم المفسد من المصلح ، وهو الموفق والمستعان (١) .

حكم التوسل بالأنبياء والمرسلين والأولياء الصالحين :

يزعم خصوم الصوفية من الوهابية ومن لف لفهم ونهج نهجهم أن التوسل والتشفع إلى الله تعالى بالأنبياء والصالحين إنما هو من الشرك الأكبر المنافى لتوحيد الألوهية ، وأن مقترفي ذلك كعباد الأصنام الذين قالوا: ﴿ مانعبدهم إلاَّ ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ « الزمر : ٣ » وأن هذا التوسل لم يأت به أحد من الصحابة أو التابعين أو أحد من سلف الأمة الصالح .

وفى الجواب عن هذه الشبهة التى تعد المحور الرئيسى لدى هؤلاء الخصوم فى تكفيرهم ورميهم المتوسلين بالشرك والبدعة نقول :

معني التوسل في اللغة والاصطلاح :

إن معنى التوسل إلى الشيء – فى اللغة – التقرب والتوصل إليه ، عن رغبة بوسيلة تقرب منه أو توصل إليه .

يقال : توسل إليه بكذا تقرب إليه بحرمة آصرة تعطّفه عليه ..

---

(١) الإفهام والإفحام ص ١٤٨ .

والواسل : الراغب إلى الله عز وجل قال الشاعر لبيد رضى الله تعالى عنه :

أرى الناس لا يدرون ما قد أمرهم

بلى كل ذى دين إلى الله واســـل

وقد أمرنا الله تعالى فى القرآن الكريم بالتوسل إليه حيث قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ « المائدة : ٣٥ » ..

فلفظ الوسيلة فى الآية الكريمة عام يشمل ما يتقرب به إلى الله تعالى من الأعمال ، ولمن يتوسل به إلى الله من الذوات الفاضلة الصالحة من الأنبياء والأولياء وعامة الصلحاء .

ومن ثم يعرف التوسل المشروع بأنه : « هو الطلب من الله تعالى مع التقرب إليه بما يحب أو بمن يحب »

تحرير موطن النزاع :

وهنا معقد الخلاف والنزاع بين الصوفية وخصومهم ـ هداهم الله تعالى ـ فى التوسل ، فإن الخصوم قد قصدوا الوسيلة فى الآية الكريمة على الأعمال الصالحة ، وأنكروا التوسل بالذوات الفاضلة ، بينما أخذ جمهور الأمة ومنهم الصوفية بعموم الوسيلة ، ويؤيدهم فى ذلك : تفسيرها بالعموم للذوات فى قوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ « الإسراء : ٥٧ » .

فإن المعنى كما قدره المفسران البغوى ـ إمام السنة ـ والعلامة

الخازن : ، ينظرون أيهم أقرب إلى الله تعالى فيتوسلون به ، أى إن الحق تعالى يقول لمن عبد الملائكة والأنبياء من الكفار : أولئك الذين تعبدونهم يتوسلون إلى الله تعالى بمن هو أقرب إليه ممن هو أعلى منهم مقاما فكيف تجعلونهم أرباباً؟ فهذا التفسير يدل على عموم الوسيلة للذوات الصالحة وقد نسبه الإمام البغوى إلى سيدنا عبد الله بن عباس حبر الأمة رضى الله تعالى عنهما ..

هذا فضلا عن أن ظاهر اللفظ فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ عام فى الأفعال والذوات ، ومن ادعى التخصيص فى أحدهما فقد تحكم على النص بلا برهان ..

بل إن العلامة الشيخ داود النقشبندى رضى الله تعالى عنه قد أبدى ملحظا تفسيرياً رائعاً فى هذه الآية فقال فى كتابه القيم ، صلح الإخوان ، : على أن ظاهر سياق الآية تخصيصه ـ أى لفظ الوسيلة ـ بالذوات ، لأنه سبحانه قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ والتقوى عبارة عن فعل المأمور وترك المنهى ، فإذا فسرنا ابتغاء الوسيلة بالأعمال يكون تأكيداً للأمر بالتقوى فيكون مكرراً ، وإذا أريد به التوسل بالذوات يكون تأسيساً وهو خير من التأكيد .

تحرير رأي الشيخ ابن تيمية :

أما متجه الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى فى مدلول التوسل كما بينه فى كتابه : ، قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة ، فإنه يرى أن التوسل يراد به معنيان صحيحان باتفاق المسلمين ، ومعنى ثالث باطل عنده لم ترد به

سنة .

فالأولان همـا :

١) التوسل بالإيمان بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم وطاعته .

٢) التوسل بدعائه صلى الله عليه وآله وسلم وشفاعته .

وأما المعنى الثالث الذى يراه باطلا فهو التوسل بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم بمعنى الإقسام على الله تعالى بذاته ، أو سؤاله تعالى بذاته صلى الله عليه وآله وسلم أو بذات غيره من الصالحين .

فهذا عنده ليس مشروعاً ، بل هو منهى عنه ، كما أن طلب شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم واستغفاره ، ودعاءه بعد موته وعند قبره ، وكذا خطـاب الملائكة والأنبـياء والصالحين بعد موتهـم عنـد قبورهـم ، وفى مغيبهم هو أعظم أنواع الشرك الموجود فى المشركين من غير أهل الكتاب .

فنقطة الخلاف الرئيسية تتمثل فى القسم الثالث من أقسام التوسل عند الشيخ ابن تيمية ، وهو ما خالف به إجماع جمهور العلماء ، واستجلب به إنكار الأئمة الراسخين ، ومن سلك مسلكهم منذ عصره إلى الآن ، لمخالفته للنصوص الصريحة فى الكتاب والسنة وفعل السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .. مما اضطره أن يعدل عن موقفه هذا فى العديد من أقواله المبثة فى سائر مصنفاته حتى عقد بعض العلماء الأثبات بمقتضى هذا العدول صلحا مع الشيخ ابن تيمية وتلميذه الشيخ ابن القيم وهو الشيخ داود النقشبندى فى كتابه ، صلح الإخوان ، فقد بين فيه تبرئة الشيخين من

آرائهما المتشددة بمعارضتها بأقوالهما المخففة التى لا تكفر مسلماً بذنب ، ولا تخرجه من الإسلام بشبهة كما يفعل أتباعهما الآن ، فيا حبذا استشراف الحق والعودة إلى سماحة الإسلام على هدى وبصيرة، فالرجوع الى الحق فضيلة ، وأصحاب الفضيلة أولى بالرجوع إلى الفضيلة [١].

تراجع الشيخ ابن تيمية عن رأيه في التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم

سوف نورد ههنا الدليل على تراجع الشيخ ابن تيمية عن رأيه فى القسم الثالث من أقسام التوسل ، وهو التوسل بذات النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقد نقل الحافظ ابن كثير وهو تلميذ ابن تيمية فى كتابه « البداية والنهاية » (فى أحداث سنة ٧٠٧ هـ) عن البرزلى أنه قال : « وفى شوال منها : شكى الصوفية بالقاهرة على الشيخ تقى الدين – أى ابن تيمية – وكلموه فى ابن عربى وغيره إلى الدولة ، فردوا الأمر فى ذلك إلى القاضى الشافعى ، فعقد له مجلسا وادعى عليه ابن عطاء بأشياء فلم يثبت عليه منها شىء ، لكنه قال : لا يستغاث إلا بالله ، لا يستغاث بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم استغاثة بمعنى العبادة ، ولكن يتوسل به ويتشفع به إلى الله تعالى ، فبعض الحاضرين قال : ليس عليه فى هذا شىء » .

لقد استرعى هذا التحول المفاجئ فى كلام الشيخ ابن تيمية نظر محققى « البداية والنهاية » فجاء تعليقهم على العبارة المذكورة « ولكن يتوسل به ويتشفع به إلى الله فى هامش الكتاب ما نصه « المعروف فى كتب ابن تيمية وترجمته لابن عبد الهادى : « أنه لا يجيز هذا.. فليحرر »

---

(١) ينظر : معالم الطريق الصوفى للدكتور جودة المهدى ص ١١ وما بعدها .

كما أن ابن تيمية قد تراجع عن تكفير من توسل بالمخلوق واستغاث به ودعاه ؛ حيث قال في كتابه « اقتضاء الصراط المستقيم » ما نصه : « فكما أن إثبات المخلوقات أسباباً لا يقدح في توحيد الربوبية ولا يمنع أن يكون الله خالق كل شيء فلا يوجب أن يدعى المخلوق دعاء عبادة أو دعاء استغاثة ، كذلك إثبات بعض الأفعال المحرمة من شرك ـ يعني الشرك الأصغر ـ أو غيره أسبابا لا يقدح في توحيد الألوهية ، فإن أحسن أحواله أن يكون مجتهداً في هذه المسألة أو مقلداً فيعفو الله عنه »..

المتفق عليه من التوسل :

لم يختلف أحد من المسلمين في مشروعية التوسل إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة فمن صام أوصلى أو قرأ القرآن أو تصدق فإنه يتوسل بصيامه وصلاته وقراءته وصدقته ، بل هو أرجى في القبول وأعظم في نيل المطلوب لا يختلف في ذلك اثنان ، والدليل على ذلك حديث الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار ، فتوسل أحدهم إلى الله تعالى ببر والديه ، وتوسل الثاني بابتعاده عن الفاحشة بعد تمكنه من أسبابها ، وتوسل الثالث بأمانته وحفظه لمال غيره وأدائه له كاملاً ، وفرج الله عنهم ما هم فيه . وهذا النوع من التوسل قد فصله وبين أدلته الشيخ ابن تيمية في كتبه وخصوصاً في رسالته « قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة »..

محل الخلاف :

وقد ذكر العلامة الدكتور محمد بن علوى المالكي تحقيقاً علمياً في تحرير موضع الخلاف فقال : محل الخلاف في مسألة التوسل هو التوسل

بغير عمل المتوسِّل ، كالتوسل بالذوات والأشخاص بأن يقول الداعى : اللهم إنى أتوسل إليك بنبيك محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو أتوسل إليك بأبى بكر الصديق أو بعمر بن الخطاب أو بعثمان أو بعلى رضى الله تعالى عنهم فهذا هو الممنوع عند بعضهم .

ونحن نرى أن الخلاف شكلى وليس بجوهرى ، لأن التوسل بالذات يرجع فى الحقيقة إلى توسل الإنسان بعمله ، وهو المتفق على جوازه ..

ولو نظر المانع المتعنت فى المسألة بعين البصيرة لانجلى له الأمر وانحل الإشكال وزالت الفتنة التى وقع بسببها من وقع فحكم على المسلمين بالشرك والضلال .

وسأبين كيف أن المتوسل بغيره هو فى الحقيقة متوسل بعمله المنسوب إليه والذى هو من كسبه .

فأقول ـ وما زال الكلام للعلامة المالكى ـ اعلم أن من توسل بشخص ما فهو لأنه يحبه إذ يعتقد صلاحه وولايته وفضله تحسيناً للظن به ، أو لأنه يعتقد أن هذا الشخص محب لله تعالى يجاهد فى سبيله ، أو لأنه يعتقد أن الله تعالى يحبه كما قال سبحانه ﴿ **يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ** ﴾ أو لاعتقاده هذه الأمور كلها فى الشخص المتوسَّل به .

وإذا تدبرت الأمر وجدت أن هذه المحبة وذلك الاعتقاد من عمل المتوسِّل لأنه اعتقاده الذى انعقد عليه قلبه فهو منسوب إليه ومسئول عنه ومثاب عليه ، وكأنه يقول : يارب إنى أحب فلاناً وأعتقد أنه يحبك وهو مخلص لك ويجاهد فى سبيلك ، وأعتقد أنك تحبه وأنت راض عنه فأتوسل إليك بمحبتى له وباعتقادى فيه أن تفعل كذا وكذا .. ولكن أكثر المتوسلين

يتسامحون فى التصريح بهذا الأمر مكتفين بعلم من لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ومن يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ومن يعلم الجهر وما يخفى فمن قال : اللهم إنى أتوسل إليك بنبيك .. هو ومن قال : اللهم إنى أتوسل إليك بمحبتى لنبيك .. سواء ؛ لأن الأول ما أقدم على هذا إلا لمحبته وإيمانه بنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ولولا المحبة له والإيمان به ما توسل به صلى الله عليه وآله وسلم ، وهكذا يقال فى حق غيره من أولياء الأمة ..

وبهذا ظهر أن الخلاف فى الحقيقة شكلى ، لا يقتضى هذا التفريق والعداء بالحكم بالكفر على المتوسلين وإخراجهم عن دائرة الإسلام ﴿ سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾[(١)].

بماذا نتوسل :

قرر الشيخ العلامة المحدث الشهير فضيلة الأستاذ / محمد زكى إبراهيم تقريراً مختصراً فى قضية التوسل ، يزيل الشكوك والأوهام حول هذه القضية فقال :

أولا : إن التوسل ـ كأصل إسلامى ـ مشروع ، لا خلاف إطلاقاً على مشروعيته ، ولكن الخلاف على أسلوبه وطريقته ، وهو ليس بواجب على أحد ، فمن اقتنع به فعله ، ومن لم يقتنع به تركه ، ولكل عذره ودليله ، وهذه قاعدة إسلامية أساسية لابد من اعتبارها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ ..

---

(١) مفاهيم يجب أن تصحح للعلامة المالكى ص ٤٤ ، ٤٥ .

ثانيا : إن إجماع أهل الحق – من الصوفية وغيرهم – على أن التوسل إلى الله بأحد من خلقه – حياً كان أو ميتاً – ليس توسلاً بالذات البشرية ، ذات الطول والعرض ، والحجم والجرم ، واللون والظل ، والحيز المعين المنظور ، وإن كان لهذه الذات تقديرها وتوقيرها بوصفها وعاء للمعانى العالية ، ولهذا أمرالشرع بالدفن والصلاة وعدم امتهان القبر واحترام الميت وعدم سبه واغتيابه .

فليس معقولاً ولا مقبولاً أن يتوسل العبد إلى المعبود بكومة من لحم وعظم وعصب ، وإلا فإن الفيلة والأبقار والبغال والدببة أضخم جثة من الإنسان .

ثم إن عنصرى الذهب والفضة ، ومختلف المعادن الثمينة والأحجار الكريمة أعلى قدراً من ذات اللحم والعظم .

فلو كان المتوسّل المسلم يعنى أن يتوسل بالذات المحسوسة لذهب إلى ما هو أضخم ، أو ما هو أغلى ، وبين يديه بقرة موسى وعجل السامرى ، فيتعين أن يكون توسل المسلم بذات الحى والميت ، إنما هو توسل بشيء آخر غير الذات المتحيز ، الذى يشغل قدراً صغيراً أو كبيراً من الفراغ الكونى.

هذا الشيء الآخر الذى يتوسل به المسلم هو المعنى الخالد مع الروح والمحبوب للحق تعالى فى ذات عبده من نحو : الإيمان والإخلاص والمحبة والصفاء واليقين والطاعة والجهاد والعلم والصبر والبركة وبالمعرفة ، وأنواع العمل الصالح الذى تكون هذه الذات وعاءه ومصدره ومنبعه ومستقر أسراره .

وهذا المعنى الروحى المحبوب لله هو محل التوسل وبه يكون التوجه

إليه جل وعلا لا بذات الحى والميت .

وهذا المعنى خالد ، ملازم لحقيقة الإنسان فى حياته الدنيا وحياته الآخرة ، لأنه يموت به ، ويحفظ عليه ، ويسجل له ويبقى فى البرزخ مع روحه ، ويكون الجزاء فى اليوم الآخر على أساسه فلا اعتبار للذات فى التوسل إلا باعتبارها وعاءً لهذه المعانى الشريفة ..

هذا هو مفهوم جمهور المسلمين ، الذى به يعملون جميعاً فى توسلهم بالحى أو الميت ، تؤيدهم هذه الأدلة العقلية ثم النقلية معاً ..

أما تكريمهم لذات المتوسّل به فمن حيث إن هذه الذات كانت ظرفاً ووعاء ، ومصدراً للمعنى الكريم المحبّب إلى الله ، أى المعنى الذى به يكون التوسل ـ كما قدمنـا ـ وهو المعنى الخالد فى الحى والميت[١] .

عقيـدة المتوسلين :

قبل إيراد تفصيل أدلة مشروعية التوسل فى القسم المتنازع فيه لا بدّ من توضيح حقيقة متّجه المتوسلين فى التوسل الذى يعتقدونه ويقيمون له الأدلة الشرعية ..

ليعلم كل منصف أن الصوفية وغيرهم من المجوزين للتوسل أحرص على التوحيد ممن يرفعون له شعارات النصرة ويرمون من هم أحق منهم برفع رايته بالشرك والبدعة ..

وهذا واحد من أئمة التصوف الإسلامى فى القرن الثالث عشر للهجرة

---

(١) الإفهام والإفحام أوقضايا الوسيلة والقبور فى ضوء سماحة الإسلام للشيخ / محمد زكى إبراهيم ص ٦ ، ٧ ، ٨ .

يتحدث عن معتقد الصوفية فى هذا الصدد وهو الشيخ داود النقشبندى رحمه الله تعالى فيقول :

« اعلم أن المجوزين – يعنى للتوسل والاستغاثة – مرادهم بجواز الاستغاثة بالأنبياء والصالحين أنهم أسباب ووسائل بدعائهم ، أو أن الله تعالى يفعل لأجلهم ، لا أنهم هم الفاعلون استقلالاً من دون الله تعالى فإن هذا كفر بالاتفاق ، ولا يخطر ببال جاهل فضلاً عن عالم ، بل ليس هذا خاصاً بنوع الأموات ، فإن الأحياء وغيرهم من الأسباب العادية كالقطع للسكين ، والشبع للأكل ، والرى للماء ، والدفء للبس ، لو اعتقد أحد أنها فاعلة ذلك بنفسها من غير استنادها إلى الله يكفر إجماعًا .

قال الإمام السبكى والقسطلانى – فى المواهب اللدنية – والسمهودى – فى تاريخ المدينة – وابن حجر الهيتمى – فى الجوهر المنظم – ..

والاستغاثة به صلى الله عليه وآله وسلم وبغيره : بمعنى التوسل إلى الله تعالى بجاهه ووسيلته وقد يكون بمعنى أن يدعو كما فى حال الحياة إذ هو غير ممتنع مع علمه بسؤال من سأله ، والمستغيث يطلب من المستغاث به أن يجعل له الغوث من غيره ممن هو أعلى منه ، وليس لها فى قلوب المسلمين غير ذلك ، ولا يقصد بها أحد منهم سواه .

والمستغاث به فى الحقيقة هو الله تعالى والنبى صلى الله عليه وآله وسلم واسطة بينه وبين المستغاث الحقيقى ، فهو تعالى مستغاث ، والغوث منه خلقاً وإيجاداً . والنبى صلى الله عليه وآله وسلم مستغاث ، والغوث منه تسبباً وكسبا ، ولا يعارض ذلك خبر سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه حين قال : « قوموا نستغيث برسول الله من هذا المنافق ، فقال

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إنه لا يستغاث بى إنما يستغاث بالله) رواه الطبرانى في معجمه الكبير ، وفى سنده ابن لهيعة ، والكلام فية مشهور ، وعلى فرض صحته فهو على حد قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ ، الأنفال : ١٧ ، ..

ولو أجراه المعترض على ظاهره لكان المقصود به منع الاستغاثة به صلى الله عليه وآله وسلم مطلقاً كما هو ظاهر اللفظ ، وهذا منقوض بفعل الصحابة معه صلى الله عليه وآله وسلم . إذ كانوا يستغيثون ويستسقون به ، ويطلبون منه الدعاء وهو يستجيب لذلك بفرح وسرور ، وحينئذ فلابد من تأويله بما يناسب عمومات الأحاديث لينتظم شمل النصوص ، ومن هنا قال العلماء إن المراد بقوله ذلك ـ زيادة على ما تقدم ـ هو إثبات حقيقة التوحيد فى أصل الاعتقاد ، وهو أن المغيث حقيقة هو الله تعالى والعبد ماهو إلا واسطة فى ذلك (١) .

ومن ثم يُعلم : أنه لا يوجد صوفى يعتقد إسناد التأثير بالخلق أو النفع أو الضر لغير الله تعالى وأن مناط التوسل بذوات الأنبياء والصالحين إنما هو التسبب فقط فى النفع أو الضر بمقتضى ما منحه الله تعالى للوسيلة من جاه مقبول ودعاء متقبل من ذات النبى أو المؤمن التقى الذى تحققت له الولاية والقرب من الله تعالى ومن منطق الأدلة الشرعية التى ستقف عليها بعد .. وقد قال سيدى أحمد الدردير العلامة الفقيه المالكى والصوفى الخلوتى الأزهرى فى خريدته التى جمع فيها معتقد أهل السنة والجماعة :

---

(١) ينظر معالم الطريق الصوفى للدكتور/ جودة أبو اليزيد ص ١٥، ١٦ ، مفاهيم يجب أن تصحح ص ١٠١ .

والفعل فى التأثير ليس إلا للواحد المختار جل وعلا

وبالوقوف على حقيقة التوسل عند الصوفية ومن سلك طريقتهم ندرك بيقين : مدى بشاعة جرم رميهم بالشرك والوثنية من خصومهم ، وتشبيههم بعباد الأصنام الذين قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ ، الزمر : ٣ ،.. وهذه صفة الخوارج الذين يحملون ما نزل فى القرآن فى شأن المشركين على المسلمين الموحدين كما روى ذلك البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما فإن جمهور المتوسلين من الصوفية وغيرهم ما عبدوا إلا الله تعالى ولم يتقربوا إليه إلا بما أحب من الطاعات وبحب من أحب من المقربين الذين جعلهم الله تعالى سببا لرحمة خلقه ونفع عباده كما جاء فى التنزيل والسنة المطهرة . والله يعلم المفسد من المصلح ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله ولا ملجأ ولا منجا من الله إلا إليه .

حديث الأعمى في التوسل وقضاء الحاجة :

من أجل ما تقدم أجاز الجمهور من العلماء الراسخين التوسل إلى الله تعالى بالحى والميت الصالح للأدلة العقلية التى مضت ثم للأدلة النقلية المتعاضدة التى نكتفى هنا منها بحديث الأعمى ، من حيث إنه المحور الأكبر فى هذا الباب وحوله ـ غالبا ـ يدور النقاش .

روى الترمذى بسنده عن عثمان بن حنيف رضى الله تعالى عنه أن رجلاً ضرير البصر أتى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ادع الله أن يعافينى ، قال : إن شئت دعوت ، وإن شئت صبرت فهو خير لك ، قال :

فادعه ، قال فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ويدعو بهذا الدعاء « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة ، إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه لتقضى لى . اللهم فشفعه فىّ » ..

ورواه ابن ماجه ، وفيه « يا محمد إنى قد توجهت بك إلى ربى » وفى رواية الإمام أحمد فى المسند : « ففعل الرجل فبرأ » وفى رواية النسائى : « فرجع ، وقد كشف الله عن بصره » وفى رواية الحاكم فى المستدرك : « اللهم شفعه فىّ وشفعنى فى نفسى » وفى رواية ابن أبى خيثمة : « وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك » ..

وفى بعض روايات الحديث خلاف يسير فى الألفاظ ليس بذى بال..

تخريج الحديث من كتب السنة والحكم عليه :

هذا الحديث رواه الترمذى فى جامعه (٥/٥٦٩) والإمام أحمد فى مسنده (٤/١٣٨) وابن ماجه فى سننه (١/٤٤١) والنسائى فى السنن الكبرى (٦/١٦٨ ، ١٦٩) وفى عمل اليوم والليلة (١/٤١٧ ، ٤١٨) والحاكم فى المستدرك (١/٤٥٨، ٧٠٠، ٧٠٧) وصححه والبخارى فى التاريخ الكبير (٦/٢٠٩، ٢١٠) وابن أبى خيثمة فى تاريخه ، كما ذكره الشيخ ابن تيمية فى قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة ص ١٠٦ ، وابن خزيمة فى صحيحه (٢/٢٢٥) والبيهقى فى دلائل النبوة(٦/١٦٦، ١٦٨) وفى الدعوات الكبير ، والطبرانى فى الكبير (٩/٣٠) وفى الصغير (١/٣٠٦) وفى كتاب الدعاء (١/٣٢٠) وابن السنى فى عمل اليوم والليلة ص٢٠٩ ، وعبد بن حميد فى مسنده ص ١٤٧ المنتخب ، وأورده الحافظ المنذرى فى كتاب الترغيب والترهيب (١/٤٧٦) وصححه

الحافظ الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٧٩/٢) والإمام النووى فى الأذكار ص ٢٤١ .

مايـــدل عليه الحـــديث :

من هذا الحديث أخذ الفقهاء مندوبية صلاة الحاجة ، فمن كانت له إلى الله تعالى حاجة أو إلى أحد من بنى آدم ، صلى هذه الصلاة ، وتوجه إلى الله تعالى بهذا الدعاء مع ما يناسبه من الدعاء المأثور وغير المأثور ، فما تمس الحاجة إليه وما يشعر به صاحبها .

ومنطوق الحديث حجة فى صحة التوسل بالحى ، ومفهومه حجة على صحة التوسل بالميت على الأساس الذى قدمناه من التوسل بالحى أو الميت ليس توسلاً بالجسم ولا بالحياة ولا بالموت ، ولكن بالمعنى الطيب الملازم للإنسان فى الحياة والموت ، وما الجسم إلا حقيبة لصيانة هذا المعنى ، فاستوجب بهذا تكريمه حياً كان أو ميتاً ، على أن قوله : « يا محمد » نداء للغائب الذى يستوى فيه الحى والميت ، فهو موجه إلى المعنى الكريم على الله تعالى ، والملازم للروح ، والذى هو موضع التوسل بالحى أو الميت على حد سواء[1] .

حديث الأعمى والتوسل بالموتى :

وقد جاءت زيادة فى الحديث موقوفة عن المرفوع ، صحيحة ، حدثت على عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه تدل على أن التوسل بحديث الأعمى ليس خاصاً بحياته صلى الله عليه وآله وسلم فقط .

---

(١) الإفهام والإفحام ص ١٠ ، ١١ .

فقد أخرج الطبرانى فى معجمه الصغير ، وفى الكبير عن أبى أمامة ابن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف رضى الله تعالى عنه أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان فى حاجة له ، فكان عثمان لا يلتفت إليه ، ولا ينظر فى حاجته ، فلقى عثمان بن حنيف فشكا ذلك إليه (أى بعد وفاة النبى صلى الله عليه وآله وسلم وبعد خلافة أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما) فقال له عثمان بن حنيف (وهو الصحابى المحدث العالم بدين الله تعالى) أئت الميضأة ، فتوضأ ، ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين ، ثم قل : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبى الرحمة ، يا محمد .. إنى أتوجه بك إلى ربى فيقضى لى حاجتى » ، قال : وتذكر حاجتك ، ورح إلىَّ حتى أروح معك فانطلق الرجل فصنع ما قال له عثمان (أى ابن حنيف) ثم أتى باب عثمان (بن عفان) رضى الله تعالى عنه فجاء البواب حتى أخذ بيده ، فأدخله على عثمان بن عفان ، فأجلسه معه على الطنفسة (الوسادة) وقال : ماحاجتك ؟! فذكر حاجته فقضاها له ثم قال له : ما ذكرت حاجتك حتى كانت هذه الساعة !! وقال : ما كان لك من حاجة فائتنا .

ثم إن الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف فقال له : جزاك الله خيراً ، ما كان ينظر فى حاجتى ولا يلتفت إلى حتى كلمته فىَّ (أى توسط له عند عثمان بن عفان) فقال عثمان بن حنيف : والله ماكلمته ، ولكن شهدت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأتاه ضرير ، فشكا إليه ذهاب بصره ، فقال له النبى صلى الله عليه وآله وسلم : أفتصبر؟ فقال : يارسول الله ، إنه ليس لى قائد ، وقد شق على ، فقال له النبى صلى الله

عليه وآله وسلم (إيت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ، ثم ادع بهذه الدعوات) .

قال عثمان بن حنيف : فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأن لم يكن به ضُر قط[١] .

يقول فضيلة العلامة المحدث الكبير الشيخ محمد زكى إبراهيم رحمه الله تعالى :» وهذا نص صحابى قطعى الدلالة ، صريح المعنى فى صحة التوسل بالموتى ، وأن الدعاء الوارد فى الحديث ليس مخصوصاً بحياة النبى صلى الله عليه وآله وسلم .. وقد صحح هذه القصة « البيهقى ، والمنذرى ، والهيثمى «[٢] .

تحقيق صحة حديث الضرير وزيادته :

قال الطبرانى ـ عقب روايته الزيادة ما مجمله ـ :والحديث صحيح ، وذكر أن شبيب بن سعيد المكى ، وهو ثقة ، تفرد به عن روح بن القاسم وأن الحديث رواه أيضاً عن شعبة عن أبى جعفر الخَطمى ، وقد تفرد به عثمان بن عمر بن فارس عن شعبة .

قال الشيخ ابن تيمية (تأمل) : والطبرانى ذكر تفرده بمبلغ علمه ، ولم تبلغه رواية روح بن عبادة عن شعبة ، وذلك إسناد صحيح ، يبين أنه لم ينفرد به عثمان بن عمر[٣] ا. هـ

---

(١) رواه الطبرانى فى الصغير ٣٠٦/١ وفى الكبير ٣٠/٩ .

(٢) الإفهام و الإفحام ص ١٢ ، ١٣ .

(٣) انظر : قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة ص ١٣١ .

قال الشيخ محمد زكى إبراهيم رحمه الله تعالى : ولو سلمنا بانفراده به عن شعبة وانفراد شبيب بن سعيد المكى عن روح بن القاسم ، فهما ثقتان بإجماع علماء الحديث ، فالزيادة الموقوفة صحيحة ، والحديث المرفوع صحيح ، وقد وثق الطبرانى رواته ، وبهذا ينتفى تغريب الحديث عند الترمذى ، وكم من حديث صحيح ولكنه غريب ، كحديث : « إنما الأعمال بالنيات » مثلاً .

وبهذا يتحقق علمياً أن الحديث صحيح على شرط الشيخين : البخارى ومسلم ، ومع هذا فبعض من فى صدورهم غرض معين يضعف حديث الأعمى هذا من رواية الترمذى ، بحجة أن فى سنده رجلاً غير معروف ، والقاعدة عند علماء الحديث أن المجهول عند واحد إذا كان معلوماً عند غيره فالحجة للعالم به ، والمثبت مقدم على النافى عند جميع أهل العلم خصوصاً أهل الحديث .

وقد قال الترمذى : « حديث حسن صحيح غريب » ، لا يعرف إلا من هذا الوجه من حديث أبى جعفر .. قال : وهو غير[1] . الخطمى (بفتح الخاء) ..

ومعنى هذا أن رواة الحديث مع مجهولية أبى جعفر عند الترمذى مقبولة بدرجة الحسن والصحة على الوجهين .

---

(١) قال السيد العلامة الشيخ عبد الله الغمارى فى كتابه « مصباح الزجاجة فى فوائد صلاة الحاجة : قوله « وهو غيرالخطمى » لعل زيادة لفظ « غير » زيادة من بعض النساخ ا .هـ . وقال الشيخ محمد زكى إبراهيم : وفيما بين يدى من النسخ المطبوعة (خمس طبعات مختلفات) من الترمذى : وفيها « وهو الخطمى » فتكون كلمة « غير » زيادة من النساخ فى بعض نسخ الترمذى .. الإفهام ص ١٤ .

وعلماء الحديث الذين سبقوا الترمذى حققوا أن أبا جعفر (هذا المجهول عند الترمذى) هو الخطمى بعينه .

قال ابن أبى خيثمة : أبو جعفر هذا ، الذى حدث عنه حماد بن سلمة اسمه عمير بن يزيد ، وهو أبو جعفر الذى يروى عنه شعبة ، ثم روى الحديث من طريق عثمان بن عمر ، عن شعبة ، عن أبى جعفر .

وقال ابن تيمية ـ بعد أن روى حديث الترمذى ـ ما نصه : « وسائر العلماء قالوا : هو أبو جعفر الخطمى ، وهو الصواب » فتأمـل .

وفى تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر : أنه الخطمى ، وأنه صدوق (من السادسة) وفى « الاستيعاب » لابن عبد البر : أنه الخطمى كذلك ثم إن الحديث كذلك رواه البيهقى من طريق الحاكم وأقر تصحيحه .

وقد رواه الحاكم بسند على شرط الشيخين ، وأقره الحافظ الذهبى، واستشهد به الإمام الشوكانى .. وهما من هما ؟![1] .

قال الشوكانى فى « تحفة الذاكرين » فى باب « صلاة الضرر والحاجة » والحديث صحيح .. ثم قال : وفى الحديث دليل على جواز التوسل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . إلى الله عز وجل ، مع اعتقاد أن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى وأنه المعطى والمانع ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن[2] .

ومعنى هذا : أن جميع رجال السند معروفون لكبار أئمة الحديث كالحافظ الذهبى (وهو من هو تشدداً) والحافظ ابن حجر (وهو من هو

---

(١) الإفهام والإفحام ص ١٤ ، ١٥ .

(٢) تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين ص ١٩٥ .

ضبطاً وحفظاً وتحققاً) ، والحاكم والبيهقى ، والطبرانى ، وابن عبد البر ، والشوكانى ، وابن تيمية وغيرهم من العلماء الراسخين فى العلم .

ثم إن هذا الحديث أخرجه البخارى فى (التاريخ الكبير) وابن ماجه فى سننه ونص على صحته ، والنسائى فى (عمل اليوم والليلة) وأبو نعيم فى (معرفة الصحابة)، والبيهقى فى (دلائل النبوة) والمنذرى فى (الترغيب والترهيب) والطبرانى فى (الكبير) ، وابن خزيمة فى (صحيحه) ، وأورده الهيثمى فى (المجمع) وآخرون .

وقد نص على صحته نحو خمسة عشر حافظا منهم الترمذى ، وابن ماجه ، والنسائى ، وأبو نعيم ، وابن خزيمة ، والطبرانى ، والحاكم ، والبيهقى ، والمنذرى ، والنووى ، والذهبى ، وابن حجر ، والهيثمى ، والمقدسى ، والسيوطى ، فضلا عن الشوكانى وابن تيمية وغيرهم .

وهكذا جاء الحديث كما قدمنا على شرط الصحيحين : البخارى ومسلم ، فلم يبق بعد هذا مطعن لطاعن ، أو مغمز لمغتمز فى صحة الحديث .

وبالتالى فى جواز التوسل بالحى والميت جميعاً من طريق العقل والعلم والعاطفة ، وفى الأمر سعة ، فمن شاء فليتوسل ، ومن شاء فليترك بلا فتنة ولا تأثيم ولا تشريك ولا تبديع ولا تفسيق بعد كل هذا التحقيق (١) .

ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله .

---

(١) يراجع الإفهام والإفحام ص ١٥ ، ١٦ .

ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ..

موضوع توسل الصحابة بالعباس :

ثم إن توسل الصحابة بالعباس عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى الاستسقاء بعد وفاة النبى صلى الله عليه وآله وسلم لا ينفى أبداً صحة التوسل بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم فى قبره ، إذ لا تنافى بين الأمرين ، بدليل أنه بينما كانت طائفة تتوسل بالعباس لقرابته من النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان بعضهم يتوسل إلى الله تعالى مستسقيا بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى قبره .

فقد أخرج ابن أبى شيبة عن « مالك الدار » بسند صحيح كما فى فتح البارى ، وأخرجه البخارى فى التاريخ ، وابن أبى خيثمة ، والبيهقى فى «الدلائل» ورواه سيف فى الفتوح : أن بلال بن الحارث المزنى الصحابى أتى إلى قبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم أيام الرمادة ـ القحط ـ فى عهد عمر رضى الله تعالى عنه وقال : يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا ... إلخ .

وهذا الخبر صححه الحافظ ابن حجر فى الفتح ٤٩٥/٢ ، كذلك صححه الحافظ ابن كثير فى البداية ١٠١/٧ ، ورواه ابن عبد البر فى الاستيعاب (١١٤٩/٣) ..

وهو نص من فعل الصحابة فى صحة التوسل بالميت ، وبما أنه لم ينكره عليه أحد ، فقد أخذ بالتالى قوة الإجماع .

وقد روى ابن عبد البر فى « الاستيعاب » سبب توسل الصحابة

بالعباس رضى الله تعالى عنه وهو لا يتنافى أبدا مع التوسل بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم، فى قبره بل هو هو ..

قال الشيخ الإمام / محمد زكى إبراهيم رحمه الله تعالى لأن علة توسلهم به رضى الله تعالى عنه هى قرابته من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فكأنهم توسلوا بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبعمه فى وقت واحد وإلا فلماذا اختاروا العباس بالذات مع وجود غيره وكلام الحافظ فى « الفتح » يؤيد هذا الجانب ، شأن جمهور علماء المسلمين وهو معتضد بخبر « فتح الكوى فى سقف الحجرة المشرفة » بإذن عائشة رضى الله تعالى عنها توسلا إلى الله فى اللطف بالعباد وعلق عليه القارى فى شرح « المشكاة » تأكيداً ، فالتوسل بالعباس رضى الله تعالى عنه بعد كل هذا فرع لا يتنافى مع الأصل ، وهو التوسل بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم لا عقلا ولا نقلا(١) .

علماء الأصول والتوسل بالموتى :

وعلماء الأصول هم أهل الاختصاص فى هذا المجال ، وليس لمنكر بعد مقالهم مقال ، فقد أجازوا التوسل بصالحى الموتى ، وفى مقدمتهم علامة الدنيا الإمام فخر الدين الرازى فى « المطالب العلية » ، وإمام البيان العلامة سعد الدين التفتازانى فى « شرح المقاصد » وإمام الإعجاز القرآنى العلامة الشريف الجرجانى فى « حاشية المطالع » ، ولهم فى ذلك توجيهات وتفاصيل ونقول وفلسفات تؤكد ما يكون بين الزائر والمزور من المدد والإفاضة والصلة الروحية على نسبة منزلة كل منهما فى الحياتين

---

(١) الإفهام والإفحام ص ١٨ .

« الدنيوية » والبرزخية » .

وفى منسك الإمام الهمام أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه رواية أبى بكر المروزى نص فى التوسل إلى الله تعالى بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم فى قبره ، وهناك صيغة طويلة للتوسل به صلى الله عليه وآله وسلم ذكرها أبو الوفا بن عقيل فى « التذكرة » فلا خلاف عند كبار الحنابلة على ذلك .

وتوسل الإمام الشافعى بالإمام أبى حنيفة (وهو ميت) مذكور فى أوائل « تاريخ الخطيب » بسند صحيح [١] .

قصة ودّ وسواع :

والاحتجاج على منع التوسل بالموتى بقصة « ود وسواع » احتجاج بما هو غريب عن مواطن النزاع فلا يلتفت إليه ، لأن المغالطة شىء غير العلم المنهجى الصحيح ، ولسد الذرائع قواعد وشروط ، لا يتحقق منها شىء ههنا .

فـ « ودّ وسواع » عبدهما الناس حيث لا دين ولا كتاب ولا سنة ولا علم ، وقد مضى على كبار الصحابة والتابعين ، وكبار الأولياء عشرات المئات من السنين لم يصلّ لهم أحد ركعة واحدة ، ولم يتخذهم أحد أربابا من دون الله ، لوجود العلم والدين والكتاب والسنة ، وفرق ، واقعى ضخم بين التوسل والعبادة [٢] .

---

(١) ينظر : تاريخ بغداد للحافظ الخطيب البغدادى ١٢٣/١ .
(٢) الإفهام والإفحام ص ١٩ .

الاستدلال على التوسل بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم وغيره من الصالحين بعد الممات :

وأما أدلة التوسل والتشفع به صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته ولحاقه بالرفيق الأعلى وهو ما يتشدد المانعون فى جحده وإنكاره ، فإنها أدلة عظيمة الكثرة قاطعة الدلالة لدرجة أنها تلزم منكريها على خصوصى أحد أمرين : إما التسليم بها ، وإما التعسف الجائر الذى قد يجرهم إلى التردى فى مهاوى الشرك التى تصوروا فيها – بالجور والتعسف – أهل التوحيد الحقيقيين وهم الصفوة الصوفية الذين يدينون بالعقيدة الصحيحة فى ربهم تبارك وتعالى وفى نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم وفى صالحيهم من أولياء الله تعالى .

وتقرير ذلك أن الشيخ ابن تيمية وأتباعه إذ يجيزون – على خلاف بينهم – التوسل بدعاء الحى ، ويعدّون التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم وبغيره من الصالحين – بعد الممات – شركا .

نقول لهم : إن مذهب أهل السنة والجماعة يقر جواز التوسل والتشفع به صلى الله عليه وآله وسلم وكذا بغيره من الأنبياء أحياء وأمواتا – وجمهور الصوفية – باعتباره خاصة أهل السنة والجماعة – لا يعتقد تأثيرا بالخلق أو الضر أو النفع إلا لله وحده لا شريك له ، فالنبى صلى الله عليه وآله وسلم وغيره من الأنبياء والصالحين لا تأثير لهم بالاستقلال عن الله تعالى نفعاً أو ضراً وإنما يتوسل بهم ويتبرك بهم باعتبارهم أسبابا فى إجابة الدعاء ، ونجح المقاصد لكونهم أحباء الله تعالى ، وهم بهذا الاعتبار – أى بانتفاء تأثيرهم الذاتى الاستقلالى – لا يشترط فى التوسل بهم كونهم فى

هذه الحياة الدنيا ، لأن حرمتهم وجاههم المقبول عند الله تعالى لا ينقطعان بموتهم .

أما الذين يفرقون بين الأحياء والأموات في جواز التوسل بهم :

كالشيخ ابن تيمية ومن تبعه - فإنهم بذلك الفرق ملزَمون - بفتح الزاى - باعتقاد التأثير للأحياء دون الأموات مذعنون لتأثير غير الله تعالى وبذا يتسلل الإشراك إلى توحيدهم لكونهم اعتقدوا تأثير الأحياء دون الأموات .

بينما يدين المتوسلون اعتقادا وعملا بقوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ وبقوله تعالى : ﴿ **فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ** ﴾ وبقوله تعالى : ﴿ **وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا** ﴾.

فبالله كيف يدعون أنهم أهل التوحيد وينسبون غيرهم من المتوسلين إلى الإشراك ؟؟ إن هذا لشيء عجاب .

أدلة التوسل بالموتى :

بعد هذا كله نثبت أدلة التوسل والتشفع بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم وغيره من الأنبياء والصالحين بعد وفاتهم فيما يلى :

استدل الأئمة المثبتون للتوسل به صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته من القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا** ﴾ « النساء ٦٤ » .

فهذه الآية الكريمة عامة الدلالة على مشروعية التوسل فتشمل حالتى الحياة والوفاة وتخصيصها بأحدهما يحتاج إلى دليل وهو مفقود ههنـا .

وعموم الدلالة للحالتين مستفاد من وقوع الفعل « جاءوك » فى سياق الشرط والقاعدة المقررة فى علم أصول الفقه ، أن الفعل إذا وقع فى سياق الشرط كان عاما ، لأن الفعل فى معنى النكرة ، لتضمنه مصدرا منكرًا ، والنكرة فى سياق الشرط تكون للعموم وضعا ، لكن السلفية المتأخرة والوهابية يمنعون التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم وبغيره من الصالحين بعد الوفاة متوهمين أن الموت يحول دون تحقق المطلوب، وهو وهم كاذب وزعم باطل ، لأن الأنبياء أحياء فى قبورهم ، وكذا الأولياء ، لقوله تعالى ـ فى حق الشهداء : ﴿ ولا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ « آل عمران ١٦٩ » ..

ولا شك أن الأنبياء والأولياء أعلى رتبة وأفضل جهاداً من الشهداء، ولذا قدم ذكرهم عليهم فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ « النساء : ٦٩ » .

هذا وقد فهم الصحابة والسلف الصالح وجمهور المفسرين والمحدثين والفقهاء من قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ .. ﴾ إلخ الآية .. مشروعية التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى وأثرت عنهم فى التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم بعد انتقاله روايات وآثار عديدة تنطق بتعاضدها واشتهارها على ألسنة العلماء الأثبات ومصنفاتهم بحقية هذا التوسل ومشروعيته بل والندب إليه اقتداءً

بسلفنا الصالح .

ومن ثم تراهم يذكرون فى باب الحج والزيارة ـ عند الحديث عن آداب زيارته ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فى المسجد النبوى ـ استحباب قراءة هذه الآية عند الوقوف تجاه قبره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم استدلالا بهذه القصة التى نقلها العديد من الحفاظ والمفسرين ومنهم القسطلانى والسيوطى وابن كثير والقرطبى عن أبى سعيد السمعانى بسنده عن سيدنا على كرم الله وجهه أنه قال : « قدم علينا أعرابى بعدما دفنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بثلاثة أيام فرمى بنفسه على قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحثا على رأسه من ترابه فقال : قلت يارسول الله فسمعنا قولك، ووعيت عن الله فوعينا عنك ، وكان فيما أنزل الله عليه : ﴿ ولَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ .. ﴾ الآية وقد ظلمت نفسى ، وجئتك تستغفر لى فنودى من القبر أن قد غُفر لك ..

ومثل هذا الأثر مروى عن الهلالى والعتبى وعن ابن الأعرابى فى شعب الإيمان للبيهقى ، ومثير الغرام الساكن لابن الجوزى ، وتاريخ ابن عساكر وغيرهم ..

قصة العتبى في التوسل :

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى : ذكر جماعة منهم الشيخ أبو منصور الصباغ فى كتابه الشامل ، الحكاية المشهورة ، عن العتبى قال : كنت جالسا عند قبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم فجاء أعرابى فقال : السلام عليك يارسول الله سمعت الله تعالى يقول : ﴿ ولَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا

أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾.. وقد جئتك مستغفرا لذنبي مستشفعا بك إلى ربي .. ثم أنشد يقول :

يا خير من دُفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي فغلبتني عيني فرأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم في النوم فقال : الحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له .

فهذه القصة رواها الإمام النووي في كتابه المعروف بالإيضاح في الباب السادس ص ٤٩٨ ، ورواها أيضا الحافظ ابن كثير في تفسيره الشهير عند قوله تعالى : ﴿ ولَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ ... ﴾ الآية ..

ورواها أيضا الشيخ أبو محمد بن قدامة الحنبلي في كتابه المغني ٥٥٦/٣ وذكرها أيضا الشيخ أبوالفرج ابن قدمة في كتابه الشرح الكبير ٤٩٥/٣ ونقلها أيضا الشيخ منصور بن يونس البهوتي في كتابه المعروف « كشاف القناع » وهو من أشهر كتب الحنابلة ٣٠/٥ .

فهذه قصة العتبي وهؤلاء الأئمة والحفاظ والفقهاء الذين نقلوها وغيرهم كثير. وسواء أكانت صحيحة أو ضعيفة من ناحية السند الذي يعتمد عليه المحدثون في الحكم على أي خبر فإنا نتساءل ونقول : هل نقل هؤلاء الأئمة الثقاة الكفر والضلال ؟؟؟ أو نقلوا ما يدعو إلى الوثنية وعبادة القبور كما يزعم المتنطعون ؟؟!!!

إذا كان الأمر كذلك فأي ثقة فيهم أو في علمهم أو في كتبهم:

سبحانك هذا بهتان عظيم .

ومن دلائل التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته ما ذكره العلماء الثقاة فى كتبهم ومنهم الإمام الحافظ الدارمى فى كتابه « السنن » . « باب ما أكرم الله تعالى به نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بعد موته » .

حدثنا أبو النعمان حدثنا سعيد بن زيد حدثنا عمرو بن مالك البكرى ، حدثنا أبو الجوزاء أوس بن عبد الله قال : قحط أهل المدينة قحطا شديداً فشكوا إلى عائشة فقالت : انظروا قبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم فاجعلوا منه كُوّى - أى طاقة ونافذة - إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف ، قال : ففعلوا ، فمطرنا مطرا حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم ، فسمى عام الفتق . ا. هـ جـ ٤٣/١ .

فهذا توسل بقبره صلى الله عليه وآله وسلم لا من حيث كونه قبراً ، بل من حيث كونه ضم جسد أشرف المخلوقين وحبيب رب العالمين ، الذى لو وزن بالكونين لرجح كما قال : الحافظ ابن عقيل الحنبلى رحمه الله تعالى .. فتشرف بهذه المجاورة العظيمة واستحق بذلك المنقبة الكريمة.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى : أخبرنا أبو نصر بن قتادة وأبو بكر الفارسى قالا : حدثنا أبو عمر بن مطر ، حدثنا إبراهيم بن على الذهلى ، حدثنا يحيى بن يحيى ، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبى صالح عن مالك قال : أصاب الناس قحط فى زمن عمر بن الخطاب فجاء رجل إلى قبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يارسول الله استسق الله لأمتك فإنهم قد هلكوا ، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى المنام فقال: « إيت عمر فأقرئه منى السلام وأخبرهم أنهم مسقون ، وقل له : عليك

بالكيس الكيس ، فأتى الرجل فأخبر عمر فقال : يارب ما آلو إلا ما عجزت عنه . وهذا إسناد صحيح .

كذا قال الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية » جـ ٩١/١ في حوادث عام ثمانية عشر وروى هذا الخبر كذلك ابن أبي شيبة بإسناد صحيح من رواية أبي صالح السمان عن مالك الداري ـ وكان خازن عمر ـ .. وساق الحديث بتمامه . وقد روى سيف في الفتوح أن الذي رأى في المنام المذكور هو بلال بن الحارث المزني أحد الصحابة . قال ابن حجر: إسناده صحيح . من فتح الباري ٤١٥/٢ ولم يقل أحد من الأئمة الذين رووا الحديث ولا من بعدهم ممن مر بتصانيفهم من الأئمة إنه كفر وضلال ، ولا طعن أحد في متن الحديث به ، وقد أورد هذا الحديث ابن حجر العسقلاني وصحح إسناده كما تقدم ، وهو من هو في علمه وفضله ووزنه بين حفاظ الحديث مما لا يحتاج إلى بيان وتفصيل [1] .

وذكر الحافظ ابن كثير أن شعار المسلمين في موقعة اليمامة كان « يا محمداه » . فقال ما نصه : « وحمل خالد بن الوليد حتى جاوزهم ، وسار لجبال مسيلمة الكذاب وجعل يترقب أن يصل إليه فيقتله ، ثم رجع ووقف بين الصفين ، ودعا البراز ، وقال : أنا ابن الوليد العود ، أنا ابن عامر وزيد ثم نادى شعار المسلمين ، وكان شعارهم يومئذ (يا محمداه) البداية ٣٢٤/٦ .

حديث عرض الأعمال ودلالته على التوسل بعد الممات :

ثم كيف ينكر التوسل بحضرته صلى الله عليه وآله وسلم بعد مماته

---

(١) مفاهيم يجب أن تصحح ٦٦ ، ٦٧ .

وهو القائل : (حياتي خير لكم تحدثون ويُحْدَث لكم ، ووفاتي خير لكم ، تعرض على أعمالكم ، فما رأيت من خير حمدت الله عليه ، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم) .

رواه البزار في مسنده عن عبد الله بن مسعود ٣٠٨/٥ ، ٣٠٩ ، والحارث في مسنده وزوائد الهيثمي ٨٨٤/٢ ، وابن سعد في الطبقات ١٩٤/٢ ، والديلمي في الفردوس ١٨٣/١ ، ١٣٧/٢ ، قال العراقي في طرح التثريب ٢٩٧/٣ : « إسناده جيد » ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٤/٩ رواه البزار ورجاله رجال الصحيح ، وصححه السيوطي في الخصائص ٢٨١/٢ ، وقال الزرقاني في شرحه على الموطأ ٩٧/١ : رواه البزار بإسناد جيد ، كما نص كل من الشهاب الخفاجي وملا على القاري في (شرح الشفا) على أن إسناده صحيح . وقد أفرده برسالة خاصة وشرحه شرحا مستفيضا العلامة المحدث الشهير الشيخ عبد الله بن محمد الصديق الغماري أسماها « نهاية الآمال في شرح وصحة حديث عرض الأعمال » وهي من مطبوعات مكتبة القاهرة .

ولا يعارضه حديث الحوض الذي جاء فيه « فإنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » فإن أعمال أمته الإسلامية هي التي تعرض عليه ، أما من حيل بينهم وبين الشرب وأخذوا إلى جهة النار فهم من المرتدين ، أو المنافقين ، أو المُصرِّين على الكبائر ولهذا الحديث أكثر من تأويل وأكثر من توجيه .

يقول المضللون - عن حديث عرض الأعمال - هذا الحديث وإن اشتهر على ألسنة كبار الناس وصغارهم فقد خلت منه جميع كتب السنة ، وهذا كذب وزور وبهتان ترده الأدلة الدامغة .

ويقولون : ومع هذا فإن الذى رواه وقفه على ، بكر بن عبد الله المزنى ، وهو تابعى مشهور ، ومع ذلك لم يذكر فيه الصحابى أحد من رواة السنة ، لا فى صحيح الكتب ولا فى ضعيفها ، وهو منقطع ، لا يصلح للاحتجاج بـه .

وقـد رد على ذلك العلامة المحدث الثبت الشيخ عبد الله الصديق بقوله : الحديث المذكور حديث صحيح ولا مطعن فيه ولا مغمز ، وقد ورد من حديث ابن مسعود ، وأنس بن مالك ، ومن مرسل بكر بن عبد الله المزنى وهو يدل على أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم يعلم أعمالنـا بعرضها عليه ، ويستغفر الله لنا على ما فعلنا من سيئ أو قبيح ، وفى هذا دلالة صريحة على أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم يشفع لأمته بعد انتقاله باستغفاره لهم من ذنوبهم التى تعرض عليه ويحمده الله تعالى لما يراه من خير أعمالهم وهو فى حياته البرزخية ، ومن ثم يجوز التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم بعد الانتقال ، لأننا لم نحجب عنه صلى الله عليه وآله وسلم وإن غاب عن عامتنا .

وكما نص الحديث الشريف على خيرية حياته لأمته كذلك نص على خيرية وفاته لنا ، فإن الخيرية والانتفاع والاستشفاع به لم ينقطع بانتقاله إلى الرفيق الأعلى فكيف ينكر التوسل به وهو فى دار الحق وأعمالنا تعرض عليه صلى الله عليه وآله وسلم ..

رد شبهة وفريـة :

أما أن الحديث خلت منه جميع كتب السنة فهذا كذب وجهل ، فإن الحديث موجود فى كثير من كتب السنة كما سبق تخريجه بالجزء والصفحة

فى كل منها أما عن رواية وقفه على بكر بن عبد الله المزنى ، فهذا خطأ ناشئ عن جهل فإن مثل هذا لا يسمى موقوفا ، ولا يمكن أن تنطبق عليه حقيقة الموقوف بحال من الأحوال ، وإنما تنطبق عليه حقيقة « المرسل » لا غير .

أما إنه لم يذكر فيه الصحابى أحد من رواة السنة ، لا فى صحيح الكتب ولا فى ضعيفها فكذب مبنى على الجهل، فإن الحديث وارد من طريق ابن مسعود وأنس رضى الله تعالى عنهما ، وورد من طريق سعيد الشامى ومجاهد ، بل وصلت طرقه إلى عشرين طريقا ، فانتفى القول بضعفه ، فهو صحيح من كل وجه وإن شئت الاستزادة فراجع رسالة « نهاية الأمال » للشيخ عبد الله الغمارى .

كرامة للمتوسل به صلى الله عليه وآله وسلم :

وهذا دليل عملى للتوسل به صلى الله عليه وآله وسلم عند قبره الشريف يتحقق لثلاثة من أكابر علماء الحديث ، ويرويه ابن الجوزى (السلفى) والحافظ السخاوى « فى القول البديع » عن أبى بكر المقرى إذ قال فى (مسند أصبهان) كنت أنا والطبرانى وأبو الشيخ فى مدينة النبى صلى الله عليه وآله وسلم فضاق بنا الوقت فواصلنا ذلك اليوم – أى واصلوا الصوم – فلما كان وقت العشاء أتيت إلى القبر الشريف وقلت : يا رسول الله الجوع الجوع !! فقال لى الطبرانى : اجلس فإما أن يكون الرزق أو الموت فقمت أنا – يعنى السخاوى – وأبو الشيخ ، فحضر الباب علوى ففتحنا له فإذا معه غلامان بزنبيلين فيهما شيء كثير – يعنى من الطعام – فقال ياقوم شكوتم إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فإنى رأيته فأمرنى بحمل شيء إليكم !!

الشيخ ابن تيمية يؤيد هذه الواقعة وأمثالها !

ومن العجيب أن الشيخ ابن تيمية قد نقل فى كتبه مثل هذا الأثر وأقر صحته ورفع اللوم عمن التجأ إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم وطلب أمام قبره الشريف نوعـًا من الأطعمة وأجيب دعاؤه ، وذلك إذا كان مجتهداً أو مقلداً أو قاصرا فى العلم، إذ قال فى « اقتضاء الصراط المستقيم » مانصه: « وكذلك حكى لنا أن بعض المجاورين بالمدينة جاء قبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم فاشتهى عليه نوعًا من الأطعمة ، فجـاء بعض الهاشميين إليه ، فقال : إن النبى صلى الله عليه وآله وسلم بعث إليك هذا ، وقـال لك : اخرج من عندنا ، فإن من يكون عندنا لا يشتهى مثل هذا ، وآخرون قضيت حوائجهم ، ولم يقل لهم مثل هذا ، لاجتهادهم أو تقليدهم، أو قصورهم فى العلم ، فإنه يغفر للجاهل ما لا يغفر لغيره ا. هـ

فبالله كيف بعد هذا الإقرار والتقرير من الشيخ ابن تيمية للتوسل به صلى الله عليه وآله وسلم والطلب منه وهو فى قبـره الشريف ، وإجابة المتوسل ورفع اللائمة عنه لاجتهاده أو لتقليده أو حتى لجهله .. كيف يرمى هذا التوسل من أتباعه بالكفر والشرك؟؟ هذا لعمرى فى القياس بديع[1] .

(١) معالم الطريق الصوفى ٣١ ، ٣٢ .

دليل مشروعية التوسل بغير النبى صلى الله عليه وآله وسلم من الأولياء والصالحين أحياءً ومنتقلين :

جـاء فى صحيح السنة النبوية ما يدل صراحـة على التوسل بغير النبى صلى الله عليه وآله وسلم من آل بيته والصالحين عامة .

فقد روى البخارى بسنده عن أنس رضى الله تعالى عنه أن عمر بن الخطـاب رضى الله تعالـى عنـه كان إذا قحطـوا استسقـى بالعبـاس ابن عبد المطلب فقال ، اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، قال : فيسقون ..

وقد ذكر الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى) ٤٩٧/٢ رواية الزبير ابن بكار فى ، الأنساب ، من طريق غيره هذه القصة بأبسط من هذا ، وتلخيصها ـ عن عبد الله بن عمر ـ رضى الله تعالى عنهما قال : استسقى عمر بن الخطاب عام الرمادة ـ سمى بذلك لكثرة تطاير الرماد لاحتباس المطر ـ بالعباس بن عبد المطلب فقال : يا أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كان يرى للعباس ما يرى الولد للوالد ، فاقتدوا أيها الناس برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى عمه العباس واتخذوه وسيلة إلى الله : ادع يا عباس ، فكان من دعائه رضى الله تعالى عنه : اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة ، وقد توجه القوم بى إليك لمكانى من نبيك. ، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ، ونواصينا إليك بالتوبة فاسقنا الغيث ، واحفظ اللهم نبيك فى عمه .

فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض وعاش الناس ..

وأقبل الناس على العباس يتمسحون به ، ويقولون : هنيئا لك يا ساقى

الحرمين ، وقال عمر رضى الله تعالى عنه ذلك : « هذا ـ والله ـ الوسيلة إلى الله والمكان منه » .. وفى ذلك أنشد عباس بن عتبة ابن أخيه أبياتا منها :

بعمى سقى الله الحجاز وأهله عشية يستسقى بشيبته عمــر

وقد روى ابن عبد البر فى كتابه « الاستيعاب » سبب استسقاء عمر بالعباس رضى الله تعالى عنه حيث يقول فيه : «إن الأرض أجدبت إجدابا شديداً على عهد عمر » زمن الرمادة » وذلك سنة سبع عشرة ، فقال كعب : يا أمير المؤمنين إن بنى إسرائيل كانوا إذا أصابهم مثل هذا استسقوا بعصبة الأنبياء ، فقال عمر : هذا عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصنو أبيه وسيد بنى هاشم ، فمشى إليه عمر وشكا إليه .. » فهل استبان الآن أن استسقاء عمر بالعباس لم يكن من جهة أن الرسول ميت لا يسمع نداءً ، ولا جاه له عند الله تعالى ؟ حاشى لله ، ما هذا إلا إفك مفترى .

وقول عمر فى الاستسقاء: « وإنا نتوسل إليك بعم نبينا » نص على توسل الصحابة بالصحابة ، وفيه إنشاء التوسل بشخص العباس رضى الله تعالى عنه وليس فى هذه الجملة « فائدة الخبر » ـ كما يقول أهل البلاغة ـ لأن الله تعالى يعلم توسل المتوسلين ولا « لازم فائدةالخبر» لأن الله تعالى يعلم أيضا علم المتوسلين بتوسلهم .. فتمخضت الجملة لإنشاء التوسل بالشخص.

وقوله « كنا نتوسل » فيه أيضا ما فى الجملة الأولى .. على أن قول الصحابى « كنا نفعل كذا » ينصب على ماقبل زمن القول ، فيكون المعنى : أن الصحابة رضى الله تعالى عنهم كانوا يتوسلون به صلى الله

عليه وآله وسلم في حياته وبعد لحوقه بالرفيق الأعلى إلى عام الرمادة وقصر ذلك على ما قبل وفاته صلى الله عليه وآله وسلم تقصير عن هوى ، وتحريف لنص الحديث وتأويل بدون دليل ..ومن حاول إنكار جواز التوسل بالأنبياء بعد موتهم بعدول عمر إلى العباس في الاستسقاء قد حاول المحال، ونسب إلى عمر رضى الله تعالى عنه ما لم يخطر له على بال فضلا عن أن ينطق به ، فلا يكون هذا إلا محاولة إبطال السنة الصحيحة الصريحة بالرأى . وفعل عمر إنما يدل على أن التوسل بقرابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الأحياء جائز كجوازه بالنبى عليه وعليهم الصلاة والسلام ليس غير(١) .

ويقول الشيخ محمد زاهد الكوثرى رحمه الله تعالى ـ في مقالته ـ سبق أن تلونا قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ احتجاجا به على أن التوسل بالذوات والأعمال مطلوب شرعاً لشمول ابتغاء الوسيلة لهذا وذاك ، لا بمجرد الرأى فقط ولا بالعموم اللغوى فحسب . بل بما رواه ابن عبد البر في الاستيعاب عن عمر رضى الله تعالى عنه ـ كما قدمنا ـ أنه قال بعد أن استسقى بالعباس رضى الله تعالى عنه وسقوا : « هذا ـ والله ـ الوسيلة إلى الله عز وجل والمكان منه » ، وزد على ذلك قول عمر رضى الله تعالى عنه أيضا كما في أنساب الزبير بن بكار على ما في « فتح البارى » : « واتخذوه ـ يعنى العباس ـ وسيلة إلى الله » ، ولا يتصور أن يكون هذا بمعنى اطلبوا الدعاء منه ، لأن عمر طلب منه الدعاء وتقدم هو للدعاء ، وبعد طلب أمير المؤمنين منه الدعاء وتقدمه

---

(١) محق التقول في مسألة التوسل للشيخ العلامة محمد زاهد الكوثرى ضمن مقالات الكوثرى ص ٣٨٠ .

للدعاء إجابه لطلب عمر لا يكون قول عمر هذا إلا بمعنى : « توسلوا به إلى الله ، كما فعل عمر نفسه ، لكن الهوى يعمى ويصم .. وفى فتح البارى ٣٣٧/٢ ، وليس فى قول عمر إنهم كانوا يتوسلون به « دلالة على أنهم سألوه أن يستسقى لهم ، إذ يحتمل أن يكونوا فى الحالين طلبوا السقيا من الله مستشفعين به صلى الله عليه وآله وسلم ، وقال ابن رشيد : أراد بالترجمة « باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء » الاستدلال بطريق الأولى ، لأنهم إذا كانوا يسألون الله به فيسقيهم فأحرى أن يقدموه للسؤال ا. هـ

ثم قال الشيخ الكوثرى : وكلام الحافظين يقضى على وهم من يهم قائلا: إن التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم هو طلب الدعاء منه ، وأين التوسل من الدعاء؟. نعم قد يدعو المتوسَّل به للمتوسِّل ، لكن ليس هذا مدلولا لغويا ولا شرعيا للتوسل[1].

ولقد عقب الحافظ ابن حجر شرحه للحديث المذكور باستنباط ما نحن بصدده من بيان جواز التوسل والاستشفاع بغير النبى صلى الله عليه وآله وسلم من الأولياء والصالحين لا سيما أهل بيت النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ قال : « ويستفاد من قصة العباس : استحباب الاستشفاع بأهل الخير والصلاح وأهل بيت النبوة ، وفيه فضل العباس وفضل عمر لتواضعه للعباس ومعرفته بحقه » .

ومما يدل على جواز التوسل بغير النبى من الأنبياء والأولياء بعد انتقالهم إلى الحياة البرزخية ما أخرجه ابن ماجه فى سننه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه أنه قال .. قال : رسول الله صلى الله عليه

---

(١) المرجع السابق ص ٣٨٦ ، ٣٨٧ .

وآله وسلم ، من خرج من بيته إلى الصلاة فقال : « اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك ، وأسألك بحق ممشاى هذا فإنى لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة ، وخرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك فأسألك أن تعيذنى من النار ، وأن تغفر لى ذنوبى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك » ٢٥٦/١ من سنن ابن ماجه .. قال الحافظ البوصيرى فى مصباح الزجاجة ٩٨/١ : « لكن رواه ابن خزيمة فى صحيحه من طريق فضيل بن مرزوق » فهو صحيح عنده ، ورواه أحمد فى المسند ٢١/٣ ، وابن ابى شيبة فى المصنف ٢٥/٦ ، وابن خزيمة فى التوحيد ١٧ ، ١٨ وكذلك رواه الطبرانى فى الدعاء ٩٩٠/٢ ، والبيهقى فى الدعوات الكبير ص ٤٧ ، وابن السنى فى عمل اليوم والليلة ص ٤٠ ، وعلى بن الجعد البغدادى فى مسنده ٢٩٩/١ ، والحديث حسنه الحافظ أبو الحسن المقدسى كما فى الترغيب للمنذرى ٣٠٤/٢ ، وحسنه الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء ٢٩١/١ والحافظ ابن حجر فى أمالى الأذكار ٢٧٢/١ قال الشيخ محمد زاهد الكوثرى رحمه الله تعالى بعد ذكر طرقه ورواته فى مختلف كتب السنة : وبعد التصريح بالخدرى لا يبقى احتمال التدليس ولا سيما مع المتابعة وابن مرزوق ترجح توثيقه عند مسلم فروى عنه فى صحيحه .

على أن الحديث مروى بطريق بلال - رضى الله تعالى عنه - أيضا فلا تنزل درجة الحديث مهما نزلت عن درجة الاحتجاج به ، بل يدور أمره بين الصحة والحسن لكثرة المتابعات والشواهد[1] .

---

(١) يراجع مقالات الكوثرى ص ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ .

ولعلك تلاحظ أن « السائلين » هنا تشمل الأحياء والأموات.. ووجه الاستدلال بهذا الحديث الشريف : أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم يعلم أمته ويرغبهم فى التوسل بحق أهل الصلاح والخير من المؤمنين السائلين له على سبيل العموم ، وفى مقدمتهم الأنبياء والمرسلون ، ثم عامة المسلمين وخاصتهم أحياء وأمواتا ، إذ لا شك أن حق أرباب الخير لا يبطل بموتهم ، بل يثبت ويتأكد ، لأن الدار الآخرة هى محل وفاء الله لعباده الصالحين بالحقوق التى التزمها لهم تفضلا منه وتكرما كما قال تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ..

فالمراد بالحق : ما يستحقه هؤلاء السائلون المتضرعون فضلا من الله وكرماً أو بمعنى آخر: هو ما جعل الله لهم من الحرمة عنده والكرامة عليه.

أو أن الحق ـ كما نقل عن الشيخ ملا على القارى ـ مصدر، لا صفة مشبهه ، فيكون المعنى بحقية نبيك والأنبياء ، أى بكونهم حقا ، لا بكونهم مستحقين ، ومع كل : فإن الكلام فى إطلاق اللفظ . وليس فى بيان المعنى وقد ثبت بالنصوص العديدة .

لقد أثبت هذا الحديث الشريف أن من هدى النبوة التوسل بالصالحين من عباد الله أحياء ومنتقلين من غير تفرقة ، لأن الموت لا يضيع منازل الناس عند الله تعالى ـ وقد قال الله تعالى ـ مثبتا هذا الحق لمن اصطفى من أحبابه ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ﴾ ﴿ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ﴾ فهل نقصت درجاتهم ومنزلتهم عند الله أو ذهبت؟؟!!!

ومن ثم فإننا نقول لمنكرى التوسل بالأنبياء والأولياء بعد مماتهم

خاصة : ما الحامل لكم على هذا الإنكار والتفرقه فى التوسل بين الأحياء فى هذه الدار والمنتقلين عنها إلى الحياة الآخرة ؟؟إن كان الدافع إلى إنكاركم هو افتقاد المتوسل به (المتوفى) للقدرة والتأثير اللذين يتمكن بهما من أداء ما يطلبه المتوسل ، لأنه قد صار بالموت عدما وفناءً لا يحس ولا يدرك ولا يؤثر . فقد أخطأتم مرتين : مرة لإسنادكم القدرةوالتأثير على الاستقلال للتوسل به الحى ـ بدليل تفرقتكم بينه وبين الميت ـ إذ لو كان التوسل شركا لما جاز بالحى ولا بالميت ، بينما يعتقد المتوسلون إسناد التأثير والقدرة الذاتية لله تعالى وحده ، والوسائل أسباب ينال بها تأثير وفعل المسبب جل وعلا .. كما قال سيدى أحمد الدردير فى خريدته ......

والفعل فى التأثير لــيس إلا   للواحد القهار جل وعـــلا

ومرة خرى أخطأتم لقصور نظركم ، واعتقادكم فى الموت أنه عدم محض وفناء حائل بين الميت ، وبين إدراك عالم الأحياء فى الدنيـا ، مع أن حياة الأموات ـ كما تنطق شواهد الكتاب والسنة ـ أكمل وأتم من حياة أهـل الدنيا ، والأنبياء والأولياء والشهداء لهم أوفى نصيب ، وأكمل قدر من تلك الحياة .

بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (مررت ليلة أسرى بى على موسى قائما يصلى عند قبره) رواه مسلم فى صحيحه .

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلى رحمه الله تعالى فى كتاب « أهوال القبور »: « بعض أهل البرزخ يكرمه الله تعالى بأعماله الصالحة فى البرزخ وإن لم يحصل له بذلك ثواب تلك الأعمال لانقطاع عمله بالموت، لكن إنما يبقى عمله عليه ليتنعم بذكر الله وطاعته كما يتنعم بذلك الملائكة وأهل

الجنة فى الجنة ، ا. هـ

وناهيك بحديث عرض الأعمال على الأقارب المتوفين ودعائهم لذويهم . كما روى ذلك الإمام أحمد فى مسنده عن أنس رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات فإن كان خيرا استبشروا وإن كان غير ذلك قالوا : « اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا » .

فبالله .. إذا كان عامة الأموات تعرض عليهم أعمال أقربائهم ويعرفونها ويفرحون لخيرها ، ويتوسلون بالدعاء لأصحاب سيئها من غير أن يدرى أحياء الدنيا بذلك فكيف بأولياء الله الصالحين الذين قال الله تعالى فى شأنهم : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ « الزمر: ٣٤، الشورى: ٢٢».

ومن أدلة التوسل بغير النبى صلى الله عليه وآله وسلم ما روى عن عتبة بن غزوان عن نبى الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : (إذا أضل أحدكم شيئا أو أراد عوناً وهو بأرض ليس بها أنيس فليقل : يا عباد الله أعينونى ، فإن لله عباداً لا نراهم) وقد جرب ذلك رواه الطبرانى ، ورجاله وثّقوا على ضعف فى بعضهم ، إلا أن يزيد بن على لم يدرك عتبة.

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن لله ملائكة فى الأرض سوى الحفظة يكتبون مايسقط من أوراق الشجر ، فإذا أصاب أحدكم عرجة بأرض فلاة فليناد أعينونى يا عباد الله .. رواه الطبرانى ورجاله ثقاة .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه قال : قال

رسول الله صلى الله عليه واله وسلم : (إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فلينادِ : يا عباد الله احبسوا يا عباد الله احبسوا فإن لله حاضرا فى الأرض سيحبسه) .. رواه أبو يعلى ، والطبرانى ، وزاد « سيحبسه عليكم » وفيه معروف بن حسان وهو ضعيف ا. هـ من مجمع الزوائد للهيثمى ١٠/١٣٢

فهذا توسل فى صورة النداء أيضا [١] .

وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا لفاطمة بنت أسد رضى الله تعالى عنها أم الإمام على كرم الله وجهه عند قبرها فقال : (الله الذى يحيي ويميت وهو حي لا يموت ، اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ، ولقّنها حجتها ، ووسع عليها مُدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى فإنك أرحم الراحمين) ..

رواه الطبرانى فى الأوسط ١/٦٧، ٦٨ ، وفى الكبير ٢٤/٣٥١، وقال : « لم يرو هذا الحديث عن عاصم الأحول إلا سفيان الثورى ، تفرد به روح بن صلاح وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٩/٢٥٧ : وفيه روح ابن صلاح ، وثقه ابن حبان والحاكم ، وفيه ضعف ، وبقية رجاله رجال الصحيح » والحديث رواه أبو نعيم فى حلية الأولياء ٣/١٢٠ ، وابن الجوزى فى العلل المتناهية ١/٢٧٠ .

وقد روى أصل الحديث ابن عبد البر عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وابن أبى شيبة عن جابر رضى الله تعالى عنه وأخرجه الديلمى ، فطرقه الكثيرة يشد بعضها بعضا بقوة وتحقيق [٢] .

---

(١) مفاهيم يجب أن تصحح ٦٨، ٦٩ .

(٢) الإفهام والإفحام ص ٣١ ، ٣٢ .

ونلاحظ أن الأنبياء الذين توسل النبى صلى الله عليه وآله وسلم بحقهم إلى الله تعالى فى هذا الحديث وغيره قد ماتوا ، فثبت جواز التوسل إلى الله تعالى ، بالحق ، وبأهل الحق ، أحياء ومنتقلين ؛ فهل بعد هذا من حجة لمانعي التوسل؟! اللهـم لا قوة إلا بـــك .

ولك أن ترجع الحق إلى معنى آخر كالفضل والبركة ونحوه ، والباب واسع وما ضاقت الصدور إلا بالجهل والتقليد الأعمى والعصبية والنفعية والوصولية[١] . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

قصة في توسل أحد الحنابلة بالإمام أحمد بعد موته:

والغريب من هؤلاء الذين يحرمون التوسل بالصالحين ويعدونه شركاً ثم يدعون أنهم على مذهب الإمام أحمد رضى الله تعالى عنه مع أن الحافظ عبد الرحمن بن الجوزى قد روى بسنده التوسل به بعد موته فقال ـ كما فى مناقب الإمام أحمد ـ عن أبى بكر محمد بن عيسى قال : حدثنى عبد الله بن موسى ـ وكان من أهل السنة ـ قال: خرجت أنا وأبى فى ليلة مظلمة نزور أحمد ، فاشتدت الظلمة ، فقال أبى : يا بنى تعال حتى نتوسل إلى الله تعالى بهذا العبد الصالح حتى تضىء لنا الطريق فإنى منذ ثلاثين سنة ما توسلت به إلا وقضيت حاجتى ، فدعا أبى وأمنت على دعائه ، فأضاءت السماء كأنها ليلة مقمرة حتى وصلنا إليه وأخبرناه بنجاح توسلنا به . فحمداً لله تعالى[٢] .

فأنت ترى ما ذكره الحافظ ابن الجوزى أن السفر لزيارة أحباب الله

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) راجع مناقب الإمام أحمد لابن الجوزى .

تعالى والتوسل بهم أمر مندوب ومعروف من قبل أن يأتى الشيخ ابن تيمية كما وقع لمن سافر لزيارة الإمام أحمد وتوسل به ، ولكن دأب هذه الحفنة المفتنة أن يرفضوا كل ماكان حجة عليهم ، شأن المغالط الذى لا يقبل إلا ما وافق رأيه وهواه .

كلام مهم للشيخ ابن القيم في قوة الروح بعد خروجها من البـــدن:

قـال الشيخ العلامـة ابن القيم رحمه الله تعالـى فى « كتاب الروح » : « فللروح المطلقة من أسر البدن وعلائقه وعوائقه من التصرف والقوة والنفاذ والهمة وسرعة الصعود إلى الله تعالى والتعلق بالله تعالى ما ليس للروح المهينة المحبوسة فى علائق البدن وعوائقه ، فإذا كان هذا وهى محبوسة فى بدنها ، فكيف إذا تجردت وفارقته ، واجتمعت فيها قواها ، وكانت فى أصل شأنها روحا عليّة زكية كبيرة ذات همة عالية ، فهذه لها بعد مفارقة البدن شأن آخر ، وفعل آخر .

وقد توارت الرؤى فى أصناف بنى آدم على فعل الأرواح بعد موتها مالا تقدر على مثله حال اتصالها بالبدن ، من هزيمة الجيوش الكثيرة بالواحد والإثنين والعدد القليل ونحو ذلك ، وكم قد رئى النبى صلى الله عليه وآله وسلم ومعه أبوبكر وعمر رضى الله تعالى عنهما فى النوم قد هزمت أرواحهم عساكر الكفر والظلم ، فإذا بجيوشهم مغلوبة مكسورة ، مع كثرة عَددهم وعُددهم وضعف المؤمنين وقلتهم » .. ا. هـ بحروفه ، وهو كلام مهم جداً فليتأمل .

من معنى قولهم : مدد يا سيدى :

القائل : « مدد يا سيدى فلان » فهو : إما أن يطلب المدد من الحى ، أو من الميت « مددا معنويا » .

فطلب من الحى معناه : طلب دعائه ، وإرشاده ، وروحانيته ، وتوجيهه ، وتربيته ، وبركة صلاحه وتقواه ، وسره مع الله تعالى ، وما هو من هذا السبيل ، وطلب المدد من الميت معناه : طلب التوسل به إلى الله ، والاستشفاع به إليه تعالى فى قضاء الحوائج ، ودفع الجوائح ، والتماس بركة مقامه عند الله تعالى والاستمداد من مدد الله تعالى وسره ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ « الإسراء : ٢١ » .

وقد يحمل طلب المدد على معنى طلب الدعاء من الروح فى عالم الطهر والنور، وقد علمت ما قرره الشيخ ابن القيم رحمه الله تعالى ـ مما سبق ـ أن للأرواح قوة وطاقة وقدرة لا يتصورها البشر ، حتى إن روحاً واحدة عظيمةتؤثر فى جيش كامل.. وإن كنا لا نميل إلى هذا الجانب ـ سداً للذريعة ـ إلا أننا نثبته ههنا ، تنزها عن تكفير المسلمين وإخراجهم من ملة الإسلام بفعل يقبل التأويل عند أهل العلم[١] .

كلام نفيس للعلامة حبيب الله الشنقيطي :

قال الشيخ رحمه الله تعالى فى شرح حديث البخارى ومسلم « وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون » ولا حذر شرعاً فى نداء الميت ، فلا فرق بين نداء إبراهيم الصغير فى هذه الحالة ، وبين ندائه صلى الله عليه وآله

---

(١) الإفهام والإفحام ص ٤٩ ، ٥٠ بتصرف يسير .

وسلم أهل القبور ، وتعليمه ذلك لأصحابه كما رواه مسلم عن بريدة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين والمسلمات ، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون » فقوله « أهلَ الديار » منصوب على النداء ، أى يا أهل محذوف حرف النداء .

فهذا كله (نداء للميت) وخطاب له من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذى جاء بنفى الشرك وسد جميع الذرائع الموصلة إليه ، وقاتل الناس على كلمة التقوى وهى « لا إله إلا الله محمد رسول الله » صلى الله عليه وآله وسلم وكان أحق بها وأهلها كما دل عليه القرآن فيه وفى أصحابه رضوان الله تعالى عليهم وقد كان عمل الصحابة بعده صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك وكما يفهم من قوله صلى الله عليه وآله وسلم لأهل القليب. كما فى البخارى ومسلم « هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقا »ومن فعل أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه بعد موت النبى صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن كُفن وسجى ببرد حبرة حيث قال : « بأبى أنت يا نبى الله » بياء النداء للميت التى يزعم الجهلة أن نداءه بها شرك أكبر يبيح الدم والمال فكيف يتوهم أن أبا بكر صار مشركا بقوله « يا نبى الله » بعد موت النبى صلى الله عليه وآله وسلم ومع هذا يتفق جميع المهاجرين والأنصار بل وجميع المسلمين من التابعين أيضا على بيعته ،وأنه الأحق بخلافة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن حصل ماحصل من نزاع فى سقيفة بنى ساعدة حسبما هو معلوم .

(فإن قال) المانع لهذا النداء : إنه لا يمنع منه إلا ما كان يتضمن

استغاثة بصاحب القبر (فالجواب) أنه إذا جاز واستمر عليه عمل الصحابة حسبما بيناه لا يمنعه تضمنه للاستغاثة ، لأن الاستغاثة بالأنبياء عليهم السلام جائزة بلا خلاف .

ومما يدل لجواز هذا النداء المتضمن للاستغاثة ما أخرجه الحافظ ابن السنى فى عمل اليوم والليلة ، والإمام النووى فى الأذكار من طريقه أن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما خدِرتْ رجله فجلس فقال له رجل: اذكر أحب الناس إليك فقال (يا محمداه) فقام فمشى ، وأخرج فى رواية أخرى عن ابن عمر أيضا أنه لما خدرت رجله قال : يا محمد صلى الله عليك وسلم فقام وكأنما نشط من عقال وكذا أخرجه أبو نعيم فى المستخرج على كتاب ابن السنى .

وروى ابن السنى أيضا مثل ذلك عن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه خدرت رجْل رجُل عنده فقال ابن عباس : اذكر أحب الناس إليك فقال : (محمد) صلى الله عليه وآله وسلم فذهب خدره .

وأخرج فى رواية أخرى عن عبد الرحمن بن سعد قال : كنت عند ابن عمر فخدرت رجله فقلت : يا أبا عبد الرحمن ما لرجلك؟ قال : اجتمع عصبها من ههنا فقلت : ادع أحب الناس إليك ، فقال : يا محمد فانبسطت .

وقوله ، ادع ، أى نادِ أحب الناس إليك .

فهذه الروايات كلها فيها نداؤه صلى الله عليه وآله وسلم بقصد الاستشفاء باسمه الشريف المبارك من الخدر ، وفيها حصول الإجابة بسرعة لمن ناداه أيضا كما وقع لابن عمر وابن عباس رضى الله تعالى عنهما وهذا

هو عين الاستغاثة به صلى الله عليه وآله وسلم .

، فقد علم ، مما سقناه من أدلة واضحة أن نداء الأموات جائز شرعًا ولا يسمى عبادة ولا شركاً كما يتوهم المانـع .

، **أما قـولـه** ، من ناداهم بعد ندائه إياهم فيُنظر فيه : فإن قال : يا رسول الله السلام عليك صلى الله عليك وسلم ، أو يارسول الله عليك الصلاة والسلام إني أتوسل بك إلى ربى فى قضاء حاجتى فهو أمر جائز بلا خلاف عند أهل السنة سلفا وخلفا ، وقد فعله الصحابة والأئمة الكبار والعلماء العاملون الأخيـار .

وإن قال بعد ندائه : يارسول الله أنت ربى ، أو أنت معبودى ، فهو كافر بلا شك ، مرتد عن دين الإسلام ، وإن قال بعد ندائه : يا رسول الله ارحمنى أو اغفر لى فقد قال ما لا يجوز ، وخالف الشرع ، لأن الرحمة والغفران إنما يطلبان من الله تعالى ، (لكن) لا يُكفّر بذلك ، بل يؤوّل قولـه : بأن يحمل على أنه عنى باغفر لى وارحمنى ، أى كن لى سببًا بشفاعتك فى غفران الله لى أو رحمته لى ، على أن هذا القول لا ينبغى صدوره من موحد ولو كان عاميا كما لا يخفى .

(وإن كان) المنادَى من الأموات غير نبى فينظر فى قول من ناداه بعد ندائه فإن توسل به ، وكان الميت ممن هو أهل لذلك بأن كان ممن اشتهر بالعلم والصلاح ففى التوسل به خلاف ، والمختار عند المحققين جوازه . وعليه عمل جمهور الأمة سلفا وخلفا ، ولا وجه لتكفير فاعله .

وإن كان المنادَى من غير أهل الصلاح والعلم ، فلا وجه للتوسل به ، إذ لم تشهد له أدلة السنة المطهرة .

وبما حققناه هنا مع الإيضاح والبيان والتزام الإنصاف يعلم ما فى إجمال بعض أهل العلم المانعين لنداء الأموات مطلقا من التلبيس وعدم التحقيق وعدم الذوق ، والتسرع إلى تكفير المسلمين بلا دليل قاطع على ذلك ..

ثم قال الشيخ الشنقيطى رحمه الله تعالى بعد أن تحدث عن حكم نداء الغائب بالأحاديث الصحيحة التى رواها البخارى ومسلم وغيرهما ـ وقد مر بعضها ـ :وإنما أطلت فى هذا المعنى وإن كان كتابى « زاد المسلم وشرحه » بمعزل عن تتبع مثل هذه الشبه وردها لعموم البلوى بسؤال العامة لى ولغيرى من أهل العلم عمن قال : يارسول الله أو يا سيدى يابدوى أو يا سيدتى زينب .. هل هذا شرك أو هو جائز .. وماذا يترتب على قوله فتعين عليّ بيان ما علمنى الله به فى هذا المعنى خروجاً من عهدة كتم العلم المنهى عنه بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا ﴾.. إلخ الآية[1]. « البقرة : ١٥٩، ١٦٠ »

تنبيه وتحذير يتصل بقضية المجازفة بالتكفير :

هذه المسألة أى « نداء الغائب والاستغاثة به » من المسائل التى يحكم فيها من لا علم عنده بأطراف المسألة ، وبما قاله أهل العلم الراسخون ـ بكفر من قال بذلك فى شأن الأولياء والصالحين ، وهذا من أعظم الخطر فالواجب عليه أن يتوب إلى الله تعالى توبة نصوحاً ، ولا يحكم بتكفير المسلمين بتأويلات باطلة وحجج واهية آفلة فهو آثم مرتين :

---

(١) زاد المسلم للشيخ الشنقيطى وشرحه جـ ٥, ٨١ ، ٨٢ .

الأولى : إثمه بتأويل القرآن برأيه الفاسد الذى لم يستند فيه لدليل شرعى تطمئن إليه النفس كالخوارج الذى يحملون ما نزل فى القرآن فى شأن الكافرين والمشركين على المسلمين الموحـــدين كما وصفهم سيدنـــا عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما كما رواه البخارى عنه .

والثانية : إثمه بتكفير جميع المسلمين بفهمه القاصر السقيم .

ومن المعلوم شرعاً كما نص عليه الأئمة أن من أدخل ألف ملحد فى الإسلام بلفظ يحتمل الإسلام من وجه واحد ويحتمل الكفر من وجه أقرب إلى الله تعالى ممن أخرج مسلما واحداً من الإسلام بلفظ يحتمل الكفر من وجوه ويحتمل الإسلام من وجه واحد .

إذ لا يجوز حمل المسلم على الارتداد بلفظ يحتمل الكفر إذا كان يحتمل الإسلام كما هو مقرر فى محله .. وقد أشار إلى ذلك العلامة الشيخ محمد العاقب فى نظم فتاوى المالكية لمجدد العلم بالقطر الشنقيطى العلامة سيدى عبد الله ابن الحاج إبراهيم العلوى الشنقيطى بقوله :

والارتـــداد لا عليه يحمـل ... لفظ له على ســواه محمل

فمدخـــل ألفا من الملاحـدهْ ... أقرب من مخرج نفس واحدهْ

وقد روى البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة رضى الله تعالـى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « أيما امرئ قال لأخيه : يا كافر فقد باء بها أحدهما ، إن كان كما قال ، وإلا رجعت عليه » وهو يزيد ما قرره العلماء هنا من منع تكفير المسلمين بنداء أصحاب القبور ، للسلام عليهم ، أو للتوسل بهم إلى الله تعالى إن كانوا أهل صلاح يجوز

بمثلهم التوسل إلى الله تعالى كما إذا قال : المنادى لصاحب القبر الصالح : يا فلان إنى أتوسل بك لله تعالى فى إنجاح مقاصدى الشرعية ، أى أتوجه بك لله تعالى فى ذلك ، فهذا ليس من الشرك فى شىء ، لأن الشرك أن تعتقد أن مع الله إلها آخر ، يضر وينفع ويخلق ويحيى ويميت ويقدر على كل شىء وهذا ليس موجوداً عند أحد من المسلمين الموحدين .

وحكم التوسل بغير الأنبياء .. فيه الخلاف ، واختار ابن عرفة المالكى جوازه واحتج على ذلك بسؤال عمر بالعباس فى قضيه الاستسقاء ، قال الخطابى بعد نقل كلامه .. وهذا كله توسل ، وهو غير قسم .

قال الشيخ حبيب الله الشنقيطى رحمه الله تعالى وقد وافق ابن عرفة من متأخرى علماء المذهب الأربعة الجم الغفير ، ولم يخالف فى ذلك إلا من لا يعتد بأقواله عند أهل السنة المطهرة .

أما المتقدمون فلا أعلم عنهم خلافاً فى ذلك ، ولا فرق بين التوسل بالحى والتوسل بالميت ، لأنه فى الحالين توجه بعبد صالح إلى الله تعالى ولا تأثير للحى مع الله تعالى ، ولو دعا الله تعالى ـ كما لا تأثير للميت ـ أيضا[١] . ا. هـ

وفى هذا المعنى يقول العارف بالله تعالى الشيخ عبد الصمد أحمد الحسيني رحمه الله تعالى فى قصيدته التى أسماها : « سهام الجلالة فى أفئدة أهل الضلالة »

---

(١) ومن أراد الاستزادة فليراجع الجزء الخامس من فتح المنعم شرح زاد المسلم فى الصفحات ٥٠ ، ٥٣ ، ٨١ ، ٨٢

إذا استغاث بأهل من كرب ... فلا يقال له : أشركت بالله

وكيف يشرك عبد وهو معتقد ... أن لا مؤثر فى شيء سوى الله

ولا يكفر أميّ بمنطقه ... إن أوهم النطق منه الشرك بالله

إذ الضمير سليم الاعتقاد إذا ... فتشته لا ترى فيه سوى الله

والعجز عن صحة التعبير مغتفر ... ولا يضر مع الإيمان بالله

مع أننا ما سمعنا لفظة صدرت ... من جاهل توهم الإشراك بالله

وإنما ذاك من إفك ابن تيمية ... فى بعض ما سوّدت يمناه والله

هذا ومن لولى قال مبتهلا ... يا سيدى مدداً أرجوك بالله

كمثل طالب إحسان يقول لذى ... مروءة أعطنى مولاى لله

فكيف مع أنه لا فرق بينهما ... لا يشركان معا فى الشرك بالله

وإن يقولوا سؤال الحى ليس به ... بأس ولا يقتضى الإشراك بالله

قلنا كذاك سؤال الميت معتبر ... لأن كلا بلا ريب سوى الله

والحى كالميت لا تأثير فى عمل ... إليه يعزى بل التأثير لله

وغاية الأمر أن الميت ليس يرى ... أعماله غيرُ ذى حال مع الله

هذا مثال الذى يدعو الولى فقل ... رغم الجهول به نغنم رضا الله

أو قل كعبد أتى عبدا يوسّطه ... فى حاجة عند بعض الخلق لله

وفى إجابة يعقوب بنيه لنا ... على التوسط برهان من الله

وذاك حين أتوه قائلين له ... أيا أبانا لنا استغفر لدى الله

وفى البيتين الأخيرين إشارة إلى قوله تعالى حكاية عن أبناء سيدنا يعقوب عليه السلام : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ، يوسف : ٩٧ ، ٩٨ ».

من معانى قولهم « أهل التصريف » :

ومما يتصل بموضوع التوسل بالأحياء والأموات قول بعضهم : « فلان من أهل التصريف » والمنكرون يحملون هذا القول على أنه من باب الشرك بالله تعالى وأن الولى له تصرف مستقل عن الله تعالى وإرادة تسبق إرادة الله تعالى وحاشى لله تعالى أن يكون فى الكون أحد يملك معه إرادة أو تصرفاً مستقلا بل هو الفعال لما يريد الذى يحكم ولا معقب لحكمه ، ولا يُشرك فى حكمه أحدا ، وهو الفعال لما يريد والغالب على أمره جلا جلاله وتقدست صفاته .

مع أن القائل بأن فلانا من أهل التصريف إنما يريد أنه من أهل الوجاهة عند الله تعالى والقبول لديه وأنه من أهل استجابة الدعاء سواء كان نطقاً باللسان أو توجهاً بالقلب أو تحركًا للإرادة وكنه الهمة فى حدود ما جاء فى الحديث القدسى المروى فى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه والذى فى آخره ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » وحديث ، من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، رواه الترمذى وذكره الحافظ المنذرى فى الترغيب .

وحديث ، رُبَّ أشعث أغبر ذى طمرين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم

على الله لأبره ، رواه الحاكم وأبو نعيم فى الحلية ، وهو معنى قول السادة الصوفية : « إن لله عبادا إذا أرادوا أراد وإذا استنزلوا الفضل نزل ، ترجمة لقوله تعالى « ادعونى أستجب لكم ».

فالمراد بالتصريف هنا : هو تفضل الله تعالى على عبده بإيقاعه تعالى الأمر (كما سبق فى علمه القديم) على مراد عبده الظاهر بما يجيء فى دعائه القولى ، أو توجهه القلبى ، أو تحرك إرادته الروحية ، وذلك تنفيذاً لترتب الأسباب والمسببات على مقتضى ما فى اللوح المحفوظ وأم الكتاب .

﴿ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۞ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [1] « آل عمران ٧٣ ، ٧٤ ».

التصرف من الله تعالى ظاهراً وباطناً :

فليس العبد مصرفاً شيئا من دون الله تعالى ولكن الله تعالى يتفضل فيصرف الأشياء كما هى فى علمه ، على مراد أوليائه وأحبائه ظاهراً فقط تنفيذا لسبق إرادته ، فأهل التصريف يعنون بهم (أهل الفضل الإلهى) الذى يكرمهم الله تعالى بتحقيق مرادهم الظاهر ، وهو مراد الله تعالى الحقيقى الباطن فيما يطلبونه من الكونيات ، سواء كان الطلب بالقول أو الفعل أو الهمة ، والهمة يعنى بها كثير من الصوفية : تحرك الإرادة الروحية التى يجعلها الله تعالى سبباً عادياً من أسباب انفعال الأكوان بقدرته تعالى ليحقق بها المطلوب لعباده الصالحين فى ظاهر الأمر ، على ما سبق

---

(١) براجع كتاب « أصول الأصول » لفضيلة الإمام محمد زكى إبراهيم تحت عنوان : من معانى قولهم « أهل التصريف » .

فى العلم القديم فالمــراد مراده ، والأمر أمره ، يجريه كما يشاء على يد من يشاء .

وبمعنى آخر أن الله تعالى يجعل عبده الصالح نفسه أداة من أدوات تنفيذ المراد الإلهى الأزلى ، الذى قد يظهر فى صورة مراد العبد البشرى فيما يراه الناس ، ومثل ذلك : أن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله تعالى وكان ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم ، وهو ليس إلا عبداً أنعم الله تعالى عليه وليس له من الأمر شىء ككل عبد .

لكن الله تعالى جعل إرادة هذا العبد سببا عاديا فى سياق علمه وجعل هذا العبد أداة لتنفيذ سابق المراد الإلهى الذى انفعلت به إرادة العبد البشرية على مقتضى العلم القديم ففاضت به من عالم الغيب إلى عالم الشهود.

ومن الكذب المخزى ، والبهتان الخرافى ، ومن ذرائع الكفر والزندقة والشرك أن يقال : إن ولياً لله تعالى مهما كان شأنه يتصرف فى الكون كيف يشاء أو أن الله فوّض الأمر إلى الولى الفلانى ليفعل ما يشاء ، أو أن الله بعد أن خلق الكون سلمه للأولياء ليدبروه كما يشاءون ..

فافهم ذلك لئلا تخطئ أو تضل ، أو تتجنى أو تنحرف فتنجرف ، ولم تكن تعلم ، ولست معذوراً فى ذلك[١].

الفرق بين الوسيله والوساطة :

هناك فرق بين الوساطة والوسيلة ، فالوساطة هى : طلب الشىء من

---

(١) يراجع كتاب الإفهام والإفحام للشيخ الجليل / محمد زكى إبراهيم رضى الله تعالى عنه ص ٢٤ ، ٢٨ .

الوسيط مباشرة من دون الله تعالى اعتقاداً بأن الوسيط على كل شيء قدير وذلك كما عبد الكفار أوثانهم ، وطلبوا منها الحياة والموت ، والرزق والخلق تقديساً لها ، وإيماناً بأنها تفعل من دون الله ما تشاء استقلالاً ، شاء الله أم لم يشأ ـ نستغفر الله تعالى ـ ولذلك قالوا ﴿ ما نعبدهم إلاَّ ليقربونا إلى الله زُلْفَىٰ ﴾ ، لا ، ما نحبهم ، أو نزورهم ، أو نتوسل بهم كبشر مثلنا ، ثم قالوا ، ليقربونا ، فأثبتوا لهم قدرة خاصة من دون الله على التقريب والإبعاد والفعل والترك .. ، وهذه ملاحظة دقيقة جدا .. فتأمل !! ، ..

وليست الوسيلة كذلك قط ، فهي ـ كما علم ـ طلب من الله مباشرة مع الاستشفاع إليه بمن يحب وبما يُحِبَّ ، أى بخاصته وبما أنعم الله عليهم من جلائل المعنويات ، أو التبتل إليه بفضيلة ، أو بعمل صالح يرضاه تأكيداً لمزيد الاعتراف بالضعف والتقصير فى جانب وحدانيته ، وخشية ألا يكون العبد مقبولا أو عمله مدخولا فلا يستجاب له ، ورهبة من جلال الألوهية أن يقتحم عليه عبد بطلب لم يقدم بين يديه سببا يرضاه الله تعالى أو غير ذلك من سبب لم يكن العبد معه أهلا للاستجابة ، فربما بالوسيلة عطف الحق عليه عن حيث إنها اعتراف بالعجز والذنب ، فهى فى ذاتها سبب من الأسباب المشروعة .

ففرق كبير جدا بين هذه ، الوسيلة ، وتلك ، الوساطة ، هذه إيمان وزيادة ، وتلك شرك وزيادة .

وفي هذا الإطار: من شاء توسل ولا شيء عليه ، ومن شاء ترك ولا شيء عليه ، ، فالوسيلة ، من حيث هى جزء أصيل من دين الله بنص الكتاب والسنة وعمل السلف والخلف ، وإنما الخلاف عليها فى النوعية ،

ولا كذلك ، الوساطة ، قط .

وعندما يخطئ مسلم فى أسلوب توسله فيجب أن يقال : إنه أخطأ أو جهل أو خالف ، ولا يصح ، ولا يجوز أن يقال : كفر أو أشرك ، ثم نذهب فنغسل جهله أو خطأ لسانه بما وقر فى قلبه من إيمان وتوحيد ، وبما نفقه به من علوم الدين ، ذلك أن المتوسل ـ عالما أو جاهلاً ـ لا يعتقد أبداً فى استقلال المتوسَّل به بالفعل أو الترك من دون الله تعالى ، وهو لذلك إنما يتوجه إلى الله تعالى وحده بالطلب بقوله ، اللهم إنى أسألك ، مستشفعا بما رضى الله تعالى عنه فى المتوسَّل به ، حيا كان أو ميتا ..

ومراضى الله تعالى من خلقه هى معانٍ رفيعة ثابتة ، باقية معهم فى حياتهم الأولى والآخرة ، إذن الروح خالدة بعد الموت مع معانيها بكل خصائصها وليس للجسم فى الحياتين نصيب من هذه الخصائص، وعلاقة الموتى بالأحياء ثابتة بالكتاب والسنة والعقل والعلم والحديث والقديم والواقع المكرر الذى لا يدفع[١] .

محـل الخـلاف :

والتوسل بالعمل الصالح ، بوصفه من المعانى الكريمة ، جائز عندنا وعندهم والتوسل بالحى الصالح ، بوصفه من أصحاب المعانى الكريمة ، جائز عندنا وعندهم فمحل النزاع بيننا وبينهم بسيط : هو التوسل بالميت الصالح ، فنحن نجيزه بالسبب الذى قدمناه ، وهم يمنعون بدعوى أن التوسل بالميت معناه (على الأقل) طلب الدعاء منه للمتوسِّل ، وذلك عبادة له فيما يزعمون . والأصول العلمية تقول : إن الدعاء من حيث هو دعاء ،

---

(١) الإفهام والإفحام ص ٩٦ ، ٩٧ .

يعتبر وظيفة عبودية ، لا وظيفة ربوبية ، سواء في الحي أو في الميت ، كلاهما عاجز ضارع إلى الله تعالى ، طالب منه .

ومسمى العبادة واحد ، سواء وجهناه إلى الحي ، أو وجهناه إلى الميت ولا تعرف المقاييس العلمية في الإسلام شيئا إذا وجهناه إلى الحي لم يكن عبادة ، فإذا وجهناه إلى الميت كان عبادة ، وأنف العلم والإسلام (مع الأسف) راغم .

الخلاصة ..

وبعد فإنه مما لا شك فيه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم له عند الله قدر عالٍ ومرتبة رفيعة ، وجاه عظيم ، وكذلك الأولياء والصالحون ، والعلماء العاملون ، الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه . فأي مانع شرعي أو عقلي يمنع التوسل بهم ، فضلا عن الأدلة التي تثبته ، ولسنا في ذلك سائلين غير الله تعالى ، ولا داعين إلا إياه فنحن ندعوه بما أحب ، أيا كان ، تارة نسأله بأعمالنا الصالحة لأنه يحبها ، وتارة نسأله بمن يحبه من خلقه ، كما في حديث آدم السابق ، وكما في حديث فاطمة بنت أسد ، وكما في حديث عثمان بن حنيف المتقدم وتارة نسأله بأسمائه الحسنى ، أو بصفاته أو بفعله كما في قوله [أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك] وليس مقصودا على تلك الدائرة الضيقة التي يظنها المتعنتون ـ هداهم الله تعالى ـ وسر ذلك أن كل ما أحبه الله تعالى صح التوسل به ، وكذا كل من أحبه من نبي أو ولي ، وهو واضح لكل ذي فطرة سليمة ، ولا يمنع منه عقل ولا نقل ، بل تضافر العقل والنقل على جوازه ، والمسؤول في ذلك كله الله وحده لا شريك له ،

لا النبى ولا الولى ، ولا الحى ولا الميت ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾.

وإذا جاز التوسل بالأعمال فبالنبى صلى الله عليه وآله وسلم أولى ، لأنه أفضل المخلوقات على الإطلاق ، والأعمال منها ، والله تعالى أعظم حبا له صلى الله عليه وآله وسلم من الأعمال وغيرها ، وليت شعرى ما المانع من ذلك ؟ واللفظ لا يفيد شيئا أكثر من أن للنبى صلى الله عليه وآله وسلم قدراً عند الله ؟ والمتوسل لا يريد غير هذا المعنى ومن ينكر قدره عند الله تعالى فهو كافر مرتد عن دين الله تعالى كما قال أهل العلم .

إذن : فمسألة التوسل تدل على عظمة المسؤول به ومحبته ، فالسؤال بالنبىٍّ إنما هو لعظمته عند الله تعالى ، أو لمحبته إياه .

وذلك مما لا شك فيه ، على أن التوسل بالأعمال متفق عليه ، فلماذا لا نقول : إن من يتوسل بالأنبياء أوالصالحين هو متوسل إلى الله تعالى بأعمالهم التى يحبها الله تعالى ، وقد ورد حديث أصحاب الغار فيكون من محل الاتفاق ولا شك أن المتوسل بالصالحين إنما يتوسل بهم من حيث إنهم صالحون . فيرجع الأمر إلى الأعمال الصالحة المتفق على جواز التوسل بها كما تقدم فى صدر هذا البحث.. وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ وقال سبحانه ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾[1].

ثم إن التوسل أدب من آداب العبودية لله تعالى ، حيث إن المتوسل يرى نفسه على درجة من التقصير يخجل بها من أن يطلب من سيده - مع

---

(١) ينظر مفاهيم يجب أن تصحح ص ٣٧ ، ٤٧ .

قلة الزاد من التقوى ـ مباشرة ، فيعمد إلى الصالحين من عباده ، ولعله يجد فى رابطة الاستشفاع والتوسل من ائتلاف القلب بأهل الصلاح والولاية ما يجذبه إلى الانخراط فى سلكهم والفوز بمعيتهم ، « والمرء يحشر مع من أحب » .

وأخيراً فإن التوسل بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم وبسائر الأولياء والصالحين فى الحياة وبعد الممات هو مسلك الفوز والفلاح لمن حقت له العناية الأزلية ، إنه مسلك السلف الصالح ، والأئمة المجتهدين ، وأعلام الهدى والفقه والرسوخ فى فهم الدين .

وحسبنا الإمام الشافعى المطلبى الهاشمى رحمه الله تعالى قدوة ، وحجة وإماما فى التوسل بآل البيت الأخيار الأطهار إذ يقول:

آل النبى ذريعتـــــى   وهمو إليه وسيلتـــــى

أرجو بهـم أُعطَى غـدا   بيدى اليمين صحيفتى

اللهم اجعلنا من أهل محبتك وولايتك الفائزين بمحبتك ومحبوبيتك ومحبوبية حبيبك الأعظم ونبيك الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وآل بيته وصحابته وأتباعه وورثته الأخيار المتوسلين بهم إلى حضرتك لنيل دوام مرضاتك والفوز بمعيتهم والحشر فى زمرتهم يوم الدين إنك ولى ذلك والقادر عليه . آمين آمين يارب العالمين .

حول مشروعية الزيارة للأنبياء والأولياء

يزعم خصوم الصوفية أن قصد النبى صلى الله عليه وآله وسلم والأولياء الصالحين بالزيارة لقبورهم وشد الرحال إليها من الشرك ، أو مما يؤدى إليه ، وأنه يجب المنع من ذلك محافظة على التوحيد ، وامتثالا لحديث النهى عن شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة .

وجوابا على هذه الشبهة الآثمة التى تتضمن عدة شبهات نقول وبالله التوفيق ومنه نستمد الفتح والعون .

مشروعية الزيارة النبوية :

من المعلوم شرعًا وعقلا أن الأدلة من الكتاب والسنة قد قررت مشروعية واستحباب زيارة النبى الأعظم والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فى حياته الدنيا وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى .

فمن القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ ، النساء : ١٠٠، .

إذا لا شك عند من آتاه الله مسكة من عقل وذوق فى العلم أن من خرج لزيارة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصدق عليه أنه خرج مهاجراً إلى الله ورسوله سواء كان فى حياته الدنيا أم بعد وفاته ، لعموم دلالة الآية الكريمة ، ولإخباره صلى الله عليه وآله وسلم أن زيارته بعد وفاته كزيارته فى حياته .

عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما عن النبى صلى الله عليه وآله

وسلم قال : (من زار قبرى وجبت له شفاعتى) رواه البزار ، وفيه عبد الله ابن إبراهيم الغفارى وهو ضعيف ، ونقله الشيخ ابن تيمية وقال : إنه ضعيف ، ولم يحكم بوضعه أو كذبه ا. هـ الفتاوى جـ٢٧/٣٠ فى هذا الموضع فإن ثبت غير هذا عنه فى موضع آخر فمعناه أنه متردد فى الحكم عليه ، أو أنه اختلف رأيه فيه ، ولم نعلم المتقدم من المتأخر فلا يوثق بواحد من الرأيين حينئذ .

وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : (من جاءنى زائراً لا يعلم له حاجة إلا زيارتى كان حقا علىّ أن أكون له شفيعاً يوم القيامة) . رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير ، وفيه مسلمة بن سالم، وهو ضعيف (كذا فى المجمع جـ٤/٢) .

وقال الحافظ العراقى صححه ابن السكن (المغنى لابن قدامة الحنبلى جـ١/٢٦٥) .

وعنه رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (من حج فزار قبرى فى مماتى كان كمن زارنى فى حياتى) . رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وفيه حفص بن أبى داود القارى ، وثقه أحمد وضعفه جماعة من الأئمة .

وعنه رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (من زار قبرى بعد موتى كان كمن زارنى فى حياتى) قال الهيتمى : « رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط ، وفيه عائشة بنت يونس ولم أجد من ترجمها (كذا فى مجمع الزوائد ٤/٢) .

والحاصل : أن أحاديث الزيارة لها طرق كثيرة يقوى بعضها

بعضا ، كما نقله المناوى عن الحافظ الذهبى فى فيض القدير جـ ١٤٠/٦ خصوصا وأن بعض العلماء صححها أو نقل تصحيحها كالسبكى وابن السكن والعراقى والقاضى عياض فى الشفا والملا على القارى شارحه والخفاجى كذلك فى نسيم الرياض جـ/٥١١/٣ ، وكلهم من حفاظ الحديث وأئمته المعتمدين .

ويكفى أن الأئمة الأربعة رضى الله تعالى عنهم وغيرهم من فحول العلماء وأركان الدين قالوا بمشروعية زيارة النبى صلى الله عليه وآله وسلم كما نقله عنهم أصحابهم فى كتب فقههم المعتمدة ، وهذا كاف منهم فى تصحيح أحاديث الزيارة وقبولها ، لأن الحديث يتأيد بالعمل والفتوى ، كما هو معروف من قواعد الأصوليين والمحدثين .

ومن أدلة القرآن الكريم على الندب إلى زيارته صلى الله عليه وآله وسلم قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا** ﴾ « النساء: ٦٤ » .

حيث علق وجدانهم الله توابا رحيما بمجيئهم - أى زيارتهم - واستغفارهم واستغفار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لهم .

فكانت الزيارة هى الركن الأول فى إيجاد توبته تعالى ورحمته كما وعد سبحانه فى الآية ، لأنه سبحانه منزه عن خلف وعده .

ولا يختص ذلك بحال حياته الدنيوية ، لأن وقوع فعل المجيء وسياق الشرط يفيد العموم للحياتين الدنيوية والأخروية ، والاستغفار منه صلى الله عليه وآله وسلم لأمته واقع فى كل منهما بدليل حديث (حياتى خير لكم)

وقد تقدم الاستدلال به فى قضيةالتوسل .. فليراجع .

مشروعية زيارة قبور أهل البيت والأولياء الصالحين :

إن الله تعالى قد حثنا على مودة أهل البيت المحمدى رضى الله تعالى عنهم جميعًا بقوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ ، الشورى : ٢٣ ، ..

والقربى هم أقارب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا سيما أهل بيته الأطهار ومن مودتهم : زيارتهم فى حياتهم وبعد انتقالهم إلى الرفيق الأعلى ، وهم فى قبورهم والتودد إليهم ، والاستشفاع بهم إلى الله عز وجل ذلك بأنهم الامتداد النورانى لصفوة الله من خلقه ، أفلا تكون أضرحتهم فراديس من أعالى الجنات تحفها الملائكة وتتنزل عليها الرحمات والبركات ؟؟

وكذلك الأولياء المقربون الذين قال الله تعالى فى شأنهم : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ ، يونس : ٦٤ ، ونص القرآن الكريم أنهم ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ، الزمر : ٣٤، الشورى: ٢٢ ، .

إن زيارتهم والتحبب إليهم من أعظم القربات إلى الله عز وجل ، لأنها محبة لله وفى الله وبالله عز وجل ، وموالاة عقدها الله تعالى بين المؤمنين الصادقين .. إذ قال سبحانه فى شأنهم : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ ، التوبة : ٧١ ، .. وقال سبحانه : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ ، المائدة : ٥٦ ، ..

ومقياس صدق موالاة أولياء الله الصالحين أن لا ننقطع عنهم بمفارقتهم هذه الدنيا ، بل نتمسك بزيارتهم والسلام عليهم ، والتبرك بهم، فهم أصحاب الدرجات عند الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ﴾ وقال سبحانه: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾.

يقول الشيخ الإمام أبو عبد الله النعمان في كتابه « سفينة النجا لأهل الالتجا » ما نصه : « تحقق لذوى البصائر والاعتبار أن زيارة قبور الصالحين محبوبة لأجل التبرك مع الاعتبار ، فإن بركة الصالحين جارية بعد مماتهم كما كانت فى حياتهم ، والدعاء عند قبور الصالحين والتشفع بهم معمول به عند علمائنا المحققين من أئمة الدين . وقد تقرر فى الشرع، وعلم ما لله تعالى بهم من الاعتناء وذلك كثير مشهور ، وما زال الناس من العلماء والأكابر – كابراً عن كابر – مشرقا ومغربا يتبركون بزيارة قبورهم ويجدون ذلك حسا ومعنى »[1].

بركة قبور الصالحين :

١) فى كتاب « الحصن الحصين » يقول ابن الجزرى « فصل فى أماكن الإجابة ، وهى المواضع المباركة » « .. وعند قبورالأنبياء عليهم السلام ولا يصح قبر نبى بعينه سوى قبر نبينا صلى الله عليه وآله وسلم بالإجماع فقط ، وقبر إبراهيم عليه السلام داخل السور – سور بيت المقدس – من غير تعيين ، وجرب استجابة الدعاء عند قبور الصالحين بشروط معروفة » قال الإمام الشوكانى فى الشرح: قوله « وعند قبور الأنبياء » أقول : هذا جعله المصنف رحمه الله داخلا فيما تقدم من التجريب الذى

---

(١) راجع معالم الطريق الصوفى ص ٤٥ ، ٤٦ .

ذكره ، ووجه ذلك مزيد الشرف ونزول البركة ، وقد قدمنا أنها تسرى بركة المكان على الداعى كما تسرى بركة الصالحين الذاكرين الله سبحانه على من دخل فيهم ممن ليس منهم ، كما يفيده قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » ولكن ذلك بشرط أن لا تنشأ عن ذلك مفسدة وهى أن يعتقد فى ذلك الميت ما لا يجوز اعتقاده ا. هـ كلام الشوكانى (١).

٢) وفى شرحي « الشفا » للفاضلين الشهاب الخفاجى وملا على القارى ، يقول : « وقبر الإمام الجليل » ابن فورك « بنيسابور يزار ويستجاب عنده الدعاء.

٣) وفى « الرسالة القشيرية » يقول : « قبر معروف الكرخى ترياق مجرب » ، وأورد هذا القول ـ أيضا ـ الحافظ الذهبى فى سير أعلام النبلاء ٣٤/٩.. وقال : « يريد إجابة دعاء المضطر عنده لأن البقاع المباركة يستجاب عندها الدعاء » .

٤) وفى كتاب « تاريخ بغداد » للحافظ الخطيب البغدادى : عن أبى عبد الله بن المحاملى أحد الأئمة الحفاظ ، قال : « أعرف قبر معروف الكرخى منذ سبعين سنة ، ما قصده مهموم (أى متوسلا) إلا فرج الله همه » .

٥) وفيه أيضا : « أن الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه قال: « إنى لأتبرك بأبى حنيفة ، وأجيء إلى قبره فى كل يوم ، فإذا عرضت لى حاجة صليت ركعتين وسألت الله الحاجة عنده ، فما تبعد عنى حتى

---

(١) تحفة الذاكرين شرح عدة الحصن الحصين للشوكانى ص ٧٠ ، ٧١ .

تقضى ».

٦) وفيه أيضا : « أن الحسن بن إبراهيم الخلال (أحد أئمة الحنابلة) قال : ماهمّنى أمر فقصدت قبر موسى الكاظم فتوسلت به إلا سهّل الله تعالى لى ما أحب »[1].

٧) وفى (عمدة المريد) قال سيدى أحمد زروق رضى الله عنه : « مدد الميت أقوى من مدد الحى ، وكرامة الله لأوليائه لا تنقطع لموتهم ».

فزيارة القبور اعتباراً وتبركا شىء من معالم الإسلام[2].

٨) وذكر الإمام « التاج بن السبكى » فى طبقات الشافعية فى ترجمة « الإمام الغزالى »أن قبر الإمام الغزالى فى « طوس » يدعو الناس عنده فيستجاب لهم .

وذكر السبكى أيضا فى طبقات الشافعية أن قبر « يوسف بن دوناس » ظاهر معروف باستجابة الدعاء عنده .

شبهة وجوابها :

إن المجادلين فى مشروعية زيارة الأنبياء والأولياء الصالحين وأهل البيت رضى الله تعالى عنهم جميعا يربطون بين الزيارة والتوسل ، فى رميهم جمهرة الصوفية وعوام الموحدين بالشرك ، ويزعمون أن هؤلاء الزائرين يذهبون إلى قبور خاوية ليس فيها من يسمع ويحس ويدرك

---

(١) تاريخ بغداد ١/ ١٢٠ ، ١٢٣ .

(٢) الإفهام والإفحام ص ٨٥ ، ٨٦

ويتمثلون بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ « فاطر: ٢٢ » ويطلقون على زوار الأولياء وأهل البيت لقب « القبوريين » « وعباد المقاصير » .. ويشبهونهم بعبدة الأصنام في توسلهم بهؤلاء الذين فارقوا الدنيا وانقطعت صلتهم بمن فيها !!!

ومنشأ هذه الأحكام الجائرة عند هؤلاء – في حقيقة الأمر – هو الجهل الفاضح بحقيقة الموت وبطبيعة الحياة البرزخية ، وبالصلة بين الحياتين الدنيوية والأخروية ، ثم بحقيقة التوحيد والعبادة ، مما أفضى إلى إساءة الظن ، بل والإفراط في الغلو في التكفير والتبديع على غير هدى من الله وقد أوضحنا فيما سبق : أن عقيدة التوسل شيء والإشراك شيء آخر وقد أجاب الحافظ ابن رجب الحنبلي عن استشكال معارضة ظاهر قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ للأحاديث القاطعة بحياة الموتى ، وإدراكهم وسماعهم تسليم المسلم عليهم : بأن السماع يطلق ويراد به إدراك الكلام وفهمه ، ويراد به أيضا : الانتفاع به والاستجابة له ، والمراد به في الآية الثاني دون الأول ، لأن الآية في سياق خطاب الكفار الذين لا يستجيبون للهدى والإيمان إذا دعوا إليه .

كيفية انتفاع الأحياء بزيارة الأموات :

أما كيف ينتفع زوار الأنبياء والصالحين بزيارتهم ، ويصلهم منهم الإمداد الروحي وتحل بهم البركات – من غير كفر وشرك – فقد قرّر ذلك من لا يُشك في دينه أو علمه ، من أساطين علماء التفسير والعقيدة في الأمة ، وعسى أن يكون في تبليغه مقنع وبلاغ لطالب الحق .

تقرير الفخر الرازي رحمه الله تعالى :

يقول العلامة الإمام فخر الدين الرازى فى كتابه « المطالب العالية » الفصل الثامن عشر فى بيان « كيفية الانتفاع بزيارة الموتى والقبور » لاسيما أهل القرب والنور .. للكلام فيه مقدمات :

المقدمة الأولى :

أنا قد دللنا على أن النفوس البشرية باقية بعد موت الأبدان ، وتلك النفوس التى فارقت أبدانها أقوى من هذه النفوس المتعلقة بالأبدان من بعض الوجوه ، وهذه النفوس أقوى من تلك من بعض الوجوه .

أما أن النفوس المفارقة أقوى من هذه النفوس من بعض الوجوه :

فهو أن تلك النفوس لما فارقت أبدانها فقد زال الغطاء ، وانكشف لها عالم الغيب ، وأسرار منازل الآخرة ، وصارت العلوم التى كانت برهانية عند التعلق بالأبدان ضرورية بعد مفارقة الأبدان ، لأن النفوس فى الأبدان كانت فى عناء وغطاء ، ولما زال البدن أشرقت تلك النفوس ، وتجلت وتلألأت فحصل للنفوس المفارقة عن الأبدان بهذا الطريق نوع من الكمال.

وأما أن النفوس المتعلقة بالأبدان أقوى من تلك النفوس المفارقة من وجه آخر .. فلأن آلات الكسب ، والطلب باقية لهذه النفوس بواسطة الأفكار المتلاحقة ، والأنظار المتتالية ، تستفيد كل يوم علما جديداً، وهذه الحالة غير حاصلة للنفوس المفارقة .

والمقدمة الثانية :

أن تعلق النفوس بأبدانها تعلق يشبه العشق الشديد، والحب التام ،

ولهذا السبب : كان كل شيء تطلب تحصيله فى الدنيا فإنما تطلبه لتتوصل به إلى إيصال الخير والراحة لهذا البدن ، فإذا مات الإنسان وفارقت النفس هذا البدن فذلك الميل يبقى ، وذلك العشق لا يزول ، وتبقى تلك النفوس عظيمة الميل إلى ذلك البدن ، عظيمة الانجذاب على المذهب الذى نصرناه من أن النفوس الناطقة مدركة للجزئيات ، وأنها موصوفة بهذا الإدراك بعد موتها .

إذا عرفت هذا الإدراك فنقول :

إن الإنسان إذا ذهب إلى قبر إنسان قوى النفس ، كامل الجوهر ، شديد التأثير ، ووقف هناك ساعة ، وتأثرت نفسه من هذه التربة ، وقد عرفت أن لنفس ذلك الميت تعلقاً بتلك التربة أيضا ، فحينئذ يحصل لنفس هذا الزائر الحى ، ولنفس ذلك الميت ملاقاة بسبب اجتماعهما على تلك التربة ، فصارت هاتان النفسان شبيهتين بمرآتين مصقولتين وضعتا بحيث ينعكس الشعاع من كل واحدة منهما إلى الأخرى ، فكل ماحصل فى نفس الزائر الحى من المعارف البرهانية والعلوم الكسبية، والأخلاق الفاضلة من الخضوع والرضا بقضاء الله ينعكس فيه نور إلى روح ذلك الميت ، وكل ما حصل فى نفس ذلك الإنسان الميت من العلوم المشرقة الكاملة فإنه ينعكس فيه نور إلى روح هذا الزائر الحى .

وبهذا الطريق تكون تلك الزيارة سببا لحصول المنفعة الكبرى والبهجة العظمى لروح الزائر ولروح المزور ، وهذا هو السبب الأصلى فى شرعية الزيارة !!

ولا يبعد أن تحصل فيها أسرار أخرى أدق وأغمض مما ذكرناه ،

وتمام العلم بحقائق الأشياء ليس إلا عند الله تعالى .

تقرير العلامة سعد الدين التفتازانى :

وهذا إمام آخر يدلى بدلوه فى مسألة انتفاع الأحياء فى هذه الدار بزيارة قبور من مات من الأحياء ، إنه العلامة المحقق المدقق سعد الدين التفتازانى حيث يقول فى كتابه « شرح المقاصد » :

« لما كان إدراك الجزئيات مشروطا عند الفلاسفة بحصول الصورة فى الآلات ، فعند مفارقة النفس وبطلان الآلات لا تبقى مدركة للجزئيات ضرورة انتفاء المشروط بانتفاء الشرط ».

وعندنا : لما لم تكن الآلات شرطاً فى إدراك الجزئيات ، إما لأنه ليس بحصول الصورة ، لا فى النفس ولا فى الحس . وإما لأنه لا يمتنع ارتسام صورة الجزئى فى النفس . بل الظاهر من قواعد الإسلام أنه يكون للنفس – بعد المفارقة – إدراكات جزئية ، واطلاع على بعض جزئيات أحوال الأحياء ، لاسيما الذين كان بين الميت وبينهم تعارف فى الدنيا .

ولهذا ينتفع بزيارة القبور ، والاستعانة بنفوس الأخيار من الأموات فى استنزال الخيرات واستدفاع الملمات ، فإن للنفس بعد المفارقة تعلقاً ما بالبدن وبالتربة التى دفن فيها ، فإذا زار الحى تلك التربة وتوجهت نفسه تلقاء نفس الميت حصل بين النفسين ملاقات وإفاضات[١] .

---

(١) معالم الطريق الصوفى ص ٤٧ و ما بعدها .

تقرير الشريف الجرجاني لاستفاضة الأنوار بزيارة مراقد الأخيار

وهذا علامة ثالث فى علم المعقول والمنقول وهو الإمام السيد الشريف الجرجانى رحمه الله تعالى يقول فى أوائل ، حاشيته على المطالع ، عند بيان الشارح وجه الصلاة على النبى وآله عليه وعليهم الصلاة والسلام فى أوائل الكتب ، ووجه الحاجة إلى التوسل بهم فى الاستفاضة :

فإن قيل : هذا التوسل إنما يتصور إذا كانوا متعلقين بالأبدان ، وأما إذا تجردوا عنها فلا ، إذ لا جهة مقتضية للمناسبة .

قلنا : يكفيه أنهم كانوا متعلقين بها متوجهين إلى تكميل النفوس الناقصة بهمة عالية ، فإن أثر ذلك باق فيهم ، ولذلك كانت زيارة مراقدهم معدة لفيضان أنوار كثيرة منهم على الزائرين كما يشاهده أصحاب البصائر.

رد دعوى الطواف حول الأضرحة :

ومن الدعاوى التقليدية الموروثة عند هؤلاء القوم دعوى أن زوار أضرحة الصالحين يطوفون حولها طوافهم حول الكعبة وفى هذا ما فيه .

ولو أننا صورنا الأشياء بصورها ، وأرجعناها إلى أسبابها ، لما كان لمثل هذه الدعوى وجه ولا مكان .

ذلك أن للطواف الشرعى حول الكعبة شروطاً وأركاناً وقواعد ، منها تحديد البداية ، حيث يكون الطواف الصحيح من الحجر ، ثم ينتهى إليه ، ويسن تقبيله قبل الشروع فى الطواف ، وعند كل شوط أو الإشارة إليه بيد

أو عصا مع التكبير ، ثم القراءة والدعاء المأثور مع الرَّمَل فى الأشواط الثلاثة الأول ، والدعاء المعين بين الركن اليمانى وركن الحجر واستلام الركن اليمانى باليد مع التكبير ، ثم تكرار الطواف سبعاً لا يزيد ولا ينقص عن هذا العدد ، ثم استحباب إلصاق الصدر مع بسط الذراعين عند الملتزم – وهو ما بين باب الكعبة والحجر الأسود – والدعاء والتضرع والبكاء .. إلخ ما هو مسطر فى كتب المناسك فإذا فقد من ذلك شىء ، لم يكن طوافاً شرعياً كاملاً يترتب عليه حكم شرعى ..

فهل زوار أضرحة الصالحين وأهل البيت يفعلون مثل هذا ؟! إن بعض الأضرحة يكون فى مكان ضيق فالناس يدخلون من باب ليخرجوا من الباب الآخر تنظيما للزيارة ، وتخلصا من الزحام ونحوه .

فهذا من باب العادات المباحة ، التى لا تدخل فى مسمى العبادة بأى شكل من الأشكال .

فتسمية ذلك طوافاً نوع من الغلو المرفوض فى تسمية الأشياء بغير أسمائها وزحزحتها عن مواقعها ، تهويلاً لا يُرضى الله تعالى ، ولا العلم النظيف ، ولا العقل الحصيف .

وإلا فماذا نقول للرجل الفلاح الذى يدور حول بعيره ليربط الحمْل عليه، يفعل ذلك على سبيل العادة وليس من العبادة فى شىء ، ولا يجوز لأحد أن يقول له : هذا حرام ، لأنك تطوف حول البعير ، مع أن قلبه خال من قصد الطواف ، الذى لا يتحقق إلا بالشروط التى ذكرناها .

وإذا كان يقع من بعض الناس دوران حول الضريح فعلاً كأثر للانفعال النفسى بحب المزور ، ومحاولة التعبير عن توقيره ، فلا يمكن

أيضاً أن يسمى هذا طوافاً شرعياً ، لسقوط شروط الطواف وقواعده الشرعية التى بيناها ، ولأنه لا يوجد مسلم واحد يطوف بغير الكعبة الطواف المشروع الذى وصفوه .

وعندما يقع الزوار فى بعض الأخطاء ، فإن على المسلمين فى المسجد أو الضريح أن يصححوا لهم الخطأ ، وأن يعلموهم الأسلوب الأصوب وسوف يحاسبهم الله تعالى إن قصروا فى ذلك(١) .

مسألة تقبيل القبر :

وأما مسألة تقبيل القبر فهى تعبير عن محبة صاحب القبر ، وليست تقديساً للحجارة أو التوابيت المصنوعة من الخشب أو النحاس ، لأنك لو وضعتها فى مكان لا قبر فيه لم يقبلها أحد ، ومن هنا جوز كثير من العلماء تقبيل القبر ووضع الوجه عليه وهاك الأدلة على ذلك :

فقد روى الحافظ ابن الجوزى ـ السلفى ـ فى الوفا بأحوال المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بسنده إلى سيدنا على رضى الله تعالى عنه أنه قال : لما مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودفن جاءت فاطمة رضى الله تعالى عنها فأخذت قبضة من تراب القبر فوضعته على عينيها وبكت وأنشدت تقول :

ماذا على من شم تربة أحمد ... أن لا يشم مدى الزمان غواليا

صُبت على مصائب لو أنها ... صبت على الأيام عدن لياليا

---

(١) ينظر الإفهام والإفحام ص ٨٩ ، ٩٠ .

وأخرج ابن عساكر بسند جيد عن أبي الدرداء قصة نزول بلال بداريا بعد فتح بيت المقدس ، قال : ثم إن بلالا رأى النبى صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول له : ما هذه الجفوة يا بلال ؟ أما آن لك أن تزورنا ، فانتبه حزينا خائفا فركب راحلته وقصد المدينة فأتى قبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم فجعل يبكى ويمرغ وجهه على القبر ...إلخ القصة ، وكان ذلك بحضور الصحابة فلم ينكر عليه أحد .

وأخرج الإمام أحمد فى مسنده والحاكم فى مستدركه على الصحيحين قالا : أقبل مروان يوماً فوجد رجلاً واضعاً جبهته على القبر فقال : أتدرى ماتصنع ؟ فأقبل عليه فإذا هو أبو أيوب الأنصارى رضى الله تعالى عنه فقال : جئت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم آت الحجرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: « لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله ، ولكن ابكوا على الدين إذا وليه غير أهله ».

وثبت أن سيدنا عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما كان يضع يده على القبر الشريف ، وأنه كان يلمس بيده رمانة منبره صلى الله عليه وآله وسلم ويمسح بها وجه الشريف .

والعجيب أن الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى يصرح بترخيص الإمام أحمد بن حنبل وغيره فى التمسح بالمنبر ، إذ قال فى « اقتضاء الصراط المستقيم » : « فقد رخص أحمد وغيره فى التمسح بالمنبر والرمانة التى هى موضع مقعد النبى صلى الله عليه وآله وسلم ويده » ..

فتوى الإمام أحمد بجواز تقبيل القبر النبوي الشريف :

لقد نقل عن العلامة المقرى المكى فى كتابه « فتح المتعال بصفة

النعال ، نقـلا عن الحافظ ولى الدين العراقى أنه قال : أخبرنـى الحافـظ أبو سعيد العلائى قال : رأيت فى كلام ولد أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى فى جزء قديم عليه خط ابن ناصر وغيره من الحفاظ أن الإمام أحمد سئل عن تقبيل قبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم وتقبيل غيره فقال : لا بأس بذلك فأريناه ابن تيمية فصار يتعجب من ذلك ويقول : عندى أحمد جليل يقول هذا ؟ قال : وأى عجب فى ذلك ؟

وفى كتاب العلل والسؤالات لعبد الله بن أحمد بن حنبل : سألت أبى عن الرجل يمس منبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم يتبرك بمسه ويقبله ، ويفعل بالقبر مثل ذلك ، رجاء ثواب الله تعالى قال : لا بأس به .

وقد صنف العلامة المحدث الشيخ عبد الله بن محمد الصديق الغمارى رحمه الله تعالى رسالة لطيفة فى هذا الباب عنوانها : « إعلام النبيل بجواز التقبيل » قال فيها : « وأما تقبيل غير الأعضاء ، فقد تقدم أن أبا العالية قبل تفاحة تبركاً بمسها لكف أنس رضى الله تعالى عنه وأجاز الإمام أحمد تقبيل قبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم وأجاز ابن أبى الصيف والمحب الطبرى تقبيل قبور الصالحين ، نقله العلامة ابن زكرى فى شرح همزيته بعد أن حكى عن كثير من العلماء خصوصاً المالكية كراهة تقبيل القبر .. والله أعلم [1] .

وقال العلامة السمنودى فى هذا الباب من « سعادة الدارين » ما نصه : « فقد صرح غير واحد من الأئمة هداة الأمة بإباحة التمسح بقبور الصالحين وتقبيلها وتمريغ الخد عليها ، وتقبيل أعتابها بقصد التبرك ،

---

(١) راجع القول المبين للشيخ عبد الله الغمارى ص ٢٧٢ ورسالة إعلام النبيل له أيضا .

ومنع من ذلك بعضهم لكنه قال بالكراهة لا بالحرمة فضلاً عن التكفير .

سيقول المعترضون : إن الشيخ السمنودى وأمثاله من المتصوفة الذين لا يحتج به عندهم ، مع أنه يحتكم فى كتابه القيم إلى الأدلة النقلية والعقلية الصريحة ونقول له فما تقول فيما قرره العديد من الفقهاء شيوخ الإسلام كالإمام الباجورى والعلامة الرملى والفقيه البجيرمى ونحوهم ممن تربى على أيديهم آلاف العلماء ، وعلى كتبهم من لا يحصون عدداً من علماء الأمة وفقهائها ؟ ..

لقد قال شيخ الإسلام إبراهيم الباجورى فى حاشيته على شرح ابن قاسم فى فقه السادة الشافعية ، وهذه الحاشية لا تزال تدرس للآن فى المعاهد الأزهرية ، ما نصه : ، ويكره تقبيل القبر واستلامه ، ومثله التابوت الذى يجعل فوقه ، وكذا تقبيل الأعتاب عند الدخول لزيارة الأولياء إلا إن قصد به التبرك بهم فلا يكره ، .

وقال العلامة : سليمان البجيرمى فى حاشيته ، تحفة الحبيب على شرح الخطيب ، تعليقاً على قول الشارح فى كتاب الصلاة ، ومما يحرم ما يفعله كثير من الجهلة من السجود بين يدى المشايخ ولو إلى القبلة ، قال : ، هل مثله ما يقع لبعضهم من الانحناء إلى حد الركوع أو ما زاد عليه بحيث يقرب إلى السجود أو لا ؟ فيه نظر ، ولا يبعد أنه مثله ، وأماتقبيل أعتاب المشايخ فمستحب لا بأس به ، .

وها هو ذا الإمام تقى الدين السبكى صاحب ، طبقات الشافعية ، عندما سكن فى قاعة دار الحديث الأشرفية سنة ٧٤٢ هـ كان يخرج فى الليل إلى إيوانها فيتهجد ويمرغ وجهه على البساط الذى كان يجلس عليه

الإمام محيى الدين النووى وقت الدرس ويقول فى ذلك :

وفى دار الحديث لطيف معنى ... على بُسط لها أصبو وآوى

عسى أنى أمس بِحرّ وجهى ... مكاناً مسه قدم النواوى[1]

التحذير من طلب الرزق من غير الله تعالى والتلفظ بألفاظ موهمة

هناك أمور نبّه عليها العلماء الأثبات يجب التحذير منها حتى لا يقعوا فى المحظور الذى يقدح فى العقيدة التى هى أساس الأعمال :

من ذلك ماذكره العلامة الفقيه الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى المالكى والد الشيخ حسنين المفتى رحمهما الله تعالى ما نصه :

ومن قبيل الدعاء الموهم طلب الرزق من غيره تعالى كأن يقول الإنسان: يا نبى الله أو ياسيدى فلان ارزقنى أو ارزق أولادى ، أو ارزق فلاناً فذلك لا يجوز ، لأن الذى يعطى الخلائق أرزاقها ويوصلها إليهم هو الله تعالى المتكفل بأرزاق العباد كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ « الذاريات : ٥٨ » وقال عز وجل : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ، هود : ٦ » إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الأرزاق بيد الله تعالى وحينئذ فلا ينبغى طلبها على وجه الدعاء إلا منه عز وجل[2] .

وكذلك نبّه الشيخ العلّامة المحدّث الفقيه عبد الله الصديق الغمارى

---

(١) مقدمة شرح صحيح مسلم ومقدمة البيان فى آداب حملة القرآن ص ١٠، ١١ .

(٢) رسالة فى حكم التوسل بالأنبياء والأولياء ص ٥٤ .

رحمه الله تعالى على ما شاع بين كثير من الناس فى توسلاتهم وزياراتهم للأولياء فقد توسعوا فى ذلك توسعاً غير مرضٍ ، وخرجوا عن الحد المشروع وفاهوا بألفاظ منكرة مثل : يا سيدى اشفع لى سقت عليك النبى ، الشكوى لأهل البصيرة عيب ، العارف لا يعرف ، خل بالك معى ، أنجحنى فى القضية الفلانية ، أعطب عدوى ، إلى ألفاظ من هذا القبيل ظاهرها يقتضى الكفر ... وكل هذا ممنوع غير مشروع والأولياء أنفسهم لا يرضون به ، بل يتألمون من فعله ويتبرأون من فاعله .

فيا أيها المسلم الشحيح بدينه الحريص على حفظ عرضه وكرامته ، عليك أن تجتنب تلك الموبقات المنكرات وتجنبها أهلك وعشيرتك وإخوانك ، واقتصر فى زيارتك وتوسلك على الجائز المشروع ودع كل لفظ موهم وكل تعظيم يؤدى بك إلى المحظور الممنوع(١) .

هذه هى سماحة الإسلام بلا ابتداع ولا هوى ، وإنما إباحة ما أحله الله تعالى ، وتحريم ما حرمه الله تعالى بلا شطط أو غلو ، أو احتكار للحكم فى دين الله تعالى بالتعصب المذهبى ، فلماذا نحيد عن سماحة الإسلام إلى الغلو فيه ؟؟ وإخراج أهله منه أكبر عند الله .

---

(١) الرد المحكم المتين على كتاب القول المبين ٢٧٢ ، ٢٧٣

فصل المقال في أحاديث شد الرحال
والتحديد العلمي لمعانيها وأحكامها

- مشروعية شد الرحال إلى كل المساجد وكل القبور .
- الأفضل لا ينفى مشروعية الفاضل ولا المفضول .

إن كثيراً من الأحاديث الشريفة حرفها أهل البدع عن مواضعها ولووا أحكامها بما يوافق مذهبهم ومن ذلك تحريم خصوم التصوف الإسلامى لشد الرحال إلى زيارة الأنبياء والأولياء وأهل البيت الأطهار.

وقد كتب العلامة المحدث الفقية فضيلة الشيخ محمد زكى إبراهيم رحمه الله تعالى وأثابه بحثاً جيدا كافياً وافياً شافياً لمن طلب الحق والصواب فى هذه القضية .. وهأنذا أنقله بنصه من كتاب « الإفهام والإفحام » حيث يقول :

(١) تمهيد :

يتخذ إخواننا الذين ينتسبون إلى « التسلف » أو إلى « السلفية » من أحاديث « شد الرحال » وسيلة للتشهير بمن يلتمسون البركة بزيارة مشاهد بعض أولياء الله تعالى وأهل البيت الكرام ، أو قصد الصلاة فى بعض المساجد الشهيرة . وقد يتغالى بعضهم فلا يكتفى بتسمية الأغلبية الغالبة من مسلمى المشارق والمغارب بالقبوريين ؛ بل إنه ليرميهم كما هى العادةبالشرك والردة والوثنية والزندقة ، وإنه ليستحل دماءهم وأموالهم وأعراضهم باسم السلفية البريئة ، والتوحيد المظلوم ، ثم باسم إحياء السنة ،

ومكفاحة البدعة .

وهكذا يرى هؤلاء الإخوان على اختلاف طوائفهم أن جمهور المسلمين بعامتهم بين مشرك مرتد ، أو كافر مبتدع ، أو وثنى نجس ، فلا إسلام ولا إيمان إلا ماهم عليه ، وقد يكون هذا عن اقتناع أحمق ، أو فهم جاهل ، أو عن تقليد طائفى متعصب ، أو حاجة فى نفس يعقوب ، ومن الحاجات ما تبرأ منه الإنسانية والشرف ، وما لا يستقيم مع العلم والدين .

(٢) ابن تيمية ومقلدوه ودفع حججهم :

لقد قلدوا إمامهم الأكبر ، الشيخ أحمد بن تيمية ، الذى منع شد الرحال حتى لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وشذ بهذا عن كل علماء أهل القبلة ، وقال : إنما تشد الرحال للصلاة فى مسجده صلى الله عليه وآله وسلم فقط ، فإذا اقترن شد الرحال بنية زيارة قبره صلى الله عليه وآله وسلم كان ذلك سفراً محرماً ، لا تقصر فيه الصلاة [١].

---

(١) قال المحقق الأستاذ / محيى الدين الاستوى : ولبيان حقيقة أقوال ابن تيمية فى هذه المسألة أقول : إن لابن تيمية فى مسألة زيارة قبرالرسول صلى الله عليه وآله وسلم رأياً شاذاً وكلاماً كثيراً فيه تضارب وتناقض وتعميم وتهويل .. ومن قرأ له ، الجواب الباهر فى زوار المقابر ، أو الرد على الأخنائى ، وقد طبع مؤخرا فى (٧٤٤) صفحة من القطع الكبير ، أوقرأ له فتاواه ، أو ما نقله بعض تلاميذه عنه كابن عبد الهادى فى ، الصارم المنكى ، من قرأ ذلك كله يعرف مدى التشتت الموجود فى كلام الرجل .. وقد قام عليه علماء عصره فى هذه المسألة وغيرها ، وردوا عليه ، وقد صرح ابن تيمية بأن الصلاة لا تقصر فى السفر لزيارته صلى الله عليه وآله وسلم ، والعلة أنه سفر معصية فلا تقصر فيه الصلاة ، لأنه يشترط فى السفر الذى تقصر فيه الصلاة أن يكون سفراً مباحاً وقال الحافظ ابن حجر العسقلانى فى فتح =

ولا يزال رجال هذه الطائفة فى كل البلاد لا يجدون مادة للحديث وخصوصاً فى موسم « العمرة والحج » إلا تحريم شد الرحال لزيارة القبر الشريف ، تقليداً وجهلاً ، أو حقداً وغلاً .

وحجتهم هى حديث : (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى) أخرجه البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى بهذا اللفظ عند البخارى ، وهو حديث متواتر روى عن عدد كبير من الصحابة .

ثم حديث : (لا تُعْمَل المطىُّ إلا إلى ثلاثة مساجد : إلى المسجد الحرام ، وإلى مسجدى هذا ، وإلى مسجد إيلياء أو قال : بيت المقدس) ونحو ذلك .. رواه الإمام مالك فى الموطأ والإمام أحمد فى المسند والنسائى والحميدى فى مسنده .

ويقولون : إن المستثنى منه فى الحديث ليس هو المساجد فقط ، بل هو كل مكان يقصد للبركة والقربة ، سواء أكان مسجداً أم قبراً .

على أن القواعد كلها ــ فى اللغة العربية ــ تدل على أن المستثنى لا يكون إلا من جنس المستثنى منه « بلا خلاف »وإلا كان شد الرحال

= البارى ٣/٧٩ : « والحاصل أنهم ألزموا ابن تيمية بتحريم شد الرحال إلى زيارة قبر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم » ثم قال : « وهى من أبشع المسائل المنقولة عن ابن تيمية » .

وأعجب بعد ذلك لقول المعلق « الشيخ ابن باز » حيث قال تعليقاً على قول الحافظ هذا : « هذا اللازم لا بأس به ، وقد التزمه الشيخ ، وليس فى ذلك بشاعة بحمد الله عند من عرف السنة ومواردها ومصادرها .. إلخ » ، فيا من عجب!! وهل الحافظ ابن حجر العسقلانى لا يعرف السنة ومواردها ومصادرها؟! لا حول ولا قوة إلا بالله .

لطلب العلم ، والصلح بين الناس وللغزو فى سبيل الله ، ولنشر ـ دعوة الإسلام ـ وعيادة المريض ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وزيارة الموتى ، وزيارة الأهل والإخوان ، ونحو ذلك مما هو مطلوب شرعاً : كان ذلك كله ممنوعاً أن تشد إليه الرحال ، لأنه مقصود به البركة والقربة !!

فتعيين أن يكون مفهوم الحكم محصوراً فى عدم شد الرحال إلى المساجد وحدها ، لا إلى كل ما يراد به التبرك والتقرب إلى الله تعالى؛ هذا هو منطق العلم والعقل ، عند التسليم بظاهر مفهوم الحديث .

وبهذا يتضح أن القول ببدعية شد الرحال إلى زيارة قبرالرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو قبور الصالحين هو عين البدعة ،التى تجمع إلى قبح البدعة لوناً من الوقاحة باسم السنة ، ودعوى الانفراد بالصواب ، وفرض الوصاية على المسلمين .

ثم قالوا : إنه لم ينقل عن أحد من الصحابة أنه شد الرحال لزيارة قبر .

قلنا : إن عدم النقل لا يستلزم عدم حدوث الشيء ، وبالتالى لا يستلزم حرمته[1] وحسبنا دليلاً أن الندب إلى زيارة القبور ثابت ، بحسم علمى لا شك فيه ، فهو مشروع مع شد الرحال وبدونها ، لعدم القيد أو

---

(١) هذا على تقدير صحة الدعوى بعدم النقل ، وإلا فإنه قد نقل شد الرحال لزيارته عن طائفة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، منهم بلال مؤذن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعمر بن الخطاب ، ودعا كعب الأحبار لزيارته صلى الله عليه وآله وسلم وعبد الله بن عمر ، وغيرهم ، وكان عمر بن عبد العزيز وطائفة من السلف يرسلون السلام للنبى صلى الله عليه وآله وسلم بالبريد مع الحجيج .

الحصر ، أو الاشتراط فى أحاديثه كلها .

ولما كان مما لا شك فيه أن قبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو أفضل القبور قولاً واحداً ، كانت زيارته أفضل الزيارات قولاً واحداً ، وكان شد الرحال إلى هذه الزيارة مشروعاً ومندوبا إليه ، كما رأيت عقلاً ونقلاً .

وبالتالى ينطبق هذا الحكم على بقية قبور الصالحين ، فتندب زيارتها ، بشد الرحال أو بغيرها حيثما تكون ، إذ الممنوع فى ظاهر مفهوم الحديث هو شد الرحال للمساجد ، لا للأضرحة والقبور والمشاهد ، ولا شك أن المساجد شيء غير المشاهد والقبور والأضرحة .

توضيح لابد منـــه :

من المعلوم شرعاً وعقْلاً أن للوسائل حكم الغايات ، فإذا كانت الغاية مشروعة مسنونة كانت الوسائل كذلك، وعلى هذا فإذا كان الحج فرضاً كان شد الرحال إليه فرضاً وإذا كانت زيارة القبور سنة كان شد الرحال إليها سنة وإذا كانت تجارة الخمور حراماً كان شد الرحال إلى جلبها من أى بلد حراماً وهكذا تكون الأحكام الشرعية الصحيحة التى تستنبط من القواعد التى وضعها الشارع .

ومن هنا قال العلماء : لا يجوز لأحد أن يشد الرحال إلى مسجد غير المساجد التى ورد فى فضل الصلاة فيها عن الشارع صلى الله عليه وآله وسلم لأجل الصلاة فى ذلك المسجد ، لأن المساجد كلها متساوية فى الفضل فلو نذر أن يصلى مائة ركعة فى مسجد الأزهر الشريف ، جاز له

أن يصليها فى أى مكان شاء أو فى أى مسجد شاء لأن الأرض كلها مسجد وطهور ، أما لو نذر أن يصلى فى أى مسجد من المساجد الثلاثة الواردة فى الحديث فلابد أن يشد الرحال إليها للصلاة فيها وفاءً للنذر ..

(٢) النهي عن شد الرحال ليس للتحريم :

كل ذلك لو سلمنا أن النهى عن شد الرحال إنما كان للتحريم ، ولكن الحديث فى الميزان العلمى ، لا يرجع إلا لمجرد بيان الأفضلية ، أى فضيلة المساجد الثلاثة ـ أى أن الأفضل والأولى هو ألا تشد الرحال إلا إلى هذه المواضع الثلاثـة .

ومعنى هذا أن شد الرحال إلى غير هذه الأماكن جائز ، وليس ببدعة ولا معصية ، وهو رأى جمهور السلف والخلف .

واليك الدليل باختصار شديد :

أولاً : ورد هذا الحديث من عدة طرق أخرى صحيحة خالياً من الحصر والاستثناء فقد روى أحمد من طريق شهر بن حوشب[1] . قال : سمعت أبا سعيد الخدرى ، وذكرت عنده الصلاة فى الطور ، فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (لا ينبغى للمطِى أن تشد رحاله إلى مسجد يُبتغى فيه الصلاة ، غير المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدى هذا) .

---

(١) قال الحافظ بن حجر فى الفتح ٤٣/٢ : « وشهر حسن الحديث ، وإن كان فيه بعض الضعف ، وقد حسن له الحافظ أكثر من حديث بعضها فى المطالب العالية .
وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٣/٤ : « هو فى الصحيح بنحوه ، وإنما خرجته لغرابة لفظه ، ورواه أحمد وشهر فيه كلام ، وحديثه حسن . ينظر هامش الإفحام ص ١٥٣ ومفاهيم يجب أن تصحح ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

ويؤخذ من هذا الحديث أنهم كانوا يشدون الرحال للصلاة فى الطور ، وأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال : (لا ينبغى ..) وهذا اللفظ لا يفيد التحريم ، ولكنه يفيد التفضيل فقط ، ولا يجوز صرف هذا اللفظ إلى حكم الوجوب إلا بقرينة وشاهد ، ولا يوجد فى هذا النص قرينة ولا شاهد ، ولا فى غيره ..

ثانياً : روى الطبرانى وأحمد من حديث جابر رضى الله تعالى عنه ـ بإسناد حسن ـ ورواه البزار قال صلى الله عليه وآله وسلم : (خير ما رُكبت إليه الرواحل مسجد إبراهيم عليه السلام ومسجدى) .

وهذا الحديث بهذا اللفظ يفتح باب شد الرواحل إلى مختلف المساجد. ولكنه يُفَضِّل مسجد إبراهيم والمسجد النبوى ، والتحقيق أن مسجد إبراهيم ليس هو المسجد الأقصى ، ولكنه مسجد فى « الخليل » دفن به إبراهيم وبعض نسائه وذريته ، ولايزال الإسرائيليون يعملون لتحويله إلى معبد لهم .

ثالثاً : روى الإمام أحمد عن ابن عيينة ، وعبد الرزاق عن طريق سعيد بن أبى سعيد ، وروى من طريق ابن المسيب عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد. المسجد الحرام ، ومسجدى ، والمسجد الأقصى) وهذه الصيغة أيضاً لا تفيد الحصر ، ولا التخصيص ، ولا المنع ، ولكنها تفيد الأفضلية ، والأفضلية فى جانب لا تمنع مشروعية الفاضل أو المفضول من جانب آخر ، وعدم المنع معناه أن فيه خيراً غير أن هذا الخير هنا أقل مما هناك .

رابعـًا : يمكن الاستئناس أيضاً بما رواه البزار من حديث عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (أحق المساجد أن يزار وتشد إليه الرواحل : المسجد الحرام ومسجدى) ورواه عبد الرزاق ١٣٢/٥، ١٣٣ ، ورواه الإمام أحمد ٢٣٨/٢، ومسلم برقم (١٣٩٧) .

وفيه الدليل ـ بالإضافة إلى ما سبق ـ على أن شد الرواحل إلى غير هذه الأمكنة المذكورة لا يخلو من الطاعة والبر ، وأنه ليس بحرام ولا بدعة.

خامسًا : روى عبد الرزاق فى المصنف ١٣٣/٥ عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه قال :« لو كان مسجد قباء فى أفق من الآفاق لضربنا إليه أكباد المطى » .

وكذلك رواه عمر بن شبة فى أخبار المدينة ٤٩/١ ، وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه أنه قال : « لو يعلمون مافى قباء لضربوا إليه أكباد الإبل » صحح إسناده الحافظ فى الفتح ٦٩/٣ .

ومعنى هذا أن سيدنا عمر ـ وهو من هو علما واحتياطاً ـ لا يرى أن شد الرحال إلى مسجد قباء ـ وليس هو من المساجد الثلاثة ـ ممنوعاً بل إن أسلوب العبارة يدل على استحبابه هذا العمل واستحسانه ، بل يدل على ماهو أكثر من الاستحسان والاستحباب كما هو نص عبارته [1].

---

(١) وهو كذلك عمل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد روى البخارى ٣٩٩/١ ومسلم ١٠١٦/٢ عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : « كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يأتى مسجد قباء كل سبت راكبا وماشياً فيصلى فيه ركعتين ... اللفظ لمسلم ، وفى رواية البخارى : « كان عبد الله رضى الله تعالى عنه ـ أى =

فيكون المعنى بالتالى أن عمر رضى الله تعالى عنه كان يفضل هذه المساجد ، ويرى باجتهاده أن قصر الرحلة إليها إنما هو أفضل فقط ، علماً بأن حديث ، لا تشد الرحال ... إلخ ، بهذا النص إنما هو من رواية عمر فيمن رواه ..

وقول عمر هنا يفسره مراده هناك ، فلا تكون الرحلة إلى غير هذه المساجد عنده مما حرم الله تعالى كما يزعمون .

وقد رأينا عمر فيما رواه عبد الرزاق يشدد النكير على رجلين زارا بيت المقدس ، وهو من الأمكنة الثلاثة المحثوث على شد الرحال إليها ، وكان ذلك اجتهاداً منه ، حتى لا ينشغل الناس عن زيارة الحرمين الكريمين بغيرهما ، سواء من توفرت له المناسبات ومن لم تتوفر ، وحتى لا يسوى الناس بين حج بيت الله وحج بيت المقدس ، وذلك من قوله لهذين للرجلين : « حج كحج البيت »!!

وهكذا ترى عمر الذى يرغِّب فى الصلاة فى مسجد « قباء » هو عمر الذى يعترض على زيارة بيت المقدس ، وذلك يعنى أن لكل حكم سببه ، فلا تناقض بين هذه المواقف ، وإنما يؤخذ منها ـ فيما يؤخذ ـ أن عمر ماكان يرى تحريم شد الرحال إلى غير هذه الأماكن إلا لأسلوب عارض أو سبب كبير .

سادساً : جاء فى كتاب « الدين الخالص » للمرحوم الشيخ محمود

= ابن عمر ـ يفعله ، فليس هو من خصوصياته صلى الله عليه وآله وسلم كما يزعم بعضهم ، ودل على أن حديث شد الرحال إلى المساجد الثلاثة إنما هو لبيان أفضليتها كما قرره الإمام النووى رحمه الله تعالى .

خطاب السبكى مؤسس الجمعية الشرعية ـ وكتابه هذا هو مرجع الجمعية الأكبر فى ٥٩/٤ ، ٦٠ .. ما نصه : « حديث لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » أى لا يطلب ذلك، فليس نهياً عن شدها لغيرها خلافاً لبعضهم ، لأنه عليه الصلاة والسلام كان يأتى قباء راكباً وماشياً ويزور القبور » ا. هـ وقال فى موضوع « صلاة القصر »٥٩/٤ ما نصه : « ويترخص ـ أى القصر ـ إن قصد مشهداً أو قصد مسجداً ولو غير المساجد الثلاثة ، أو قصد قبر نبى ، أو غيره كولىٍّ » ا. هـ من نفس الكتاب .

ويسعدنا أن نقدم هذا الاقتباس إلى رجال هذه الجمعية التى لا نزال نرى فيها خيراً ، ولا اعتبار عندنا لما كتبه المعلق فى الحاشية ، فإنما ننقل رأى الإمام نفسه ، وحسبنا به ثقة وفقها فيما ننقل عنه .

وتكون النتيجة الواقعية من هذا جميعًا أن شد الرحال لزيارة قبر المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وقبور الصالحين حيثما كانت عمل مندوب إليه ، مبارك عليه ، وأن الرحلة إلى الصلاةفى المساجد (غير الثلاثة المباركة) عمل مشروع غير مرفوع ولا ممنوع ، لا عقلا ولا نقلا إلا عصبية أو نفعية ، أو جهلاً أو حباً فى المخالفة .

موضوع أبي هريرة والصلاة في الطور :

ولسوف يتصايح بعضهم محتجاً بقصة صلاة أبى هريرة فى « الطور» واعتراض أبى بصرة عليه ، على أن هذه القصة فى جانبنا ، سياقها العلمى وبيانها الصريح كما سترى :

أولا : روى البزار عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال :

« أتيت الطور فلقيني حُمَيْل بن بصرة ، فقال لي : من أين جئت ؟ فقلت : من الطـور ، قـال : سمعـت رسول الله صلى الله عليـه وآله وسلم يقول : « صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد ، فلو صليت فيَ هذا المسجد كان خيراً لك » .

وفي هذا الحديث نرى أبا هريرة رضي الله تعالى عنه قد شد الرحال إلى الطور للصلاة فيه ، وهو من رواة حديث : « لا تشد الرحال ... » بلفظه المعروف ، فلو كان قد فهم من الحديث حرمة شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة ماشد رحاله إلى مسجد الطور.

ثانيًا : نرى أن حُميل بن بصرة ـ وهو صحابي جليل ـ لم يقل بتحريم أو تأثيم ما فعل أبو هريرة من شد الرحال إلى مسجد الطور ، ولكنه ذكّره بفضل الصلاة في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وحُميْل بن بصرة أحد رواة حديث « لا تشد الرحال .. » أيضا ومعاملته لأبي هريرة ـ وكلاهما من رواه الحديث تدل مطلق الدلالة على أنهم ما كانوا يفهمون من الحديث التحريم ، ولكنهم كانوا يفهمون التفضيل .

ثالثًا : خرج أبو هريرة من المدينة إلى الطور بنية الصلاة ، وقد علمت أنه من رواة حديث « لا تشد الرحال .. » فعند أحمد من حديث أبي بصرة رضي الله تعالى عنه قال : لقيت أبا هريرة، وهو يسير إلى مسجد الطور ليصلي فيه ، قال : فقلت له : لو أدركتك قبل أن ترتحل ما ارتحلت (يعني قبل أن تجهز راحلتك وتركبها فعلا) قال : فقال : ولم ؟ فقلت : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « لا تشد الرحال.. » الحديث .. المسند ٣٩٧/٦ .

وفى هذا الحديث نرى أن أبا بصرة لم يأمر أبا هريرة بالعودة إلى المدينة وهو فى طريقه إلى الطور ، ولو كان فهم من الحديث الذى رواه حرمة ذلك ما تساهل مع أبى هريرة بمثل ماحدث من مجرد تذكيره بالأفضل ، وهو فى بداية الطريق .

رابعًا : نرى أن أبا هريرة ، وقد علمت أنه من رواة الحديث لم يرجع عن عزيمته بكلام أبى بصرة ، بل ذهب فصلى فى الطور ، ولو كان فى هذا مجرد شبهة إثم ما فعله أبو هريرة ـ رضى الله تعالى عنه ـ وإنما كان بينهما التناصح باختيار الأولى فيما يعتقد الناصح .

ومن أدلة التأكيد على أن أبا هريرة خرج للصلاة فى الطور ، لا لشيء آخر ، كما يقول بعضهم ، بالإضافة إلى ما قررناه فى البنود السابقة ما جاء في رواية أحمد والطيالسى من حديث عمر بن عبد الرحمن بن الحارث أن أبا بصرة لقى أبا هريرة ، وقد جاء من الطور فقال : من أين أقبلت ؟ فقال : من الطور صليت فيه ، المسند ٦/٧، والطيالسى ص ١٩٢، ٣٢٧ .

وفى حديث مرثد بن عبد الله ، عند أحمد ـ بإسناد حسن كما فى مجمع الزوائد ـ أن أبا بصرة رضى الله تعالى عنه قال : لقيت أبا هريرة وهو يسير إلى مسجد الطور ليصلى فيه ومعنى هذا أنه لقيه أثناء ذهابه ، وأثناء إيابه، ولم ينكر عليه .

الخلاصة :

بكل هذا الإجمال قد وضح علمياً ـ عقلاً ونقلاً ـ أنه لا حرمة إطلاقاً

فى شد الرحال للصلاة فى غير المساجد الثلاثة ..

وقد قررنا أن الحديث على منطوقه لا يمنع شد الرحال لزيارة قبور الصالحين كذلك .. وفى مقدمتها القبر النبوى الشريف .

ولو سلمنا لهم بفهمهم لامتنع أن يتحرك أحد من مكانه إلى عمل صالح ، فلا تشد الرحال لطلب العلم ، ولا لحرب الأعداء ، ولا لصلة الأرحام ، ولا للدعوة إلى الله ، ولا لشىء فيه قربة ومثوبة .

فالمسألة لا تزيد على أنها نوع من التشويش والتهويل التقليدى ، والتعميم الأحمق الذى ترفضه القوانين العلمية ، ولا يتساوى مع سماحة الإسلام ومعاييره المنصفة .

نقول هذا ونستغفر الله ونتوب إليه[١] .

---

(١) الإفهام والإفحام من ص ١٤٩ : ١٦٢ .

الذكر وما يتعلق به من أحكـــام

تمهيـــد :

الذكر يثمر المقامات كلها من اليقظة إلى التوحيد ، ويثمر المعارف والأحوال التى شمر إليها السالكون ، فلا سبيل إلى نيل ثمارها إلا من شجرة الذكر ، وكلما عظمت تلك الشجرة ورسخ أصلها ، كان أعظم لثمرتها وفائدتها ..

وهو أصل كل مقام وقاعدته التى يبنى عليها ، كما يبنى الحائط على أساسه وكما يقوم السقف على جداره ..

وهو أقرب الطرق إلى الله تعالى وهو علم على وجود ولايته كما قيل: « الذكر منشور الولاية ، فمن وفق للذكر فقد أُعطى المنشور ومن سُلب الذكر فقد عزل ».

قال الشاعـــر :

والذكر أعظم بابا أنت داخله　　　　لله فاجعل له الأنفاس حراسا[1]

وذلك أن العبد إن لم يستيقـظ من غفلته لم يمكنه قطـع منـازل السير الموصلة إلي معرفة الله تعالي التي خلق الإنسان لأجلها ، قال تعالـى: ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ « الذاريات : ٥٦ » .. ولا يستيقظ المرء إلا بالذكر ، فالغفلة نوم القلب أو موته .

وإن امتثال الصوفية لأمر مولاهم عز وجل بالإكثار من ذكره جعل حياتهم كحياة الملائكة ، لا تخطر الدنيـا على قلوبهم ، ولا تشغلهم عن محبوبهم ، نسوا أنفسهم بمجـالستهم لربهم ، وغابوا عن كل شيء سواه

---

(١) شرح الحكم العطائية لابن عباد النفزى الرندى ص ٤٢

فتواجدوا عندما وجدوا .

ذكرتك لا أنـي نسيتك لمحـة وأيسر ما في الذكر ذكر لساني

يذكر الصوفي ربه في كل أحيانه ، لأنه حظي بمجالسة ربه عز وجل « أهل ذكري أهل مجالستي... » الحديث [(١)].

فالعارف من داوم على الذكر وأعرض بقلبه عن متع الدنيـا الزائلة ، فتولاه الله في جميع شؤونه ، ولا عجب فمن صبر ظفر ، ومن لازم قرْع الباب يوشك أن يفتح له .

معاني كلمة الذكر :

أطلقت الآيات القرآنية الكريمـة والأحـاديث النبويـة الشريفـة كلمـة « الذكر » على عدة معان : فتارة قصد بها القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ ، الحجر : ٩ »... وتارة قصد بها صلاة الجمعة والخطبة كما في قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ ، الجمعة: ٩ ، وفي موطن آخر عني بها العلم كما في قوله تعالى: ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ ، النحل : ٤٣ ، .

وفي معظم النصوص أريد بها التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير

---

(١) من حديث قدسي رواه الإمام أحمد في مسنده .
قال ابن رجب في كلمة الاخلاص قال في بعض الآثار يقول الله تعالى ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأورده ابن تيمية في مجموع الفتاوى ج١٠ ص ٨٦ ، ١٤ ص ٣١٩ والحديث في منهاج السنة ج ٦ ص ١٣١.

والصلاة على النبى صلى الله عليه وآله وسلم وما إلى ذلك من الصيغ كما فى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ ، النساء: ١٠٣ ، وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ ، الأنفال : ٤٥ ، وقوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ ، المزمل : ٨ ، .

عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : (إن الله عز وجل يقول : أنا مع عبدى إذا هو ذكرنى وتحركت بى شفتاه) [١].

وعن عبد الله بن بسر أن رجلاً قال : (يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علىَّ فأخبرنى بشىء أتشبث به قال : (لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله) [٢].

أما ما يقوله بعضهم : ، إن المراد بالذكر هو العلم بالحلال والحرام ، فجوابه : أن لفظ الذكر مشترك بين العلم والصلاة والقرآن وذكر الله عز وجل لكن المعتبر فى اللفظ المشترك. ما غلب استعماله فيه عرفًا ،وغيره إنما يصرف إليه بقرينة حالية أو لفظية ، ولفظ الذكر قد غلب استعماله فى ذكر الله حقيقة ، ومن غير الغالب أن يطلق ويراد به العلم كما قال تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ فالمراد به العلم بقرينة السؤال ..

وقال الله تعالى : ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم

---

(١) رواه ابن ماجه فى كتاب الأدب وابن حبان فى صحيحه والإمام أحمد فى مسنده والحاكم كما فى فيض القدير ١/ ٣٠٩ .

(٢) رواه الترمذى فى كتاب الدعوات وقال : حديث حسن .

مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ ، الأحزاب : ٣٥ ،.

قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما .. المراد : يذكرون الله فى أدبار الصلوات ، وغدواً وعشياً وكلما استيقظ من نومه ، وكلما غدا أو راح من منزله ذكر الله تعالى [1].

قال مجاهد : ، لا يكون من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات حتى يذكر الله تعالى قائماً وقاعداً ومضطجعاً ، ..

وجميع العبادات يشترط لصحتها شروط إلا ذكر الله تعالى فإنه يصح بطهارة وبغيرها وفى جميع الحالات فى القيام والقعود وغيرها ..

ولهذا قال الإمام النووى : ، أجمع العلماء على جواز الذكر بالقلب واللسان للمُحدِث والجنب والحائض والنفساء ، وذلك فى التسبيح والتحميد والتكبير والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والدعاء ونحو ذلك ،[2].

(١، ٢) الفتوحات الربانية على الأذكار النووية ١/١٠٦ ، ١٠٩ .

فصل المقال بأن الذكر أفضل الأعمال

ذِكر الله تعالى هو روح العبادة وغايتها وذروة سنامها ، ويكفى دليلاً على ذلك أن الصلاة وهى عماد الدين إنما شرعت لتوصل إليه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾ « طه : ١٤» قيل: المصدر مضاف إلى الفاعل، أى لأذكرك بها، وقيل مضاف إلى المذكور ، أى لتذكرونى بها ، واللام على هذا لام التعليل ، أى: أقم الصلاة لأجل ذكرى، وكذلك أعمال الحج إنماجعلت لإقامة ذكر الله تبارك وتعالى.

فقد روى أبو داود والترمذى عن عائشة رضى الله تعالى عنها عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : (إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمى الجمار لإقامة ذكر الله تعالى) .

وإن أفضل أهل كل عمل أكثرهم فيه ذكرا لله تعالى فأفضل الصُوَّام أكثرهم ذكراً لله تعالى وأفضل الحجاج أكثرهم ذكراً لله تعالى وأفضل المجاهدين أكثرهم ذكراً لله تعالى.

وقد ذكر ابن أبى الدنيا حديثاً مرسلاً فى ذلك أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم سئل : أى أهل المسجد خير؟ قال أكثرهم ذكراً لله تعالى ، قيل : أى الجنازة خير؟ قال : أكثرهم ذكرا لله تعالى ، قيل : فأى المجاهدين خير؟ قال: أكثرهم ذكراً لله تعالى ، قيل : فأى الحجاج خير؟ قال : أكثرهم ذكراً لله تعالى ، قيل : وأى العباد خير؟ قال : أكثرهم ذكراً لله تعالى ، قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه ذهب الذاكرون بالخير كله .

وأخرج أحمد والطبرانى من حديث معاذ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن رجلاً سأله قال: أى المجاهدين أعظم أجراً ؟ قال: أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكراً ، قال : فأى الصالحين أعظم أجراً ؟ قال: أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكراً ، ثم ذكرالصلاة والزكاة والحج والصدقة ، كل ذلك ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكراً ، قال سيدنا أبو بكر لسيدنا عمر رضى الله تعالى عنهما : يا أبا حفص ذهب الذاكرون بكل الخير ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (أجل) .

وأخرج الطبرانى والبزار من حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (من عجز منكم عن الليل أن يكابده ، وبخل بالمال أن ينفقه ، وجبن عن العدو أن يجاهده ، فليكثر من ذكر الله) .

الذكر خير الأعمال وأزكاها :

عن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ فقالوا : بلى يا رسول الله، قال: ذكر الله) رواه أحمد بإسناد حسن وابن أبى الدنيا والترمذى وابن ماجه والحاكم وصححه والبيهقى .

وعن مالك بن يخامر أن معاذ بن جبل قال لهم : إن آخر كلام

فارقت عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن قلت : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله . رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى واللفظ له وابن حبان .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل : أى العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً ، قال : قلت : يا رسول الله ومن الغازى فى سبيل الله ؟ قال : لو ضرب بسيفه فى الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دماً لكان الذاكرون الله كثيراً أفضل درجة .. رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن غريب ، أى رواه راو واحد فقط ، رواه البيهقى مختصراً .

وعن جابر رفعه إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : ما عمل آدمى عملاً أنجى له من العذاب من ذكر الله تعالى ، قيل : ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد فى سبيل الله إلا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع .. رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط ورجالهما رجال الصحيح .

قال الشوكانى فى كتابه (تحفة الذاكرين) : فى هذه الأحاديث دليل على أن الذكر خير الأعمال على العموم كما يدل عليه إضافة الجمع إلى الضمير فى قوله : (ألا أنبئكم بخير أعمالكم) وكذلك إضافة أزكى وأرفع إلى ضمير الأعمال فى قوله : (وأزكاها وأرفعها) فى حديث أبى الدرداء، فأفاد كل ذلك أن الذكر أفضل عند الله تعالى من جميع الأعمال التى يعملها العباد ، وأنه أكثرها نماءً وبركة وأرفعها درجة ، وفى هذا ترغيب عظيم فإنه يدخل تحت الأعمال كل عمل يعمله العبد كائنا ما كان ..

ويشـهد لذلك قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ ، العنكبوت : ٤٥ ، فقيل : المعنى أنكم فى الصلاة تذكرون الله وهو ذاكر من ذكره ، ولذكر الله تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه، وهذا يروى عن ابن عباس وسلمان وأبى الدرداء وابن مسعود رضى الله تعالى عنهم كما روى الطبرانى ذلك فى تفسير الآية .

وذكر ابن أبى الدنيا عن فضل بن مرزوق عن عطية : (ولذكر الله أكبر) ، قال : هو قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ فذكر الله تعالى لكم أكبر من ذكركم إياه ، وقال ابن زيد وقتادة : معناه ولذكر الله أكبر من كل شيء. وقيل لسلمان : أى الأعمال أفضل؟ فقال : أما تقرأ القرآن؟ (ولذكر الله أكبر) .

روي الإمام أحمد والنسائى فى عمل اليوم والليلة بإسناد حسن عن عبد الله بن شداد أن نفراً من بنى عذرة ثلاثة أتوا النبى صلى الله عليه وآله وسلم فأسلموا قال.. فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم من يكفيهم ؟ قال طلحة : أنا ، قال فكونوا عند طلحة ، فبعث النبى صلى الله عليه وآله وسلم بعثاً فخرج فيه أحدهم فاستشهد . قال : ثم بعث بعثاً فخرج فيه آخر فاستشهد قال: ثم مات الثالث على فراشه ، قال طلحة فرأيت هؤلاء الثلاثة الذين كانوا عندى فى الجنة ، فرأيت الميت على فراشة أمامهم ورأيت الذى استشهد أخيراً يليه ، ورأيت الذى استشهد أولهم آخرهم. قال: فدخلنى من ذلك ، قال : فأتيت النبى صلى الله عليه وآله وسلم فذكرت له ذلك . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (وما أنكرت من

ذلك ليس أحد أفضل عند الله من مؤمن يعمر فى الإسلام لتسبيحه وتكبيره وتهليله ، المسند ١٦٣/١ والسنن الكبرى للنسائى كتاب عمل اليوم والليلة رقم ١٠٦٧٤ .

وقال سيدنا خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه لما حضرته الوفاة : لقد حضرت مائة زحف ، وما فى بدنى موضوع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية ، فها أنا أموت على فراشى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء ، وما من عمل أرجى عندى من (لا إله إلا الله) وأنا متترس بها من النار .

وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : ليذكرن الله أقوامٌ فى الدنيا على الفرش الممهدة يدخلهم الدرجات العلى .. رواه ابن حبان فى صحيحه .

وجوب العناية بالذكر فهو باب الوصول :

وفى حديث عبد الله بن بسر قال : جاء أعرابى فقال : يا رسول الله : كثرت على خلال الإسلام وشرائعه فأخبرنى بأمر جامع يكفنى ، قال : (عليك بذكر الله) قال : ويكفينى يارسول الله ؟ قال : نعم ويفضل عليك . رواه الترمذى بمعناه فى الدعوات وابن ماجه وإسناده صحيح .

فدله الناصح الأمين صلى الله عليه وآله وسلم على شىء يبعثه على شرائع الإسلام والحرص عليها والاستكثار منها ، فإنه إذا اتخذ ذكر الله تعالى شعاره أحبه وأحب ما يحبه ، فلا شىء أحب إليه من التقرب بشرائع الإسلام ، فدله على ما يتمكن به من شرائع الإسلام وتسهل به عليه ، وهو

ذكر الله عز وجل ، كما أنه يردع عن التقصير فى الطاعات وعن المعاصى والسيئات .

هـذا .. وإن ذكر الله تعالى من أكبر العون على طاعته : فإنه يحببها إلى العبد ويسهلها عليه ويلذذها ، ويجعل قرة عينه فيها ، ونعيمه وسروره بها بحيث لا يجد لها من الكلفة والمشقة والثقل ما يجد الغافل .. والتجربة شاهدة بذلك ..

ومن ثم كان الذكر رأس الأصول ، وطريق عامة للطرق الصوفية ومنشور الولاية ، فمن فتح له فيه فقد فتح له باب الدخول على الله عز وجل فليتطهر وليدخل على ربه تعالى يجد عنده كل ما يريد ، فإن وجد ربه تعالى وجد كل شىء ، وإن فاته ربه تعالى فاته كل شىء .

قال الإمام أبو القاسم القشيرى فى رسالته : الذكر ركن قوى فى طريق الحق سبحانه وتعالى بل هو العمدة فى هذا الطريق ، ولا يصل أحد إلى الله تعالى إلا بدوام الذكر ، والذكر ضربان : ذكر اللسان ، وذكر القلب فذكر اللسان به يصل العبد إلى استدامة ذكر القلب ، والتأثير لذكر القلب ، فإذا كان العبد ذاكراً بلسانه وقلبه فهو الكامل فى وصفه فى حال سلوكه ، سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : الذكر منشور الولاية ، فمن وُفق للذكر فقد أُعطى المنشور ، ومن سُلب الذكر فقد عُزل ا. هـ

هذا .. ونسأل الله تعالى أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته .. والحمد لله رب العالمين ..

أقسام الذكر

أ) ذكر السر والجهر :

إن ذكر الله مشروع سرا وجهراً ، وقد رغب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى الذكر بنوعيه السرى ، والجهرى ، إلا أن علماء الشريعة الإسلامية قرروا أفضلية الجهر بالذكر إذا خلا من الرياء ، أو إيذاء مصلٍ ، أو قارئ ، أو نائم ، مستدلين ببعض الأحاديث النبوية الشريفة : منها :

ما أخرجه البخارى فى صحيحه والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (يقول الله : أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى و وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم) .. والذكر فى الملأ لا يكون إلا عن جهر .

وروى البيهقى عن زيد بن أسلم رضى الله تعالى عنه قال : قال ابن الأدرع رضى الله تعالى عنه : «انطلقت مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم ليلة ، فمر برجل فى المسجد يرفع صوته ، قلت يا رسول الله : عسى أن يكون هذا مرائيا ؟ قال : (لا ، ولكنه أواه)[1].

وروى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : « إنّ رفع الصوت بالذكر حين ينصرف الناس من المكتوبة كان على

---

(١) الحاوى للفتاوى ـ للعلامة السيوطى ١/٣٩١ .
قال الهيثمى رواه أحمد والطبرانى واسنادهما حسن .

عهد النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال ابن عباس : « كنت أعلم إذا انصرفوا بذلك إذا سمعته ».

والمعنى : كنت أعلم انصرافهم بسماع الذكر كما قال الحافظ ابن حجر فى شرح هذا الحديث(١).

وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذى عن السائب رضى الله تعالى عنه قال : جاءنى جبريل قال : مر أصحابك. يرفعوا أصواتهم بالتكبير(٢).

وهناك أحاديث بلغت حد الكثرة جمع منها العلامة الكبير الحافظ جلال الدين السيوطى خمسة وعشرين حديثا فى رسالة سماها « نتيجة الفكر فى الجهر بالذكر » .. فقال : الحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، سألت ـ أكرمك الله تعالى ـ عما اعتاده الصوفية من عقد حلق الذكر ، والجهر به فى المساجد ، ورفع الصوت بالتهليل ، وهل ذلك مكروه أو لا؟

الجواب : إنه لا كراهة فى شيء من ذلك ، وقد وردت أحاديث تقتضى استحباب الجهر بالذكر ، وأحاديث تقتضى استحباب الإسرار به ، والجمع بينهما أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ، وها أنا أبين لك ذلك فصلاً فصلاً ..

ثم ذكر الأحاديث الدالة على ذلك بكاملها ، ثم قال : إذا تأملت ما أوردنا من الأحاديث عرفت من مجموعها أنه لا كراهة ألبتة فى الجهر بالذكر ، بل فيه م يدل على استحبابه ، إما صريحا ، وإما التزاما كما أشرنا إليه ، وأما معارضته بحديث : « خير الذكر الخفى » فهو نظير

---

(١) فتح البارى ٢/٢٥٩.

(٢) الحاوى ١/٣٨٩.

معارضة أحاديث الجهر بالقرآن بحديث : « المسرّ بالقرآن كالمسر بالصدقة ، وقد جمع النووى بينهما بأن الإخفاء أفضل حيث خاف الرياء ، أو تأذى به مصلون أو نيام والجهر أفضل فى غير ذلك ، لأن العمل فيه أكثر ، ولأن فائدته تتعدى إلى السامعين ، ولأنه يوقظ القارئ ، ويجمع همه إلى الفكر ، ويصرف سمعه إليه، ويطرد النوم ويزيد فى النشاط .

وقال بعضهم : يستحب الجهر ببعض القراءة والإسرار ببعضها ، لأن المسرّ قد يملّ فيأنس بالجهر ، والجاهر قد يكل فيستريح بالإسرار .

وكذلك نقول فى الذكر على هذا التفصيل ، وبه يحصل الجمع بين الأحاديث .

قال الله تعالى : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ « الأعراف : ٢٠٥ » ..

قلـت الجواب على هذه الآية من ثلاثة أوجه :

الأول : أنها مكية كآية الإسراء ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ « الإسراء: ١١٠ » ، وقد نزلت حين كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يجهر بالقرآن ، فيسمعه المشركون فيسبّون القرآن ومن أنزله ، فأمر بترك الجهر سدًّا للذريعة ، كما نهى عن سب الأصنام لذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ « الأنعام : ١٠٨ » .. وقد زال هذا المعنى ، وأشار إلى ذلك ابن كثير فى تفسيره .

الثانى : أن جماعة من المفسرين منهم : عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، شيخ مالك وابن جرير – حملوا الآية على الذاكر حال قراءة القرآن،

وأنه أمر بالذكر على هذه الصفة تعظيماً للقرآن أن ترفع عنه الأصوات ، ويقويه اتصالها بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا ﴾ ، الأعراف : ٢٠٤ ، ..

قلت : وكأنه لما أمر بالإنصات خشى من ذلك الإخلاد إلى البطالة فنبه على أنه وإن كان مأمورا بالسكوت باللسان إلا أن تكليف الذكر بالقلب باق ،حتى لا يغفل عن ذكر الله، ولذا ختم الآية بقوله : ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾ ، الأعراف : ٢٠٥ ، ..

الثالث : ما ذكره الصوفية أن الأمر فى الآية خاص بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم .. الكامل المكمل ، وأما غيره ممن هو محل الوساوس والخواطر الرديئة فمأمور بالجهر ، لأنه أشد تأثيراً فى دفعها .

قلت : ويؤيده من الحديث ما أخرجه البزار عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (من صلى منكم بالليل فليجهر بقراءته فإن الملائكة تصلى بصلاته وتسمع لقراءته ، وإن مؤمنى الجن الذين يكونون فى الهواء ، وجيرانه معه فى مسكنه يصلون بصلاته ، ويستمعون قراءته ، وإنه ينطرد بجهره بقراءته عن داره وعن الدور التى حوله فساق الجن ومردة الشياطين)

فإن قلت : فقد قال الله تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ، الأعرف: ٥٥ ، . وقد فسر الاعتداء بالجهر فى الدعاء.

قلت الجواب عنه من وجهين :

أحدهما : أن الراجح فى تفسيره أنه تجاوز المأمور به ، أو اختراع

دعوة لا أصل لها فى الشرع ، ويؤيده ما أخرجه ابن ماجه والحاكم فى مستدركه وصححه ، عن أبى نعامة رضى الله تعالى عنه أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول : اللهم إنى أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة ، فقال إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : (سيكون فى هذه الأمة قوم يعتدون بالدعاء) فهذا تفسير صحابى وهو أعلم بالمراد .

الثانى : على تقدير التسليم ، فالآية فى الدعاء لا فى الذكر ، والدعاء بخصوصه الأفضل فيه الإسرار ، لأنه أقرب إلى الإجابة ، ولذا قال تعالى : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ ، مريم : ٣ ».. ومن ثم استحب الإسرار بالاستعاذة فى الصلاة اتفاقا ؛ لأنها دعاء .

فإن قلت : فقد نقل عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه رأى قوما يهللون برفع الصوت فى المسجد ، فقال : ما أراكم إلا مبتدعين حتى أخرجهم من المسجد ..

قلت : هذا الأثر عن ابن مسعود يحتاج إلى بيان سنده ، ومن أخرجه من الأئمة الحفاظ فى كتبهم ، وعلى تقدير ثبوته فهو معارض بالأحاديث الكثيرة الثابتة المتقدمة ، وهى مقدمة عليه عند التعارض .

ثم رأيت مايقتضى إنكار ذلك عن ابن مسعود ..

قال الإمام أحمد فى كتاب الزهد : حدثنا حسين بن محمد حدثنا المسعودى عن عامر بن شقيق عن أبى وائل قال : هؤلاء الذين يزعمون أن عبد الله كان ينهى عن الذكر ، ما جالست عبد الله مجلساً إلا ذكر الله فيه.

وأخرج أحمد فى الزهد عن ثابت البنانى قال : إن أهل ذكر الله

ليجلسون إلى ذكر الله وإن عليهم من الآثام أمثال الجبال ، وإنهم ليقومون من ذكر الله تعالى ما عليهم منها شيء [(١)] .

وقال العلامة الكبير الشيخ محمود الألوسي في تفسيره ، عند قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ ، طه : ٧ ، وقيل نُهي عن الجهر بالذكر والدعاء لقوله تعالى : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ ، الأعراف : ٢٠٥ ، .

وأنت تعلم أن القول بأن الجهر بالذكر والدعاء منهي عنه ، لا ينبغي أن يكون على إطلاقه والذى نص عليه الإمام النووى رضى الله تعالى عنه فى فتاويه: أن الجهر بالذكر حيث لا محذور شرعاً ، وهو ظاهر مذهب الإمام أحمد ، وإحدى الروايتين عن الإمام مالك بنقل الحافظ ابن حجر فى فتح البارى وهو قول القاضيخان فى فتاويه فى ترجمة مسائل ، كيفية الذكر ، وقوله فى باب ، غسل الميت ، ، ويكره رفع الصوت بالذكر ، فالظاهر أنه لمن يمشى مع الجنازة كما هو مذهب الشافعية ، لا مطلقاً .

وقال الألوسى ـ أيضًا ـ واختار بعض المحققين أن المراد : دون الجهر البالغ أو الزائد على قدر الحاجة ، فيكون الجهر المعتدل ، والجهر بقدر الحاجة داخلاً فى المأمور به ، فقد صح ما يزيد على عشرين حديثًا فى أنه صلى الله عليه وآله وسلم كثيراً ما كان يجهر بالذكر ، وصح عن أبى الزبير-أنه سمع عبد الله بن الزبير يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا سلم من صلاته يقول بصوته الأعلى : (لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ولا حول ولا

---

(١) الحاوى للفتاوى ج ١/ ٣٩٤ .

قوة إلا بالله ، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل) .. إلى أن قال : وقد ألف الشيخ إبراهيم الكوراني ـ عليه الرحمة في تحقيق هذه المسألة رسالتين جليلتين ، سمى أولاهما : « نشر الزهر في الذكر بالجهر » وثانيتهما : « إتحاف المنيب الأواه بفضل الجهر بذكر الله »[١].

أفضلية ذكر الجهر :

قال العلامة الطحطاوي في حاشيته على مراقي الفلاح : اختلف ، هل الإسرار بالذكر أفضل ؟ فقيل : نعم ، لأحاديث كثيرة تدل عليه منها : « خير الذكر الخفي ، وخير الرزق ما يكفي » ولأن الإسرار أبلغ في الإخلاص وأقرب إلى الإجابة ، وقيل : الجهر أفضل لأحاديث كثيرة .

منها ما رواه ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا سلم من صلاته قال بصوته الأعلى : (لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله ..) الحديث رواه مسلم والترمذي وقد كان يأمر من يقرأ القرآن في المسجد أن يسمع قراءته .

وكان ابن عمر يأمر من يقرأ عليه وعلى أصحابه وهم يستمعون ، لأنه أكثر عملاً وأبلغ في التدبر ، ونفعه متعد لإيقاظ قلوب الغافلين .

الجمع بين القولين :

وجُمع بين الأحاديث الواردة ـ بالجهر والإسرار ـ بأن ذلك يختلف بحسب الأشخاص والأحوال ، فمن خاف الرياء ، أو تأذى به أحد كان

---

(١) روح المعاني للعلامة الألوسي المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ ، ١٦/١٤٧ ، ١٤٨ .

الإسرار أفضل ومتى فقد ما ذكر كان الجهر أفضل..

قال في « الفتاوى » لا يمنع من الجهر بالذكر في المساجد ، احترازاً عن الدخول تحت قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ ، البقرة : ١١٤ ، كذا في البزازية .

ونص الشعراني في ذكر الذاكر للمذكور والشاكر للمشكور ما لفظه « وأجمع العلماء سلفاً وخلفاً على استحباب ذكر الله تعالى جماعة في المساجد وغيرها من غير نكير ، إلا أن يشوش جهرهم بالذكر على نائم أو مصل أو قارئ قرآن ، كما هو مقرر في كتب الفقه »(١) .

وهذا ما ذهب إليه العلامة ابن عابدين الحنفي في حاشيته على رد المحتار(٢) .

وقد ذهب بعض العلماء إلى التوسط في رفع الصوت في التسبيح وغيره لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يفعله. فعن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج ليلة فإذا هو بأبي بكر يصلي يخفض من صوته ، قال : ومر بعمر رضي الله تعالى عنه وهو يصلي رافعا صوته ، قال : فلما اجتمعا عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : (يا أبا بكر مررت بك وأنت تصلي تخفض صوتك قال : قد أسمعت من ناجيت يارسول الله ، قال : فارفع قليلاً ، وقال لعمر: مررت بك وأنت تصلي رافعاً صوتك ؟ فقال : يارسول الله : أوقظ الوسنان

---

(١) حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح ص ٢٠٨ .

(٢) حاشية ابن عابدين ٢٦٣/٥ .

وأطرد الشيطان ، قال : اخفض من صوتك شيئاً)[1]. وعلى هذا فإن الجهر بالذكر ليس ببدعة كما يقول : المتنطعون ، ولا شيء فيه وقد يكون أجمع للقلب ، إذا ما اجتنب الذاكر الرياء والسمعة ، والله تعالى أعلم وأحكم.

الذكر في جماعة : « حلقات الذكر » :

من المعلوم شرعاً أن العبادات مع الجماعة ـ ومنها ذكر الله تعالى تزيد في الفضل على العبادة في حالة الانفراد ، ففي الجماعة تلتقي القلوب ، ويكون التعاون والتجاوب ، ويستقي الضعيف من القوى ، والمظلم من المنوّر ، والكثيف من اللطيف ، والجاهل من العالم ، وهكذا ..

والاجتماع على الذكر في حلقه سنة ثابته بأدلة الشرع الشريف ، أمر الله تعالى بها في كتابه العزيز فقال تعالى : ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ** ﴾.. وقال تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۞ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا** ﴾.

ومن السنة ما أخرجه الترمذي في كتاب ، الدعوات ، عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا وما رياض الجنة؟ قال : حلق الذكر ،.

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ـ باب فضل مجالس الذكر ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : (إن لله تبارك وتعالى

---

(١) رواه أبو داود في سننه ٢/٣٧ وابن خزيمة ٢/١٨٩ ، والطبراني في الأوسط ٧/١٨١ والحاكم في المستدرك ١/٤٥٤ .

ملائكة سيارة فُضْلا يتتبعون مجالس الذكر . فإذا وجدوا مجلسا فيه ذكر قعدوا معهم ، وحفَّ بعضهم بعضا بأجنحتهم حتى يملأوا ما بينهم وبين السماء الدنيا ، فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء ، قال فيسألهم الله عز وجل وهو أعلم بهم ؛ من أين جئتم؟ فيقولن : جئنا من عند عباد لك فى الأرض ، يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك . قال : وماذا يسألونى ؟ قالوا : يسألونك جنتك . قال : وهل رأوا جنتى ؟ قالوا : لا .. أى رب ! قال : فكيف لو رأوا جنتى ؟ قالوا : ويستجيرونك قال : ومم يستجيرونى ؟ قالوا : من نارك . يارب ! قال : وهل رأوا نارى؟ قالوا : لا .. قال : فكيف لو رأوا نارى ؟ قالوا : ويستغفرونك .. قال فيقول : قد غفرت لهم فأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا ..

قال : فيقولون : رب فيهم فلان .. عبد خطَّاء.. إنما مرَّ فجلس معهم قال : فيقول : وله غفرت هم القوم لا يشقى بهم جليسهم .

وعنه وعن أبى سعيد رضى الله تعالى عنه قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده) رواه مسلم ..

وعن أبى سعيد الخُدرى رضى الله تعالى عنه قال : خرج معاوية رضى الله تعالى عنه على حلقة فى المسجد فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله . قال : آلله ما أجلسكم إلا ذاك ؟ قالوا : ما أجلسنا إلا ذاك ، قال : أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، وما كان أحد بمنزلتى من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقل عنه حديثاً منى : إن رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم خرج على حلق من أصحابه فقال : ما أجلسكم ؟

قالوا : جلسنا نذكر الله ، ونحمده على ما هدانا للإسلام ، ومنَّ به علينا.. قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك ؟ قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذاك ، قال : أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم ، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة ، رواه مسلم . في كتاب « رياض الصالحين » باب فضل حِلَق الذكر والندب إلى ملازمتها ، والنهي عن مفارقتها لغير عذر.

قال الحافظ في الفتح في شرحه للحديث الأول : « الأشبه اختصاص ذلك بمجالس التسبيح والتكبير ونحوهما ، والتلاوة فحسب ، وإن كان قراءة الحديث ودراسة العلم والمناظرة فيه من جملة ما دخل تحت مسمى ذكر الله تعالى ».. وقد أورد الصنعاني حديث مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه الذي سبق ذكره .

ثم قال : « دلَّ الحديث على فضيلة مجالس الذكر والذاكرين ، وفضيلة الاجتماع على الذكر ثم أورد حديث البخاري الطويل : (إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر .. إلخ الحديث » ثم قال : وهذا من فضائل مجالس الذكر تحضرها الملائكة بعد التماسهم لها .

والمراد بالذكر هو التسبيح والتحميد وتلاوة القرآن ونحو ذلك . وفي حديث البزار عن أنس « إنه تعالى يسأل ملائكته : ما يصنع العباد ـ وهو أعلم بهم ـ فيقولون : يعظمون آلاءك ، ويتلون كتابك ، ويصلون على نبيك ، ويسألونك لآخرتهم ودنياهم)[1] .

وقال العلامة ابن علان الصديقي شارح « الأذكار » للإمام النووي

---

(١) سبل السلام : للصنعاني ٢/٧٠٠ .

عند شرح حديث : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا .. إلخ » : والمعنى : إذا مررتم بجماعة يذكرون الله فاذكروا موافقة لهم ، أو اسمعوا أذكارهم ، فإنهم في رياض الجنة حالاً أو مآلاً .. قال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ ، الرحمن : ٤٦ »[١].

وقال العلامة ابن عابدين في « حاشيته » في معرض حديثه عن ذكر الله تعالى ـ مع الجماعة ـ : « وقد شبه الإمام الغزالي ذكر الإنسان وحده وذكر الجماعة بأذان المنفرد وأذان الجماعة ، قال : فكما أن أصوات المؤذنين جماعة تقطع جرم الهواء أكثر من صوت المؤذن الواحد ، كذلك ذكر الجماعة على قلب واحد أكثر تأثيراً في رفع الحجب الكثيفة من ذكر شخص واحد »[٢].

وقال الطحطاوي في حاشيته :

« ونص الشعراني : أجمع العلماء سلفاً وخلفاً على استحباب ذكر الله تعالى في المساجد وغيرها من غير نكير ، إلا أن يشوش جهرهم بالذكر على نائم أو مصل أو قارئ قرآن كما هو مقرر في كتب الفقه »[١].

الذكر المطلق والذكر المقيد :

يزعم خصوم التصوف أن تحديد الأوراد والأذكار في كمياتها وكيفياتها وأوقاتها لا يجوز ولا يصح وأنه من البدع التي لم يرد بها كتاب ولا سنة ، لأن الشارع قد أطلق الذكر ولم يحدده بكمية ولا عدد معين ،

---

(١) الفتوحات الربانية على الأذكار النووية ١/٩٤ .

(٢) حاشية ابن عابدين ج ٥/٢٦٣ .

(٣) حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح /٢٠٨ .

فمن حدد أو عين فقد ابتدع ، والبدعة ضلالة .

لكن الأمر ليس كذلك فقد جاء عن الشارع نوعان من الذكر : المقيد والمطلق :

أما الذكر المقيد : فهو الذى ندبنا إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مقيداً بزمان خاص أو بمكان خاص ، كالذكر بعد أداء كل صلاة ، من تسبيح وتحميد وتكبير ، وأذكار السفر ، والأكل ، الشرب ، أذكار النكاح، وما يقال عند الشدة ودفع الآفات والمصائب ، وما يقال عند المرض والموت ، وما يتعلق بهما وبعد صلاة الجمعة وليلتها ، وعند رؤية الهلال ، وإفطار الصائم ، وأذكار الحج بأنواعها ، وما يقال فى الصباح والمساء ، وعند النوم والاستيقاظ ، والجهاد فى سبيل الله ، وعند الخروج من المنزل والدخول فيه ، وما يقال عند صياح الديك ونهيق الحمار ، وعند رؤية مبتلى بمرض أو غيره ، وعند لبس الثياب الجديدة ..

ومن أراد استيعاب هذه الأذكار المقيدة فعليه بكتب الأذكار المؤلفة فى هذا الشأن مما كتبه الإمام النووى فى الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار ، والوابل الصيب من الكلم الطيب للشيخ ابن القيم وعمل اليوم والليلة لابن السنى ، والسيوطى ، والنسائى وغيرهم من العلماء رضى الله تعالى عنهم جميعاً ..

وأما الذكر المطلق : فهو ما لم يقيد بزمان ولا بمكان ، ولا وقت ولا حال ، ولا قيام ولا قعود ، فالمطلوب من المؤمن أن يذكر ربه فى كل حال حتى لا يزال لسانه رطباً بذكر الله تعالى .. والآيات فى ذلك كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** ﴾ « البقرة : ١٥٢ » .. وقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ « الأحزاب : ٤١ : ٤٢ » .. وقوله تعالى فى معرض تعدد صفات المسلم والمسلمة : ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ « الأحزاب : ٣٥ » وغيرها من الآيات التى تدعو إلى الإكثار من ذكر الله مطلقا من غير تقييد بزمان أو مكان ، كما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ندبنا إلى ذكر الله مطلقًا فى جميع أحوالنا وأوقاتنا ..

فقد روى الترمذى فى كتاب الدعوات - وحسنه - عن عبد الله بن بسر رضى الله تعالى عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إن شرائع الإسلام قد كثرت علىَّ ، فأخبرنى بشىء أتشبث به .. قال : لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله.

وروى مسلم فى كتاب الطهارة والترمذى وأبو داود وابن ماجه عن السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكر الله فى كل أحيانه » ..

كما دعانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى أحاديث كثيرة إلى أنواع من صيغ الذكر من تسبيح وتحميد وتهليل وتكبير واستغفار ، من غير أن يحدد لها وقتاً معيناً أو مناسبة خاصة[١] .

قال سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما : « لم يفرض الله تعالى على عباده فريضة إلا جعل لها حداً معلوماً ، ثم عذر أهلها فى

---

(١) حقائق عن التصوف : ١٢١ ، ١٢٢ .

حال العذر ، غير الذكر ، فإنه لم يجعل له حداً ينتهى إليه ، ولم يعذر أحداً فى تركه إلامغلوباً على عقله ، وأمرهم بذكره فى الأحوال كلها ، فقال عز من قائل : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ « النساء : ١٠٣ » .. وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ « الأحزاب: ٤١ » .. أى بالليل والنهار ، وفى البر والبحر ، والسفر والحضر ، والغنى والفقر ، والصحة والسقم ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال »[1] .

وقد نهج الصوفية على هذا المنوال فذكروا الله فى جميع أحوالهم وأطوارهم وكما أن الذكر منه مقيد بزمن ، ومنه مطلق عن ذلك ، فكذلك منه مقيد بعدد ومنه مطلق عن العدد .

أما المقيد بالعدد : فكالتسبيح فى دبر كل صلاة والتحميد والتكبير والتهليل.. عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (من سبح الله فى دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين ، وحمد الله ثلاثاً وثلاثين ، وكبر الله ثلاثاً وثلاثين ، فتلك تسعة وتسعون ، وقال تمام المائة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر) .. رواه الإمام مسلم فى صحيحه .. « كتاب المساجد ومواضع الصلاة » وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : فقال: (أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة ؟ فسأله سائل من جلسائه كيف يكسب أحدنا ألف حسنة ؟ قال : « يسبح مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة ، أو يحط عنه ألف خطيئة) .. رواه مسلم فى صحيحه : كتاب الذكر والدعاء .

---

(١) نور التحقيق لحامد صقر ص ١٤٧ .

وعن الأغر بن يسار المزني رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة) .. رواه مسلم في صحيحه « كتاب الذكر والدعاء » ..

وعن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى .. ولم يأت أحد أفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك . ومن قال سبحانه وبحمده في يوم مائة مرة.. حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما .

يقول ابن علان في شرحه لهذا الحديث : « قال القاضي عياض : ذكر هذا العددمن المائة ، وهذا الحصر لهذه الأذكار دليل على أنها غاية وحدّ لهذه الأجور ثم نبه صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : (ولم يأت أحد أفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك) .. إلا أنه يجوز أن يزاد على هذا العدد ، فيكون لقائله من الفضل بحسب ذلك ، لئلا يظن أنها من الحدود التي نهى عن اعتدائها وأنه لا فضل للزيادة عليها ، كالزيادة على عدد ركعات السنن المحدودة وأعداد الطهارة .

وبالغ آخرون فقالوا : إن الثواب الموعود به موقوف على العدد المذكور ..

قال ابن الجوزي : وهذا غلط ظاهر ، وقول لا يلتفت إليه ، بل

الصواب أنه كما قال الشاعر : « ومن زاد زاد الله فى حسناته »[١].

وأما الذكر المطلق عن العدد : فهو الذى وجهنا الله تعالى إلى الإكثار منه فى جميع أحوالنا وأوقاتنا دون تقييده بعدد مخصوص كما فى قوله تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذين آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّه ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ « الأحزاب : ٤١ » ، وكلما علت همة المؤمن وزادت محبته لله تعالى أكثر من ذكره ، لأن من أحب شيئاً أكثر من ذكره ..

ولا بأس للمرشد الموجه أن يرغّب المريد بأعداد معينة من الأذكار ليرفع من همته ويشد من عزيمته ، ويدفع عنه الإهمال والتقاعس ، وحتى يكون من المكثرين من ذكر الله تعالى ..

والخلاصة .. أن الشارع أمر بتقييد الذكر كما أمر بإطلاقه ، فمن أطلق كان متبعا لسنة النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن قيد فهو الآخر متبع للسنة .

وقال عليه الصلاة والسلام : (أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قَلَّ) متفق عليه .. وبدون ضبط أعداد الذكر لا تتم المداومة المطلوبة ، فإن لفظ المداومة لا يصدق إلا على الالتزام بكمٍ أو كيفٍ محدد[٢].

هل الذكر بغير الوارد في الشرع يعد تشريعاً زائداً ؟

يعترض المنكرون على الصوفية بوضع صيغ وألفاظ لم ترد عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كالأوراد وغيرها من الأذكار ويقولون : من

---

(١) الفتوحات الربانية على الأذكار النووية ١/٢٠٩ .

(٢) ينظر حقائق عن التصوف ص ١٢٣ ، ١٢٤ ، الحجة للقطعانى ص ١٩٤.

المعلوم فى الشريعة بالضرورة إن أى ذكر لم يرد عن الشارع فهو باطل لأنه تشريع زائد..

وللجواب على هذه الشبهة يقول العلماء الراسخون : إن الأمر ليس كذلك فإن من المعلوم من الدين بالضرورة بأنه باطل هو التشريع الزائد فى الأصول والأحكام التى حددها الشارع بحد كالصلاة الفرضية وصوم رمضان والطهارة وأعدادها وغير ذلك من الأمور المحددة المعلومة فمن جعل الظهر ركعتين مثلا أو خمسا فقد أتى بتشريع زائد وحكمه البطلان ، وقسْ عليه سائر أحكام الدين ..

ولكن ما ليس بتشريع زائد لا يصدق عليه هذا الحكم ، فلم يرد عن الشارع ما يمنع المسلم من أن يذكر ربه بما شاء ، ما دام لا يخرج عن تعظيمه .. وتبجيله ، وتسبيحه ، والاستغفار ، والتوحيد، والصلاة والسلام على النبى صلى الله عليه وآله وسلم ..

روى البخارى فى صحيحه عن رفاعة بن رافع الزرقى قال : كنا يوما نصلى وراء النبى صلى الله عليه وآله وسلم فلما رفع رأسه من الركعة قال : سمع الله لمن حمده .. قال رجل وراءه : ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، فلما انصرف قال : من المتكلم ؟ قال : أنا ، قال : رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها ، أيهم يكتبها أول .

ولسوء حظ المنكر الجهول فإن النبى صلى الله عليه وآله وسلم لم يقل لهذا الصحابى : إنك أتيت بتشريع زائد ، ولا إنك ابتدعت فى الدين ، بل لم يزد على ردٍّ فيه البشرى والتشجيع على هذا الصنيع ..

وقد عقب الحافظ ابن حجر بعد شرحه لهذا الحديث بفوائد مستنبطة

منه قائلا : واستدل به على جواز إحداث ذكر فى الصلاة غير مأثور إذا كان غير مخالف للمأثور (١).

فإن كان هذا الحال فى إنشاء ذكر غير مأثور فى الصلاة ، فالأمر خارج الصلاة أوسع من باب أولى .

ويقول الإمام النووى رحمه الله تعالى وأما الدعاء على أعضاء الوضوء فلم يجئ فيه شيء عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم وقد قال الفقهاء : يستحب فيه دعوات جاءت عن السلف (٢).

أى أن السلف من الصحابة والتابعين وأكابر علماء الأمة وخيارها قد وضعوا من عند أنفسهم أذكاراً تقال على أعضاء الوضوء ، إذ لم يصح نسبة شيء فى هذا الموضوع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهل هؤلاء الأئمة قد أتوا بتشريع زائد ؟!! إن هذا لشيء عجاب .

وهناك الكثير من الأذكار التى صحت عن كبار الصحابة ، وليست من لفظه صلى الله عليه وآله وسلم كدعاء القنوت لسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، وكتعيين اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أُجاب وإذا سئل به أعطى فقد روى أهل السنن الأربعة وابن حبان والحاكم من حديث بريدة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سمع رجلا يقول : « اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لقد سألت الله باسمه الأعظم).

---

(١) فتح البارى ٢٠٣/٣ .
(٢) الأذكار للإمام النووى ص ٣٠ .

قال المنذرى : قال شيخنا أبو الحسين المقدسى : وإسناده لامطعن فيه ولم يرد فى هذا الباب حديث أجود إسنادا منه ، وقد قال الحافظ ابن حجر : إن هذا الحديث أرجح ما ورد من حيث السند .

وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال : سمع النبى صلى الله عليه وآله وسلم رجلا يقول : « اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك المنان بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام .. فقال : لقد سأل الله باسمه الأعظم الذى إذا سئل به أعطى وإذا دعى به أجاب (١) .

وهذان الحديثان أرجح ما روى فى الاسم الأعظم وهما من دعاء الصحابة رضى الله تعالى عنهم – ولم يقل لهما صلى الله عليه وآله وسلم – قد أتيتما بتشريع زائد على ما أقول وأدعو به – وإنما بشرهما بأن هذا الدعاء فيه اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى .

وهذا قليل من كثير من أذكار وصيغ جاءت عن كبار الصحابة رضى الله تعالى عنهم اختصوا بها ، يعلم بها من اطلع على دواوين السنة النبوية وتراجم الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ..

الذكر بالاسم المفرد :

يعترض المنكر على الصوفية بذكر الله تعالى باسمه المفرد « الله أو حى قيوم أو قهار – أو يا لطيف ، أو غير ذلك ويقول إنه ليس ذكراً مشروعاً .

---

(١) تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين للإمام الشوكانى ص ٧٩ ، ٨٠ .

وقد قال العلماء : إن الذكر بالاسم المفرد مشروع ولا شيء فيه ، ولا دليل على حرمته بل جاء الدليل على مشروعيته فقد قال الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ « الإنسان : ٢٥ » .. وقوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ « المزمل : ٨ » .. واسم الرب هو الله ، وصح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : (لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض الله الله) أخرجه أحمد ومسلم فى صحيحه وابن حبان والحاكم وابن أبى شيبة فى مصنفه ، وفى رواية أخرى : لا تقوم الساعة على أحد يقول الله الله) وهما عن أنس رضى الله تعالى عنه ثم قال : كان سلمان فى عصابة يذكرون الله فمرّ النبى صلى الله عليه وآله وسلم فكفوا فقال : ما كنتم تقولون ؟ قلنا : نذكر الله الله قال : إنى رأيت الرحمة تنزل عليكم فأحببت أن أشارككم فيها .. ثم قال : (الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرت أن أصبر نفسى معهم) أخرجه أحمد فى الزهد عن ثابت ..

فدلت هذه الأحاديث النبوية على أن ذكر الله تعالى باسمه المفرد سيكون موجوداً ممدوحا قبل قيام الساعة وأن ذهابه من آخر العلامات التى تقوم بعدها الساعة ..

وأما اسم حى وغيره من الأسماء المفردة فمثلها فى ذلك مثل « الله » إذ كلها من أسمائه سبحانه وتعالى قال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ « الإسراء : ١١٠ » .

وقد صح أن سيدنا بلالا رضى الله تعالى عنه كان يردد اسم « أحد أحد » والمشركون يعذبونه ..

وقد يكون الاعتراض أن ذكرالله تعالى باسمه المفرد ليس فيه معنى التعظيم ، ولابد من إتمام جملة مفيدة حتى يفيد معنى التعظيم .

والجواب : أن ذكر اسم الله تعالى مفردا فيه معنى التعظيم ، وهذا مافهمه العلماء الراسخون في العلم . فها هو ذا إمام الأئمة أبو حنيفة النعمان يقرر ذلك في مسألة : هل يحدث الشروع في الصلاة بمجرد ذكر اسم الله المفرد « الله »؟ فقد ذكر صاحب البدائع ما نصه : « ولأبي حنيفة أن النص معلول بمعنى التعظيم ، وأنه يحصل بقوله: « الله » لا بالنفي[1] .

تأمل : فالإمام أبو حنيفة يرى أن اسم الله المجرد « الله » يحصل به التعظيم بغير اشتراط كونه في جملة مفيدة .

فهذا رد على المخالف إذا زعم أنه غير مأثور ، أو زعم أنه لا يحصل منه معنى التعظيم ..

فلا ندري من أين أتى المنكر ـ هداه الله تعالى ـ بعدم مشروعية الذكر بالاسم المفرد والمسلم لا يحتاج إلى دليل حتى يقول : « الله » هكذا مجردة ، طالما أنه يشعر بمعاني التعظيم والأنس والذكر ، وطالما أن الذكر بالاسم المجرد « الله » لا يتعارض مع أصول الاعتقاد ، ومبادئ الإسلام ، وطالما أنه يقر بأن الذكر بالمأثور عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أفضل على وجه العموم ولكن ما ذكرنا من أدلة نقلية وعقلية وفهم العلماء مما قد يجعل المخالف يترك الذاكرين يذكرون الله تعالى حيثما وجدوا قلوبهم[2] .

---

(١) بدائع الصنائع للكاساني ١٣١/١ .

(٢) يراجع البيان لما يشغل الأذهان للدكتور / علي جمعة ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ والحجة للقطعاني ص ١٨٩ .

اعتراض آخر وجوابه :

وقد اعترض بعضهم كذلك على الذكر بالاسم المفرد بحجة أنه لا يؤلف جملة تامة مفيدة كما فى قولنا « الله جليل » ..

والجواب علي ذلك : أن الذاكر بالاسم المفرد لا يكلم مخلوقًا ، فلا يشترط أن يكون كلامه تاما مفيداً ؛ لأنه يذكر الله سبحانه الذى هو عالم بنفسه مطلع على قلبه .. ولقد نص العلماء الثقاة على جواز الذكر بالاسم المفرد « الله » .

واليك بعض أقوالهم :

يقول العلامة ابن عابدين فى حاشيته الشهيرة عند شرح البسملة وبحثه عن لفظة « الله » : روى هشام عن محمد عن أبى حنيفة أنه [أى الله] اسم الله الأعظم ، وبه قال الطحاوى ، وكثير من العلماء وأكثر العارفين ، حتى إنه لا ذكر عندهم لصاحب مقام فوق الذكر به ، كما فى « شرح التحرير » لابن أمير حاج[١].

وقال العلامة الخادمى : « واعلم أن اسم الجلالة « الله » هو الاسم الأعظم عند أبى حنيفة والكسائى والشعبى ، وإسماعيل بن إسحاق ، وأبى حفص ، وسائر جمهور العلماء ، وهو اعتقاد جماهير مشايخ الصوفية ومحققى العارفين ، فإنه لا ذكر عندهم لصاحب مقام فوق مقام الذكر باسم « الله » مجرداً.. قال الله لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ « الأنعام: ٩١ » وقال العلامة المناوى المحدث

---

(١) حاشية ابن عابدين ١/٥ .

شارحاً حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (إن الله تعالى يقول : أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه) رواه الحاكم وأحمد وابن حبان من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، فهو مع من يذكره بقلبه ، ومع من يذكره بلسانه ، لكن معيته مع الذكرالقلبى أتم ، وخص اللسان لإفهامه دخول الأعلى بالأولى ، لكن محبته وذكره لما استولى على قلبه وروحه صار معه وجليسه ..

ولزوم الذكر عند أهل الطريق من الأركان الموصلة إلى الله تعالى **وهو ثلاثة أقسام :** ذكر العوام باللسان ، وذكر الخواص بالقلب ، وذكر خواص الخواص بفنائهم عن ذكرهم عند ذكر مشاهدتهم مذكورهم ، حتى يكون الحق مشهوداً لهم فى كل حال.

قالوا : « وليس للمسافر إلى الله تعالى فى سلوكه أنفع من الذكر المفرد القاطع من الأفئدة والأغيار ، وهو « الله » وقد ورد فى حقيقة الذكر وتجلياته ما لا يفهمه إلا أهل الذوق »[١].

وقال الإمام الجنيد رحمه الله تعالى ذاكر هذا الاسم « الله » ذاهب عن نفسه متصل بربه ، قائم بأداء حقه ، ناظر إليه بقلبه ، قد أحرقت أنوار الشهود صفات بشريته [٢].

ومن هنا يظهر خطأ بعض المتسرعين بالاعتراض على الذكر بالاسم المفرد بحجة أنه لم يرد به نص فى الكتاب والسنة ، مع أن النصوص السابقة من القرآن والسنة وأقوال العلماء ظاهرة جلية والله تعالى أعلم وأحكم.

---

(١) فيض القدير ٣٠٩/٢ .

(٢) نور التحقيق ص ١٧٤ حقائق عن التصوف ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

الذكر بالاسم المضمر « هو » :

ويعترض المنكرون على التصوف بأن الصوفية يذكرون بالاسم المضمر « هو » ويزعمون أنه ذكر باطل وضلال ، وقد أخطأوا فى ذلك من وجوه عديده تعرف من الجواب عن ذلك ..

نعم يذكر السادة الصوفية بهذا الاسم من أسماء الله تعالى ، وأقوالهم فى هذا الباب خارجة عن الحصر ، ولكنهم لم يختصوا بذلك وحدهم، فقد رغب فى الذكر بهذا الاسم العديد من العلماء بل كبار العلماء وخيارهم ..

ونكتفى هنا بما ذكره الإمام فخر الدين الرازى فى التفسير الكبير ، لإجماع الأمة على علمه وفضله وتقدمه فى العلوم فقد عقد فصلا كاملا فى تفسير سورة الفاتحة واستوعب كل ما جاء فيه من العبارات والرموز والإشارات ، وأثبت علميا أنه ذكر الخاصة ، وأنه مجمع الأسرار والأنوار والإمداد ، وأنه ما لم يكن هو الاسم الأعظم فإنه بابه ، أو صاحب المرتبة التى تليه لا محالة .. يقول :

واعلم أن لفظ « هو » فيه أسرار عجيبة وأحوال ، فبعضها يمكن شرحه وتقريره وبيانه وبعضها لا يمكن ، وأنا بتوفيق الله تعالى كتبت أسراراً لطيفة ، إلا أنى كلما أقابل تلك الكلمات المكتوبة بما أجده فى القلب من البهجة والسعادة عند ذكر كلمة « هو » أجد المكتوب بالنسبة إلى تلك الأحوال المشاهدة حقيراً ، فعند هذا عرفت أن لهذه الكلمة تأثيراً عجيبا فى القلب لا يصل البيان إليه ، ولا ينتهى الشرح إليه فلنكتب ما يمكن ذكره فنقول ..

فيه أسرار : الأول : أن الرجل إذا قال : « يا هو » فكأنه يقول : من أنا حتى أعرفك ، ومن أنا حتى أكون مخاطبا لك ، وما للتراب ورب الأرباب ، وأى مناسبة بين المتولد عن النطفة والدم ، وبين الموصوف بالأزلية والقدم ؟ فأنت أعلى من جميع المناسبات ، وأنت مقدس عن علائق المعقول والخيالات ، فلهذا السبب خاطبه العبد بخطاب الغائبين فقال : « يا هو » .

وقد ذكرالفخر الرازى رحمه الله تعالى إحدى عشرة فائدة فى الذكر بهذا الاسم العظيم ، فمن أراد التوسع فليراجع المصدر عند تفسير سورة الفاتحة ص ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ .. فإن المقصود هو الرد على المخالف فى ادعائه الباطل بعدم مشروعية الذكر بلفظ هو:[١] .

مشروعية الذكر بالأوراد والأحزاب المجمعة والالتزام بها صباحاً ومساءً :

الــورد: بالكسر كما فى المصباح : الوظيفة من قراءة ونحو ذلك، والجمع أوراد وهو عبارة عن مجموعة من الأذكار المأثورة أو غيرها يلتزمها الذاكر ويواظب عليها ، رغبة فى التقرب إلى الله تعالى ، وهوتطوع يتطوع به المسلم لم يفرضه الله تعالى عليه ، قال الشيخ زكريا الأنصارى : « وتطوع ، وهو ما لم يرد فيه نقل بخصوصه بل ينشئه الإنسان باختياره من الأوراد »[٢] .

---

(١) يراجع التفسير الكبير للفخر الرازى ج ١ص ٤١٥ : ٤٤٧ وكتاب الحجة للقطعانى ص ١٩١ ، ١٩٢ .

(٢) الغرر البهية لشيخ الإسلام زكريا الأنصارى ١/ ٣٨٧ .

والـوارد فى اللغـة : هو الطارق والقادم ، يقال : ورد علينا فلان أى قدم .

وفى الاصطلاح : ما يتحفه الحق تعالى قلوب أوليائه من النفحات الإلهية فيكسبه قوة محركة ، وربما يدهشه ، أو يغيبه عن حسه ، ولا يكون إلا بغتة ، ولا يدوم على صاحبه .

والورد يضم الصيغ الشرعية المطلوبة من المسلم أن يذكر الله تعالى بها من الدعاء والاستغفار ، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وتلاوة القرآن الكريم وكل ذلك مأمور به فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، والأدلة لا تخفى على أحد ..

قال الحافظ ابن حجر الهيتمى رحمه الله تعالى « محافظة الإنسان على أوراد له من الصلاة ، أو القراءة أو الذكر أو الدعاء طرفى النهار وزلفا من الليل وغير ذلك ، فهذه سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والصالحين من عباد الله قديما وحديثا ، فما سن عمله على وجه الاجتماع كالمكتوبات فعل كذلك وما سن المداومة عليه على وجه الانفراد عمل كذلك، كما كان الصحابة رضى الله تعالى عنهم يجتمعون أحيانا يأمرون أحدهم يقرأ والباقون يسمعون، وكان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يقول : يا أبا موسى ، ذكرنا ربنا ، فيقرأ وهم يستمعون »[1] .

وكان حديث العلماء الفقهاء عن الأوراد وكأنها أمر متفق عليه ،

---

(١) الفتاوى الكبرى لابن حجر الهيتمى ٢/٣٨٥ .

فيذكرونها فى أثناء كلامهم من دون التنبيه على حكمها أو الاختلاف بشأنها .. ومن ذلك قول ابن نجيم : « وذكر الحلوانى أنه لا بأس بأن يقرأ بين الفريضة والسنة الأوراد »[١] .

ولقد نبه العلماء على فائدة الالتزام بتلك الأوراد ، وضرورة الحفاظ عليها يقول الإمام النووى : « ينبغي لمن كان له وظيفة من الذكر فى وقت من ليل أو نهار ، أو عقيب صلاة ، أو حالة من الأحوال ففاتته أن يتداركها ويأتى بها إذا تمكن منها ، ولا يهملها ، فإنه إذا اعتاد الملازمة عليها لم يعرضها للتفويت ، وإذا تساهل فى قضائها تسهل عليه تضييعها فى وقتها[٢] .. وقد ثبت فى صحيح مسلم عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل) .. ورواه أصحاب السنن الأربعة ..

ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعلم أصحابه رضى الله تعالى عنهم أن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل كما رواه أصحاب السنن جميعهم .. وكان آل سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذا عملوا عملا أثبتوه ـ أى داوموا عليه ـ رواه الإمام مسلم فى صحيحه ..

وقال عليه الصلاة والسلام : (من لزم الاستغفار جعل الله له من كل همٍّ فرجا ومن كل ضيق مخرجًا ورزقه من حيث لا يحتسب) رواه

---

(١) البحر الرائق لابن نجيم ٢ /٥٢ .
(٢) الأذكار للإمام النووى ص ١٣ .

أبو داود والنسائى وابن ماجه والحاكم عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما .

وقال الإمام الشوكانى : وقد كان الصحابة رضى الله تعالى عنهم يقضون ما فاتهم من أذكارهم التى يفعلونها فى أوقات مخصوصة.

وقال ابن علان : المراد بالأحوال : الأحوال المتعلقة بالأوقات ، لا المتعلقة بالأسباب ، كالذكر عند رؤية الهلال ، وسماع الرعد ، ونحو ذلك فلا يندب تداركه عند فوات سببه ، ومن ترك الأوراد بعد اعتيادها يكره له ذلك(١).

وقال ابن الحاج المالكى : رحمه الله تعالى وينبغى للمريد أن تكون أوقاته مضبوطة ، لكل وقت منها عمل يخصه من الأوراد ، فلا يقتصر فى الورد على ما سبق من الصلاة والصوم ، بل كل أفعال المريد ورد . وقد كان السلف يقولون جوابا لمن طلب الاجتماع بأحد من إخوانه ويكون نائما: هو فى ورد النوم .

فالنوم وما شاكله من جملة الأوراد التى يتقرب بها إلى ربه عز وجل وإذا كان ذلك كذلك فيكون وقت النوم معلوما ، كما أن وقت ورده بالليل يكون معلوما ، وكذلك اجتماعه بإخوانه يكون معلوما .

وكذلك الحديث مع أهله وخاصته يكون معلوما ، كل ذلك ورد من الأوراد إذ أن أوقاته مستغرقه فى طاعة ربه عز وجل فلا يأتى إلى شىء مما أبيح له فعله ، أو ندب إليه إلا بنية التقرب إلى الله تعالى وهذا هو حقيقة الورد ، أعنى التقرب إلى الله تعالى وهذا على جادة الاجتهاد والفراغ من الصحة والسلامة من العوائق ، والعوارض ، أو من حال يرد يكون سببا

---

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية جـ ٢١/٢٥٧ ، ٢٥٨ (ذكر)

لترك شيء من ذلك[١].

ولذا يرى أهل العلم الشرعيون أن الالتزام بالأوراد والأحزاب فى ذكر الله تعالى هو الوسيلة الوحيدة التى تعاون المسلم على المداومة على ذكر الله تعالى ، وهى فعل السلف الصالح ، ولهذا فهى مستحبة ، فالوسائل لها حكم المقاصد ، والله تعالى أعلم وأحكم [٢].

الحركة والاهتزاز في الذكر:

يعترض أهل الإنكار على الصوفية بأنهم يحدثون فى الذكر حركات منكرة كالتمايل والرقص والقفز وغير ذلك مما يحدث فى مجالس الذكر.

وللجواب على ذلك قال العلماء : إن الحركة فى الذكر والتمايل فيه ليس شرطاً ولكنه جائز مستحسن ، لأنها تنشط الجسم لعبادة الذكر ويساعده على حضور القلب مع الله تعالى ..

والدليل على ذلك ما أخرجه الإمام أحمد فى مسنده والحافظ المقدسى برجال الصحيح من حديث أنس رضى الله تعالى عنه قال : « كانت الحبشة يرقصون بين يدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويقولون بكلام لهم : محمد عبد صالح فقال صلى الله عليه وآله وسلم (ماذا يقولون) ؟ فقيل : إنهم يقولون : محمد عبد صالح ، فلما رآهم فى تلك الحالة لم ينكر عليهم ، وأقرهم على ذلك » ..

والمعلوم أن الأحكام الشرعية تؤخذ من قوله صلى الله عليه وآله وسلم وفعله وتقريره ، فلما أقرهم على فعلهم ولم ينكر عليهم تبين أنه جائز..

---

(١) المدخل لابن الحاج ١٧٩/٣ ، ١٨٠ .

(٢) البيان لما يشغل الأذهان للشيخ الدكتور/ على جمعة ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

وقد صح أن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم كانوا يتمايلون حال الذكر ولنستمع إلى الإمام على كرم الله وجهه كيف يصف أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم ..

قال أبو أراكة : « صليت مع على صلاة الفجر ، فلما انفتل عن يمينه مكث كأن عليه كآبة ،حتى إذا كانت الشمس على حائط المسجد قيد رمح صلى ركعتين ، ثم قلب يده ، فقال : والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم فما أرى اليوم شيئا يشبههم ، لقد كانوا يصبحون صفرا شعثا غبراً ، بين أيديهم كأمثال ركب المعْزَى ، قد باتوا لله سجدا وقياما ، يتلون كتاب الله ، يتراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا فذكر الله مادوا (أى تحركوا) كما يميد الشجر فى يوم الريح ، وهملت أعينهم حتى تبتل - والله - ثيابهم »[1].

فقوله رضى الله تعالى عنه « مادوا كما يميد الشجر» صريح فى الاهتزاز ، وبه يبطل قول من يدعى أنه بدعة محرمة ، ويثبت الحركة فى الذكر مطلقا .

وقد استدل الشيخ عبد الغنى النابلسى الحنفى رحمه الله تعالى بهذا الحديث فى إحدى رسائله على ندب الاهتزاز فى الذكر ، وقال : هذا صريح بأن الصحابة رضى الله تعالى عنهم كانوا يتحركون حركة شديدة فى الذكر ، على أن الرجل غير مؤاخذ حين يقوم ويقعد ويتحرك على أى نوع كان حيث إنه لم يأت بمعصية ولم يقصدها وهذا الاهتزاز لا يسمى رقصا محرما - كما يزعم الجهول - بل هو جائز لأنه ينشط الجسم للذكر ،

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير جـ٨/٦ وأخرجه أبو نعيم فى الحلية ١/٧٦ .

ويساعد على حضور القلب مع الله تعالى ، إذا صحت النية والقصد ، فالأمور بمقاصدها كما يقول الفقهاء فى قواعدهم ، وإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، والله يعلم المفسد من المصلح .

إلا أن هناك جماعة من الدخلاء على الصوفية - نسبوا أنفسهم إليهم زوراً ، وهم منهم براء .. شوهوا جمال حلقات الأذكار بما أدخلوا عليها من بدع ضالة ، وأفعال منكرة تحرمها الشريعة الغراء ، كاستعمال آلات اللهو والطرب المحظورة ، والاجتماع المقصود مع الأحداث ، والغناء الفاحش ، فلم يعد وسيلة لتطهير القلب من أدرانه ، وصلته بالله تعالى بل صار لتسلية النفوس الغافلة وتحقيق الأغراض الدنيئة ..

ومما يؤسف له أن بعض أدعياء العلم قد تهجموا على حلقة الذكر ولم يميزوا بين هؤلاء الدخلاء المنحرفين وبين الذاكرين السالكين المخلصين الذين يزيدهم ذكر الله رسوخا فى الإيمان ، واستقامة فى المعاملة ، وسموا فى الخلق ، واطمئناناً فى القلب ..

وهناك علماء منصفون قد ميزوا بين الصوفية الصادقين السائرين على قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين الدخلاء المدعين ، وأوضحوا حكم الله تعالى فى الذكر وآدابه .. وعلى رأسهم العلامة ابن عابدين الحنفى فى رسالته « شفاء العليل » فقد ندد بالدخلاء على الصوفية ، واستعرض بدعهم ومنكراتهم في الذكر وحذر منهم ومن الاجتماع بهم . ثم قال : « ولا كلام لنا مع الصِّدِّيقين من ساداتنا الصوفية المبرئين من كل خصلة ردية .. فقد سئل إمام الطائفتين سيدنا الجنيد : إن قوما يتواجدون ويتمايلون .. فقال : دعوهم مع الله تعالى يفرحون ، فإنهم

قوم قطعت الطريق أكبادهم ، ومزق النصب فؤادهم ، وضاقوا ذرعا فلا حرج عليهم إذا تنفسوا مداواة لحالهم ، ولو ذقت مذاقهم عذرتهم ..

ثم قال : ، ويمثل ما ذكره الإمام الجنيد أجاب العلامة النحرير ابن كمال باشا لما استفتى عن ذلك حيث قال:

ما فى التواجد إن حققت من حرج

ولا التمايل إن أخلصـــت من باس

فقمت تسعى على رجل وحق لمـن

دعاه مولاه أن يسعى على الــراس

الرخصـة فيمـا ذكـر من الأوضـاع ، عند الذكـر والسمـاع للعارفين الصارفيْن أوقاتهم إلى أحسن الأعمال ، السالكين المالكين لضبط أنفسهم عن قبائح الأحـوال ، فهم لا يستمعون إلا من الإله ، ولا يشتاقون إلا له إن ذكـروه ناحـوا ، وإن شكروه باحـوا ، وإن وجـدوه صـاحـوا ، وإن شـهـدوه استراحـوا ، وإن سرحـوا فى حضرات قربه ساحـوا ، إذْ غلب عليهم الوجد بغلباته وشربوا من موارد إرادته ، فمنهم من طرقته طوارق الهيبة فَخَــرّ وذاب ، ومنهم من برقت له بوارق اللطف فتحـرك وطاب ، ومنهم من طلع عليهم الحبّ من مطلع القرب فسكر وغاب هذا ما عن لى فى الجواب، والله أعلم بالصواب ..

ثم قال أيضا: ، ولا كلام لنا مع من اقتدى بهم ، وذاق من مشربهم ، ووجد من نفسه الشوق والهيام فى ذات الملك العلام ، بل كلامنا مع هؤلاء

العوام الفسقة اللئام »[١].

من هذا نرى أن ابن عابدين يبيح التواجد والحركة فى الذكر، وأن الفتوى عنده بالجواز ، وأن النصوص المانعة التى ساقها فى حاشيته المشهورة فى الجزء الثالث تحمل على ما إذا كانت فى حلق الذكر منكرات ، من آلات اللهو والغناء والضرب بالقضيب ، والاجتماع مع المرد الحسان ، وإنزال المعانى على أوصافهم ، والتغزل بهم ، وما إلى ذلك من المخالفات ..

ولم يتمسك المانعون المستندون إلى كلام ابن عابدين برأيهم ، إلا لعدم اطلاعهم على كلامه فى مجموعة الرسائل ، حيث فرق ـ كما مر ـ بين الدخلاء والصادقين ، وأباح فيها التواجد للعارفين الواصلين ، والمقتدين بهم من المقلدين ، فراجع المصدرين يبين لك الحق[٢].

وما وَجْدُ الصوفية وتواجدهم إلا قبس مما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد أورد العلامة مفتى الشافعية بمكة المكرمة فى كتابه المشهور فى السيرة النبوية مشهداً من إحدى حالاتهم ثم يعلق عليه فيقول : « وبعد فتح خيبر قدم من الحبشة جعفر بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ومن معه من المسلمين وهم ستة عشر رجلا فتلقى النبى صلى الله عليه وآله وسلم جعفراً وقبل جبهته وعانقه وقام له وقد قام لصفوان بن أمية لما قدم عليه ، ولعدى بن حاتم رضى الله تعالى عنهما ثم قال : ما أدرى بأيهما أفرح بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ؟ » قال: صلى الله

---

(١) مجموعة رسائل ابن عابدين ـ الرسالة السابعة ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٢) حقائق عن التصوف ص ١٣١ ، ١٣٢ .

عليه وآله وسلم لجعفر : « أشبهت خَلْقى وخُلُقى » فرقص رضى الله تعالى عنه من لذه هذا الخطاب، فلم ينكر عليه صلى الله عليه وآله وسلم رقصه ، وجعل ذلك أصلا لرقص الصوفية عندما يجدون من لذة المواجيد فى مجالس الذكر والسماع »[١].

وأصل هذا الحديث عن الإمام على كرم الله وجهه أنه قال : أتيت النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنا وجعفر وزيد ، فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم لزيد أنت مولاى فحجل ، وقال لجعفر : أنت أشبهت خَلْقى وخُلقى فحجل .. وقال لى : أنت منى فحجلت[٢]..

والحجـــل : هو رفع رجل ومشى على الأخرى ، وهو من نتائج التواجد لعظيم فرح هؤلاء الصحابة الكرام بما صدر من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيهم ..

وقد سئل العلامة ابن حجر الهيتمى : عن الوجد وأثره فى المتواجد ، ومشروعيته .. فقال : « نعم له أصل ، فقد روى أن جعفر بن أبى طالب رقص بين يدى النبى صلى الله عليه وآله وسلم لما قال له : أشبهت خلقى وخلقى فحجل ، وذلك من لذة الخطاب ، ولم ينكر عليه صلى الله عليه وآله وسلم »[٣].

وقال العلامة الألوسى فى تفسيره عند قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ « آل عمران ١٩١ » .. « وعليه فيحمل

---

(١) السيره النبوية والآثار المحمدية لزينى دحلان على هامش السيرة الحلبية ٢/٢٥٢ .

(٢) رواه الإمام أحمد واللفظ له والبخارى تعليقا وأبو داود وقال : حسن ..

(٣) الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمى.

ما حكى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما وعروة بن الزبير وجماعة رضى الله تعالى عنهم من أنهم خرجوا يوم العيد إلى المصلى ، فجعلوا يذكرون الله تعالى فقال بعضهم : أما قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا ﴾ فقاموا يذكرون الله تعالى على أقدامهم على أن مرادهم بذلك التبرك بنوع موافقة للآية فى ضمن فرد من أفراد مدلولها »[1].

ثم إن هذه الأحوال والمواجيد لا تؤتى اختيارا..

وقد تشدد السادة الصوفية فى هذا الأمر ولم يسمحوا بإظهار هذه الأحوال ولا إبدائها إلا فى أضيق الحدود ، وعند استحالة مقاومتها وإخفائها قال الشيخ عبد السلام الأسمر رضى الله تعالى عنه من رقص فيها يقصد السماع أو الحضرة من غير جذب فهو من قلائل الأدب ، ومن صفق فيها متعمدا أو ركض فلعهدنا قد نقض ، ومن اهتز فيها بغير حالة كشف الله حاله »[2].

ولكنها حال شريفة تغلب على السامع ، فربما سيطر على نفسه ، وهو الأفضل فى فقه الطريق ، وربما غلبته ، ومن ذاق عرف ومن حرم انحرف .. ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ « الزمر : ٢٣ ».

---

(١) روح المعانى للألوسى ٤/ ١٤٠ .

(٢) الوصية الكبرى للشيخ عبد السلام الأسمر .

وقال سيدى أبو مدين رضى الله تعالى عنه :

وقل للذى ينهى عن الوجد أهلــــه

إذا لم تذق معنى شراب الهوى دعــا

إذا اهتزت الأرواح شوقا إلى اللقــــا

نعم ترقص الأشباح يا جاهل المعنــى

أمــا تنظر الطيـر المقفص يا فتــى

إذا ذكر الأوطان حنَّ إلى المغنــــى

يفــرج بالتغــريــد مــا بفــؤاده

فتضطرب الأعضاء فى الحس والمعنى

كــذلك أرواح المحــبين يا فتــى

تهز هزها الأشــواق للعالم الأسنــى

أنلــزمها بالصبر وهـــى مشوقـــة

وهل يستطيع الصبر من شاهد المعنى

فيا حادى العشــاق قم واشدُ قــائمــا

وزمزم لنا باسـم الحبيب وروِّحنــــا

والخلاصـــة :

يفهم مما سبق أن الحركة فى الذكر مباحة شرعاً ، هذا بالإضافة إلى

أن الأمر بالذكر مطلق يشمل جميع الأحوال ، فمن ذكر الله تعالى قائما أو قاعداً أو جالسا أو ماشيا ، متحركا أو ساكنا ، فقد قام بالمطلوب ونفّذ الأمر الإلهى فلا حرج عليه حينئذ .

فالذى يدعى التحريم للحركة فى الذكر أو كراهتها هو المطالب بالدليل ، لأنه يخصص بعض الحالات المطلقة من دون بعض بحكم خاص من غير دليل..

وعلى كل .. فإن غاية المسلم فى دخوله حلقات الأذكار قيامه بعبادة الذكر ، وإن الحركة ليست شرطا فيه ، ولكنها وسيلة للنشاط فى تلك العبادة وتشبه بأهل الوجد إن صحت النية .

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح[1]

---

(١) حقائق عن التصوف /١٣٣ ، ١٣٤ ، الحجة للقطعانى ١٩٨ .

الفصـل الثالث عشر

« من ثمرات التصوف »

الفراسـة والكشف :

تعريفهمـا : قال السيد الجرجانـى رحمـه الله تعالـى فى تعريفاتـه : « الفراسة فى اللغة : التثبيت والنظر ، وفى اصطلاح أهل الحقيقة : هى مكاشفة اليقين ومعاينة الغيب[١] .

تعريف الكشف : ويقول السيد فى تعريف الكشف : فى اللفظ : رفع الحجاب ، وفى الاصطلاح : هو الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعانى الغيبية، والأمور الحقيقية وجوداً وشهوداً [٢] .

وقال العارف بالله ابن عجيبة الحسنى رحمه الله تعالى: « الفراسة هى خاطر يهجم على القلب ، أو وارد يتجلى فيه ، لا يخطئ غالباً إذا صفا القلب »... وفى الحديث « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » رواه الترمذى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه فى كتاب التفسير .

وهى على حسب قوة القرب والمعرفة ، فكلما قوى القرب ، وتمكنت المعرفة صدقت الفراسة ، لأن الروح إذا قربت من حضرة الحق لا يتجلى فيها غالبا إلا الحق [٣] .

---

(١) التعريفات ص ٢١٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٧ .

(٣) التشوف ص ١٨ .

والكشف نور يحصل للسالكين في سيرهم إلى الله تعالى يكشف لهم حجاب الحس ويزيل دونهم أسباب المادة نتيجة لما يأخذون به أنفسهم من مجاهدة وخلوة وذكر .

فتنعكس أبصارهم في بصائرهم فينظرون بنور الله ، فتنمحي أمامهم مقاييس الزمان والمكان .

يقول شاه الكرماني : من غض بصره عن المحارم وأمسك نفسه عن الشبهات وعمّر باطنه بدوام المراقبة وظاهره باتباع السنة ، وعوّد نفسه أكل الحلال لم تخطئ له فراسة[1] .

ويرجع هذا الكشف إلى أن العبد إذا انصرف عن الحس الظاهر إلى الحس الباطن تغلبت روحه على نفسه الحيوانية المتلبسة ببدنه ـ والروح لطيفة كشافة فيحصل له حينئذ الكشف ويتلقى واردات الإلهام .

وهذا الكشف وراثة محمدية صادقة ، ورثها أصحابه رضى الله تعالى عنهم بسبب صدقهم وتصديقهم وصفاء سريرتهم .

الكشف عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

والكشف عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معجزة له من الله تعالى وبالنسبة للصحابة والأولياء والصالحين من بعده كرامة ، وكل كرامة لولي تكون معجزة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بمعنى أنه يحصل للتابع ما كان يحصل للمتبوع للدلالة على صدق التابع وإخلاصه ويقينه .

روى البخاري في صحيحه في كتاب أبواب الجماعة ومسلم في كتاب

---

(١) الاعتصام للشاطبي ٧٣ .

الصلاة عن أنس رضى الله تعالى عنه قال : أقيمت الصلاة فأقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بوجهه فقال : (أقيموا صفوفكم وتراصوا فإنى أراكم من وراء ظهرى) ولما كان الكشف بعيداً عن عالم الحس ، ويتمحى أمامه المقياس الزماني والمكانى ، لذلك كان صلى الله عليه وآله وسلم يستوى عنده فى الرؤية القرب والبعد ..

فقد روى البخارى فى صحيحه فى كتاب الجنائز والمناقب عن أنس رضى الله تعالى عنه قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زيداً ، وجعفراً وابن رواحة ، ودفع الراية إلى زيد ، فأصيبوا جميعا ، فنعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الناس قبل أن يجيء الخبر فقال : (أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب ، وإن عينى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تذرفان ، ثم أخذها خالد بن الوليد من غير إمرة ، ففتح له) .. قاله صلى الله عليه وآله وسلم يوم غزوة مؤتة (١) .

وما أكثر هذه الوقائع من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الواردة فى صحيح السنة .. ولكنا اكتفينا بهذين المثالين ..

الكشف في القرآن الكريم :

قال الله تعالى فى حق سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ ، الأنعام: ٧٥ ،

وكذلك ما أخبر الله عز وجل عن سيدنا الخضر عليه السلام حين

---

(١) حقائق عن التصوف ٢٧١ ، ٢٧٢ .

صحب سيدنا موسى عليه السلام فى المسائل الثلاث :

الأولى : انكشف للخضر أن السفينة التى ركبها مجاناً فى طريقهما عبر البحر سيأخذها ملك غاشم ظلماً ، فخرقها ليعيبها ولينقذها من شر ذلك الغاصب مكافأة للمعروف بالمعروف : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ « الكهف : ٧٩ » ..

الثانية : كشف له عن الغلام ، إن بقى حياً فسيقتل أبويه فى كبره ويوقعهما فى الكفر ، فقتله رحمة بأبويه المؤمنين ، واستجابة لإرادة الله تعالى بإبداله بخير منه زكاة ورحمة : ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۞ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ « الكهف : ٨٠ ، ٨١ » ..

الثالثة : كشف له الكنز الذى تحت الجدار ، وكان لغلامين يتيمين من أب صالح ، فأقام الجدار حفظا للكنز ، ورحمة للغلامين ، ومحبة لأبيهما الصالح ، بلا أجر ولا مقابل ، مروءة وإخلاصًا .. ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ « الكهف: ٨٢ » .

وقد قال الله تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ « الحجر٧٥ »

قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أى للمتفرسين ..

الكشف عند الصحابة رضي الله تعالى عنهم جميعا:

الكشف عند سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه .. وهو الذى شهد الله تعالى لـه بالصديقية بقولـه : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾.. فالذى جاء بالصدق هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والذى صدق به هو الصديق رضى الله تعالى عنه .. وسوف نذكر واقعة واحدة من كثير تكشف لنا الغطاء عن ذلك ، ومن أين لإنسان أن يحصى مآثره رضى الله تعالى عنه ..

عن عروة عن أبيه رضى الله تعالى عنهما عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن أبا بكر لما حضرته الوفاة دعاها فقال : إنه ليس فى أهلى بعدى أحد أحب إلىّ غنًى منك. ، ولا أعز على فقراً منك ، وإنى كنت نحلتك ـ أعطيتك ـ من أرض بالعالية جَداد ـ أى قطع ثمر النخل ـ عشرين وسقا ، فلو كنت جددته تمراً عاماً واحداً انحاز لك ، وإنما هو اليوم مال الوارث ، وإنما هما أخواك وأختاك ، فقلت : إنما هى أسماء ، فقال : وذات بطن ابنة خارجة ، قد ألقى فى رُوْعى أنها جارية ، فأوصى بها خيراً ، فولدت أمُ كلثوم ، أخرجه ابن سعد فى الطبقات ـ ذكر وصية أبى بكر جـ ١٩٥/٣ .. قال التاج السبكى : وفيه كرامتان لأبى بكر رضى الله تعالى عنه .

أحداهما : إخباره أنه يموت فى ذلك المرض حيث قال : وإنما هو اليوم مال وارث.

والثانية : إخباره بمولود يولد له، وهو جارية (بنت) ، والسر فى إظهار ذلك استطابة قلب عائشة رضى الله عنها فى استرجاع ما وهبه لها

ولم تقبضه ، وإعلامها بمقدار ما يخصها ، لتكون على ثقة ، فأخبرها بأنه مال وارث ، وأن معها أخوين وأختين(١) .

وليس هذا من باب العلم بالغيب وإنما هو بإلهام من الله تعالى للصديق رضى الله تعالى عنه ..

الكشف عند سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه:

وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه من الملهمين .. فقد روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (لقد كان فيمن قبلكم من الأمم ناس محدَّثون ، فإن يك فى أمتى أحد فإنه عمر) ..

فإن أمته أفضل الأمم، وإذا ثبت أنهم وُجدوا فى غيرها فوجودهم فيها أولى ، وإنما أورد مورد التأكيد كقول القائل : إن كان لى صديق ففلان ، يريد اختصاص كمال الصداقة لا نفيها عن غيره .

والمحدث : الملهم الصادق الظن ، وهو من أوقع فى قلبه شىء من قبل الملأ الأعلى ، فيكون كالذى حدثه غيره .

قال التاج السبكى رحمه الله تعالى : ، كان عمر رضى الله تعالى عنه قد أمّر سارية بن زنيم الخلجى على جيش من جيوش المسلمين ، وجهزه على بلاد فارس ، فاشتد على عسكره الحال على باب نهاوند ، وهو يحاصرها ، وكثرت جموع الأعداء، وكاد المسلمون ينهزمون ، وعمر رضى الله تعالى عنه بالمدينة ، فصعد المنبر ، وخطب ثم استغاث فى أثناء خطبته بأعلى صوته :

---

(١) حجة الله على العالمين للشيخ النبهانى ٨٦٠ .

« يا سارية : الجبل الجبل ، من استرعى الذئب الغنم فقد ظلم ، فأسمع الله تعالى حارثه وجيشه أجمعين وهم على باب نهاوند صوت عمر، فلجأوا إلى الجبل، وقالوا هذا صوت أمير المؤمنين فنجوا وانتصروا »[١] .

وأخرج البيهقي في الدلائل عن أبي هدبة الحمصي قال : أخبر عمر بأن أهل العراق حصبوا أميرهم ، فخرج غضبان ،فصلى فسها في صلاته ، فلما سلم قال : اللهم إنهم قد لبّسوا على فالبس عليهم ، وعجل عليهم بالغلام الثقفي يحكم فيهم بحكم الجاهلية ، لا يقبل من محسنهم ولا يتجاوز عن مسيئهم » .

قلت : أشار به إلى الحجاج .. قال ابن لهيعة : وما ولد الحجاج يومئذ»[٢] .

الكشف عند سيدنا عثمان رضى الله تعالى عنه :

ذكر التاج السبكي في الطبقات وغيره : « أنه دخل على عثمان رضى الله تعالى عنه رجل ، كان قد لقى امرأة في الطريق فتأملها ، فقال له عثمان رضى الله تعالى عنه .. يدخل أحدكم وأثر الزنا في عينيه ؟ فقال الرجل : أوحى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ قال : لا ولكنها فراسة المؤمن » ..

وإنما أظهر عثمان هذا تأديباً للرجل وزجراً له عن شيء فعله[٣] .

---

(١) قال العجلوني : وإسناده كما قال الحافظ بن حجر : حسن ٢/ ٣٨٠.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٣) حجة الله على العالمين للنبهاني ٨٦٢.

الكشف عند سيدنا عليّ رضى الله تعالى عنه :

وهو الذى رباه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى حجره، ولما آخى النبى صلى الله عليه وآله وسلم بين أصحابه قال له : (أنت أخى) أخرجه الترمذى فى المناقب عن ابن عمر .. وقال له أيضا : (ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى) رواه البخارى فى المغازى عن سعد بن أبى وقاص .

عن الأصبغ رحمه الله تعالى قال : أتينا مع علي فمررنا بموضع قبر الحسين فقال علي : « ههنا مناخ ركابهم ، وههنا موضع رحالهم وههنا مهراق دمائهم ، فتية من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم يقتلون بهذه العرصة تبكى عليهم السماء والأرض » رواه المحب الطبرى فى الرياض النضرة ٢/٢٩٥ .

وقال رضى الله تعالى عنه لأهل الكوفة : « سينزل بكم أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيستغيثون بكم فلن يغاثوا ، فكان منهم فى شأن الحسين ما كان » ذكره المناوى فى فيض القدير جـ١/١٤٣ .

كشف العارفين بالله الصالحين :

قال الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى فى تأييد المكاشفات : « وكان عمر يقول : اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون فإنهم تتجلى لهم أمور صادقة وهذه الأمور الصادقة التى أخبر بها عمر بن الخطاب أنها تتجلى للمطيعين هى الأمور التى يكشفها الله عز وجل لهم فقد ثبت أن للأولياء مخاطبات ومكاشفات » ا. هـ الفتاوى الكبرى ١١/٢٠٤ .

وقد ذكر القرطبى وابن القيم فى كتاب الروح أن الإمام الشافعى ومحمد بن الحسن جلسا فى المسجد الحرام فدخل رجل فقال محمد: أتفرس أنه نجار فقال الشافعى : أتفرس أنه حداد ، فسألاه فقال : كنت حداداً وأنا اليوم نجار .

وقال أبو سعيد الخراز : دخلت المسجد الحرام فدخل فقير عليه خرقتان يسأل شيئاً فقلت فى نفسي مثل هذا كلٌ على الناس فنظر إليَّ وقال: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ ، البقرة : ٢٣٥ ، قال: فاستغفرت الله فى سرى ، فنادانى وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ ، الشورى : ٢٥ .. ثم غاب عنى فلم أره .. ذكره الغزالى فى الإحياء ٢١/٣ ..

ووقف نصرانى على باب الجنيد ، وهو يتكلم فى الجامع على الناس ، فقال : أيها الشيخ : مامعنى حديث : (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) .. رواه الترمذى . فأطرق الجنيد ثم رفع رأسه وقال : أسلم فقد حان وقت إسلامك فأسلم الغلام .. ذكره الحافظ ابن حجر الهيتمى فى الفتاوى الحديثة ص ٢٢٩ .

ومعلوم أن الإمام الأعظم أبا حنيفة رحمه الله تعالى له قولان فى الماء المستعمل فى الوضوء ، فكان أولاً يقول بنجاسته عندما كان يرى سواد الماء لغسله الذنوب ، فدعا الله سبحانه أن يزيل عنه هذه الحالة ، وأنه لا يرغب فى الاطلاع على عيوب الناس فتقبل الله دعاءه ورفع عنه ذاك الحال وزال الكشف فرجع من القول بنجاسته إلى القول بطهارته .

فهذا شأن الفراسة وهى نور يقذفه الله تعالى فى القلب فيخطر له

الشيء فيكون كما خطر له ، فينفذ إلى العين فيرى ما لا يراه غيره .. وقد بسط الشيخ ابن القيم فى كتابه الروح هذا الموضوع أكثر من هذا .

وإنما ذكرنا المجمل النافع إن شاء الله تعالى والله يقول الحق وهو يهدى السبيل[١] .

---

(١) الشريعة والطريقة للشيخ زكريا الكاندهلوى ١٧٨ ، ١٧٩ .

الكــرامــة

كثر تساؤل الناس فى هذا الزمان عن الكرامات ، هل هى ثابتة فى الشرع؟ وهل لها دليل من الكتاب والسنة؟ وما هى الحكمة من إجرائها على يد الأولياء والمتقين؟.. إلخ ، وبما أن موجات الإلحاد والمادية وتيارات التشكيك والتضليل قد كثرت فى هذا الوقت ، فأثرت فى عقول الكثير من أهل هذا العصر ، وأضلت العديد من مثقفينا ، وحملتهم على الوقوف من الكرامات موقف المعاند المنكر الجاحد ، أو الشاك المتردد أو المستغرب المتعجب ، نتيجة لضعف إيمانهم بالله تعالى وقدرته ، وقلة تصديقهم بأوليائه وأحبابه .

فلا يسعنا إلا أن نعالج هذا الموضوع إظهاراً للحق ، ونصرة للشريعة والعقيدة ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حىَّ عن بينة .

تعريفها لغة واصطلاحا :

الكرامــة اسم من الإكرام والتكريم ، تقول : أكرمت العالم وكرمته إكراماً وتكريماً إذا فعلت معه ما يدل على تعظيمه واحترامه ، والاسم الكرامة ، كما يقال : وكله توكيلاً ووكالة ، وحمله تحميلاً وحمالة ، فى نظائر أخرى تعرف من كتب اللغة .

واصطلاحًا : عند أهل السنة القائلين بها : هى أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد مؤمن ظاهر الصلاح غير مقرون بدعوى النبوة ..

أقسام الخوارق :

وقد قسموا الخوارق التى تظهر من بعض الأشخاص عدة أقسام فقالوا: الخارق للعادة إن ظهر على يد مدعى النبوة وفق طلبه فهو المعجزة ..

وإن كان على خلاف طلبه فهو الإهانة ، مثل ما يروى أن مسيلمة الكذاب دعا لأعور بأن يفتح عينه فعمى ، ومسح بيده رأس يتيم فقرع ، وبلغه أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم تفل فى بئر فكثر ماؤها وعذب بعد أن لم يكن كذلك فتفل هو فى بئر ليعذب ماؤها فصار ملحاً أجاجًا..

وإن ظهر الخارق على يد مؤمن صالح فهو الكرامة ، أو على يد فاسق فهو الاستدراج ، وقد يقع الخارق لبعض عوام المسلمين تخليصا له من محنة أو مكروه ، ويسمى معونة .

مذهب أهل السنة في الكرامة :

ومذهب أهل السنة فى كرامات الأولياء أنها حق ، لأنها أمور ممكنة دل على وقوعها الكتاب والسنة كما سيأتى ..

قال الإمام أبو الحسن الأشعرى رحمه الله تعالى: فى كتابه « مقالات الإسلاميين واختلاف المضلين » : « جملة ما عليه أهل الحديث وأهل السنة الإقرار بالله وملائكته ورسله وكتبه ، وما جاء من عند الله، وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .. لا يردون من ذلك شيئًا ، وذكرالعقيدة إلى أن قال : وأن الصالحين قد يجوز أن يخصهم الله تعالى بآيات تظهر عليهم ، وقال فى آخر العقيدة : فهذه جملة ما يأمرون به

ويستعملونه ويرونه وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول ، وإليه نذهب .. ا. هـ

وقال الإمام النووى : فى « بستان العارفين » ، اعلم أن مذهب أهل الحق إثبات كرامات الأولياء ، وأنها واقعة موجودة مستمرة فى الأعصار ، ويدل عليها دلائل العقول وصرائح النقول ، أما دلائل العقول فهى أمر يمكن حدوثه ولا يؤدى وقوعه إلى رفع أصل من أصول الدين ، فيجب وصف الله تعالى بالقدرة عليه ، وما كان مقدوراً كان جائز الوقوع .

وأما النقول فآيات فى القرآن العظيم ، وأحاديث مستفيضة .

قال الإمام اللقانى فى الجوهرة :

وأثبتن للأوليـــاء الكرامــــه ومن نفاها فانبذن كلامـــــه

الدليل على الكرامة من الكتاب العزيز :

هناك أدلة فى القرآن الكريم تدل على جواز وقوع الكرامة من ذلك:

١ـ قصة أصحاب الكهف وبقائهم فى النوم أحياء سالمين من الآفات مدة ثلاثمائة وتسع سنين ، وأنه سبحانه كان يحفظهم من حر الشمس : ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ « الكهف ١٧ ، ١٨ » إلى أن قال : ﴿ وَلَبِثُوا فِي

كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا ﴾ ، الكهف : ٢٥ ،.

٢- هز مريم جذع النخلة اليابس فاخضر وتساقط منه الرطب الجني في غير أوانه ، كما قال الله تعالى : ﴿ وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ﴾ ، مريم : ٢٥ ،.

٣- وجود الرزق عند السيدة مريم عندما كان يدخل عليها سيدنا زكريا الخلوة فيجد فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف ، وكان لا يدخل عليها أحد غيره فيسألها : يا مريم أنى لك هذا ؟ فكانت تقول : هو من عند الله وفي ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ ، آل عمران : ٣٧ ،..

٤ - قصة آصف بن برخيا مع سيدنا سليمان عليه السلام على ما قاله جمهور المفسرين ، حيث أتى بعرش بلقيس قبل ارتداد الطرف مع بعد المسافة من اليمن إلى الشام .. قال الله تعالى : ﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ ، النمل : ٤٠ ،.

الدليل عليها من صحيح السنة في
شأن الصالحين من الأمم السابقة :

١) قصة جريج العابد الذى كلمه الطفل فى المهد حين سأله : من أبوك قال : الراعى . وهى كرامة برأت العابد من تهمة الزنا ، والقصة مشهورة مروية فى البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

٢) قصة الثلاثة الذين دخلوا الغار فانسد عليهم بصخرة عظيمة فدعوا الله تعالى فانفرجت عنهم الصخرة وهو حديث متفق عليه بين البخارى ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما .

٣) قصة البقرة التى تكلمت مع صاحبها وهو حديث فى البخارى ومسلم .

٤) قصة الذئب الذى تكلم مع راعى الغنم وهو حديث فى الصحيحين .

وقوع الكرامات من الصحابة :

وقد نقل عنهم من الكرامات الشيء الكثير المروى بالسند المتصل فى كتب السنة المعتمدة ومن ذلك :

١) قصة سيدنا أبى بكر رضى الله تعالى عنه مع أضيافه فى تكثير الطعام حتى صار بعد الأكل أكثر مما كان . وهى مروية فى صحيح البخارى.

٢) سماع سيدنا على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه كلام الموتى ، كما أخرجه البيهقى عن سيدنا سعيد بن المسيب رضى الله تعالى عنه .

٣) قصة عباد بن بشر وأُسَيْد بن حُضَيْر رضى الله تعالى عنهما اللذيْن أضاءت لهما عصا أحدهما عندما خرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى ليلة مظلمة ، وهو حديث صحيح أخرجه البخارى.

٤) قصة خبيب بن عدى ، فى قُطَف العنب الذى وجد فى يده يأكله فى غير أوانه وكان حينئذ أسيراً بمكة . وهو حديث صحيح فى

البخارى فى باب غزوة الرجيع ..

٥) قصة سعد بن أبى وقاص ، وسعيد بن زيد رضى الله تعالى عنهما حيث إن كلاً منهما دعا على من كذب عليه ، فاستجيب له كما أخرجه البخارى ومسلم .

٦) قصة عبور العلاء بن الحضرمى رضى الله تعالى عنه البحر على فرسه ونبع الماء بدعائه ، أخرجه ابن سعد فى الطبقات من حديث أبى هريرة ٣٦٣/٤٠ .

٧) قصة سيدنا خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه فى شربه السم فلم يضره كما أخرجه البيهقى وأبو نعيم والطبرانى وابن سعد بإسناد صحيح وابن حجر فى تهذيب التهذيب ١٢٥/٣ .

٨) إضاءة أصابع حمزة الأسلمى رضى الله تعالى عنه فى ليلة مظلمة . أخرجه البخارى فى التاريخ عن حمزة الأسلمى ، وذكره ابن حجر فى تهذيب التهذيب ٣٠/٣.

٩) قصة أم أيمن وكيف عطشت فى طريق هجرتها فنزل عليها دلو من السماء فشربت . رواه أبو نعيم فى الحلية ٦٧/٢ .

١٠) سماع بعض الصحابة سورة الملك من قبر بعد أن ضرب خباء فوقه وهو لا يحسب أنه قبر .. رواه الترمذى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما .

١١) تسبيح القصعة التى أكل منها سيدنا سلمان الفارسى وأبو الدرداء رضى الله تعالى عنهما وسماعهما التسبيح . رواه أبو نعيم والبيهقى عن قيس .

١٢) قصة سفينة رضى الله تعالى عنه مولى النبى صلى الله عليه وآله وسلم مع الأسد أخرجه الحاكم فى المستدرك فى كتاب معرفة الصحابة ٦٠٦/٣ وأبو نعيم فى الحلية .

هذا غيض من فيض ، وقليل من كثير مما ورد عن كرامات الصحابة رضى الله تعالى عنهم . ثم توالى ورود الكرامات الكثيرة على يد الأولياء فى عهد التابعين وتابعى التابعين إلى يومنا هذا مما يصعب عده ويضيق حصره . وقد ألف العلماء فى ذلك مجلدات كثيرة ، وصنف أكابر الأئمة منهم مصنفات فى إثبات الكرامة للأولياء ، منهم فخر الدين الرازى والباقلانى وإمام الحرمين وابن فورك والغزالى والبيضاوى والنسفى وتاج الدين السبكى والأشعرى والقشيرى والنووى واليافعى والنبهانى ، وغيرهم من العلماء المحققين الذين لا يحصى عددهم ، وصار ذلك علما قوياً يقينيا ثابتا لا تتطرق إليه الشكوك أو الأوهام .

وقد يتساءل بعضهم .. لماذا كانت كرامات الصحابة على كثرتها أقل من كرامات الأولياء الذين جاءوا بعد عصر الصحابة ؟!

ويجيب على ذلك تاج الدين السبكى فى الطبقات بقوله : ، الجواب : ما أجاب به الإمام الجليل أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه حين سئل عن ذلك فقال : أولئك كان إيمانهم قوياً ، فما احتاجوا إلى زيادة شيء يقوون به وغيرهم كان إيمانهم ضعيفاً ، لم يبلغوا إيمان أولئك فقووا بإظهار الكرامات لهم(١) .

---

(١) جامع كرامات الأولياء للشيخ النبهانى ٢٠/١ .

الفصـل الرابـع عشر

« الشطح مفهومه وحكمـــه »

مفهوم الشطح :

يقول السراج : الشطح فى لغة العرب هو الحركة ، فهو حركة أسرار الواجدين إذا قوى وجدهم فعبروا عن وجدهم ذلك بعبارة يستغرب سامعها ، ألا ترى أن الماء الكثير إذا جرى فى نهر ضيق يفيض من حافتيه؟ فيقال: شطح الماء فى النهر ، فكذلك المريد الواجد. فليس لأحد أن يبسط لسانه بالوقيعة فى أوليائه ويقيس بفهمه ورأيه ما يسمع من ألفاظهم ، وما يشكل على فهمه من كلامهم ، ولا يصح ذلك إلا لمن بان شرفه وفضله بفضل علمه وسعة معرفته فله أن يتكلم فى عللهم وإصابتهم ، ومن لم يسلك سبلهم، ولم ينح نحوهم ، ولم يقصد مقاصدهم فالسلامة له فى رفع الإنكار عنهم ، وأن يكل أمورهم إلى الله تعالى(١) .

تصدر من بعض أصحاب الحال أثناء غلبة الحال عليهم كلمات لا تنطبق على الشريعة والتفوه بكلام يكون مخالفاً للقواعد الشرعية الظاهرة فى حال عدم الصحو بسبب غلبة الوارد يكون شطحاً ، وهذا الشخص لا إثم عليه ولا يجوز تقليده البتة .

وقد ورد فى الحديث الشريف : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على

---

(١) اللمع للسراج الطوسى ص ٤٥٣ .

راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها فأتى شجرة ، فاضطجع فى ظلها ، وقد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ـ أخطأ من شدة الفرح) .. رواه مسلم .

وقد وردت هذه الرواية فى صحيح البخارى ومسلم عن ابن مسعود وأنس رضى الله تعالى عنهما بألفاظ مختلفة يقول العارف التهانوى فى الشرف ، ص ١٠٨ بذيله ، وتبين من هذا الحديث أن خطأ المغلوب معفو عنه، لأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم ينكر على خطأ الشخص بعد نقله مع أنه كان بسبب شدة الفرح ، وهى حالة ناشئة عن الدنيا ، إذن فما بالك بالذى يكون مغلوبا بمحبة الله عز وجل ، والشوق إليه سبحانه فهى من الكيفيات الناشئة عن الدين ا. هـ

ثم فى قصة السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها حينما اتهمت ثم نزلت براءتها فى القرآن من عند الله عز وجل فأمرتها والدتها أن تقوم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وكانت فى حالة تحمس ـ فقالت كما ورد فى صحيح البخارى ومسلم وغيرهما والله لا أقوم إليه ، فإنى لا أحمد إلا الله . الحديث .

يقول العارف التهانوى رحمه الله تعالى : لقد نقل عن بعض الصالحين نظماً أو نثراً كلمات يوهم ظاهرها إلى إساءة الأدب ، فإذا كانت هذه فى حالة غلبة الحال فيقال لها ، الشطح ، أو ، الإدلال ، وقول الصديقة رضى الله تعالى عنها من هذا القبيل ، ومنشؤ شدة الهم لسبب خاص ، وهو أنه صلى الله عليه وآله وسلم باقتضاء بشريته ، وعدم علمه للغيب كان

مشوشا ومترددا فى أمرها ، وكانت الصديقة ، قد اطلعت على هذا التردد فكانت قلقة وحزينة من أجل أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، قد اشتبه فى أمرها ، فعند نزول الوحى ببراءتها تحمست وصدر منها هذا الجواب ، وبما أنه صلى الله عليه وآله وسلم لم ينكر عليها ، فثبت من الحديث كون أهل الشطح والإدلال معذورين . وورد أيضاً عن السيدة عائشة الصديقة رضى الله تعالى عنها بأن قال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (إنى لأعلم إذا كنت عنى راضية وإذا كنت علىَّ غضبى فإنك تقولين : لا ورب محمد وإذا كنت غضبى قلت : لا ورب إبراهيم .. قالت : قلت : أجل والله ما أهجر إلا اسمك).

هذه قصص الحب والدلال يعلمها أهل المحبة والوداد ، فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم أحس وشعر بأسلوب قسمها ، وبما أن ذلك أيضاً كان من دلال الحبيبة رضى الله تعالى عنها لذا لم ينكر عليها[١].

ومن ناحية أخرى ، فإن لكل فن من الفنون أو علم من العلوم كالفقه والحديث والمنطق والنحو والهندسة والجبر والفلسفة اصطلاحات خاصة به لا يعلمها إلا أرباب ذلك العلم ، فهل يفهم الطبيب اصطلاح المهندس أو يفهم المهندس اصطلاح الطبيب حين يعبر كل منهم آلاته ومسميات فنه ؟ ومن قرأ كتب علم من العلوم دون أن يعرف اصطلاحاته، أو يطلع على رموزه وإشاراته ، فإنه يؤول الكلام تأويلات شتى مغايرة لما يقصده العلماء ومناقضة لما يريده الكاتبون فيتيه ويضل.

وللصوفية اصطلاحاتهم التى قامت بعض الشيء مقام العبارة فى

---

(١) الشريعة والطريقة للشيخ محمد بن زكريا الكاندهلوى ص١٨٠، ١٨١.

تصوير مدركاتهم ومواجيدهم حين عجزت اللغة عن ذلك ، فلابد لمن يريد الفهم عنهم من صحبتهم حتى تتضح له عباراتهم ، ويتعرف على إشاراتهم ومصطلحاتهم فيستبين له أنهم لم يخرجوا عن الكتاب والسنة ، ولم ينحرفوا عن الشريعة الغراء ، وأنهم هم الفاهمون لروحها ، الواقفون على حقيقتها الحارسون لتراثها[١] .

قال السيد على وفا رحمه الله تعالى : « إن من دوّن المعارف والأسرار لم يدونها للجمهور ، بل لو رأى من يطالع فيها ممن ليس هو بأهلها لنهاه عن ذلك »[٢] .

وتوضيحا لهذا الموضوع قال السادة العلماء: إن الصوفية يحذرون من لا يفهم كلامهم ولا يعرف مصطلحاتهم من قراءة هذه الكتب ، وليس هذا من قبيل كتم العلم ـ ما قد يفهم من لاعلم عنده ـ ولكن خوفا من أن يفهم الناس من كتبهم غير ما يقصدون ، وخشية أن يؤولوا كلامهم على غير حقيقته ، فيقعوا فى الإنكار والاعتراض ، شأن من يجهل علما من العلوم ، لأن المطلوب من المسلم أن يخاطب الناس بما يناسبهم من الكلام ، وما يتفق مع مستواهم فى العلم والفهم والاستعداد ..

ولهذا أفرد الإمام البخارى فى صحيحه بابًا فى كتاب « العلم » ترجم له بقوله « باب : من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا »..

وقال الإمام على رضى الله تعالى عنه « حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذَّب الله ورسوله »[٣] .

---

(١) حقائق عن التصوف ص ٣٣٢ .

(٢) اليواقيت والجواهر للشعرانى ٢٢/١ .

(٣) صحيح البخارى ، كتاب العلم .

قال العلامة بدر الدين العينى رحمه الله تعالى شارح البخارى معلقا على هذا الحديث « ترك بعض الناس من التخصيص بالعلم لقصور فهمهم ، والمراد كلموهم على قدر عقولهم ، وفى كتاب العلم لآدم بن إياس عن عبد الله بن داود عن معروف فى آخره « ودعوا ما ينكرون » أى ما يشتبه عليهم فهمه .

وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغى أن يذكر عند العامة [١] .

وقال الشيخ أحمد بن زروق رحمه الله تعالى فى قواعده : « فى كل علم ما يخص وما يعم فليس التصوف بأولى من غيره فى عمومه وخصوصه بل يلزم بذل أحكام الله المتعلقة بالمعاملات من كلّ عموماً ، وما وراء ذلك على حسب قابله لا قدر قائله[٢] .

وقد سئل العلامة ابن حجر الهيتمى رحمه الله تعالى : ما حكم مطالعة كتب ابن عربى وابن الفارض؟ فأجاب بقوله : « حكمها أنها جائزة مطالعة كتبهما ، بل مستحبة فكم اشتملت تلك الكتب على فائدة لا توجد فى غيرها ، وعائدة لا تنقطع هواطل خيرها ، وعجيبة من عجائب الأسرار الإلهية التى لا ينتهى مدد خيرها ، وكم ترجمت عن مقام عجز عن الترجمة عنه من سواها ورمزت برموز لا يفهمها إلا العارفون ، ولا يحوم حول حرمة حماها إلا الربانيون ، الذين هم بين مواطن الشريعة الغراء ، وأحكام ظواهرها على أكمل ما ينبغى جامعون ، ولذلك كانوا بفضل مؤلفيها معترفين »[٣] .

---

(١) عمدة القارى للعينى ٢/ ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٢) قواعد التصوف للشيخ زروق ص ٧ .

(٣) الفتاوى الحديثية للإمام ابن حجر الهيتمى ٢١٦ .

وليعلم كل مسلم قارئ فى كتب التصوف أن هناك أقوالا فيها كفر وزيغ ومروق من الدين وأنها مدسوسة عليهم حتما ، لأنهم أئمة من أشد الناس تمسكا بكتاب الله تعالى وبسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ..

هذا بالنسبة للأقوال التى لا تقبل التأويل بأى حال من الأحوال ، أما ما ثبت عنهم بالتأكيد فيمكن تأويله وحمله على وجه صحيح من عقيدة أهل الحق أهل السنة والجماعة ، بل يجب تأويله عليها ، لأنها هى عقيدتهم التى يعتقدونها ويصرحون بها ، ويثبتونها فى مقدمات كتبهم، كما هى سننهم فى مؤلفاتهم ، وإن شئت فاقرأ مقدمة الرسالة القشيرية التى حققها الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى بنفسه، والفتوحات المكية ، والتعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذى ، وإحياء علوم الدين للإمام الغزالى ، وغيرها من الكتب .

ولهذا قال الإمام النووى رحمه الله تعالى « يحرم على كل عاقل أن يسيء الظن بأحد من أولياء الله تعالى عز وجل ، ويجب عليه أن يؤول أقوالهم وأفعالهم مادام لم يلحق بدرجتهم ، ولا يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق[1] .

موقف الشيخ ابن تيمية من الشطح عند الصوفية :

قال الشيخ رحمه الله تعالى فى كتاب الاستقامة جـ٢/١٥ معلقا على حكايات ذكرها الإمام أبو القاسم القشيرى عن أبى بكرالشبلى وأبى الحسين النورى فيها شطحات ، ومثل هذه الكلمات والحكايات لا تصلح أن تذكر للاقتداء أو سلوك سبيل وطريقة لما فيها من مخالفة أمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم والذى يصدر عنه أمثال هذه الأمور إن كان

---

(١) اليواقيت والجواهر جـ ١١/١ .

معذورا بقصور فى اجتهاده أو غيبة فى عقله فليس من اتبعه بمعذور مع وضوح الحق والسبيل ، وإن كانت سيئته مغفورة لما اقترن بها من حسن قصد وعمل صالح ، فيجب بيان المحمود والمذموم لئلا يكون لبساً للحق بالباطل ، وأبو الحسين النورى وأبو بكر الشبلى رحمهما الله تعالى كانا معروفين بتغير العقل فى بعض الأوقات ، ومن هذه حاله لا يصلح أن يتبع فى حال لا يوافق أمر الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وإن صاحبها معذور أو مغفور له ، وإن كان له من الإيمان والصلاح والصدق والمقامات المحموده ما هو من أعظم الأمور ا. هـ

فأين هذا ممن يكفر الصوفية ويحكم عليهم بالكفر والزندقة والخروج من الإسلام لعجزه وقصور فهمه وعلمه ، والشيء من معدنه لا يستغرب ونتمثل فيه قول الشاعر :

قل لمن يدعى فى العلم معرفة ... عرفت شيئا وغابت عنك أشياء

الفصـــل الخامـس عشر

« براءة الصوفية من الحلول والاتحـــاد »

حكم من يقول بالحلول والاتحـــاد :

من أهم ما يتحامل بـه المغرضون علـى أهل التصوف اتهامهم جهلا وزوراً بأنهم يقولون بالحلول والاتحاد بمعنى أن الله تعالى قد حل فى جميع أجزاء الكون ، فى البحار والجبال والصخور والأشجار والإنسان والحيوان .. إلخ ، أو بمعنى أن المخلوق عين الخالق ، فكل الموجودات المحسوسة والمشاهدة فى هذا الكون هى ذات الله وعينه . تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً ..

فلاشك أن هذا القول كفر صريح يخالف عقائد الأمة الإسلامية وما كان للصوفية وهم المتحققون بالإسلام والإيمان والإحسان أن ينزلقوا إلى هذا الدرك الأسفل من الكفر والضلال المبين وما ينبغى لمسلم منصف أن يرميهم بهذا الكفر جزافا دون تمحيص أو تثبت ، ومن غير أن يفهم مرادهم، ويطلع على عقائدهم الحقة التى ذكروها صريحة واضحة فى أمهات كتبهم المعتمدة كالفتوحات المكية وإحياء علوم الدين والرسالة القشيرية وغيرها .

ولعل بعض المغرضين المتحاملين على الصوفية يقولون : إن هذا القول بتبرئة الصوفية من فكرة الحلول والاتحاد إنما هو تهرب من الواقع ، أو دفاع مغرض عن الصوفية بدافع التعصب والهوى .. فهلا تأتون بدليل

من كلامهم يبرئ ساحتهم وينفى عنهم هذه التهمة .

نصوص الصوفية في نفى هذه التهمة :

ولبيان هذه الحقيقة الناصعة سوف نورد نبذاً من كلامهم تثبت براءتهم مما اتهموا به من القول بالحلول والاتحاد ، وتحذيرهم الناس من الوقوع فى هذه العقيدة الزائفة ، وتظهر بوضوح أن ما نسب إليهم من أقوال تفيد الحلول أو الاتحاد إما مدسوسة عليهم أو مؤولة ـ كما مر فى الفصل السابق ـ بما يلائم هذه النصوص الصريحة التالية الموافقة لعقيدة أهل السنة والجماعة[١] .

يقول الشيخ عبد الوهاب الشعرانى رحمه الله تعالى : « ولعمرى إذا كان عباد الأوثان لم يتجرأوا على أن يجعلوا آلهتهم عين الله ، بل قالوا : ﴿ ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زُلفىٰ ﴾ فكيف يظن بأولياء الله تعالى أنهم يدعون الاتحاد بالحق على حد ما تتعقله العقول الضعيفة ؟ هذا كالمحال فى حقهم رضى الله تعالى عنهم إذ ما من ولى إلا وهو يعلم أن حقيقة الله تعالى ، مخالفة لسائر الحقائق وإنها خارجة عن جميع معلومات الخلائق ، لأن الله بكل شيء محيط »[٢] .

والحلول والاتحاد لا يكون إلا بالأجناس ، والله تعالى ليس بجنس حتى يحل بالأجناس ، وكيف يحل القديم فى الحادث ، والخالق فى المخلوق ؟ إن كان حلول عرض فى جوهر فالله تعالى ليس عرضا ، وإن كان حلول جوهر فى جوهر ، فليس الله تعالى جوهرا. وبما أن الحلول والاتحاد بين

---

(١) ينظر حقائق عن التصوف ص ٣٤٤ .

(٢) اليواقيت والجواهر ١/٨٣ .

المخلوقات محال ، إذا لا يمكن أن يصير رجلان رجلا واحدا لتباينهما فى الذات ، فالتباين بين الخالق والمخلوق وبين الصانع والصنعة ، وبين الواجب الوجود والممكن الحادث أعظم وأولى لتباين الحقيقتين[١] .

وما زلنا ننقل كلام أئمة التصوف فى بطلان فكرة الحلول والأتحاد وبيان فسادها والتحذير من ضلالها .

قال الشيخ محيى الدين بن عربى رحمه الله تعالى فى عقيدته الصغرى : « تعالى الحق أن تحله الحوادث أو يحلها » .

وقال فى عقيدته الوسطى : « اعلم أن الله تعالى واحد بالإجماع ومقام الواحد يتعالى أن يحل فيه شىء أو يحل هو فى شىء أو يتحد فى شىء »[٢] .

وهنا نقول كثيرة عن الشيخ الأكبر فى إبطال هذه الفكرة نقل منها الشيخ الشعرانى فى كتابه « اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الأكابر » ج١/ ص ٨٠ ، ٨١ فمن أراد الاستزادة فعليه بالمراجعة ..

وكذلك جاء فى شعره أيضا ما ينفى الحلول والاتحاد : كقوله :

ودع مقالة قوم قال عالمهم ... بأنه بالإله الواحد اتحدا

الاتحاد محال لا يقول به ... إلا جهول به عن عقله شردا

وعن حقيقته وعن شريعته ... فاعبد الهك لا تشرك به أحداً

وقال صاحب كتاب « نهج الرشاد فى الرد على أهل الوحدة والحلول والاتحاد » : حدثنى الشيخ كمال الدين المراغى قال : اجتمعت بالشيخ

---

(١) حقائق عن التصوف ٢٤٥ .

(٢) الفتوحات المكية نقلا عن اليواقيت والجواهر ١/ ٨٠، ٨١ .

أبى العباس المرسى ، تلميذ الشيخ الكبير أبى الحسن الشاذلى وفاوضته فى هؤلاء الاتحادية فوجدته شديد الإنكار عليهم ، والنهى عن طريقهم ، وقال : أتكون الصنعة هى عين الصانع ،[١] .

ويقول العلامة السيوطى : ، واعلم أنه وقع فى عبارة بعض المحققين لفظ الاتحاد إشارة منهم إلى حقيقة التوحيد ، فإن الاتحاد عندهم هو المبالغة فى التوحيد ، والتوحيد معرفة الواحد الأحد .. فاشتبه ذلك على من لا يفهم إشاراتهم ، فحملوه على غير محمله.. فغلطوا وهلكوا بذلك .. إلى أن قال: فإن أصل الاتحاد باطل محال مردود شرعا وعقلا وعرفا بإجماع الأنبياء عليهم السلام ومشايخ الصوفية ، وسائر العلماء والمسلمين ، وليس هذا مذهب الصوفية ، وإنما قاله طائفة غلاة لقلة علمهم وسوء حظهم من الله تعالى فشابهوا بهذا القول النصارى الذين قالوا فى عيسى عليه السلام اتحد ناسوته بلاهوته ..

وأما من حفظه الله تعالى بالعناية ، فإنهم لم يعتقدوا اتحاداً ولا حلولا وإن وقع منهم لفظ الاتحاد فإنما يريدون به محو أنفسهم وإثبات الحق سبحانه وتعالى .

قال : وقد يذكر الاتحاد بمعنى فناء المخلوقات ، وبقاء الموافقات وفناء حظوظ النفس من الدنيا ، وبقاء الرغبة فى الآخرة ، وفناء الأوصاف الذميمة وبقاء الأوصاف الحميدة ، وفناء الشك وبقاء اليقين ، وفناء الغفلة وبقاء الذكر .

قال : وأما قول أبى يزيد البسطامى رحمه الله تعالى [سبحانى ما

---

(١) الحاوى للفتاوى للشيخ السيوطى ٢/ ١٣٤ .

أعظم شاني] فهو في معرض الحكاية عن الله تعالى وكذلك قول من قال : [أنا الحق] محمول على الحكاية ..

ولا يظن بهؤلاء العارفين الحلول والاتحاد ، لأن ذلك غير مظنون بعاقل ، فضلا عن المتميزين بخصوص المكاشفات واليقين والمشاهدات ..

ولا يظن بالعقلاء المتميزين على أهل زمانهم بالعلم الراجح والعمل الصالح والمجاهدة ، وحفظ حدود الشرع الغلط بالحلول والاتحاد ، كما غلط النصارى في ظنهم ذلك في حق عيسى عليه السلام وإنما حدث ذلك في الإسلام من واقعات جهلة المتصوفة وأما العلماء العارفون المحققون فحاشاهم من ذلك ..

إلى أن قال : والحاصل أن لفظ الاتحاد مشترك ، فيطلق على المعنى المذموم الذي هو أخو الحلول ، وهو كفر ، ويطلق على مقام الفناء ، اصطلاحاً ، اصطلح عليه الصوفية ، ولا مشاحة في الاصطلاح ، إذ لا يمنع أحد من استعمال لفظ في معنى صحيح ، لا محذور فيه شرعا ، ولو كان ذلك ممنوعا لم يجز لأحد أن يتفوه بلفظ الاتحاد، وأنت تقول : بيني وبين صاحبي زيد اتحاد .

وكم استعمل المحدثون والفقهاء والنحاة وغيرهم لفظ الاتحاد في معان حديثية وفقهية ونحوية ، كقول المحدثين : اتحد مخرج الحديث ، وقول الفقهاء : اتحد نوع الماشية ، وكقول النحاة : اتحد العامل لفظا ومعنى .

وحيث وقع الاتحاد من محققي الصوفية ، فإنما يريدون به معنى الفناء ، الذي هو محو النفس ، وإثبات الأمر كله لله سبحانه ، لا ذلك المعنى المذموم الذي يقشعر منه الجلد .

وقد أشار إلى ذلك سيدى على بن وفا ، فقال من قصيدة له :

يظنوا بى حلــولا واتحـــاداً وقلبى من سوى التوحيد خالى

فتبرأ من الاتحاد بمعنى الحلول ..

وقال فى بيت آخر :

وعلمك أن كل الأمــر أمرى هــو المعنى المسمى باتحــاد

فذكر أن المعنى الذى يريدونه بالاتحاد إذا أطلقوه هو تسليم الأمر كله لله تعالى وترك الإرادة معه والاختيار ، والجرى على مواقع أقداره من غير اعتراض ، وترك نسبة شىء ما إلى غيره[1] .

ونقـل الشعـرانى عن سيـدى على بن وفـا رحمهمـا الله تعالى قولــه : المراد بالاتحاد حيث جاء فى كلام القوم فناء العبد فى مراد الحق تعالى كما يقال بينى وبين فلان اتحاد، إذا عمل كل منهما بمراد صاحبه .. ثم أنشد :

وعلمك أن كل الأمر أمرى هو المعنى المسمى باتحــاد

الاتحاد هو الفناء عند الشيخ ابن القيم :

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : الدرجة الثالثة من درجات الفناء : فناء خواص الأولياء وأئمة المقربين ، وهو الفناء عن إرادة السوى ، شائما برق الفناء عن إرادة ما سواه سالكا سبيل الجمع على ما يحبه ويرضاه ، فانيا بمراد محبوبه منه عن مراده هو من محبوبه ،فضلا عن إرادة غيره ، قد اتحد مراده بمراد محبوبه ، أعنى المراد الدينى الأمرى، لا

(١) الحاوى فى الفتاوى للسيوطى ٢/ ١٣٤ .

المراد الكونى القدرى ، فصار المرادان واحداً ، ثم قال : وليس فى العقل اتحاد صحيح إلا هذا ، والاتحاد فى العلم والخبر ، فيكون المرادان والمعلومان والمذكوران واحداً مع تباين الإرادتين والعلمين والخبرين ، فغاية المحبة اتحاد مراد المحب بمراد المحبوب ، وفناء إرادة المحب فى مراد المحبوب ، فهذا الاتحاد والفناء هو اتحاد خواص المحبين وفناؤهم ، قد فنوا بعبادة محبوبهم عن عبادة ما سواه وبحبه وخوفه ورجائه والتوكل عليه ، والاستعانة به والطلب منه عن حب ما سواه.. ومن تحقق بهذا الفناء لا يحب إلا فى الله ، ولا يبغض إلا فيه ، ولا يوالى إلا فيه ، ولا يعادى إلا فيه، ولا يعطى إلا لله ، ولا يمنع إلالله ، ولا يرجو إلا إياه ، ولا يستعين إلا به ، فيكون دينه كله ظاهراً وباطنا لله ويكون الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم أحب إليه مما سواهما ، فلا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب الخلق إليه بل :

يعادى الذى عادى من الناس كلهم

جميعـــا ولو كان الحبيب المصافيا

وحقيقة ذلك فناؤه عن هوى نفسه وحظوظها بمراضى ربه تعالـى وحقوقه ، والجامع لهذا كله تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله علما ومعرفة وعملا وحالا وقصداً ، وحقيقة هذا النفى والإثبات الذى تضمنته هذه الشهادة هو الفناء والبقاء ، فيفنى عن تأله ماسواه علما وإقرارا وتعبدا ويبقى بتألهه وحده ، فهذا الفناء ، وهذا البقاء هو حقيقة التوحيد الذى اتفق عليه المرسلون صلوات الله عليهم وأنزلت به الكتب ، وخلقت لأجله الخليقة ، وشرعت له الشرائع وقامت عليه سوق الجنة ، وأسس عليه الخلق

والأمر.. إلى أن قال : وهذا الموضع مما غلط فيه كثير من أصحاب الإرادة والمعصوم من عصمه الله ، وبالله المستعان والتوفيق والعصمة .

وقال فى موضع آخر : ، وإن كان مشمرا للفناء العالى ، وهو الفناء عن إرادة السوى ، لم يبق فى قلبه مراد يزاحم مراده الدينى الشرعى النبوى القرآنى ، بل يتحد المرادان فيصير عين مراد الرب تعالى هو عين مراد العبد ، وهذه حقيقة المحبة الخالصة ، وفيها يكون الاتحاد الصحيح ، وهو الاتحاد فى المراد لا فى المريد ولا فى الإرادة[١] .

ويقول فى موضع آخر : والفناء الذى يشير إليه القوم ، ويعملون عليه أن تذهب المحدثات فى شهود العبد ، وتغيب فى أفق العدم كما كانت قبل أن توجد ، ويبقى الحق تعالى كما لم يزل ثم تغيب صورة المشاهد ورسمه أيضا ، فلا تبقى له صورة ولا رسم ثم يغيب شهوده أيضا فلا يبقى له شهود ، ويصير الحق هو الذى يشاهد نفسه بنفسه ، كما كان الأمر قبل إيجاد المكونات وحقيقته أن يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل[٢] .

موقف الشيخ ابن تيمية من القول بالاتحاد:

حين نقرأ فى فتاوى الشيخ ابن تيمية نراه يبرئ ساحة الصوفية من تهمة القول بالاتحاد ، ويؤول كلامهم تأويلا صحيحا سليمًا ، أما تبرئة ساحتهم فيقول فى موضع من فتاويه : ، ليس أحد من أهل المعرفة بالله يعتقد حلول الرب تعالى به أو بغيره من المخلوقات ، ولا اتحاده به ، وإن

---

(١) مدارج السالكين شرح منازل السائرين جـ١/ ٩٠ ، ٩١ للشيخ ابن القيم .

(٢) المرجع السابق ١/ ٨٠ .

سُمع شيء من ذلك منقول عن بعض أكابر الشيوخ فكثير منه مكذوب ، اختلقه الأفاكون من الاتحاديه المباحية ، الذين أضلهم الشيطان وألحقهم بالطائفة النصرانية(١) .

وقال أيضا: « كل المشايخ الذين يقتدى بهم فى الدين متفقون على ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها من أن الخالق سبحانه مباين للمخلوقات ، وليس فى مخلوقاته شيء من ذاته ، ولا فى ذاته شيء من مخلوقاته ، وأنه يجب إفراد القديم عن الحادث ، وتمييز الخالق عن المخلوق ، وهذا فى كلامهم أكثر من أن يمكن ذكره(٢) .

وأما تأويله لكلامهم فقد قال فى مجموع رسائله :

وأما قول الشاعـر فى شعره :

* أنا من أهوى ومن أهوى أنا *

فـهذا إنما أراد به الشاعر الاتحاد المعنوى ، كاتحاد أحد المحبين بالآخر الذى يحب أحدهما ما يحب الآخر ، ويبغض ما يبغضه ، ويقول مثل ما يقول ويفعل مثل ما يفعل ، وهذا تشابه وتماثل ، لا اتحاد العين بالعين ، إذا كان قد استغرق فى محبوبه حتى فنى به عن رؤية نفسه كقول الآخر:

غبت بـك عنى فظننت أنك أنى

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية قسم علم السلوك ١١/ ٧٤، ٧٥ .
(٢) المرجع السابق ج ١٠/ ٢٢٣ .

فهذه الموافقة هى الاتحاد السائغ[١] .

قال أبو الحسين النورى رضى الله تعالى عنه أنا منذ عشرين سنة بين الوجد والفقد ، إذا وجدت ربى فقدت قلبى وإذا وجدت قلبى فقدت ربى «[٢] .

فالأمر استغراق كامل فى الله بضبط القوى ومراعاة الأنفاس حتى يفقد بنفسه الإحساس ، فإذا ذكر غيره سبحانه فقد استغراقه والمقصود بإيجاد القلب ذكر السوى ، فلا يتأتى أن يجمع بينه تعالى وسواه .

يقول الشهيد أبو منصور الحلاج رحمه الله تعالى شارحاً لهذا الاستغراق « فنسى نفسه وما سوى الله ، فلو قلت من أين وأين تريد ؟ لم يكن له جواب غير قول : الله «[٣] .

فإنه رحمه الله تعالى يشير إلى طى جميع المسافات من زمان ومكان فى حقيقة : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ « البقرة : ١١٥ » فهى مشاهدة قلبية بيقين كامل للحقيقة ، ويحدث من جراء هذا الاستغراق أن يغيب الشهود فى الشهود فينطق بما لا يفهمه إلا من كان له من الذوق نصيب .

« قيل لمجنون بنى عامر : أتحب ليلى؟ قال: لا ، قيل : ولم ؟

قال : لأن المحبة ذريعة الوصلة ، وقد سقطت الذريعة ، فليلى أنا وأنا ليلى «[٤] .

هذا حب مخلوق لمخلوق ، قد يكون لمنفعة أو حظ دنيوى ، فعل

---

(١) مجموع رسائل ابن تيمية ص ٥٢ . (٢) الرسالة القشيرية ص ٣٧ .

(٣) اللمع للطوسى ٤٩٩ .

(٤) لوامع الأنوار ـ عبد الحافظ بن محمد ص ١١٥ .

بالمحب ما فعل حتى قال إنه محبوبه ، فما بالك بمن أحب الكريم الودود ، الذى أمر بمحبته ورغب فيها .. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ، المائدة : ٥٤ ،

ويا عجبا لمن يغفل أو يتغافل فيظن قيسا اتحد بليلى أو حل بها فأصبح هو عينها أو هى عينه[١] .

وكان أبو بكر الهذلى يحادث السفاح العباسى ، فعصفت الريح فأذرت ترابا وقطعا من الآجر من أعلى السطح إلى المجلس ، فجزع من حضر المجلس ، لوقوع ذلك وارتاع له ، والهذلى شاخص ببصره نحو السفاح لم يتغير كما تغير غيره ، فسأله السفاح مستغربا عن سر ثباته؟ فأجاب بقوله : يا أمير المؤمنين ، ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، وإنما جعل للرجل قلب واحد ، فلما غمره السرور بفائدة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال ،[٢] .

فيا أيها المعترض على شريف الأحوال وشريف الرجال .. هذا مخلوق فنى فى ملك من ملوك الدنيا سروراً بفائدته أو رهبة منه حتى خرق العادة ، فعلام الاعتراض على من فنى فى ملك الملوك ، فسقط عن قلبه كل ما سواه[٣] .

---

(١) الحجة للقطعانى ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

(٢) ذكرها الجاحظ ورواها المسعودى فى مروج الذهب ٢ / ٢١٠ ، ورواها محمد بن الأزرق الأندلسى فى كتابه بدائع السلك فى طبائع الملك ج ٢ ص ٢٦٢ .

(٣) الحجة للقطعانى ص ٢٤٥ .

إن الفناء الذى نتكلم عنه هو امتلاء القلب بنور الله تعالى لا بسواه مذاق رائق ، وإحساس شائق ، ورهافة حس ، وصدق شعور ومعاينة للملكوت بعين الفؤاد مما يجعله عزيزا إلا على من وفق الله ..

قال الشيخ ابن عطاء الله السكندرى رضى الله تعالى عنه :

وهذا لسان الكـون ينطــق جهرة

بأن جميــع الكائنات قواطـــع

وأن لا يرى وجه السبيل سوى امرئ

رمى بالسوى لم تختدعه المطامع

ومن أبصر الأشياء والحق قبلهـــا

فغيّب مصنوعا بمن هو صانـــع(١) .

---

(١) التنوير فى إسقاط التدبير ص ١٨ .

الفصـــل السادس عشر

أغلوطات يجب أن تصوب
حول وحدة الوجـود

إن قضية « وحدة الوجود » من أخطر القضايا التى أثيرت منذ زمان بعيد واستغلق فهمها على كثير من الأذهان إلا من رحم الله تعالى ، ونريد فى هذه المقدمة أن نستنير بآراء أهل العلم الذين فهموها على حقيقتها ووضحوها توضيحا كاشفا لا غموض فيه ولا تعقيد ووضعوها فى الميزان العلمى الصحيح الذى يجب أن توزن به كل الأمور المتعلقة بالعقيدة أو الشريعة أو الحقيقة أو الطريقة ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة.. والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل..

الإمام الهمام محيى الدين بن عربي والحب الإلهى :

قبل أن نتحدث عن « وحدة الوجود » ينبغى أن نعرج على معنى الحب الإلهى عند الصوفية على وجه العموم وعند الشيخ محيى الدين على وجه الخصوص إذ هو إمامهم الأكبر فى هذا الموضوع..

ذلك بأن الحب هو روح التصوف ، وهو شعاره ودثاره ، والحال المشترك بين المتصوفة جميعا ، هو بداية البداية ، كما أنه نهاية النهاية ، وكأس المحبة لديهم تكمن فيها كل الأسرار والأنوار.

والحب عند المتصوفة ، لا يمكن تحديده ولا تعريفه ، ولا شرح

حقائقه وإنما يحد باللفظ فقط ، ويعرف بالعرف والاصطلاح ، أو كما يقول الشيخ محيى الدين: « من حد الحب ماعرفه، ومن لم يذقه شربا ما عرفه، ومن قال : رويت منه ما عرفه ، فالحب شرب بلا رى » .

قال بعض المحوبين : شربت شربة فلم أظمأ بعدها أبداً ، فقال أبو اليزيد: الرجل من يحسو البحار ، ولسانه خارج على صدره من العطش.

وهكذا هو الحب ، حنين متجدد ، وشوق مستمر ، وظمأ دائم لا حد له ولا غاية لأنه متجدد مع الأنفاس ، فالشوق لا نهاية له ، لأن أمر الحق لا نهاية له فما من حال يبلغها المحب إلا ويعلم أن وراء ذلك ما هو أتم وأوفى.

يقول الإمام أبو حامد الغزالى : « إن تبلغ الحالة تعرف ماهى »

ولكل محب من هواه على قدر همته ، قال الشبلى رحمه الله تعالى شربت أنا والحلاج من كأس واحدة فصحوت وسكر هو ، فسلك كل منا طريقا..

ولقد استمد الصوفية أصول هذا الحب من نور القرآن الكريم ، فالقرآن الكريم لمن يتدبره هتاف حار بالمحبة الإلهية ، ودعوة صريحة إلى بذل كل طيبات الحياة فى سبيل الفوز بمحبة الله تعالى .

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى مناجاته لربه يسأله الحب فيقول : (اللهم إنى أسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربنى إلى حبك) رواه الإمام أحمد وغيره ، كما أخبر صلى الله عليه وآله وسلم أن الله تعالى جعل قرة عينه فى الصلاة ، وهى أسمى مراتب الوصول والمحبة ..

(اللهم اجعل حبك أحب الأشياء إلى ، وخشيتك أخوف الأشياء عندى ، واقطع عنى حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك ، وإذا أقررت عين أهل الدنيا من دنياهم فأقر عينى فى عبادتك) ..

وأى مرتبة تسمو إلى مرتبة الحب الإلهى ، يخلو المحب إلى ربه فى محاريبه ، يسمو بطاعته ، ويضىء ليله بنور وجهه ، ويقطع نهاره بجميل شكره ثم تأتى النشوة الكبرى بالأنس والرضا ..

قال الإمام الجنيد رحمه الله تعالى : « أشرف المجالس وأعلاها الجلوس فى الخلوة ، والتنسم بنسيم المعرفة ، والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد » ، ثم قال :يا لهامن مجالس ما أجلها ، ومن شراب ما ألذه ، طوبى لمن رزقه .

يقول الشيخ الأكبر : « جرت مسألة المحبة بمكة أيام الموسم فتكلم فيها الشيوخ وكان الجنيد أصغرهم سنا ، فقالوا : هات ماعندك يا عراقى ، فأطرق برأسه ودمعت عيناه ، ثم قال : عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه ناظر إليه بقلبه ، أحرق قلبه أنوار هيبته ، وصفى شربه من كأس وده ، وانكشف له الجبار من أستار غيبه فإن تكلم فبالله وإن نطق فمن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو بالله ولله ومع الله ، وللحب سببان : الجمال وهو فى علاه لله ، والإحسان ، وما ثمّ إحسان إلا منه ، فإن أحببت للإحسان فما أحببت فى الحقيقة إلا الله ، فإنه المحسن ، وإن أحببت للجمال ، فما أحببت إلا الله ، فإن الجميل نور السموات والأرض .

الحــب عند الشيخ الأكبر :

يرى الشيخ محيى الدين أن الحب ليس دعوى يلفظها اللسان ويتصورها الخيال ، بل للحب آيات وشهود وشروط ، فيطلب إلى المحب أن يمسك سمعه ، فلا يستمع إلا لكلام محبوبه ، ويغض بصره عن كل منظور سوى محبوبه ، ويخرس لسانه عن كل كلام إلا عن ذكر محبوبه ، ويرمى على خزانة خياله فلا يتخيل سوى صورة محبوبه ، فبه يسمع ويبصر ويتكلم .. وفى الحديث القدسى الذى يرويه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : يقول الله عز وجل : [من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليّ عبدى بشىء أحب إلى من أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ...] الحديث .

وفى البخارى ومسلم أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إن الله إذا أحب عبدا نادى يا جبريل إنى أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى جبريل فى أهل السماء إن الله قد أحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض » .

فتقبله البواطن وإن أنكرته الظواهر ..

ثم يقول الشيخ محيى الدين ، واعلم أنه كلما ازدادت المشاهدة ازداد الحب لأن الاشتياق يهيج باللقاء ، ومن علامات المحب أنه يستقل الكثير من نفسه ويستكثر القليل من محبوبه ، لأن المحبوب غنى فقليله كثير ، والمحب فقير فكثيره قليل .

ثم يقول : وألطف ما فى الحب ما وجدته ، وهو أن تجد عشقا مفرطا وهوى وشوقا مقلقا ، وغراما ونحولا ، وامتناع نوم وعدم لذة بطعام ، ثم ذهول وذهاب وفناء ، ثم تجل وفيض ولذة لا توصف ..

الشيخ محيي الدين ووحدة الوجود :

اعلم أخى المحب للصالحين من عباد الله أن قمة الحب الإلهى عند العارفين من أئمة التصوف هى حال الفناء ، فناء المحب فى محبوبه فناء معنويا لا يمكن تصوره ، وكيف نتصور ما ليس بصورة؟ وليس للمعنويات صورة محسوسة ملموسة ، وهذا هو حب العارفين كما يقول الشيخ الأكبر : الذين يمتازون عن العوام أصحاب الاتحـاد ..

ولقد ملأ الشعراء والأدباء أصحاب الحب الأرضى الشهوانى الدنيـا بألحان حبهم وصور غرامهم ، فجعلوا الحياة هى الحب ، وجعلوا الحب ملكا من ملائكة السماء بل إلها وربا ، وجعلوا الغرام اتحادا واستغراقا وفنـاء .

وصوروه بشتيت الصور المعنوية والحسيـة ، وأطلقوا فى آفاقه استعارات المبالغة ، وتشبيهات مهولة ، فصفقوا لهم إكبارا ، وأقاموا لهم التماثيل إعجابا ، وسجدوا وتبتلوا فى محاريبهم الشهوانية .

وقال الشعراء والأدباء من أصحاب الهوى الجنسى ، إن المحب يرى محبوبه فى كل شيء ، ويتلون به كل شيء ، يراه فى الماء والسماء والهواء يراه فى كأس شرابه . ويشاهده فى ألوان طعامه ، وفى بسمة الفجر وإشراقة الشمس ، وشعاع البدر ، بل يراه فى كل جهة يولى وجهه إليها.

يقول المترنمون بالجنس : هذا ؛ فتصفق لهم الدنيـا إعجابا وإجلالا ،

وتخفق لهم القلوب رحمة وحنانا ، وتدمع العيون رثاء وإشفاقا ..

أما العابد الطاهر المتطهر ، المؤمن الصوفى الزاهد الساجد الغارق فى حبه العظيم ، والمحبة على قدر المحبوب ، إذا استغرق الصوفى فى حبه فنسى الوجود ، وغاب عن الشهود ، ونسى نفسه ، ولم ير إلا الحبيب الأعظم ولم يشاهد فى الألوان والصور الكونية إلا الخالق المحبوب فهو زنديق وهو متفلسف !! وهو هاتف بالحلول !! وداع إلى وحدة الوجود !! والأمر أيسر وأهون من هذا .. فما هناك إلا المحب والمحبوب ..

إنهم لقوم غمرهم النور الإلهى الأسنى ، فتعلقت أبصارهم به ، ورفرفت أرواحهم حوله ، وذهلت عقولهم من التجلى والمشاهدة ، فما رأوا فى الوجود سواه .. تبارك وتعالى ..

· إنهم بعين حبهم وشوقهم ليرون الله تعالى فى كل شىء ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن ..

وفى كل شى له آيـــة تدل على أنـــه الواحد

وفى كل تحريكـة وتسكينة لله أبـــداً شـــاهد

أما أصل وحدة الوجود وفكرة الحلول والاتحاد فإنها فكرة إلحادية قديمة عريقة فى العبادات الهندية والبوذية ، وخلاصتها :

أن أصحابها انقسموا فريقين : فريق يرى الله تعالى - روحًا، ويرى العالم جسماً لذلك الروح - تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً - وأن الإنسان إذا صفا وتطهر سما وارتفع فالتصق بالروح التى هى الله ففنى فيها فذاق السعادة الكبرى - على زعمهم -

وفريق آخر يرى أن جميع الموجودات لا حقيقة لوجودها غير وجود الله ، فكل شيء هو الله ، والله هو كل شيء ، أى أن الله سبحانه يتجلى تجليا حقيقيا فى كل شيء فى الكون بذاته ، فلا موجود إلا الوجود الواحد ، ومع ذلك يتعدد بتعدد الصور تعدادا حقيقيًا واقعيا فى نفس الأمر ، ولكن ذلك التعدد لا يوجب تعداداً فى ذات الوجود ، كما أن تعداد أفراد الإنسان لا يوجب تعداد حقيقة الإنسان .

وهى سفسطة.. لا يقبلها منطق ولا عقل ولا شرع ، سفسطة تذهب بالشرائع والأديان .. وتنال من الجلال والكمال الواجب لله سبحانه وتبطل الجزاء والعقاب والجنة والنار ، والحياة الأخروية ، تبطل الحدود بين الخالق والمخلوق ، فتجعل الخالق والخلق شيئا واحداً .

تلك هى خلاصة فكرة وحدة الوجود وقضية الحلول والاتحاد ، التى قذف بها القدامى من خصوم المتصوفة رجال الحب الإلهى ، متخذين من حب المتصوفة لربهم تكئة ومقعدا لهذا الاتهام ..

ثم جاء بعض رجال الاستشراق الذين أغرموا أكبر الغرام بتجريح الثقافة الإسلامية والفكرة المحمدية ، بتجريح رجالها والطعن فى علمائها ، فغمسوا أقلامهم فى محراب المتصوفة ، ولبسوا ثوب العلم بالإسلام والدفاع عنه فرموا المتصوفة بهذا الإفك المبين ، والذى تولى كبره منهم هو ، جولد تسيهر ، هذا اليهودى المفكر ، الذى فكر وفكر ، ثم فكر وقدر فألهم أن إخوان الصفا بشامخ علمهم ، استمدوا فلسفتهم وفكرتهم من قصة الحمامة المطوقة فى كتاب ، كليلة ودمنة ، ولا نجد لهذا الاكتشاف العظيم !! شبيها إلا أن نقول مثلا : إن علماء القنبلة الذرية قد استمدوا فكرتهم من قصة

الزير سالم أو الزناتى خليفة ..

، جولد تسيهر ، هذا وأمثاله ، من عباقرة رجال الاستشراق هم الذين أثاروا غبار وحدة الوجود ، على رجال التصوف الإسلامى والحب الإلهى وجرى فى أعقابهم بعض المتعالمين من كُتابنا وباحثينا الذين تعيش أفكارهم على فتات الموائد الأوربية ، فرموا بالكلم المسموم والاتهام الشائن . ويتفلسف المستشرقون ، ومعهم المتعالمون فيقولون : إن للتصوف الإسلامى علاقة وثيقة ببوذية الهند ، وإن وحدة الوجود عند متصوفة الإسلام من الصوفية البوذية ، ولمحات من صوفية المدرسة الإشراقية .

الرد المقنع على هذه الفرية :

لقد نسى هؤلاء المتعالمون أن التصوف الإسلامى قام على كتاب الله عز وجل وهدى نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأن الصوفى المسلم يقرأ فى كتاب ربه سبحانه قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ فيقرأ خلاصة العلم الذى يتعلمه طلاب اللاهوت[1] فى سائر الملل والنحل ، ويطوى تحت هذا البلاغ المبين والنور الغالب كل فلسفة تتشدق ببحث الذات والصفات .

يقول الشيخ عبد الوهاب الشعرانى فى كتابه ، اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الأكابر ، : ، ولعمرى أن عباد الأوثان لم يتجرأوا أن يجعلوا آلهتهم عين الله بل قالوا : ، ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فكيف يظن بأولياء الله تعالى أن يدّعوا الاتحاد بالحق سبحانه وتعالى ـ هذا محال فى حقهم ـ رضوان الله تعالى عليهم ، .

(١) المراد بطلاب اللاهوت : الذين يتعلمون ما يتعلق بالذات الإلهية .

والشيخ الأكبر : وهو شيخ الصوفية الأشهر وفيلسوفهم الأغر الذى رُمى فيمن رمى من المتصوفة بهذا الإفك ، تشهد كتبه ، وتشهد آثاره ويشهد إيمانه وتشهد تقواه ، وينطق حبه لله تعالى ، بأنه أكبر المدافعين عن التوحيد ، وأشد الناس قسوة على من مرق من نطاقه ، فنادى أو هتف بوحدة الوجود ، وما إلى وحدة الوجود من حلول واتحاد.. بل الشيخ محيى الدين لا يبيح للشاطحين والمحبين أن يقولوا حتى الألفاظ التى يحتمل التأويل أو الشك ، مع براءة الشاطح والمحب من الاتجاه والقصد .

يقول الشيخ فى عقيدته الوسطى : « اعلم أنَّ الله تعالى واحد بإجماع ، وقيام الواحد يتعالى أن يحل فيه شىء ، أو يحل هو فى شىء ، أو يتحد بشىء » .

ويقول فى الباب الثالث من الفتوحات : « اعلم أنه ليس فى أحد من الله شىء، ولا يجوز ذلك عليه بوجه من الوجوه » .

وقال فى باب الأسرار : « لا يجوز لعارف أن يقول : أنا الله ، ولو بلغ أقصى درجات القرب ، وحاشا العارف من هذا حاشاه .

وقال فى الباب التاسع والتسعين ومائة : « القديم لا يكون قط محلا للحوادث ولا يكون حالاً فى الحادث ، وإنما الوجود الحادث والقديم مربوط بعضه ببعض ، ربط إضافة وحكم ، لا ربط وجود عين بعين ، فإن الرب لا يجتمع مع عبده فى مرتبة واحدة أبداً » .

وقال فى لواقح الأنوار : « من كمال العرفان ، شهود عبد ورب ، وكل عارف نفى شهود العبد فى وقت ما ، فليس بعارف ، وإنما هو فى ذلك الوقت صاحب حال ، وصاحب الحال سكران لا تحقيق عنده » .

ويشرح لنا الشيخ محيى الدين الحديث القدسى المشهور « وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى من أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها .. » الحديث .. رواه البخارى ومسلم .

يشرح هذا الحديث الذى توهم فيه بعض الأغرار ما يفيد الوحدة فيقول : « أى إن من تقرب إلى ربه فأحبه ، أفاض عليه أنوار المعرفة ، فانكشفت له الحقائق ، فرأى كل شيء بنور هذه المعرفة ثم يقول : لا حلول ولا اتحاد ، فإن القول بالحلول مرض لا يزول ومن فصل بينك وبينه فقد اثبت عينك وعينه ، ألا ترى إلى قوله : « كنت سمعه الذى يسمع به »، فأثبتك بإعادة الضمير إليك ليدلك عليك ، وما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد ، كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول » ..

فانظر أخى بعين الإنصاف إلى هذا الكلام البين الواضح « ما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد وما قال بالحلول إلا أهل الجهل والفضول » أيرمى صاحب هذا القول بالاتحاد والحلول؟!! سبحانك ربى هذا بهتان عظيم فإنها لا تَعْمَى الأبصارُ ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ».

ويقول فى باب الأسرار : « أنت أنت ، وهو هو .. فإياك أن تقول كما قال العاشق : أنا من أهوى ومن أهوى أنا ، فهل قدر هذا أن يرد العين واحدة ، لا والله ما استطاع فإنه جهل والجهل لا يتعقل حقا ».

وقال أيضا : « إياك أن تقول : أنا هو ، وتغالط ، فإنك لو كنت هو لأحطت به كما أحاط تعالى بنفسه » .

ثم يقول ما هو من الآيات فى توضيح فكرته : « اعلم أن العاشق إذا قال : أنا من أهوى ومن أهوى أنا ، كان ذلك كلام بلسان العشق والمحبة لا بلسان العلم والتحقيق ، ولذلك يرجع أحدهم عن هذا القول إذا صحا من سكره » .

يعنى أن هذا لسان الحب ولسان الخيال ، لا الحقيقة ، لسان المعنويات التى لا صور لها ، وللمحبة لسان معذور ، لأنه مقهور بحاله .

ويقول فى الباب الثانى والتسعين ومائتين : « من أعظم الأدلة على نفى الحلول والاتحاد الذى يتوهمه بعضهم ، أن تعلم عقلا أن القمر ليس فيه من نور الشمس شىء ، وإن الشمس ما انتقلت إليه بذاتها وإنما كان القمر محلا لها ومشرقا بها ، فكذلك العبد ليس فيه من خالقه شىء ، ولا حل فيه » .

ثم يقول : « وهذا يدلك على أن العالم ما هو عين الحق ، ولا حل فيه الحق ، إذا لو كان عين الحق ، أو حل فيه ، لما كان تعالى قديما ولا بديعا » .

ثم يرد الشيخ على هؤلاء الذين تنادوا بالترقى والفناء فى الذات العلية فيقول : « لو صح أن يرقى الإنسان عن إنسانيته ، والملك عن ملكيته ويتحد بخالقه تعالى لصح انقلاب الحقائق وخرج الإله عن كونه إلها ، وصار الحق خلقا ، والخلق حقا ، وما وثق أحد بعلم ، وصار المحال واجبا ، فلا سبيل إلى قلب الحقائق أبداً » .

ويقول فى الباب الثامن والأربعين من الفتوحات : « لا يصح أن يكون الخلق فى مرتبة الحق تعالى أبدا ، كما لا يصح أن يكون المعلول فى

رتبة العلة ، ثم يقول : وأين إذن تذهب التكاليف ، ومن ترك التكاليف كان معانداً أو جاحداً ، فمن كمال التخلق بأسماء الحق الاشتغال بالله وبالخلق » .

ويقول فى لواقح الأنوار : « لا يقدر أحد ولو ارتفعت درجات مشاهدته أن يقول : إن العالم عين الحق أو اتحد به أبداً ، ومن فهم ما أومأنا إليه فهم معنى قوله تعالى : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ فلم يحدث بابتداعه العالم فى ذاته حادث .. تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً » .

ثم يأتى الشيخ بكلمة الفصل فى هذه القضية فيقول : « وبالجملة فالقلوب به تعالى هائمة ، والعقول فيه حائرة ، يريد العارفون أن يفصلوه تعالى بالكلية عن العالم من شدة التنزيه فلا يقدرون ، ويريدون أن يجعلوه عين العالم من شدة القرب فلا يتحقق لهم ، فهم على الدوام متحيرون ، فتارة يقولون : ماهو ؟ وتارة يقولون هو ما هو ؟ وبذلك ظهرت عظمته تعالى » .

وهذا كلام العارف الحكيم المؤمن الكامل ، وهو هدى ونور لمن يريد الهدى والنور .

فالقلوب حائرة والعقول هائمة ، وبذلك ظهرت عظمة الله تعالى الذى ليس كمثله شىء ، والذى لا تدركه العقول ولا الأبصار وهو يدرك العقول والأبصار ، وهو اللطيف الخبير .. و ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (١) .

---

(١) هـذا الكلام كله مأخوذ من كتاب « محيى الدين بن عربى » للأستاذ طه عبد الباقى سرور ـ ط مكتبة الأنجلو المصرية .

تحقيق تاريخي لابد من معرفتــه :

لم يشهد تاريخ الفكر الإسلامى جدلا وحوارا ، أشد ولا أعنف من الجدل والحوار الذى أثير حول الشيخ محيى الدين، وذلك أن الشيخ الأكبر هو الراية التى دارت حولها المعارك بين المتصوفة وخصومهم من جميع الفرق والطوائف والمذاهب منذ القرن السابع الهجرى إلى يومنا هذا .

فالشيخ قد فتن به قوم وهاموا بآثاره حبا وغراما ، وطافوا حول تراثه إجلالا وإكباراً ، وتنادوا بأن الفتوحات المكية هى أعظم آثار الفكر الإسلامى وأعلى ذرى العطايا اللدنيّة ، والمنح الإلهية فى نهج التصوف والمتصوفة وأنه القطب والإمام والشيخ الأكبر .

وغضب عليه قوم وثاروا به وتفننوا فى تجريحه ، والنيل منه ، وألحدوا بكل ما قال وظنوا السوْء ، بل وأكثر من السوْء فى كتبه وآرائه .

والحقيقة أن خصوم الشيخ الأكبر على لونين : فريق لم يفهم الشيخ ، وقصرت أجنحته عن التحليق فى آفاقه ، وعجزت أقدامه وسواعده عن الجرى مع عبابه وأمواجه ، فأنكر وجحد ، ورماه بالغموض والإبهام والتقنع لمآرب وأغراض .

وفريق آخر : أنكر التصوف جملة وجحد المتصوفة كافة ، ورأوا فى الشيخ محيى الدين الحصن الأكبر والصرح المُمَرّد الشاهق للتصوف والمتصوفة .. فوجهوا ريحهم إليه ، وأجروا سفنهم بالكيد له ، والتطاول عليه حتى ينتقض الصرح من أساسه ، وينفض السامر ، وتخلو ساحته من البطل والزعيم ، بل لقد تعرض الشيخ لمحنة أشد من كل محنة بل لمؤامرة من تلك المؤامرات التى تدبر تحت أجنحة الظلمات ، والتى طالما أودت بالعلماء

ورجال الإيمان ، وطالما جرحت أئمة الفكر والهدى ، مؤامرة بدأت فى حياته ثم جرت فى أعقابه ولاحقته إلى يومنا .

الشيخ الشعرانى يكشف المؤامرة ضد الشيخ الأكبر :

يقول الشيخ عبد الوهاب الشعرانى فى مقدمة كتابه « اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الأكابر» إن أفاقا من أهل اليمن غير واضح العقيدة ، اسمه ابن الخياط كتب مسائل فى درج وأرسلها إلى العلماء بسائر أنحاء العالم الإسلامى وقال : « هذه عقائد الشيخ محيى الدين » وذكر فيها عقائد زائفة ، مسائل خارقة لإجماع المسلمين ، وخدع العلماء ، ووقع كثير منهم فى الشرك فكتبوا بحسب السؤال وشنعوا على من يعتقد ذلك من غير تثبت والشيخ عن ذلك بمعزل » .

ويعقب الفيروزابادى على حادثة ابن الخياط قائلا : « فلا أدرى أوجد ابن الخياط تلك المسائل فى كتاب مدسوس على الشيخ أم فهمها هو من كلام الشيخ ، على خلاف مراده ، أم ابتكرها من عند نفسه ؟ » .

وإنه للون من أعجب ألوان التشهير ، يتفق تماما مع أحدث أساليب الدعاية الحديثة وما ألفناه من الأقلام المأجورة المعاصرة التى تطلقها الأمم لتنال من خصومها ، ومن أفكارهم ، ومذاهبهم بالتلفيق والاختراع والتمويه بالباطل .

ولا عجب إذ رأينا الكثير من العلماء الذين وجه إليهم السؤال من ابن الخياط وقد وقعوا فى الشَّرَك .. الذى نصب لهم بمهارة ودهاء ، فقد رأوا بين أيديهم مسائل خطيرة تمس الدين وما انعقد عليه الرأى بالإجماع

فملأوا الدنيا صياحا وتشهيرا ، ولا يزال صياحهم وتشهيرهم تحمله أجنحة التاريخ وتقذف به إلى الأذهان .

براءة الشيخ مما نسب إليه من مخالفات :

ويحدثنا الشيخ الشعرانى أيضا فيقول : « إنه عندما أخذ فى تأليف مختصر للفتوحات ، رأى فيها أشياء كثير ، لا تتفق مع ما عليه أهل السنة والجماعة فحذفها ، وتوقف فيها ، ثم يقول : « لم أزل كذلك أظن أن المواضع التى حذفتها غير ثابتة عن الشيخ محيى الدين ، حتى قدم علينا الأخ العالم الشريف الشيخ شمس الدين محمد بن السيد أبى الطيب المدنى المتوفى سنة ٩٥٥هـ فذاكرته فى ذلك ، فأخرج لى نسخة من الفتوحات التى قابلها على النسخة التى عليها خط الشيخ محيى الدين نفسه « بقونية » فلم أر فيها شيئا مما توقفت عليه وحذفته ، فعلمت أن النسخ التى فى مصر الآن كلها كتبت عن النسخة التى دسوا على الشيخ فيها ما يخالف عقائد أهل السنة والجماعة، كما وقع له ذلك فى كتاب« الفصوص » وغيره .

والشيخ الشعرانى من أخلص تلامذة الشيخ محيى الدين ، وهو من أكبر من كتبوا عنه وترجموا له ، يقرر هنا فى صراحة لا تقبل الجدل أن كل ما فى الفتوحات جاء مخالفا لعقائد أهل السنة والجماعة قد دس على الشيخ الأكبر . وأنه ضحية لمؤامرة دنيئة ، سلاح الخصوم فيها التلفيق والتزييف .. فلا حول ولا قوة إلا بالله ..

ويتابع الشيخ الشعرانى بحثه فيقول : « إنه لم يقتنع كل الاقتناع بأن خصوم الشيخ أضافوا إلى مؤلفاته زيادات كبيرة ، وأنطقوه بما لم يقله ، ليصرفوا الجمهور عن حسن الظن به » ..

ونحن ولا شك أمام حادث خطير من أحداث التاريخ يجب أن تجتمع له عصبة من أولى القدرة والإيمان لدراسته وبحثه ، وصون هذا التراث الإسلامى العظيم من التشويه الزائف الخطير المتعمد ..

ويرى كثير من رجال التاريخ وأهل الرأى أن الزائف فى كتابى الفتوحات والفصوص ، وغيرهما من كتب الشيخ لم يتوله خصومه من رجال الفقه ولا من أهل السنة وإنما تولاه أئمة بعض رجال الباطنية الذين عجزوا عن الجهر بآرائهم فأضافوها إلى الشيخ الأكبر ، لإيمانهم بأن شخصيته الجبارة بمكانتها وجلالتها كفيلة بحماية تلك الآراء ، أو تدعيمها وتقويتها .

والتاريخ حافل الصفحات بألوان من الخصومات والافتراءات على الرجال والأئمة ، بل وعلى الرسل والأنبياء ، يقول الله تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ والعلماء ورثة الأنبياء ..

يقول الحافظ السيوطى رضى الله تعالى عنه « ما كان كبير فى عصر قط إلا كان له عدو من السفلة ، إذ الأشراف لم تزل تُبتلى بالأطراف » .. ثم يضرب الأمثال من الأنبياء والرسل عليهم السلام الذين ابتلوا بالخصومات والافتراءات ، ثم بكبار الصحابة ، كسعد بن أبى وقاص الذى نسب إليه بعض أهل الكوفة أنه لا يحسن الوضوء ولا الصلاة ، وهو من هو فى كماله وإيمانه وصحبته لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والإمام أحمد بن حنبل الذى ضرب حتى مزق جسده فى فتنة « خلق القرآن » وهكذا ... ثم يقول : ولقد اختص المتصوفة بالنصيب الأكبر من هذا الابتلاء » .

والإمام السيوطى هنا يقرر حقيقة من حقائق التاريخ التى لا يرقى إليها الشك ، فما من صوفى إلا وأحاطت به عصبة السوء والإفك تجريحا وتشهيرا ودسا وافتراءً ، لقد نفوا البسطامى سبع مرات من بلده بتهمة الكفر والزندقة ، وأحلوا دم ذى النون المصرى ، وشهدوا على الإمام الجنيد بالكفر والإلحاد ، وكذلك على أبى منصور الحلاج ، ودسوا على الإمام الغزالى فى كتابه الإحياء عدة مسائل تنبه لها القاضى عياض فأرشد إليها وأمر بإحراقها.. سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك المبطلون..

ولم يكتف خصوم الشيخ الأكبر بالدس عليه فى كتبه ، والتشهير بألسنتهم به ، بل أضافوا إلى جريمتهم جريمة أخرى أشد وأنكى ، فقد أخذوا يؤلفون على ألسنة شيوخ الإسلام الكلمات القاسية الجارحة الموجهة إلى الشيخ ليزيدوا فى تدعيم مؤامرتهم وليزيدوا النار اشتعالا ، ووقع كثير من رجال التأريخ فريسة سهلة لهذا اللون الجديد .. فأخذوا يرددون أمثال هذه الافتراءات وينسبونها إلى هؤلاء الأعلام ، ولا عجب فى هذا فكتب التفسير مثلا تموج بالإسرائيليات التى تنسب ظلما إلى حبرَ الأمة سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما وهو منها البرىء المطهر .

عقيدة الفقيه العز بن عبد السلام في ابن عربي :

ولقد نسبوا فيما نسبوا إلى شيخ الإسلام العز بن عبد السلام أنه قال عن الشيخ ابن عربى : إنه زنديق !! ورواها عنه أكثر من مؤرخ ، ثم نرى كتب التاريخ الصحاح تقص علينا حادثة أبعد ما تكون عن الرواية الأولى على لسان مريد من تلامذة الشيخ العز بن عبد السلام يقول: « كنا فى مجلس الدرس بين يدى الشيخ ابن عبد السلام ، فجاء فى « باب الردة »

لفظة « زنديق » فقال بعضهم هل هى عربية أو أعجمية ؟ فقال بعض الفضلاء: إنما هى فارسية معربة أصلها ـ زن ـ دين ـ أى على دين المرأة وهو الذى يضمر الكفر ويظهر الإيمان ، فقال بعضهم مثل من ؟ فقال آخر إلى جانب الشيخ : مثل ابن عربى بدمشق ، فلم ينطق الشيخ ولم يرد عليه ، ووجم لها من فى المجلس فقال المريد: وكنت صائما ذلك اليوم. فاتفق أن الشيخ دعانى للإفطار معه فحضرت ، ووجدت منه إقبالا ولطفا ، فقلت له : يا سيدى هل تعرف القطب الغوث الفرد فى زماننا؟ فقال : مالك ولهذا؟ فعرفت أنه يعرفه ، فرجوته ، وألححت عليه فى الرجاء ، فقال لى : هو ابن عربى فعجبت وقلت : يا سيدى : لقد حدث اليوم أن رماه بعضهم فى مجلسك بالزندقة ولم ترد عليه ، فتبسم الشيخ وقال : اللجاجة مع المتعنت لا تنتج إلا ضرراً ، وقائل تلك الكلمة لجوج حقود ، يريد باب اللدد حتى يفرغ مافى جوفه »(١) .

فهذه شهادة شيخ الإسلام وسلطان العلماء العز بن عبد السلام للشيخ محيى الدين بأنه القطب الغوث الفرد فى زمانه فهل يحل لأحد أن يرميه بعد ذلك بالزندقه أو الكفر أو الإلحاد ؟ إن هذا لشىء عجاب ..

الفناء الصوفى عند الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى :

هذا الكلام عن الفناء الصوفى ووحدة الوجود عند الشيخ ابن تيمية وهو أبلغ رد على من يزعمون أنهم أتباعه اليوم ، والحق حق مهما حاول الناس تسميته بغير اسمه ، أو حاولوا تشويهه بإلحاقه بالباطل ، وكل خصوم

---

(١) راجع : الشيخ محيى الدين بن عربى للأستاذ / طه عبد الباقى سرور من ص ١٧١ ، ١٧٦ .

الصوفية يتخذون مما يعترى بعضهم من مراتب الفناء فى الله تعالى ، ذريعة لاتهامهم باعتقاد الوحدة الكفرية التى تعنى : أن الخلق هو الخالق والخالق هو الخلق ، من غير نظر إلى اعتبار الإشراق ، والتجلى والغيبة وما يجرى فى هذه الأثناء على اللسان من ألفاظ موهمة لم يتوفر له غيرها للتعبير عن مواجده وأذواقه ، بل ربما ألحقت بما لا يسأل عنه صاحبه لأنه لا سلطان له على نفسه فى هذه الحالــة فهو كما يقول شاعرهم العارف بالله :

وبعد الفنا فى الله كن كيفما تشا فعلمك لا جهل وفعلك لا وزر

وهنا ننقل عن الشيخ ابن تيمية فصلا قارب فيه الإنصاف العلمى متحدثا عن الفناء الصوفى نقله شارح كتابه « العقيدة الواسطية » الذى طبع بمصر أخيراً فيقول :

« والفناء : ثلاثة أقسام :

١) فناء عن وجود السوى .

٢) وفناء عن شهود السوى .

٣) وفناء عن عبادة السوى .

فالأول : هو فناء أهل الوحدة الملاحدة ، وهو أن يجعل الوجود وجودا واحدا ، أى أن الخلق والخالق واحد » .

أما الثانى : وهو الفناء عن شهود السوى ، فهذا هو الذى يعرض لكثير من السالكين ، كما يحكى عن أبى يزيد وأمثالـه ، وهو مقام « الاصطلام » وهو أن يغيب بموجوده عن وجوده ، وبمعبوده عن عبادته ،

وبمشهودة عن شهادته وبمذكوره عن ذكره ، فيفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل ، وهذا كما يحكى أن رجلا كان يحب آخر ، فألقى المحبوب نفسه فى الماء ، فألقى المحب نفسه خلفه فقال : أنا وقعت ، فلم وقعت أنت ؟ فقال : « غبت بك عنى ، فظننت أنك أنى ، فهذا حال من عجز المخلوقات إذا شهد قلبه وجود الخالق وهو أمر يعرض لطائفة من السالكين .. وهذا يسمى « وحدة الشهود » .

ومن الناس من يجعل هذا جزءا من السلوك ، ومنهم من يجعله غاية السلوك حتى يجعلوا الغاية هو الفناء فى توحيد الربوبية ، فلا يفرقون بين المأمور والمحظور ، والمحبوب والمكروه ، وهذا غلط عظيم غلطوا فيه بشهود القدر وأحكام الربوبية عن شهود الشرع والأمر والنهى ، وعبادة الله وحده وطاعة رسوله ، فمن طلب رفع إنّيته بهذا الاعتبار لم يكن محمودا على هذا ، ولكن قد يكون معذوراً .

وأما النوع الثالث : وهو الفناء عن عبادة السوى ، فهذا حال النبيين وأتباعهم وهو أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه ، ويحبه عن حب ما سواه ، وبخشيته عن خشية ما سواه ، وبطاعته عن طاعة ما سواه وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه ، فهذا تحقيق توحيد الله وحده لا شريك له ، وهو الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام ويدخل فى هذا أن يفنى عن اتباع هواه بطاعة الله ، فلا يحب إلا لله ، ولا يبغض إلا لله ، ولا يعطى إلا لله ، ولا يمنع إلا لله ، فهذا هو الفناء الدينى والشرع الذى بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، ومن قال : « فارفع بحقك إنيتى من البين » بمعنى أن يرفع هواه عن نفسه فلا يتبع هواه ، ولا يتوكل على نفسه وحوله وقوته ،

بل يكون علمه لله لا لسواه ، وعمله بالله وقوته لا بحوله وقوته كما قال الله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فهذا حق محمود ا. هـ ، من شرح العقيدة الواسطية ».

وهذا القسم الثالث من الفناء الذى تحدث عنه الشيخ ابن تيمية هو جزء أصيل متمم للقسم الثانى الذى سبق أن تحدث عنه ، وطالب الحقيقة لا يرى بين القسمين أى تناقض أو منافاة ، فهما شيء واحد لابد لأحد جزءيه من الآخر، ولو تجرد المرء من العصبية وحاول تطبيق هذه القواعد بإنصاف على أكثرية المعروفين بهذا اللون لكان كل الخير[1].

الفناء الصوفي عند الشيخ ابن القيم رحمه الله تعالى:

وهذا هو تلميذ الشيخ ابن تيمية يتحدث عن الفناء كما تحدث شيخه من قبل مبينا أن هناك فرقا كبيرا بين الاتحاد بمعنى « الفناء » والاتحاد بمعنى الحلول المذموم الذى هو امتزاج العبد بالرب ، وذلك فى كتابه مدارج السالكين الذى يشرح فيه كلام الإمام الهروى الحنبلى صفاته ووجودها الذى ليس بحقيقى، فالله سبحانه منح عبده هذه الصفات ليعرفه بها ، ويستدل بها عليه ، فإن لم يفعلها عطل عليه طريق المعرفة والاستدلال بها ، فصارت بمنزلة العدم ، ولهذا يوصف الغافل عن الله بالصمم والبكم والعمى والموت وعدم العقل .

الثالث : محو الذات ، وهو شهود تفرد الحق تعالى بالوجود أزلا وأبداً وأنه الأول الذى ليس قبله شيء ، والآخر الذى ليس بعده شيء،

---

(١) مجلة المسلم : العشيرة المحمدية ، ص ٢٥ ، ٢٦ عدد ذى القعدة سنة ١٤١٨هـ مارس سنة ١٩٩٨م .

ووجود كل ما سواه قائم به ، وأثر صنعه ، فوجوده هو الوجود الواجب الحق الثابت لنفسه أزلا وأبدا ، وأنه المتفرد بذلك .

وهذا « المحو » يصح باعتبارين :

أحدهما : اعتبار الوجود الذاتي ، ولا ريب في إثبات محوه بهذا الاعتبار إذ ليس مع الله موجود بذاته سواه ، وكل ما سواه فموجود بإيجاده سبحانه .

الاعتبار الثاني : المحو في المشهد ، فلا يشهد فاعلا غير الحق سبحانه ولا صفات غير صفاته ، ولا موجودا سواه ، لغيبته بكمال شهوده عن شهود غيره .

وأما محو ذلك من الوجود جملة : فهو محو الزنادقة ، وطائفة الاتحادية ، وصاحب المنازل - يعني الإمام الهروي - وكل ولي لله تعالى بريء منهم حالا وعقيدة[1] ا. هـ كلام الشيخ ابن القيم رحمه الله تعالى وأثابه .

فروق خمسة بين « وحدة الوجود » و « وحدة الموجود » :

يقول الشيخ بديع الزمان النورسي العالم العلامة وأحد كبار مفكري الإسلام في القرن العشرين : إن ما لدى الفلاسفة الماديين ومن وهنت عقيدتهم من المفكرين من مذهب « وحدة الوجود » وما لدى الأولياء منه بون شاسع وفروق كثيرة ، بل إنهما متضادان ونقيضان : فهناك فروق خمسة بينهما :

---

(١) زاد المعاد للشيخ ابن القيم ج٣/ ٣٤,٣٥ .

الفرق الأول : أن علماء الصوفية قد حصروا نظرهم في « واجب الوجود » واستغرقوا في التأمل فيه بكل قواهم ، حتى أنكروا وجود الكائنات ، ولم يعودوا يرون في الوجود إلا هو ..

أما الآخرون « الفلاسفة الماديون وضعفاء الإيمان » فقد صرفوا كل تفكيرهم ونظرهم في المادة حتى ابتعدوا عن إدراك الألوهية .

بل أولْوْا المادة أهمية عظيمة ، حتى جعلتهم لا يرون من الوجود إلا المادة بل تمادوا في الضلالة بحيث مزجوا الألوهية في المادة ، بل استغنوا عنها لشدة حصرهم النظر في الكائنات .

الفرق الثاني : إن ما لدى الصوفية من « وحدة الوجود » تتضمن «وحدة الشهود » في حين ما لدى الآخرين يتضمن « وحدة الموجود » .

الفرق الثالث : إن مسلك الأولياء مسلك ذوقي ، بينما مسلك الآخرين مسلك عقلي .

الفرق الرابع : يحصر الأولياء نظرهم في الحق تعالى ثم ينظرون نظرا تبعيا ثانويا إلى المخلوقات ، بينما الآخرون يحصرون نظرهم أولا وبالذات في المخلوقات .

الفرق الخامس : أن الأولياء عباد الله ومحبوه ، بينما الفلاسفة يعبدون أنفسهم وهواهم ، فأين الثرى من الثريا ، وأين الضياء الساطع من الظلمة الدامسة[١] . ا. هـ

---

(١) مجلة المسلم ص ٤٤ عدد ١١ من ذي القعدة سنة ١٤١٨هـ مارس سنة ١٩٩٨م.

الخلاصـة من المعنيين :

إذن ، فوحدة الوجود لها معنَيان لا ثالث لهما :

المعنى الأول : وهو المعنى الذى يتجسد فيه ، الواجب ، سبحانه وتعالى (نستغفر الله العظيم) فيصير كونا أو حيوانا أو إنسانا أو مخلوقا من المخلوقات هى إفك مبين وكفر واضح ، وسفه يرده العقل والشرع ، وهم أساس الكشف وكل كشف يرده العقل أو الشرع فهو من باب الخيال والوهم، ومن نسبه إلى الحقيقة ، فما عرف الشريعة ولا الحقيقة ، ومن اعتقد ذلك واندس فى الصوفية ، فليس من الصوفية فى شىء ، وهو دخيل عليهم ، وكذلك ما استباح محرما فى الشريعة ، فهؤلاء أدعياء التصوف فهم الكاذبون ، والجاهل المتعالم لا يصير بدعواه عالما ، وكل من رمى ميزان الشريعة من يده لحظة هلك ، كما يقول الإمام محيى الدين بن عربى رحمه الله تعالى ..

والمعنى لثانى : هو أن وحدة الوجود بمعنى أن من له الوجود الذاتى الواجب .. هو الله وحده فهو الحق لا سواه ، وكل موجود وجوده منحة منه سبحانه .. وقد كان مسبوقا بالعدم فهو حادث ، والله عز وجل هو الأزلى وحده بارئ كل شىء وقيوم كل شىء ، ولا يقوم شىء سواه إلا به عز وجل مع قداسته سبحانه عن أوصاف المخلوقات كلها ، فالوجود الذاتى وجوده وحده ، وفى هذا المعنى يقول الإمام محيى الدين بن عربى: « اعلم أن الله واحد بإجماع ، ومقام الواحد تعالى ألا يحل فيه شىء أو يحل هو فى شىء » ..

إن وحدة الوجود بهذا المعنى النزية هى عقيدة كل مؤمن ، وهى

العقيدة التى جاء بها الأنبياء والمرسلون ، وعليها الفقهاء والمحدثون، والصوفية والبررة الأطهار من هذه الأمة إلى يوم القيامة[١].

وبعـــــد ..

فهذه هى الخلاصة التى جمعتها من كلام العلماء والأئمة لتكون نبراسا يستضىء به القارئ الذى يريد أن يفهم قضية ، وحدة الوجود ، التى أساء خصوم التصوف فهمها وأولوها على أسوأ الوجوه وحملوا كلام الصوفية فيها على أقبح التأويلات.. وهم برآء من ذلك براءة الذئب من دم سيدنا يوسف عليه السلام ..

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩ .

الفصـل السـابـع عشر

ما جـاء في شأن الأقطاب والأبدال

ينكر المنكرون على الصوفية هذه الألفاظ التى ترد على ألسنتهم من قـولهم فـلان من الأقطاب أو فـلان من الأبدال أو الأوتاد أو الأغـواث أو النقباء أو النجباء .

وقد كتب الحافظ المحدث جلال الدين السيوطى فى هذا الباب جزءا سماه: « الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال » .

فجمع أكثر ماجاء فى هذا الباب من أحاديث صحاح و حسان وضعاف ومراسيل مقبولة على اعتبار أن الحديث الضعيف مجبور بما له من شواهد ومتابعات ، وبأنه جاء من طرق متعددة ، فارتفع إلى مرتبة « الحسن لغيره » فيؤخذ به حتى فى الأحكام كما كان الإمام أحمد رضى الله تعالى عنه يأخذ بالحديث الضعيف إذا كان مجبوراً بالشهرة .. ويقول : إن الحديث الضعيف أحب إلىّ من آراء الرجال.

وحتى لو لم يكن لهذه الأحاديث الضعاف ما يجبرها فهو هنا فى باب التواريخ والمناقب، أى فى الفضائل التى قد أجمع المحدثون على جواز الأخذ فيها بالحديث الضعيف إذ إن معنى « الضعيف » أنه لا يخلو من الصحة ، غير أنه لم تكتمل فيه كل شروط الصحة بينما تحققت فيه بعض هذه الشروط ..

من هم رواة هذه الأحاديث :

وقد وردت أخبار ثبوت رجال الله على مراتبهم تلك فى الأحاديث المرفوعة والموقوفة عن خمسة عشر راويا أو يزيدون ، ومنهم :

١) عمر بن الخطاب
٢) على بن أبى طالب
٣) أنس بن مالك
٤) حذيفة بن اليمان
٥) عبادة بن الصامت
٦) عبد الله بن عباس
٧) عبد الله بن عمر
٨) عبد الله بن مسعود
٩) معاذ بن جبل
١٠) واثلة بن الأسقع
١١) أبو سعيد الخدرى
١٢) أبو هريرة
١٣) ابو الدرداء
١٤) أم سلمة

رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

فلم يبق شك فى صحة محصّل كل هذه الروايات وتأكيد مضمونها ، ويصبح التشكيك فيها نوعا من المغالطة والتعصب الأعمى ، والتخريب العلمى لغير وجه الله تعالى [١] .

المقصود بلفظ القطب والبدل :

القطب عند أهل اللغة ما عليه مدار الشيء ، ومنه قطب الرحى وقال الفيروزابادى : القطب سيد القوم [٢] .

والتعريف الأكمل أن القطب هو أكمل الناس إيمانا فى عصره وكل الصفات الأخرى تابعة لهذه الصفة فالناس يتفاوتون فى البعد والقرب من

---

(١) البيان الجازم ، د/ سعيد أبو الإسعاد ٥٤٤ ، ٥٤٥ .

(٢) القاموس المحيط ١/١١٨ .

الله سبحانه فكما أن هناك أعصاهم وأبعدهم، فهناك أقربهم فى الطرف المقابل .

والبـدل : من إذا مـات أبدل الله مكانه رجـلاً ، أو هو الذى بدْل السيئات من خلْقه ، أو هم أبدال الأنبياء يعنى الورثة لهم .

موقف الشيخ ابن تيمية من هذه المسميات :

فى الفتاوى الكبرى : سئل الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى وما قول السادة العلماء فى هذه الأسماء التى تسمى بها أقوام من المنسوبين إلى الدين والفضيلة ، ويقولون : هذا قطب الأقطاب ، وهذا قطب العالم ، وهذا القطب الكبير ، وهذا خاتم الأولياء وكذلك معنى الأوتاد والنجباء .

فأجاب : وأما الأوتـاد فقد يوجد فى كلام البعض أنه يقول : فلان من الأوتاد ، يعنى بذلك أن الله تعـالى يثـبت به الإيمان فى قلوب من يهديهم الله به ، كما يثبت الأرض بأوتادها ـ يعنى الجبال ـ وهذا المعنى ثابت لكل من كان بهذه الصفة من العلماء ، فكل من حصل به تثبيت العلم والإيمان فى جمهور الناس كان بمنزلة الأوتاد العظيمة والجبال الكبيرة ، ومن كان بدونه بحسبه ، وليس ذلك محصورا فى أربعة ولا أقل ولا أكثر.

وأما القطب فيوجد فى كلامهم : « فلان من الأقطاب » ، أو « فلان قطب » فكل من دار عليه أمر من أمور الدين أو الدنيا باطنا أو ظاهراً فهو قطب ذلك الأمر ومداره ، سواء كان الدائر عليه أمر داره أو دربه ، أو قريته أو مدينته ، أمر دينها أو دنياها وباطناً وظاهراً ولا اختصاص لهذا المعنى بسبعة ولا أقل ولا أكثر ..

لكن الممدوح من ذلك من كان مداراً لصلاح الدنيا والدين دون مجرد صلاح الدنيا ، فهذا هو القطب فى عرفهم ، فقد يتفق فى بعض الأعصار أن يكون شخص أفضل أهل عصره ، وقد يتفق فى عصر آخر أن يتكافأ اثنان أو ثلاثة فى الفضل عند الله سواء ، ولا يجب أن يكون فى كل زمان شخص واحد هو أفضل الخلق عند الله مطلقا والذين تكلموا باسم البدل فسروه بمعان : منها أنهم أبدال الأنبياء ومنه أنه كلما مات منهم رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلا ، ومنها أنهم بدلوا السيئات من أخلاقهم وأعمالهم وعقائدهم بحسنات ، وهذه الصفات كلها لا تختص بأربعين ولا بأقل ولا بأكثر ولا تحصر بأهل بقعة من الأرض ، وبهذا التحرير يظهر المعنى فى اسم « النجباء » ا. هـ[1].

بعض ما جاء من الأحاديث في هذا الشأن :

عن قتادة عن أبى قلابة عن أبى الأشعث عن عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (لا يزال الأبدال فى أمتى بهم تقوم الأرض وبهم تمطرون وبهم تنصرون) قال قتادة : إنى أرجو أن يكون الحسن البصرى منهم[2].

وعن الإمام على رضى الله تعالى عنه قال : « لا تسبوا أهل الشام فإن فيهم الأبدال وسبوا ظلمتهم »[3].

---

(١) الفتاوى الكبرى ١١/٤٤٣ .

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير .

(٣) أخرجه الحاكم وقال صحيح الإسناد وأقره الذهبى ورفعه الطبرانى من غير عبارة « وسبوا ظلمتهم » وقواه ابن عساكر بمتابعات أخرى .

وروى أبو نعيم والحكيم الترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : (فى كل قرن من أمتى سابقون) .

وأخرج ابن عساكر فى تاريخ دمشق بسنده عن عمر رضى الله تعالى عنه كان إذا ذكر الشام قال : يا ليت شعرى على الأبدال ، هل مرت بهم الركاب ؟

وأخرج الإمام أحمد فى مسنده عن الإمام على كرم الله وجهه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يقول : (الأبدال بالشام وهم أربعون رجلا كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا يسقى بهم الغيث وينتصر بهم على الأعداء) رجاله رجال الصحيح ، غير سرْح فهو ثقة .

ووجود الأبدال بالشام أخرجه كذلك الحاكم فى المستدرك وقال : صحيح وأقره الذهبى فى المختصر وأخرجه غيرهم ..

ومعنى وجودهم بالشام : أى وجود أكثريتهم ، والعدد هنا مراد به الكثرة لا التحديد الحسابى .

وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أنس رضى الله تعالى عنه قال : قال صلى الله عليه وآله وسلم : (لن تخلو الأرض من أربعين رجلا مثل خليل الرحمن فبهم يسقون وبهم ينصرون) ، قال فى مجمع الزوائد: إسناده حسن.

وأخرج ابن عساكر بسنده عن الإمام على كرم الله وجهه : إن الأبدال من الشام ، والعصب (أى العصائب) والنجباء والرفقاء والأوتاد من الكوفة. وقد روى ذلك من طرق متعددة .

وأخرج ابن عساكر من طريق أحمد بن أبى الحوارى قال: سمعت

أبا سليمان يقول : « الأبدال بالشام والنجباء بمصر والعصائب باليمن والأخيار بالعراق .

وأخرج الخلال عن إبراهيم النخعي قال : « ما من قرية ولا بلدة إلا يكون فيها من يدفع به عنهم » .

وقد قال العلامة السيوطي فى مقدمة رسالته « الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال .

وبعد فقد بلغنى عن بعض من لا علم عنده إنكار ما اشتهر عن السادة الأولياء من أن منهم أبدالاً ونقباء ونجباء وأوتاداً وأقطاباً ، وقد وردت الأحاديث والآثار بإثبات ذلك ، فجمعتها فى هذا الجزء لتستفاد ، ولا يعول على إنكار أهل العناد ، ولو فرض أنه لم يرد فى ذلك حديث ولا أثر ، وكان مجرد اصطلاح تواطأ عليه الصوفية لما صح إنكاره ، لأن كل طائفة من طوائف العلماء كالفقهاء والأصوليين والنحاة والمناطقة وأهل المعانى اصطلحوا على ألفاظ لها معانٍ خاصة يتفاهمون بها فيما بينهم ودونوها فى كتبهم ، وصارت جزءا من علومهم، ولم يعترض عليهم أحد فى ذلك ، فما وجه تخصيص الصوفية بالاعتراض ؟ ا. هـ

على أن لفظ الأبدال اشتهر فى عهد السلف ووصف به جماعة من الأئمة ، قال الحافظ السخاوى فى المقاصد الحسنة بعد أن تكلم على بعض طرق حديث الأبدال : ومما يتقوى به الحديث ويدل على انتشاره بين الأئمة قول إمامنا الشافعى - فى بعضهم - كنا نعده من الأبدال ، وقول البخارى فى غيره : كانوا لا يشكون أنه من الأبدال ، وكذا وصف غيرهم من النقاد والحفاظ والأئمة غير واحد بأنه من الأبدال ، ونقل عن يزيد

ابن هارون ـ أحد الحفاظ ـ قال : الأبدال هم أهل العلم ، وعن الإمام أحمد : إن لم يكونوا أصحاب الحديث فمن هم ؟ وممن وصف بأنه من الأبدال : الحسن البصرى وحماد بن سلمة وأبو توبة الحلبى شيخ أحمد بن حنبل والإمام الشافعى ومحمد بن واسع وحسان بن أبى سنان ومالك بن دينار ووكيع بن الجراح ، وخالد بن معدان وغيرهم كثير تجد تراجمهم فى كتب الرجال وطبقات الحفاظ ..

ومن راجع تذكرة الحفاظ للذهبى وتهذيب التهذيب لابن حجر وجد فيها كثيرا من الحفاظ وصفوا بالبدلية ا. هـ[١].

بم نال الأبدال هذه الرتبة واستحقوا الوصف بها ؟

رتبة البدلية من الرتب العزيزة لا تنال إلا بشروطها التى بينتها الأحاديث والآثار ، فإذا ادعى شخص أنه من الأبدال ، أو ادُّعِى فيه ذلك ، وكان خلوا من تلك الشروط علمنا أن دعواه باطلة وعرفنا أنه من جملة الدخلاء الذين شوهوا التصوف وأهله بما اقترفوا من آثام ، فمن شروط الأبدال ما ورد فى وصفهم بأنهم يعفون عمن ظلمهم ويحسنون إلى من أساء إليهم .. ويتواسون فيما آتاهم الله تعالى ، وهم أسخياء سمحاء سليمو الصدور ، لا يحملون حقدا ولا غشا ، أعفاء اللسان لا يلعنون ولا يسبون ، وهم - إلى جانب هذا - إيجابيون فى الحياة ، يرحمون المسلمين ، وينصحونهم ويسعون فى إيصال الخير إليهم ، وببركاتهم وتوجهاتهم ينزل الغيث ويكشف الكرب ، ويحصل النصر على الأعداء ، لا جَرَمَ أن كان

---

(١) ينظر « الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام » للحافظ عبد الله الغمارى ص٤٢ ـ ٤٣ .

انقراضهم فى آخر الزمان إيذانا بانقراض الخير وانتهاء الدنيا كما جاء فى حديث عن أنس مرفوعا « فإذا جاء الأمر قبضوا كلهم فعند ذلك تقوم الساعة » .. رواه الترمذى الحكيم وابن شاهين وابن عدى وغيرهم(١).

هذا وقد ألف غير الإمام السيوطى فى هذا الشأن الإمام العلامة محمد أمين المعروف بابن عابدين ـ الحنفى المتوفى سنة ١٢٥٢هـ رسالة أسماها « إجابة الغوث ببيان حال النقباء والنجباء والأبدال والأوتاد والغوث. فأجاد وأفاد وهى مطبوعة فى مكتبة القاهرة ـ صاحبها على يوسف سليمان.

وكذلك ألف المحدث الفقيه نوح بن مصطفى الرومى الحنفى المتوفى ١٠٧٠هـ رسالة أسماها « القول الدال على حياة الخضر ووجود الأبدال » نشر دار جوامع الكلم ..

وهى رسالة قيمة جيدة .. فمن أراد الاستزادة فى هذا الموضوع فليراجع هذه الرسائل الثلاث حتى يكون على بينة من الأمر . والله تعالى يقول الحق وهو يهدى السبيل وحسبنا الله ونعم الوكيل ..

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم فى كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله..

انتهيت من تبييض هذا الكتاب فى يوم السبت السابع عشر من جمادى الأولى سنة ١٤٣١ من الهجرة الموافق أول يوم من مايو سنة ٢٠١٠م.

إعداد العبد الفقير
محمد سيد سلطان عبد الرحيم
خادم العلم الشريف والتصوف الصحيح
والمدرس بجامعة الأزهر والجامع الأزهر الشريف
غفر الله له .. آمين

---

(١) ينظر « الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام » للحافظ عبد الله الغمارى ص٤٢ ـ ٤٣.

فهرس المراجع والمصادر

١) القرآن الكريم .
٢) حقائق التصوف ـ الشيخ عبد القادر عيسى.
٣) نشأة التصوف للأستاذ / عبد الكريم الخطيب.
٤) صحيح الإمام مسلم.
٥) صحيح البخارى.
٦) مسند الإمام أحمد.
٧) مسند الدارمى.
٨) أعلام الصوفية للأستاذ / جودة المهدى
٩) سير أعلام النبلاء للذهبى .
١٠) كتاب الحسن البصرى للدكتور/ مصلح بيومى.
١١) تذكرة الحفاظ للذهبى .
١٢) شذرات الذهب لابن العماد.
١٣) مقدمة ابن خلدون .
١٤) حلية الأولياء .
١٥) الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية .
١٦) صفة الصفوة لابن الجوزى.
١٧) الكواكب الدرية للمناوى ت د/ عبد الحميد صالح حمدان.
١٨) التعرف لمذهب أهل التصوف .

١٩) قوت القلوب .

٢٠) عوارف المعارف للسهروردى.

٢١) نشأة التصوف الإسلامى د/ إبراهيم بسيونى .

٢٢) التصوف من وحى القرآن والسنة للشيخ حسن كامل الملطاوى.

٢٣) الرسالة (لفظ التصوف) .

٢٤) قضية التصوف شرح المنقذ من الضلال للإمام الدكتور/ عبد الحليم محمود.

٢٥) حاشية الأمير على جوهرة التوحيد.

٢٦) الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام للحافظ عبد الله الغمارى

٢٧) التعريفات للجرجانى .

٢٨) الخريدة البهية لسيدى أحمد الدردير وحاشيتها للشيخ الصاوى.

٢٩) الرسالة القشيرية .

٣٠) حاشية ابن الحاج على شرح ميارة لمنظومة ابن عاشر

٣١) الشرح الصغير.

٣٢) الحجة المؤتاة فى الرد على صاحب كتاب « إلى التصوف يا عباد الله » للشيخ أحمد القطعانى .

٣٣) سنن أبى داود.

٣٤) سنن النسائى .

٣٥) رسالة الصوفية والفقراء للشيخ ابن تيمية مطبوعه بذيل كتاب أصول الأصول للشيخ محمد زكى إبراهيم .

٣٦) الجامع الصغير للسيوطى .

٣٧) حياة القلوب فى كيفية الوصول إلى المحبوب للشيخ / عمادالدين الأموى .

٣٨) المعجم الصوفى د/ عبد المنعم حفنى .

٣٩) الكلمات الحسان فى فضائل ليلة النصف من شعبان وتفسير أول سورة الدخان للشيخ / حسنين محمد على مخلوف المالكى .

٤٠) إعلام أهل الإسلام .

٤١) الكشاف - الحلبى .

٤٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازى - دار الفكر - بيروت .

٤٣) لطائف الإشارات للإمام القشيرى - دار الكتاب العربى .

٤٤) روح المعانى للألوسى .

٤٥) بحر العلوم فى التفسير للشيخ / علاء الدين على السمرقندى ثم القرمانى .

٤٦) كشف الظنون لحاجى خليفة .

٤٧) روح البيان – دار إحياء التراث العربى - بيروت .

٤٨) البرهان المؤيد للشيخ / أحمد الرفاعى .

٤٩) المعالم الصوفية فى قصة سيدنا موسى والخضر عليهما السلام للدكتور / جودة المهدى .

٥٠) مجموع فتاوى ابن تيمية .

٥١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان للشيخ / ابن تيمية .

٥٢) تفسير روح البيان للشيخ إسماعيل حقى .

٥٣) التفسير الكبير للرازى – دارالفكر بلبنان .

٥٤) أنموذج اللبيب فى خصائص الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم .

٥٥) مناقب الشافعى للبيهقى .
٥٦) الباهر فى حكمه صلى الله عليه وآله وسلم بالظاهر والباطن .
٥٧) السنن الكبرى .
٥٨) المعجم الكبير .
٥٩) مسند أبى يعلى .
٦٠) معالم السنن للخطابى .
٦١) المطالب العاليه للعسقلانى .
٦٢) مختصر زوائد البزار للعسقلانى.
٦٣) المغازى للواقدى .
٦٤) الإصابه لابن حجر .
٦٥) تفسير القرطبى .
٦٦) فتح البارى لابن حجر العسقلانى .
٦٧) الزهر النضر فى نبأ الخضر لابن حجر.
٦٨) الوجه النضر فى ترجيح نبوة الخضر - مخطوط ببرلين
٦٩) الشريعة والطريقة للشيخ العلامة محمد بن زكريا الكاندهلوى .
٧٠) أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم .
٧١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم .
٧٢) القاموس الإسلامى .
٧٣) معجم ما استعجم للبكرى .
٧٤) كرامات الصحابة للأستاذ / سعيد هارون عاشور .
٧٥)- مسند البزار.
٧٦) الشعب للبيهقى .

٧٧) المعجم للطبرى .
٧٨) تأييد الحقيقة العلية للعلامة السيوطى .
٧٩) حقائق عن التصوف للشيخ / عبد القادر عيسى .
٨٠) مختصر أعذب المسالك ـ المحمودية .
٨١) قواعد التصوف للشيخ أحمد زروق .
٨٢) الاتجاه الصوفى عند أئمة تفسير القرآن العظيم أ.د/ جودة المهدى .
٨٣) سنن ابن ماجه .
٨٤) نوادر الأصول للحكيم الترمذى .
٨٥) الكافى الشافى لابن حجر .
٨٦) تخريج أحاديث الإحياء للحافظ العراقى .
٨٧) التيسير لأبى حفص النسفى ت . د/ جمال مصطفى.
٨٨) الأكمل الأطول للنسفى دراسة وتحقيق من سورة القصص إلى الزخرف للباحثة / سميه ثابت ـ رسالة ماجستير .
٨٩) لوامع البينات فى شرح أسماء الله تعالى والصفات ـ نشر مكتبة - الكليات الأزهريه بالقاهرة .
٩٠) سنن الترمذى .
٩١) سنن البيهقى .
٩٢) الدر المنثور ـ دار المعارف ـ بيروت .
٩٣) الاتجاه الصوفى عند أئمة تفسير القرآن العظيم .
٩٤) تفسيرالبيضاوى بحاشية الشهاب .
٩٥) عناية القاضى .

٩٦) نظم الدرر للبقاعى

٩٧) مجلة لواء الإسلام عدد ١٢ شعبان سنة ١٣٧٩ هـ سنة ١٩٦٠م ندوة لواء الإسلام .

٩٨) التصوف الإسلامى للشيخ / طه عبد الباقى

٩٩) المنقذ من الضلال شرح الإمام الاكبر الشيخ عبد الحليم محمود

١٠٠) طبقات الصوفية للسلمى .

١٠١) الدر المختار وعليه حاشية ابن عابدين .

١٠٢) حاشية ابن عابدين .

١٠٣) كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس .

١٠٤) تنوير القلوب للشيخ / محمد أمين الكردى .

١٠٥) غذاء الألباب للسفارينى الحنبلى

١٠٦) موقف أئمة الحركة السلفية من التصوف والصوفية . ط/دار السلام.

١٠٧) البيان الجازم.

١٠٨) حقائق عن التصوف نقلاً عن لطائف المنن والأخلاق للشعرانى .

١٠٩) كتاب أولياء وكرامات طبعة مكتبة القاهرة .

١١٠) التصوف الإسلامى والإمام الشعرانى للاستاذ /طه عبد الباقى سرور .

١١١) الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمى المكى .

١١٢) ميزان الاعتدال للذهبى

١١٣) لطائف المنن والأخلاق للشعرانى .
١١٤) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد
١١٥) مقدمة كتاب (الطبقات الكبرى) للشيخ الشعرانى تحقيق الشيخ عبدالرحمن حسن محمود .
١١٦) اليواقيت والجواهر فى عقائد الأكابر .
١١٧) حاشية ابن عابدين
١١٨) الدر المختار للشيخ / محمد علاء الدين الحصكفى .
١١٩) الكبريت الأحمر .
١٢٠) المسائل الكافية للشيخ / محمد بن يوسف الكافى التونسى .
١٢١) مجلة العشيرة المحمديه ـ المسلم عدد المحرم سنة ١٣٨٩هـ
١٢٢) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية .
١٢٣) رسالة « حسن التلطف فى وجوب سلوك التصوف » .
١٢٤) تربيتنا الروحية للشيخ سعيد حوى .
١٢٥) أبجدية التصوف الإسلامى للشيخ / محمد زكى إبراهيم
١٢٦) مصنف ابن أبى شيبة .
١٢٧) إتحاف إعلان الناس للشيخ مولاى عبد الرحمن بن زيدان.
١٢٨) شرح الجوهرة للباجورى .
١٢٩) بهجة النفوس « شرح مختصر البخارى لابن أبى جمرة » .
١٣٠) الوابل الصيب من الكلم الطيب للشيخ ابن القيم .
١٣١) النور المبين على المرشد المعين .
١٣٢) تنوير القلوب للعلامة الشيخ أمين الكردى الشافعى .
١٣٣) شرح الحكم للشيخ ابن عجيبة .

١٣٤) شخصيات صوفية لطه عبدالباقي سرور.

١٣٥) خلاصة التصانيف في التصوف لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي .

١٣٦) إحياء علوم الدين للغزالي.

١٣٧) لطائف المنن للشيخ ابن عطاء الله.

١٣٨) فتوح الغيب للإمام الجيلاني من قصيدة تسمى ، النوادرالعينية في البوادر الغيبية ،

١٣٩) النصرة النبوية لمصطفى المدني .

١٤٠) الفتوحات الإلهية شرح المباحث الأصلية للشيخ أحمد بن محمد المعروف بابن البنا

١٤١) لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية للشعراني .

١٤٢) المواقف للأمير عبد القادر الجزائري .

١٤٣) شرح شطرنج العارفين للشيخ محمد الهاشمي التلمساني .

١٤٤) البحر المديد في تفسيرالقرآن المجيد للشيخ ابن عجيبة

١٤٥) فتح المنعم بشرح زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم للشيخ حبيب الله الشنقيطي .

١٤٦) كنز العمال .

١٤٧) الإمداد شرح منظومة الاستاذ د/ أكرم عبد الوهاب ، دار الكتب والنشر ـ جامعة الموصل .

١٤٨) تنقيح روضة الأزهار في مناقب سيدي عبد السلام الأسمر للشيخ / كريم الدين البرموني ـ مكتبة النجاح ـ طرابلس ـ ليبيا .

١٤٩) الفتح المبين للشيخ عبد القادر الجيلانى المطبعة الخيرية - مصر.
١٥٠) الغنية لطالب طريق الحق / دار الألباب / دمشق .
١٥١) الطريق الصوفى وفروع القادرية بمصر. أ . د/ يوسف زيدان - دارالجيل - لبنان .
١٥٢) الموافقات فى أصول الفقه للإمام الشاطبى ت / الشيخ عبد الله دراز - المعرفة بيروت .
١٥٣) الطبقات الكبرى للشعرانى .
١٥٤) مختار الصحاح للرازى .
١٥٥) القاموس المحيط للفيروزأبادى .
١٥٦) أساس البلاغة للزمخشرى .
١٥٧) قلادةالجواهر فى ذكر الغوث الرفاعى والسادة الأكابر للعلامة أبى الهدى الصيادى .
١٥٨) حاشية الصاوى على الجلالين / دار الفكر - بيروت .
١٥٩) حياة الصحابة للكاندهلوى.
١٦٠) المستدرك .
١٦١) البداية .
١٦٢) رجال الفكر والدعوة فى الإسلام .
١٦٣) الأذكار للإمام النووى .
١٦٤) أدب الدنيا والدين أبوالحسن الماوردى .
١٦٥) خلق المسلم للغزالى .
١٦٦) الإلهام النافع على رسالة القواعد لسيدى صالح الجعفرى .

١٦٧) الصحاح الجوهري .

١٦٨) لسان العرب لابن منظور .

١٦٩) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير .

١٧٠) معجم مقاييس اللغة لابن فارس

١٧١) المفردات للراغب الأصفهاني

١٧٢) سنن أبي داود مع بذل المجهود في حل أبي داود للسهارنفوري.

١٧٣) التبرك والبركة في الشريعة الإسلامية للاستاذ / ظاهر فياض جاسم ، ط/ دارالكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان .

١٧٤) السيف الصقيل الشيخ الكوثري

١٧٥) الإفهام والإفحام للشيخ / محمد زكي إبراهيم .

١٧٦) معالم الطريق الصوفي د/ جودة أبو اليزيد .

١٧٧) مفاهيم يجب أن تصحح للعلامة المالكي .

١٧٨) مصباح الزجاجة في فوائد صلاة الحاجة للشيخ عبد الله الغماري.

١٧٩) تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين .

١٨٠) تاريخ بغداد للحافظ الخطيب البغدادي.

١٨١) محق التقول في مسألة التوسل للشيخ / محمد زاهد الكوثري، ضمن مقالات الكوثري .

١٨٢) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي .

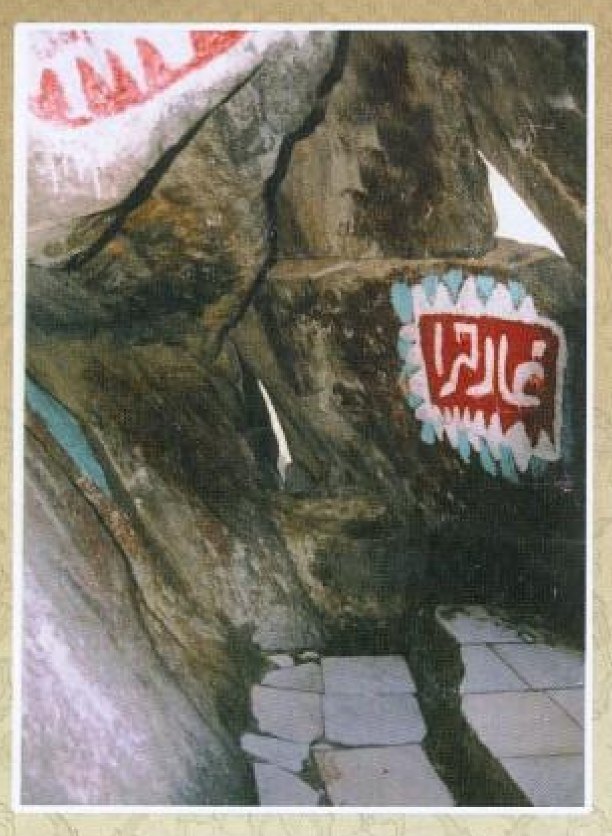
١٨٣) زاد المسلم للشيخ الشنقيطي .

١٨٤) تحفه الذاكرين شرح عدة الحصن الحصين للشوكاني .

١٨٥) مقدمة شرح صحيح مسلم ومقدمة البيان فى آداب حملة القرآن.
١٨٦) رسالة فى حكم التوسل بالأنبياء والأولياء.
١٨٧) الرد المحكم المتين على كتاب القول المبين .
١٨٨) فتح البارى لابن حجر العسقلانى.
١٨٩) مجمع الزوائد لابن حجرالهيتمى.
١٩٠) شرح الحكم العطائية لابن عباد النفزى الرندى
١٩١) صحيح ابن حبان .
١٩٢) فيض القدير .
١٩٣) الفتوحات الربانية على الأذكار النووية .
١٩٤) الحاوى للفتاوى للإمام السيوطى .
١٩٥) حاشية الطحاوى على مراقى الفلاح .
١٩٦) مستدرك الحاكم .
١٩٧) سبل السلام للصنعانى .
١٩٨) نور التحقيق لحامد صقر
١٩٩) بدائع الصنائع للكاسانى
٢٠٠) البيان لما يشغل الأذهان د/ على جمعة
٢٠١) الغرر البهية ـ شيخ الإسلام زكريا الأنصارى .
٢٠٢) الفتاوى الكبرى لابن حجر الهيتمى .
٢٠٣) البحر الرائق لابن نجيم
٢٠٤) الموسوعة الفقهية الكويتية
٢٠٥) المدخل لابن الحاج .
٢٠٦) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير .

٢٠٧) مجموعة رسائل ابن عابدين .
٢٠٨) السيرة النبوية والآثار المحمدية لزيني دحلان على هامش السيره الحلبية .
٢٠٩) الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيثمي .
٢١٠) الوصية الكبرى للشيخ عبد السلام الأسمر .
٢١١) الاعتصام للشاطبي .
٢١٢) حجة الله على العالمين للشيخ النبهاني .
٢١٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي .
٢١٤) جامع كرامات الأولياء للنبهاني .
٢١٥) اللمع للسراج الطوسي .
٢١٦) عمدة القاري للعيني .

فهرس الموضوعات



غار حراء

(خلوة النبى صلى الله عليه وآله وسلم)

الناشر: دار جوامع الكلم

الدراسة ـ القاهرة ت: ٢٥٨٩٨٠٢٩